

مجمعة دروزة

القرآن والملاحدة

وَنَاطِفُوا نَوَالَهُ بِأَقْوَاهِمُ وَلَهُ مُتَمَّ نَوِيهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

القرآن والملاحدون

تأليف

محمد عسرة دروزة

المكتبة الإسلامية

مَقَوُّوْهُ لِطَبْعِ مَحْفُوْظَةٍ

الطَبْعَةُ الْأَوَّلَى

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

المكتب الاسلامي : دمشق ص.ب. ٨٠٠ هاتف ١١١٦٢٧

والقرآن هو الممثل الاول للاسلام فيكون بدوره الهدف الرئيسي للنقد والتجريح والتهديم بطبيعة الحال .

ومع أن الملحدين لا يجهلون أن كثيرا مما عليه العرب المسلمون لا يمت الى القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي الممثل الثاني للاسلام ولا الى الصدر الاسلامي الاول الذي عاش في ظل القرآن والسنة ، ولا يجهلون ما كان عليه المسلمون الاولون في هذا الصدر من قوة وعزة وحضارة في ظل السلطان العربي الاسلامي ، فان هذا لم يجعلهم يخفون من حملتهم ونقدهم وتجريحهم وتهديمهم للاسلام والقرآن الذي يمثله بدعوى ان الدهنية الاسلامية الراهنة التي يبدو أصحابها متخلفين ضعفاء تستمد على كل حال منه .

وفي كتاب صادق جلال العظم الذي ذكرناه قبل نقاط كثيرة من ذلك يسوقها في سبيل اثبات هذا الزعم ، وتسويغ تلك الحملة فضلا عن مايسوغها به من مزاعم تصادم الدين تصادما شديدا مع الحقائق العلمية والفنية . وهي مزاعم لا تثبت على أي تمحيص ومنطق وواقع وتاريخ الصدر الاسلامي الاول .

ولقد أمعنا النظر في جميع ماساقه صادق العظم من مسوغات واتكأ عليه من نصوص وأقوال . فظهر لنا أنه ارتكس ارتكاسا شديدا معيبا في التعسف والمجازفة وسوء الفهم والتأويل ، وعدم الاستيعاب . والالتكأ على أقوال وتفسيرات ومواقف لا يتحمل القرآن والاسلام مسؤوليتها . وهذا فضلا عن عدم تورعه عن مس شعور المسلمين وإيذائهم في تناوله على الله ورسوله وقرآنه توهينا أو تجريحا وسخرية . وهو في كل ذلك يمثل كل أو جل الملحدين من ماركسيين وغير ماركسيين حيث يلوح أنهم يهاجمون

الاسلام بخاصة دون فهم واستيعاب لمبادئه وأحكامه وتلقيناته (١) .

ولقد كنا قرأنا لمبشر مسيحي سمي نفسه (الاستاذ الحداد) كتب بعنوان « دروس قرآنية » ارتكس فيها ارتكاسا شديدا معيبا في كل ما ارتكسه العظم مع تعمد لذلك فكتبنا ردا عليه هو كتابنا (القرآن والمبشرون) .

ولقد كتبنا قبل ذلك كتابا آخر كرد على ما اخذ يرتفع من أصوات عربية داعية الى الماركسية اللينينية سميناه (الاسلام والاشتراكية) شرحنا فيه مبادئ الاسلام التي يمكن ان تكون أحسن وأفضل وأوفى بديل عنها تضمن بها العدالة الاجتماعية والاقتصادية أفضل ضمان مع ضمان انسانية الانسان وكرامته وحرية وروحانيته، وليس فيها استغلال ولا استعلاء ولا

(١) قرأنا بحثا لواحد منهم أثناء كتابتنا هذه المقدمة فيه من الهراء والتناقض والمفارقة وارسال الكلام على عواهنه والغباء والجهل المطبق بخصائص الدين الاسلامي مايشير العجب وقد جاء فيه (أن النظام الاقطاعي الاستقراطي لايمني البشر بملذات الحياة الدنيا بل يحيلهم الى حياة أخرى . يرون فيها كل مايشتهون ، أكان هذا حلالا أم حراما في الحياة الدنيا ، وكل هذا ينالونه فقط بالطاعة والعبادة ولا شيء آخر . في الحياة الدنيا تفرقة في الحساب والنسب ، بين الغني والفقير ، بين الفرسان والرعاة . في الحياة الاخرية تفرقة بين الكافر والمؤمن ، والطيع والمعاصي . بين الزاهد والمتكالب على سفاسف الحياة ، سيان في هذا أكان المرء ملكا فيهم أم عبدا ، فارسا أم فلاحا ، وبينما تبدو التفرقة في الدنيا تفرقة من قبيل الصدفة تأتي التفرقة الاخرية مقصودة ومبررة ، في الحياة الدنيا تكون الامكانات والادوار الاجتماعية محددة ومعروفة مسبقا . الاقطاعي هو ابن الاقطاعي . أو قريبه أو صديقه ، أو هو المقرب من الملك ، الفارس هو ابن الطبقة الاقطاعية ، ابن الفلاح فلاح ، وابن الملك أمير وهكذا . اما في الجهة المقابلة فكل انسان يستطيع ان يحدد مكانته في الهرم الاخروي ، ان يحدد بنفسه مكانه في سلم الامتيازات ، وهكذا نرى الطبقة الاقطاعية جماعة مغلقة على نفسها ونرى المجتمع الاقطاعي مجتمعا جامدا ليست فيه حركة طبقية الا ماندر ، ونرى الفرد حسب الايديولوجية السائدة للطبقة السائدة موجهها تمام التوجيه نحو عالم آخر غير الذي يعيش فيه ...

استقطاب ثروة فقر ولا طبقات متصارعة بسبب ذلك ، ويتكافأ الناس في ظلها في الفرص ، ويتساوون في الحقوق والواجبات بدون أي تمايز طبقي أو حسي ، ويتفادى بها مافي تلك الماركسية من مصادمة مع غرائز البشر ومصالحهم وطمأنيناتهم وما تثيره من أحقاد تؤدي الى حمامات الدم عبر صراع الطبقات ، ويفقد الانسان فيها انسانيته وحرية ، ويصبح مسمارا في عجلة الدولة وحسب وكل ما يكون من أمر هو أنه يعيش عيشة مادية فيها بعض اليسر تعوزها الروح والحرية والانطلاق بالنسبة للجمهور الاعظم فرأينا أن نكتب هذا الكتاب أيضا كرد على تخرصات جلال العظم بخاصة وعلى الملحدين العرب ماركسيين وغير ماركسيين بعامه عن الاسلام والقرآن ومداهما ، وما يقعون فيه من سوء فهم وسوء تأويل وتعسف ومجازفة بسبيل إثبات أفكارهم ودعواهم وترويجها في مناسبة صدور كتاب صادق العظم المذكور لننقد فيه كل ذلك ، ونثبت مافي نسبة التخلف العربي الى الاسلام والقرآن وهو ماكان بيت قصيد كتاب صادق العظم من كذب وتجن على الحق والحقيقة ، وما في المسوغات التي يسوغ الملحدون بها دعوتهم الالحادية ضد الدين من وهن وتهافت .

— ٨ —

والملحدون العرب يتظاهرون بأن مصلحة أمتهم وعزتها وقوتها هي قصدهم وأمنيتهم ، ويزعمون أن دعوتهم هي من أجل ذلك أيضا ، ويفعلون وهم يدعون عبر ذلك الى نبذ الاسلام والقرآن عن أنهم يدعون أمتهم من حيث يدرون أو لا يدرون الى قطع صلاتها بتراتها الباذخ الذي صارت وظلت به وحده أمة واحدة ذات رسالة انسانية خالدة ، والذي برزوا به وحده بين الامم بحضارة لاتزال آثارها تشهد على ماوصلت اليه من شأو بعيد في كل ميدان ومجال لتصبح بين الأمم مجردة من أية هوية وميزة ، سائرة في فلك غيرها ، واهنة مستضعفة ، مما لايمكن ان يدعو اليه مخلص لقومه

— ٩ —

وانسانيته . وتكون هذه الدعوة والحالة هذه عوناً للمستعمرين والصهيونيين ومقاصدهم ، لانها ستؤدي لو تفاقمت لاسمح الله الى تحلل أمتهم من كل قيمة ، وضياعها أو على الاقل الى بث البلبلة في صفوفها وتبديد طاقتها ، وكبت مطامحها وتطلعاتها ، وإضعاف الحمية والامل والحيوية فيها . دون ان يكون لهذه الدعوة فائدة أو ضرورة ما قومية أو اجتماعية أو انسانية من حيث ان القرآن والاسلام كما قلنا يضمنان لأصحابهما وللعرب الذين أكثرتهم الساحقة مسلمة كل أسباب السعادة والنجاح والنشاط والحيوية والتقدم وليس فيهما أي عائق دون أي شيء من ذلك .

ومن الجدير بالتأمل المثير للعجب أن المبشرين وملحدي العرب يلتقون في ميدان واحد في الحملة على الاسلام والقرآن . ولقد قلنا في كتابنا الذي رددنا فيه على تخرصات المبشرين وذكرناه قبل : ان المبشرين هم على الأرجح عملاء مأجورون متآمرون مع الاستعمار الغربي الذي طرده الاسلام والقرآن من الشرق قبل اربعة عشر قرنا . وظلا يقفان في وجهه كلما حاول العودة الى الشرق لاستعمار ثانية ، وسينجحان في النهاية كما كان الشأن في الحروب المسماة بالصليبية ، ثم في حقبة القرنين الاخيرين الحديثين الذين ناضل فيها العرب الذين أكثرتهم الساحقة مسلمة ضد ذلك الاستعمار وطرده من بلادهم فصارا عدويه الاكبرين للذين يترسم القضاء عليهما وهدمهما ، فليس من الجنف أن يقول قائل : ان ملحدي العرب بتجهمهم على الاسلام والقرآن ومحاولتهم تهديمهما هم أدوات أخرى لذلك الاستعمار من حيث يدرون أولا يدرون ، ثم للصهيونية المتحالفة معه بل وإنهم لأشد نكاية وأثرا على أمتهم وبلادهم من المبشرين ، لان سخافة المبشرين لاتلبث أن تظهر وهم في كل حال متلبسون بالفرض والحقد في حين ان الملحدين يزوقون ويلفون كلامهم بالعلم والعقل والمنطق ، ويساعدتهم

وقد احتوى شهادة حية مستمرة نافذة الى أعماق القلوب والعقول على صحة ماقرره من عقائد وأركان ومبادئ كما احتوى حلا لكل مشكلة وجوابا لكل سؤال ، وإزالة لكل إشكال ، واستجابة لكل حاجة ومطلب روحي واجتماعي وسياسي وسلوكي واقتصادي على احسن وافضل ما يكون ، ودحضا لكل فرية. وسدا لكل تمحل على ماسوف يقرؤه قارىء هذا الكتاب قويا ساطعا لا يمكن الا أن يقنع به اذا كان حسن النية ، صادق الرغبة في الحق والحقيقة والتزامهما . فتصدي الملحددين العرب له هو من جهة تصد لدين الله الذي ارتضاه لأمتهم ولأمم الارض قاطبة، ومن جهة تصد للمبادئ والحوافر السامية التي تضمن لأمتهم ولأمم الارض كل أسباب السعادة والنجاة والنجاح والقوة والكرامة والتقدم . مما فيه عدا غبي لئيم للصميم من مصلحة أمتهم ومصلحة الانسانية وخيرهما . ولسوف يرى القارىء في الكتاب الى هذا دحضا حاسما لكل تمحل يتمحلون به وردا شافيا على كل نقد واعتراض يوردونهما ، وفضحا لسوء فهمهم وتأويلهم وتعسفهم وأدبهم فيحق الحق ويعلو ، ويزهق الباطل ويخبو ، ولسوف يرتدون خاسئين خاسرين عن قصدهم الغبي اللئيم ، ولسوف يظل الله موقيا لوعده للصالحين من عباده المسلمين بالنصر والتأييد والتمكين . ولسوف يظل طوائف من هؤلاء العباد على الحق معتزين بهذا الدين يجاهدون في سبيله كل من تصدى له ، ولسوف يوفي الله بوعده ووعد الحق بأنه سوف يظهره على الدين كله . (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (التوبة: ٣٢، ٣٣) والله المستعان على ما يصفون . ومنه نستلهم العون والسداد .

هذا ونريد في الختام أن ننبه على أمر في صدد فصول الكتاب . فالكتاب وان كان كتب للرد على تمحلات الملحددين وتعسفاتهم ، فاننا أردنا أن يكون

في الوقت نفسه مفيدا لسواد المسلمين ، ومن جملتهم اللامبالين بالدين. منهم من غير الحاد وتصميم بل ولذوي النيات الحسنة والرغبة في الحق. والحقيقة من غير المسلمين عامة ، فتوسعنا في الكلام في صدد الدعوة الاسلامية واثرها ومداهها ، وفي مسائل قرآنية عديدة يحاول ذوو النيات السيئة من الملحدون والمبشرين التماس المآخذ فيها تعسفاً وتمحلاً لبيان وجه الحق والحكمة فيما احتواه القرآن من مختلف الفصول والمواضيع والاساليب وآثار الدعوة الاسلامية فيمن شاهدوا اعلام النبوة المحمدية عياناً من آلاف الناس على اختلاف فئاتهم ليكون في ذلك رد على ذوي النيات السيئة وسد لذرائعهم وتمحلاتهم .

ونقطة أخرى يحسن أن نشير اليها ، وهو أن الاتحاد العلمي ما يزال ضيق الدائرة . وانما هناك الحاد بالممارسة ان صح التعبير آخذ بالتغلغل. ويشمل قطاعاً كبيراً من الناس رجالاً ونساءً ومثقفين وغير مثقفين على السواء وبخاصة في فئة الشباب والناشئة من الجنسين وينتج عنه كثير من الموبقات والانحرافات الاخلاقية والاجتماعية والسلوكية ويعود بالضرر العظيم على الافراد والجماعات ونعني به تلك اللامبالاة بالدين وفكرته واخلاقياته وواجباته وتلقيناته وعدم خشية الله وانعدام الطمأنينة بذكره. فنأمل ان يجد هؤلاء في ما احتواه الكتاب ما ينبههم من غفلتهم ولا مبالاتهم. ويبث فيهم الايمان وقوة الفكر الدينية ويحميهم من الارتكاس في الموبقات والانزلاق في متاهات الاوهام والأهواء والضياع النفسي . والله الهادي الى سواء السبيل والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين والحمد لله رب العالمين .

دمشق الشام ٩ صفر ١٣٩١

٤ نيسان ١٩٧١

المؤلف

الفصل الأول

- ١ -

**ليس الملحدون المحدثون ومنهم ملحدو العرب أول المتصدين
الذين يتهجمون على القرآن الكريم والدين الإسلامي الذي يمثله**

ليس الملحدون المحدثون ومنهم ملحدو العرب أول المتصدين والمتهجمين الذين يتهجمون على القرآن الكريم والدين الإسلامي الذي يمثله ، فقد تعرضا لكثير من التهجمات والتخرصات والوقاحات من مختلف الفئات الحاقدة والجاحدة في مختلف الظروف بقصد إطفاء نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (١) . فصمدا لهم جميعاً ، وردهم القرآن خاسئين خاسرين . وقد تكسرت قرونها الواهية على صخرته الصلبة العظيمة ، واستمر يهدي الله به مع اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم (٢) لأنه كلام الله الأزلي الأبدى الخالق البارئ المدبر الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٣) .

- ٢ -

وعظمة صمود القرآن والدين الإسلامي الذي يمثله تظهر قوة رائعة بل ملحمة عظمى بخاصة إذا ما تذكرنا أن التهجمات والتخرصات عليه بدأت على مختلف

(١) جاء هذا في آيات سورة التوبة ٣٢ و٣٣ وآيات سورة الصف ٨ و٩ (٢) جاء هذا في آية سورة المائدة (١٦ ٢) (٣) الآية ٤٢ من سورة فصلت السجدة .

- ١٥ -

المستويات وبمختلف الأساليب في العهد الذي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، ووجهت إليه مواجهة ، وأن حكمة التنزيل لم تر حرجاً من تسجيل كل ذلك في القرآن ثم لتنبري لتفنيده أقوى وأروع وأنفذ تفنيد ، ثم لتستمر قدماً في التنزيل لتحقيق ما قررته من صفات الهدى والحق والرحمة والشفاء للناس للقرآن الذي يمثله . مما يحمل في كل آية وفصل من الإعجاز السبكي والإيماني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي والسلوكي البرهان القوي الذي لا يمكن ان يتحمل مرء ممن حسنت نيته ، وصفت نفسه ، ورغب في الحق والحقيقة في أنه وحي رباني نزل على من اصطفاه الله لتبليغه للناس وأنه لا يمكن أن يكون من عقل بشري مهما بلغ من قوة وصفاء وإحاطة (١) . والقرآن بين أيدي جميع الناس ، وسوف يرد في هذا الكتاب من أمثلة على ذلك ما فيه الشفاء والمقنع .

وتستعرض فيما يلي صوراً من هذه التهجمات والوقاحات ومواقف القرآن منها . ولقد بدت من أصحابها منذ أوائل العهد النبوي المكي واستمرت طيلة هذا العهد على ما تفيد الصور التي احتوتها سور نزلت في مختلف ادوار هذا العهد من أوله الى آخره .

١ - (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا الا اساطير الأولين) . (الأنعام ٢٥) .

(١) وفي سورة يونس هذه الآيات التي ترد على أي دعوى خلاف ذلك (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله . ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ٢٦ - ٢٩ .

٢ - (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتى رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) (الأنعام ١٢٤) .

إذهم

٣ - (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون اليك وإهم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) (الإسراء ٤٧) -

٤ - (ما يأتيتهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) (الانبياء ٢ - ٥) .

٥ - (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم يذكرون الرحمن هم كفرون .) (الانبياء ٣٦) .

٦ - (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون . أم تسألهم خراجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين . وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) (المؤمنون ٦٨ - ٧٣) .

٧ - (وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلاماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة رحيماً) (الفرقان ٤ - ٦) .

وأصيلاً . قل أنزله الذين يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً

٨ - وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال

الظالمون ان تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا
فلا يستطيعون سبيلا) (الفرقان ٣ - ٩) .

٩ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم
عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا
للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) (سبا ٤٣) .

١٠ - (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب .
أجعل الآلهة إلهاً واحداً أن هذا شيء عجاب . وانطلق الملائكة منهم أن امشوا
واصبروا على آلهنكم إن هذا لشيء يراد . ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة
إنّ هذا إلا اختلاق . أنزل عليه الذكر من بينا بل هم في شك من ذكري
بل لما يذوقوا عذاب (ص ٤ - ٨) .

١١ - (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا لولا
نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك
نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض
درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون) .
(الزخرف ٣٠ - ٣٢)

١٢ - (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر
نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإني معكم من المتربصين . أم تأمرهم
أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا
بحديث مثله إن كانوا صادقين) (الطور ٢٩ - ٣٤) .

١٣ - (ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن
لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم
المفتون إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع

المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . همار مشاء
بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين .
إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم (. . .)
(القلم ١ - ١٦)

١٤ - (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً . وذرنى والمكذبين
أولى النعمة ومهلهم قليلاً . إن لدينا أنكالاً وجحيماً . وطعاماً ذا غصة
وعذاباً أليماً (. . .) .

(الزمل ١٠ - ١٢)

١٥ - (ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين
شجوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً
سأرهقه صعوداً أنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم
نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر .
إن هذا إلا قول البشر . سأصليه شعر (. . .) .

(المدثر ١١ - ٢٦)

١٦ - (كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى .
أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى . أرايت أن كان على الهدى . أو أمر
بالتقوى . أرايت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى . كلا لئن لم ينته
لنسفعاً بالناسية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية .
كلا لا تطعه واسجد واقترب) . (العلق ٦ - ١٩ (١)) .

(١) هذه أولى الصور حيث تصدى الطافية للنبي حينما أخذ يدعو بدعوته ويصلي
صلاته الجديدة ، وفيها تثبيت قوي للنبي ، والدار قارع رهيب للطافية . ونكتفي بما تقدم ،
ويستطيع المتصفح للقرآن أن يرى صوراً مماثلة في معظم السور المكية .

وكما سجل القرآن بدون أي حرج مواقف الجاحدين وأقوالهم مسجلا
بذلك عظمة صموده لهم مع الرد القارع الرادع عليهم، ثم استمر ينزل بالهدى
ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات الى النور سجل بدون أي حرج
تحديات أخرى منهم للنبي والقرآن .

ولقد كانت هذه التحديات متنوعة ، منها بطلب الإتيان بالخوارق
والمعجزات لإثبات نبوة النبي وصلته بالله ، ومنها بطلب استنزال الملائكة
لنفس القصد ولتأييدهم له ، ومنها بالاستعجال بالعذاب الموعود في القرآن
لهم حيث كان الوعيد بذلك منذ عهد مبكر جدا ، أو بعبارة أخرى منذ
السور والفصول المبكرة جدا في النزول ثم استمر في مختلف أدوار التنزيل .
والآيات كثيرة مبثوثة في مختلف السور وبخاصة المكية ، وسنقتصر
على إيراد بعض الأمثلة من كل نوع .

فمن صور النوع الأول ما في هذه الآيات :

١ - (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية
ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا
أمام أمثالكم مفرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون . والذين
كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على
صراط مستقيم) . (الأنعام ٣٩) .

٢ - (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما
الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم
كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم
الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء
الله ولكن أكثرهم يجهلون . وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس

والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه
فذرهم وما يفترون . ولتنصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه
وليقتربوا ما هم مقترفون (الأنعام ١٠٩ - ١١٣ (١)) .

٣ - (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا
إني معكم من المنتظرين (يونس ٢٠)) .

٤ - (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر
ولكل قوم هاد) (الرعد ٧) .

٥ - (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل
من يشاء ويهدي إليه من أناب (٢) . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله
ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم
وحسن مآبهم) (الرعد : ٢٧ - ٢٩) .

٦ - (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس
إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون
لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء
كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من
زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه
قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ
جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا (٩٠-٩٤) .

٧ - (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما

(١) من المحتمل أن يكون المسلمون كانوا يتمنون أن يستجاب طلب الكفار وأن جملة (وما
يشعركم) هي خطاب لهم . والآيات تفيد ما تفيدها سابقاتها ويحسن أن يلحظ الدليل السابق
بالنسبة إليها أيضاً وفي نصها مع ذلك ما يزيل ما يبدو من أشكال ظاهري فيها .

(٢) في الآية تقرير بكون الهدى هو لمن يرغب وينيب الى الله ولا يتوقف على معجزة .
وبذلك يزول ما يظهر من إشكال في جملة (يضل الله من يشاء)

أنا نذير مبين . او لم يفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك
لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في
السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون .
(العنكبوت ٤٩ - ٥٢) .

ومن صور النوع الثاني ما في الآيات التالية :

١ - وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم-
لا ينظرون . (الأنعام ٨ (١)) .
٢ - (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا
أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل)
(هود ١٢)

٣ - (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لوما تأتينا
بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا
منظرين) (الحجر ٦ - ٨) .

٤ - (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)
لولا أنزل الله ملك فيكون معه نذيراً . الفرقان ٧

ونرى من المفيد أن تنبه استطرادا على مايلمح في الردود القرآنية من
تعليلات حكيمة . بل نرى ذلك متناسبا مع موضوع الكتاب وجوهره ، وإنه
ليتضح من الأمثلة التي أوردناها من كل نوع ، وما لم نورد من أمثالها
المبثوثة في السور القرآنية التي يسهل على القارئ أن يقرأها في المصحف
أن موقف القرآن من تحدي الكافرين كان سلبيا ومعللا بالتعليلات الحكيمة
المتنوعة التي يمكن تلخيصها بما يلي :

(١) تفيد الآية أن الله سبحانه جرت عادته أن ينزل الملائكة بالعذاب إذا ما حجبوا
وأفسدوا . وأن حكمة الله اقتضت أن يتأخر ذلك بالنسبة للكافرين السامعين . وهذا المعنى
تكرر في آيات أخرى .

١ - ان الله قادر على إنزال الآيات ولكن الدعوة التي يبلغها رسوله هي من قبيل التذكير والتبشير والإنذار ، وليس هو وكيلًا ، أو مسؤولاً عن الناس .

٢ - ان سنة الله تعالى جرت إذا ما أنزل آية ولم يؤمن الناس أن يهلكهم . وفي هذا جواب ضمنى آخر وهو أن حكمة الله لم تقتض ذلك بالنسبة للكفار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما شاءت حكمته أمهالهم لأجل مسمى ، وهذا الجواب ورد أيضاً جواباً على تحديهم بالإتيان بالعذاب واستعجالهم إياه ، وفي سور النحل والكهف وفاطر آيات فيها هذا المعنى أيضاً كما ترى فيما يلي :

١ - (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم مترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (النحل ٦١) .

٢ - (وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً . وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا أو جعلنا لمهلكهم موعداً) (الكهف ٥٨ و ٥٩) .

٣ - (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً .) (فاطر ٤٥)

ولقد آمن كثيرون ممن كفروا في بدء الدعوة ، أو في العهد المدني ، وحسن إسلامهم حيث تلمح حكمة الله تعالى في إمهالهم وعدم التعجيل في هلاكهم حينما وقف الجحود واستعجلوا العذاب الموعود .

٣ - وإن الله تعالى قادر على أن ينزل ملكاً ، ولكن سنته جرت على أنه لا ينزل الملائكة إلا بقضاء الله الحق ، وعذابه الساحق ، وعلى عدم انتظار

الكفار بعد نزولهم . وهو ما لم تشأ حكمته ذلك بالنسبة لمن أرسل إليهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

٤ - وإن في القرآن معجزة تصديقية لما في الكتب الأولى الثابت نزولها من الله . وفي هذا كفاية لمن أراد أن يهتدي .

٥ - وإن في القرآن الذي أنزله الله على رسوله ، ويتلى على الناس المعجزة الكافية التي فيها الرحمة والذكرى لمن أراد الهدى والإيمان والتذكر .

٦ - وإن الله تعالى يعلم أنه مهما أنزل من آيات حتى ولو سرت بها الجبال أو قطعت بها الأرض وكلم بها الموتى حتى ولو أنزل عليهم الملائكة فإن ذلك لن يكون سبباً لإيمانهم ، لأن ذلك منوط بمشيئته ، ولأنه إنما يهدي من أناب إليه ، ورغب في الهدى، فهذا هو الذي يطمئن قلبه بذكر الله .

وننبه على أن في هذا الجواب الأخير الذي قررته آيات سورة الرعد ٧٢ و ٢٨ تفسيراً لكل ماجاء مطلقاً من مشيئة الله تعالى بهداية الناس وضلالهم .

وفي سورتي الأنعام والحجر آيات تحكي مأسوف يتمحل به الكفار لو أظهر الله آية حتى لا يكونوا ملزمين بالإيمان كما ترى فيما يلي :

١ - (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين .) (الأنعام ٧)

٢ - (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون .) (الحجر ١٤ و ١٥)

حيث ينطوي في هذه الآيات سبب من أسباب عدم استجابة الله تعالى لتحديهم .

٧ - وإن الذين يجحدون بدعوة الله ونبيه وكتابه ، ويتحدون رسوله هم ممن بيتوا العداة لهم ، وصار ديدنهم أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول حتى يثبتوا على عدائهم وجحودهم . والذين يسمعون لهم هم الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يرغبون في الهدى ، وهؤلاء ينضمون إلى أولئك في طلب الآيات من قبيل التعجيز .

٨ - ولقد كان الكفار يتخيلون النبي فوق البشر وقادرا على كل شيء ، فردت عليهم آيات سور الإسراء والأنبياء والفرقان بأن الله قد جرت سنته على إرسال رسله للبشر من البشر ، وأمرت النبي بأن يقول لهم ذلك .

٩ - ولقد كان النبي يتحرج كثيرا من تحديهم فعاتبته آية سورة هود (١٢) قائلة له **إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل** ، ويتضمن هذا الإهابة لعدم الاهتمام بتحديهم ، وهذا ما احتوته آيات عديدة أخرى من الآيات التي أوردناها .

١٠ - وآيات الأنعام ٣٣ - ٣٦ تفيد أن النبي نفسه كان يحرص على ظهور آية على يده ردا على تحدي الكفار ، وأمثال بايمانهم ، فنبهته على أن إيمانهم غير مرهون بالآيات ، وأن تحديهم هو من قيل ما كان من أمثالهم من قبلهم نحو رسلهم الذين كذبوهم وأذوهم مع أنهم جاؤوهم بالآيات على ما جاء إليه من أنبائهم ، وأن عليه أن يصبر كما صبروا ، وأن الذين يحبون سماع الحق فقط هم الذين يؤمنون ولا يتوقف إيمان هؤلاء على الآيات . وتأتي بعد هذه الآيات الآيات ٣٧ و ٣٨ التي فيها تقرير بأن الذين يكذبون هم كالصم البكم المرتكسون في الظلمات الذين لا يسمعون الحق ولا يؤمنون به .

١١ - والفقرة الأخيرة من آية سورة الأنعام (١٠٩) قد تفيد أن المؤمنين أيضا كانوا يحرصون أن يستجاب الكفار إلى تحديهم ، ويظهر الله آية فنبهتهم إلى ما نبهت الآيات السابقة النبي صلى الله عليه وسلم .

١٢ - وفي سورة الإسراء آية مهمة في بابها ، وهي هذه :

(وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) (الإسراء ٥٩) .

حيث تضمنت ايذاناً بأن الله تعالى امتنع عن إنزال الآيات على النبي محمد صلى الله عليه وسلم رداً على تحدي الكفار ، لأنه أنزل آيات على أنبيائه السابقين فكذبها أقوامهم ولم يؤمنوا . ومن جملة ذلك ثمود الذين أظهر الدعوة المحمدية بالآيات والمعجزات الخارقة .

الله لهم معجزة الناقة بينة لا يمكن أن يكابر فيها أحد ، ولكنهم ظلموا وكذبوا ، وإن الله تعالى لا ينزل الآيات إلا للتخويف والإنذار ، وليس لأجل حمل الناس على الإيمان ، لأن الذين يرغبون في الهدى يهتدون بدون آيات حين يسمعون الحق وبيات الهدى .

والردود والتعليقات القرآنية قوية مفحمة مقنعة من كل جانب من جوانب القضية ، وهي موجهة إلى العقول لتتدبر إلى القلوب لترعوي ، ومقررة صراحة وضمناً الدعوة القرآنية إنها هي دعوة إلى الله وحده والإقرار له بالعبودية ، ونبذ ما سواه ، والتزام الأعمال الصالحة التي تشمل كل ما هو نافع وخير وواجب وحسن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحل الطيبات ، وتحريم الخبائث ورفع الإصر والأغلال السابقة ، وتحذير من الكفر والشرك والإثم والفواحش والمنكرات والبغي . وإن مثل هذه الدعوة لا تحتاج إلى معجزات مؤيدة ، وإنما إلى ترو وإذعان ونية حسنة وطوية نقية ، ورغبة في الحق والهدى والخير والصلاح ، وعزوف عن الخبث والخبائث والمنكرات ، وتجرد عن سوء النية والعناد واللجاج . ويرى المرء البرهان على صحتها وقوتها في الكون وما فيه من آيات باهرة ، وحكمة بالغة ، ونواميس دقيقة ، وفي ما تدعو إليه من مكارم الأخلاق والفضائل ، وتبيحه من الطيبات الحلال ، وترفعه من التكاليف الشديدة السابقة ، وتنهى عنه من الإثم والبغي والفواحش

والطفيان والعدوان ، والتكبر والتجبر ، وتأمر به من المعروف . ومثل هذه الدعوة لا تحتاج الى معجزات . وتنطوي على ما يحمل الذين حسنت طواياهم ونياتهم وصدقت رغباتهم في الحقيقة والحق والهدى على الإرعواء والإذعان والاستجابة بدون معجزات . أما الذين خبث طواياهم ، وساءت نياتهم ، وفسدت أخلاقهم ، وتنكبوا طريق الحق والعدل والإنصاف ، وانعدمت فيهم الرغبة في الحق والحقيقة والهدى ، فلن يؤمنوا مهما رأوا من الآيات والمعجزات ..

وهكذا تنفرد الدعوة القرآنية والرسالة المحمدية عما سبقها من حيث إنها لم تقم على الخوارق استجابة للتحدي ، وإنما قامت على خطاب العقل والقلب ، والبرهنة بما في الكون من إبداع ونظام وعظمة على وجود الله عز وجل ، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه ، وبطلان الشرك والوثنية وسائر التقاليد والعقائد المتناقضة مع ذلك ، وبما انطوى في كتاب الله وحكمة رسوله وسنته من مبادئ الحق والخير والبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحلال الطيبات ، وتحريم الخبائث والفواحش والآثام ما ظهر منها وما بطن . والحث على التضامن والتعاون والتواصي بالحق والصبر والرحمة ، والنهي عن البغي والظلم ومنعهما ، ومنع الاستعلاء والاستغلال ، وإقامة مجتمع انساني عام يتساوى فيه الناس في الحقوق والواجبات ، ويتكافلون فيها ، ويسود الحق والعدل والحرية والاخوة والمعروف والخير والبر .

وقد يصح أن يضاف الى هذا من حكمة الله الملموحة في عدم الاستجابة الى تحدي الكفار أن الانبياء السابقين قد جاؤوا لقومهم وأن المعجزات التي حكى القرآن أنه أظهرها على أيديهم هي لإقناع جيل هذه الاقوام الذي خوطب بالدعوة . في حين أن الله سبحانه قد شاء أن تكون رسالة محمد

صلى الله عليه وسلم لجميع الأجيال ، ودين الانسانية العام في جميع الأزمنة
والامكنة على ماقررتة آية سورة التوبة هذه :

**(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو
كره المشركون) (٣٣) (١) وآية سورة الفتح (هو الذي أرسل رسوله بالهدى
ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) (٢٨) وأن الخوارق لو
ظهرت وأثرت فإن ظهورها وتأثيرها سوف ينحصران في من شاهدوها دون الأجيال
في حين أن في الكتاب الذي أنزله على نبيه المعجزة الكافية والدائمة بدون
انقطاع لمن يريد أن يؤمن كما جاء ذلك في آية سورة العنكبوت (٤٨) .**

ونستدرك أن ماقلناه لايعني أن النبي صلعم لم تظهر على يديه معجزات،
أو لم ير معجزات ربانية، أو لم يؤيد الله رسوله والمؤمنين بمعجزات، ففي القرآن
وفي الأحاديث الصحيحة ما يؤيد ذلك. والمعجزات هي في نطاق قدرة الله تعالى
ويجب على المسلم الإيمان بكل ما أخبر به القرآن، وثبت عن النبي صلى الله
عليه وسلم وفي عهده، وإنما الذي يعنيه هو أن القرآن وقف موقفاً سلبياً من
طلب الكفار وتحديهم النبي بالإثبات بالمعجزات . ونقول هذا ونحن نعرف
أن آية سورة القمر الأولى تذكر انشقاق القمر ، وأن هناك أحاديث مؤيدة
لوقوع ذلك فعلاً في زمن النبي بناء على طلب الكفار ، وأن ذلك لما وقع قالوا
إن محمداً قد سحرنا ، غير أن هناك من فسر آية سورة القمر بأن الانشقاق
سيكون عند وقوع الساعة ونهاية الدنيا ، وتوقف في صحة الأحاديث. وآية
سورة الاسراء التي تذكر صراحة أن الله امتنع عن إرسال آية في عهد النبي
قد تلهم احتمال صواب ذلك . والله تعالى أعلم .

ومما يجدر التنبيه عليه أن موقف القرآن كان سلبياً من ناحية الإجابة
بالإيجاب على التحدي ، وأنه ليس سلبياً إلا من هذه الناحية وحسب ، مع

(١) في سورة الصف آية مماثلة وهي الآية (٩)

التعليل القوي المقنع الحكيم ، وأنه من ناحية الحجاج والبرهنة والتدليل والتنبه الى أهداف الدعوة ايجابي كل الايجابية .

وهذه نقطة جديرة بالتنويه في صدد الرسالة الحمديدية وخصائصها ، ففي سياق الرد على جحود الجاحدين لوجود الله ووحدته وإشراك غيره معه في الاتجاه والعبادة والخضوع والدعاء ووجوب وجوده ، واتصافه بصفات الكمال ، وفي سياق الحملة على الكفار والتنديد بهم بسبب عقائدهم الشركية والوثنية الأخرى ، كمقيدتهم ببنوة الملائكة لله ، وفي سياق اثبات حقيقة الحياة الأخرى ونعيمها وعذابها ، وقدرة الله على إعادة الخلق الذي بدأه ، وما ينطوي في هذه الحقيقة من حكمة الحق والعدل والتزهر عن العبث ، وفي سياق الدعوة إلى الأعمال الصالحة ، وتقبيح الأعمال المنكرة السيئة على أنواعها وكون ذلك هو لصالح الإنسانية وخيرها وسعادتها ، وبعبارة واحدة في سياق الدعوة الى أهداف الرسالة الحمديدية المتنوعة وتقريرها قد ورد في القرآن آيات كثيرة جدا فيها من قوة الحجّة ، ونصاعة البيان ، واستحكام البرهان وأسلوب الخطاب الموجه إلى العقل والقلب معا مافيه كل الايجابية ، وما لايسع أي منصف حسن النية والرغبة في الحق والحقيقة ، غير متعمد للعناد والمكابرة الا أن يسلم به، وأن يلمح منه الحكمة السامية المنطوية في موقف القرآن السلبي من التحدي ، وعدم رهن صدق الدعوة الحمديدية بالآيات والمعجزات الخارقة .

والمناسبة تسيف الاستطراد الى زعم حديث من بعض المبشرين والمستشرقين حيث يصل فيهم الهذيان الى القول : إن محمدا قد تلقى القرآن من ورقة بن نوفل أو بحيرة الراهب ، أو من حبر من أحبار اليهود (١) ولقد قال كفار العرب شيئا من ذلك حيث حكته عنهم آيات سورة الفرقان

(٢١) انظر الجزء الاول من كتاب « البرهان في علوم القرآن » للزرقاني وكتاب الاسلام في قفص الاتهام لشوقي أبي خليل .

(٦-٤) التي أوردناها قبل وردته عليهم ، ولقد فند غير واحد من كتاب المسلمين وعلمائهم هذا الهذيان (١) . ونقول إضافة الى ذلك : إنه كان على هؤلاء الزاعمين الهاذين أن يتورعوا عن هذيانهم لو كان فيهم عقل وإنصاف وإذعان للحق بعد حكاية القرآن ورده ، والقرآن نفسه يكذب هذا الهذيان أشد تكذيب بما فيه من صور كثيرة جدا لسيرة النبي بعد نبوته وتطور الدعوة وأحداثها ، ومواقف الناس على اختلافهم منها وحالة العرب وغيرهم في بيئة النبي قبل الاسلام مما لا يمكن أن يصح في حال إلا أن يكون قد أوحى اليه بعد النبوة وفي مناسبات الاحداث والوقائع .

- ٦ -

ولقد سجل القرآن جولات أخرى بين النبي صلى الله عليه وسلم والجاحدين في صدد القرآن بالاضافة الى ما حكاه عنهم من زعمهم بأنه افتراء واساطير الاولين استكتبها وحفظها باملأها عليه ، وأعانه عليه قوم آخرون وبأنه قول بشر وسحر وكهانة وشعر يوحى به الشياطين وبأن الله لم ينزل على البشر شيئا على ما أوردنا أمثلة منه قبل ، وما ورد في القرآن من أمثلة مماثلة أخرى . حيث سجل القرآن قولهم : إنهم لو شأؤوا لقالوا مثله ، وأنه لو كان حقا من الله لكان الأولى أن ينزل على زعيم معروف مسموع عند الناس بدلا من أن ينزل على غير زعيم مسموع واقتراح بأن يأتي بقرآن غيره أو يبدله ، أو بأن يأتي به جملة واحدة أو بلفة غير عربية ، وسجل تواصيهم فيما بينهم بالتشويش عليه حنما يتلوه على الناس حتى تكون لهم الغلبة وبهجره ، وعدم الاصغاء له كما جاء ذلك في الآيات التالية :

١ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا أن

هذا إلا اساطير الاولين) (الأنفال ٣١) .

٢ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا انت

بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي . إن اتبع الا

(١) انظر الجزء الاول من كتاب « البرهان في علوم القرآن » للزرقاني ، وكتاب « الاسلام في

قفص الاتهام » لشوقي أبي خلیل .

مايوشي الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله
ماتلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله افلا تعقلون) .
(يونس ١٥ و ١٦) (١)

٣ - (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر
بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين
آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر
لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين . ان الذين
لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفترى الكذب الذين
لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون .) (النحل ١٠٠-١٠٥)

٤ - (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون .
مستكبرين به سامرا تهجرون . أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات
آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) (المؤمنون ٦٦-٦٩)

٥ - (وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا .
وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين (٣) وكفى بربك هاديا ونصيرا .
وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به قؤادك
ورتلناه ترتيلا .) (الفرقان ٣٠-٣٢) .

٦ - (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم
تفلحون) (فصلت ٢٦) .

٧ - (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك الا ما قد قيل
للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولو جعلناه قرآنا

(١) الآيات تأمر النبي بان يذكرهم بأنه لبث فيهم عمرا قبل أن يتلو القرآن فلم يفعل من
نفسه . فهو يتبع مايوشي اليه من ربه ولا يمكنه ان يبدل أو يغير فيه .

(٢) في هذه الآيات شيء مما في آيات سورة حيث تذكرهم بأنهم يعرفون النبي ويعرفون
صدقه ، وأنهم مع ذلك كانوا حينما يتلو القرآن ينكصون على أعقابهم هجرا له كأنها هو
سامر قصاص .

(٣) الحملة تتضمن تقرير ظاهرة اجتماعية وهي إذا بعث الله رسلا انبرى لهم المجرمون
بالعداء والمناوأة .

اعجبيا لقالوا لولا فصلت آياته أءعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) (فصلت ٤١ - ٤٤) (١) .

٨ - (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (الزخرف ٣٠-٣٢) (٢)

٩ - أتئى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون) (الدخان ١٣و١٤) .

ولما قال قائلهم : إنه لو شاء لقال مثل القرآن وإن القرآن مفترى، وإنه أساطير الأولين أخذ القرآن يتحداهم بالإتيان بمثله ، أو بشيء منه أو بحديث أو بسورة أو سور ، ولهم أن يستعينوا على ذلك بشركائهم وشهادتهم ومن يستطيع مساعدتهم على ماجاء في الآيات التالية :

١ - (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (البقرة ٢٣) .

٢ - (أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (يونس ٣٨) .

٣ - (أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (هود ١٣) .

(١) في الآيات مايلهم انهم طلبوا نزول القرآن بغير اللغة العربية من قبيل التعجيز فردت عليهم

(٢) أي كان ينبغي أن ينزل على أحد عظماء مكة أو الطائف .

٤ - (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ..) القصص : ٤٩ و ٥٠

٥ - (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ..) الطور : ٢٣ و ٢٤

وقد وقفوا عاجزين أمام هذا التحدي كما تفيده هذه الآيات التي جاءت بعد تلك الآيات مباشرة :

١ - (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ..) البقرة : ٢٤

٢ - (بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه (١) ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ..) يونس : ٣٩

٣ - (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ..) هود : ١٤

٤ - (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ..) القصص : ٥٠

وآية البقرة مدنية ، ومن أوائل القرآن المدني ، وفيها إخبار عن عجزهم بالنسبة للعهد المكي أيضا فضلا عن تقرير عجزهم البتة .

وهذا العجز المطلق البات سجل بأسلوب قوي رائع في سورة الإسراء

(١) كذبوا به اعتباطا وجرافا وبدون أن يستوعبوه ويفهموا مداه . وهذا شأن الملحدين واللامبالين .

على كل مخلوق من جن وإنس مهما تظاهروا وتعاونوا كما ترى في هذه الآية .

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ٠٠) الإسراء : ٨٨

وهكذا انتصر كتاب الله ورسوله هذا الانتصار الرائع المفعم على الجاحدين في الصراع الهائل المديد الذي نشب بينهم وبين رسول الله حول القرآن ، وثبت نصاً وعقلاً وحجاً أنه لا يمكن إلا أن يكون من وحي الله ولا يمكن أن يكون صادراً عن عقل بشري .

ونقول استطراداً : إن المؤولين والمفسرين وقفوا تجاه هذا العجز المطلق الذي سجله القرآن على الجاحدين مواقف متنوعة ، فمنهم من قال : إن الله صرفهم عن الإتيان بمثله مع قدرتهم عليه ، ومنهم من قال : إنه أعلى من أفهامهم وأساليبهم ، ومنهم من جمع بين التنويه ببلاغة القرآن وروعة نظمه وسمو طبخته ، وبين ما احتواه من المبادئ والأسس والتلقينات التي فيها هدى ورحمة للعالمين في كل ظرف ومكان ومن الروحانية النافذة إلى الأعماق في كل ذلك وهذا هو الحق والصواب ، وبه كان القرآن معجزة الله الكبرى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم التي اكتفى بها عن إظهار معجزات خارقة استجابة لتحدي الكفار على ما قررته آيات سورة العنكبوت (٥٠ و٥١) التي أوردناها قبل .

— ٧ —

وهناك جولة طويلة سجلها القرآن بين النبي صلى الله عليه وسلم والجاحدين حول الحياة الآخوية ، لعلها أطول وأشد الجولات الجدلية بينه وبينهم ، وإثباتها هنا والتنويه بها مهمان في صدد مانحن فيه من الرد على الملحدين ، لأن إنكار هذه الحياة والجدل فيها من أهم معالم إلحادهم .

— ٣٤ —

ولقد كان الإنذار القرآني بالحياة الأخروية التي اقتضتها حكمة الله تعالى ، والتي هي في نطاق قدرته على ما سوف نشرحه في مناسبة أخرى آتية ، وما سوف يكون فيها من محاسبة للناس على أعمالهم في الحياة الدنيا وثوابهم وعقابهم وفاق ذلك من أوائل ما نزل من القرآن استهدافاً لحمل الناس على الاستجابة الى دعوة الله والأعمال الصالحة ، وانصرافهم عن الشرك والأعمال المنكرة ، وحشاً على ذلك بالإضافة إلى حقيقتها الإيمانية، ثم استمر نزول ذلك في مختلف ادوار التنزيل حتى شغل حيزاً عظيماً في القرآن وبخاصة في السور المكية . فقابل الجاحدون هذه الحياة والوعيد بها بالإنكار الشديد والسخرية والتحدي المستمر ، فكان ذلك مما أدى إلى شغل هذا الموضوع ذلك الحيز العظيم ، ولقد صمد القرآن لهم ورد عليهم ردوداً متنوعة ، ثم استمر ينزل بالهدى ودين الحق والإنذار بالحياة الأخروية دون أي تحرج من إنكارهم وسخريتهم ، ومن تسجيل ذلك حيث تظهر في ذلك عظمة صمود القرآن أيضاً في هذا الموضوع .

وآيات هذا الموضوع كثيرة جداً ، ومبثوثة في معظم السور، ونورد فيما يلي صوراً من مواقف الجاحدين فقط ، وردود القرآن عليها لأن هذا هو موضوع النبذة .

١ - ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردُّ ولا نكذبَ بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إنَّ هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون . وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (الأنعام : ٢٧-٣٢

٢ - (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) هود : ٧

٣ - (واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) النحل : ٣٨ - ٤٠

٤ - (وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يبعثنا قل الذي فطركم أول مرة فسينفضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً) الإسراء : ٤٩ - ٥١

٥ - (وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وآبأنا إنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآبأنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون . وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) النمل : ٦٧ - ٧٣

٦ - (وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون . ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) السجدة : ١٠ - ١٢

٧ - (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل

مَمَزَقَ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ . أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئَهَا لَخُسُفٌ بِهِمْ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (سبأ : ٧ - ٩)

٨ - (وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مِنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .) يس : ٧٨ - ٨٣

ونكتفي بما تقدم من الآيات التي لها أمثال كثيرة في سور عديدة أخرى .

ومن الجدير بالتأمل أن البعث الأخرى من الأمور الرئيسية التي يجادل فيها الملحدون وينكرونها ، فيكونون بذلك ليسوا أول من يفعلون ، وقد سبقوا بمن فعلوه في مواجهة من أنزل عليه القرآن ، فتلقوا الرد القرآني الزاجر الرادع .

ونبه على أمر وهو أن ما أثبتناه في البنود السابقة هو في صدد المواقف الجحودية المطلقة التي هي بالدرجة الأولى في صدد مواقف المشركين والجاحدين العرب دون أهل الكتاب الذين لا يعتبرون من وجهة النظر الموضوعية ملحدين ، وإنما كانت مواقف المناوئين والمماحكين منهم من القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم مواقف كيد وجود لنبي الاسلام ، ورسالته وقرآنه وحسب . وقد شرحنا هذا الأمر في كتابنا « الرد على المبشرين » .

ويلحظ ان كل الآيات التي تمثل مواقف الجحود المتنوعة باستثناء الآيات التي تمثل مواقف المنافقين هي مكية ، ويستتبع هذا القول : ان هذه المواقف كانت في العهد المكي في الدرجة الأولى .

وفي القرآن ما يفيد أن أصحاب هذه المواقف كانوا من الأكابر والزعماء والأغنياء والوجهاء ، وأن الجمهور تبعهم بقوة تأثيرهم وتحريضهم كما ترى في الآيات التالية :

١ - (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) الأنعام : ٥٢ - ٥٣ (١)

٢ - (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصفى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتربوا ما هم مقتربون) الأنعام : ١١٣ ، ١١٤

٣ - (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغاراً عند الله وعذاباً شديداً بما كانوا يمكرون) الأنعام : ١٢٣

١٢٤

(١) كان الزعماء يطلبون من النبي إبعاد فقراء المؤمنين عنه ، حتى يجلسوا إليه ويستهنئون بهم قائلين ما حكته الآية .

٤ - (ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لينا لهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) الأعراف : ٤٨ و ٤٩

٥ - (وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواءً علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) إبراهيم : ٢١

٦ - (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) (١) النحل : ٨٨

٧ - (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) (٢) الكهف : ٢٨

٨ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً) (٣) مريم : ٧٣

٩ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون

(١) يكفرون ويمنعون غيرهم من الايمان .

(٢) كان النبي يحرص على هداية الزعماء والاغنياء ، لانه كان يرى تأثيرهم على الجمهور حتى كان يشغل نفسه أحيانا بهم عن المؤمنين ، فنيهته الآية الى ما هو الاولى .

(٣) كان الأغنياء والزعماء من الكفار يتباهون امام المؤمنين بمالهم وجاههم اللذين يتفوقان بهما عليهم كأنها يريدون أن يقولوا : نحن أحظى منكم عند الله بل هذا ما قالوه كما حكته آيات سورة المؤمنين ٥١ و ٥٢ وآية سورة سبأ (٣٥) التي تأتي بعد ..

يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها
الله الذين كفروا وبئس المصير (١) الحج : ٧٢

١٠ - (ائحسبون انما نمدهم به من مال وبنين . نساوع لهم في
الخيرات بل لايشعرون) المؤمنون : ٥٥ و ٥٦

١١ - (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريقاً من عبادي
يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم
سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون . اني جزيتهم اليوم
بما صبروا أنهم هم الفائزون) المؤمنون : ١٠٨ - ١١١

١٢ - (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً
ونصيراً) الفرقان : ٣١

١٣ - (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم
وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون) (٢) العنكبوت : ١٢

١٤ - (وقالوا ربنا إنا اطعنا سادتنا وكرأنا فاضلونا السبيلا .
ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) الاحزاب : ٦٧ و ٦٨

١٥ - (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى
بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين .
قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد
إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل
مكر الليل والنهار اذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة

(١) لا يفعل هذا الا الزعماء الاقوياء .

(٢) لا يقول هذا الا الزعماء .

لما راوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون . وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً ومانحن بمعذبين (سبأ: ٣١-٣٥)

١٦ - (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) فاطر : ٤٢ و ٤٣

١٧ - (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين) يس : ٤٧

١٨ - (وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا شيء يَراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، أنزل عليه الذكر من بيننا) (١) ص : ٦ و ٨

١٩ - (وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار . اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار .) ص : ٦٣ و ٦٤

٢٠ - (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحرٌ وإنا به كافرون . وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون) (٢) الزخرف : ٣٠ و ٣١

(١) هذا قول الزعماء حيث كانوا يرون أنهم الأولى أن ينزل الله عليهم القرآن إن كان حقاً وينكرون أن يكون الله اصطفى محمداً غير الزعيم وغير الغني عليهم .

(١) استنكروا أن ينزل القرآن على محمد ولم ينزل على رجل عظيم في مكة أو الطائف ، فردت عليهم الآيات أن تفاوت المراكز المادية بين الناس في الدنيا نظام اجتماعي لتبادل المنافع في الحياة ، وأن النبوة رحمة واصطفاء من الله لمن هو أهل لها بأخلاقه وسيرته .

٢١ - (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم .) الواقعة : ٤٥ - ٤٦

٢٢ - (ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين .) القلم : ١٠ - ١٥

٢٣ - (وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا .) الزمل : ١١

٢٤ - (ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً .) المدثر : ١١ - ١٦

٢٥ - (أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى . فأنت عنه تلهى .) عبس : ٥ و ١٠

٢٦ - (الهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر .) التكاثر : ١ و ٢

٢٧ - (ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخذه .) الهمزة : ١ و ٣

وقد تقصدنا الإكثار من الآيات ، لتبدو قوة الدلالة التي أردنا إبرازها .

ولقد كان للزعامة دور خطير في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، والمجتمع العربي بعامة ، حيث كان الزعماء وخاصة الزعماء الأغنياء - وكثيراً ما كان التلازم متحققاً بين الفنى والزعامة في هذا المجتمع - يتمتعون بنفوذ قوي ، يأمرؤن فيطاعون ، ويدعون فيستجابون ، ويسنون فيتبعون ، وتكون لهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والمواقف والقضايا ،

فلما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بدعوته ، ويبلغ عن ربه ، ولم يكن بعد قد تجاوز سن الشباب كثيراً ، ولم يكن كذلك بارزاً في مجال الزعامة والثروة ، بفتوا ، وعظم عليهم أن يكون داعية يستجاب ، ومرشداً يهتدي به الناس ، ولواءً ينضوون إليه من دونهم ، وكانوا هم أنفسهم من المدعوين المراد انضواؤهم الى هذا اللواء أسوة بسائر الناس ، فاستكبروا الأمر واستنكروه ، وقالوا : إنه لو كان حقاً لكانوا هم المنتدبين للدعوة ، والمكلفين بالمهمة ، لأن الناس انما يستجيبون إليهم . وتساءلوا كيف ينزل القرآن عليه من دونهم ، وقالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ، أو ينزل على كل منا كتاب من الله ، وهزئوا بالنبي واستصغروا شأنه ، على ما جاء في بعض الآيات التي أوردناها .

— ٨ —

ولقد كانت الدعوة القرآنية دعوة ثورية شاملة لكل شيء حيث دعت أولاً الى الله وحده عبادة ودعاء واتجهاً ، وحاربت كل أنواع مظاهر الشرك والوثنية التي كانت سائدة في العرب بما في ذلك عقيدة كون الملائكة بنات الله وشفعاءهم لديه حرباً شديدة مما يتمثل في الآيات التي اخذت تنزل من أول العهد المكي وتستمر ، ومنها هذه المجموعة التي لها أمثال كثيرة مبثوثة في مختلف السور وبخاصة المكية :

١ - (وإلهم إله واحد لا إله الا هو الرحمن الرحيم . ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون . ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب)

البقرة : ١٦٣ و ١٦٥

٢ - (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون .)
الأنعام : ١٩

٣ - (أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) الاعراف : ١٩١-١٩٤

٤ - (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ، اليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون .) يونس : ٣ و ٤

٥ - (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون .) يونس : ١٨

٦ - (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين .) الأنبياء : ٢٦-٢٩

٧ - (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقربونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار .) الزمر : ٣

٨ - (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولللقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) فصلت : ٣٧ و ٣٨

٩ - (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) .

وحيث نددت : ثانياً بكثير من عادات الجاهلية المنكرة ، وبينت ما فيها من شذوذ وتعسف ، مثل وأد البنات ، والطواف في حالة العري ، والتحليل والتحریم الجاهليين للأنعام في بعض الظروف ، والتفاخر بالانساب ، والإسراف في الثارات كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان الله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه قدرهم وما يفترون . وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين .) الأنعام : ١٣٦ و ١٤٠

٢ - (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) (١) الاعراف : ٣١

(١) المفسرون والروايات متفقون على أن هذه الآية في صدد منع الطواف بالعري .

٣ - (قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون .)
يونس : ٥٩ و ٦٠

٤ - (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الا سوء ما يحكمون .) النحل : ٥٨ و ٥٩

٥ - (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون .) المؤمنون : ١٠١ و ١٠٣

٦ - (ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً .)
الإسراء : ٣٣

٧ - (وإذا المؤثّة سئلت . بأي ذنب قتلت .) التكاوير : ٨ و ٩

وحيث أخذت الآيات القرآنية ثالثاً : تدعو منذ بدء نزول القرآن وتستمر الى إطعام المساكين ، والبر بالفقراء والضعفاء ، والرحمة والعناية بالأيام وحقوقهم ، وعتق العبيد ، وأداء زكاة المال ، والتصدق به ، والتعامل بالعرف والحسنى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتنعى على حب المال وكنزه ومنعه والاستغراق في الشهوات ، والاسراف والتبذير والكبر والخيلاء والبخل ، وتنهى عنه وعن الفواحش والإثم والبغي الخ كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم

والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون .) الاعراف : ٣٣

٢ - (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون .) الاعراف : ١٥٧

٣ - (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم .) الاعراف : ١٩٩ و ٢٠٠

٤ - (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً . ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً . وأوفوا الكيل إذا كنتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً . ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً .) الاسراء : ٢٦ و ٢٨

٤ - (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين . ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" .) فصلت : ٣٢ و ٣٣

٥ - (فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا .)
النجم : ٢٩

٦ - (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم .) الواقعة : ٤١ و ٤٦

٧ - كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون . عن المجرمين ، ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين .) المدثر : ٣٨ و ٤٨

٨ - (كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة .)
القيامة : ٢٠ و ٢١

٩ - كلا بل لا تكرمون اليقيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما .) الفجر : ١٧ - ٢٠

١٠ - (فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو اطعام في يوم ذي مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة . أولئك أصحاب الميمنة .) البلد : ١١ و ١٨

١١ - (فأما من أعطى واتقى . وصديق بالحسنى . فسنيسره اليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يفني عنه ماله إذا تردى . إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى .

فانذرتكم ناراً تلظى . لا يصلاها إلا الاشقى . الذي كذب وتولى . وسيجنبها
الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء
وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى . (الليل : ٥ - ٢١)

١٢ - (فاما اليتيم فلا تقهر . واما السائل فلا تنهر . واما بنعمة
ربك فحدث .) الضحى : ٩ - ١١

١٣ - (إن الانسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه
لحب الخير لشديد . أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في
الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير .) العاديات : ٦ - ١١

١٤ - (ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . يحسب
أن ماله أخذه . كلا لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله
الموقدة . التي تطلع على الأفئدة . انها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة .)
الهمزة

١٥ - (أرايت الذي يكذب بالدين . فذلك يدعو اليتيم . ولا يحض
على طعام المسكين . فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون .
الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون .) الماعون

فكان ذلك كله بالإضافة الى كون النبي محمد صلى الله عليه وسلم
من غير الزعماء مما جعل الزعماء والاغنياء ، يرون في بعثته وقرآنه ،
ودعوته خطراً على مراكزهم وتقاليدهم وثرواتهم ، وينبرون لمناواته ،
وتأليب الجمهور ضده ، فكانت تلك الجولات المتنوعة التي أوردنا صورها
القرآنية العديدة بينه وبينهم . ولقد ظل القرآن يسجل ما يسجل من
مواقف الجاحدين رغم ما فيها من تحد ووقاحة وسخرية وسوء أدب
وإحراج وتعجيز ومكابرة ، ويرد عليها ، ثم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم

بأن يدع الجاحدين لضمائرهم وعقولهم ومصائرهم دون أبوه بمواقفهم ،
هاتفاً به بما جاء في هذه الآيات :

١ - (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها
وما أنا عليكم بحفيظ .) الانعام : ١٠٤

٢ - (وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل
وأنا بريء مما تعملون . ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ؟
ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا
لا يبصرون .) يونس : ٤١ - ٤٣

٣ - (ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم .)
يونس : ٦٥

٤ - (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى
فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل .
واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .)
يونس : ١٠٨ و ١٠٩

٥ - (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتتي
أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . وإن
عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين .
واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون
إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .) النحل : ١٢٥ - ١٢٨

٦ - (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس
وقبل غروبها ومن اناء الليل فسيح وأطراف النهار لعلك ترضى .)
طه : ١٣٠

٧ - (قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط
السوي ومن اهتدى . طه : ١٣٥)

٨ - (فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لاتسمع الموتى
ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادي العمي عن
ضلالتهن إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون . النحل : ٧٩-٨١)

٩ - (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون .
الروم : ٦٠)

١٠ - (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من
يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم
بما يصنعون . فاطر : ٨)

١١ - (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو
إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين . ص : ٨٦ - ٨٨)

١٢ - (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه
ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل . الزمر : ٤١)

١٣ - (وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فاصفح عنهم وقل
سلام فسوف يطمون . الزخرف : ٨٨ ، ٨٩)

١٤ - (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم
كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا
القوم الفاسقون . الأخفاف : ٣٥)

(نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من
يخاف وعيد . ق : ٥٥ (١))

(١) ليست هذه كل الآيات من بابها ففي القرآن المكي خاصة آيات كثيرة أخرى .

١٥ - (واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً . وذرنى
والكاذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً .) المزمّل : ١٠ و ١١

١٦ - (فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر .)
الفاشية : ١١ و ١٢

١٧ - (قل ياايها الكافرون . لا أعبد ماتعبدون . ولا أنتم عابدون
ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم
ولي ديني .) سورة الكافرون

ثم يستمر في النزول عليه ليستمر في دعوته مبشراً منذراً ، تالياً
على الناس ما ينزل عليه من آيات الحق والهدى والأمثال والحكمة والعبرة ،
داعياً الى الله وحده ، والعمل الصالح محذراً من الكفر والشرك والمنكرات .
حيث تبلغ عظمة الصمود القرآني الذروة تجاه الجاحدين والملحدين
والمنكرين والمتمحلين والمتواقحين .

ولقد انتصرت دعوة الله ورسالة رسوله ، واستجاب اليها مختلف
الفئات في حياة النبي ثم من بعده في مشارق الارض ومغاربها على ماسوف
نشرحه بعد ، فتحقق بذلك إعجاز الإنباء القرآني الذي احتوته آيات الروم
٦٠ ، و ص ٨٦ - ٨٨ وغيرهما مما لم نوردّه .

ولقد علم الله أن مواقف الجاحدين والمنكرين والمتواقحين تثير في نفس
رسوله أزمات وهموماً وهو الحريص على أن تستجاب دعوته ، ويهتدي
الناس جميعاً بهدي الله وقرآنه ، فاقتضت حكمته تسليته ، وتهدئة
روعه ، وايدانه بأن دعوته تستجاب من قبل ذوي النيات الحسنة والرغبة
الصادقة في الحق والهدى ، وفي الآيات السابقة أمثلة عديدة لذلك ، وفي
ما يلي أمثلة أخرى :

١ - (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك (١) ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبيا المرسلين . وإن كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبقي نفقا في الارض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى (٢) فلا تكونن من الجاهلين . انما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله ثم اليه يرجعون .) الانعام : ٣٣ - ٣٦

٢ - (فلعلك باخع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً . إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا .) الكهف : ٦ ، ٧

٣ - (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً . وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا .) الكهف : ٢٨ - ٣٠

٤ - (فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً .)

مريم : ٩٧

(١) العبارة قد تفيد والله أعلم أنهم لا يقولون لك كذاب لانهم يعرفون عنك الصدق ، ولكنهم غير مؤمنين أصلا بآيات الله .

(٢) العبارة قد تفيد والله أعلم ان الله قادر على أن يقرهم على الهدى ولكن حكمته اقتضت ترك الناس لتمييزهم واختيارهم ليستحقوا الثواب والعقاب وفاق ذلك .

٥ - (طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى)
طه : ١ - ٣

٦ - (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين .) الشعراء : ٣

٧ - (إنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولوا مدبرين
وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم
مسلمون .) النمل : ٨٠ ، ٨١

٨ - (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره
بمغفرة وأجر كريم .) يس : ١١

٩ - (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين .
لينذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين .) يس : ٦٩ و ٧٠

١٠ - (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى .
أو يذكر فتنفه الذكري . أمّا من استغنى فانت له تصدى . وما عليك
الا يزكى . وأمّا من جاءك يسعى وهو يخشى . فانت عنه تلهي . كلا
إنها تذكرة . فمن شاء ذكره .) عبس : ١ - ١٢ (١)

وفي القرآن في سياق الجدل والحجاج حيناً ، وبأسلوب تقريرى مطلق
حيناً مجموعتان من الآيات ذواتا مغزى هام في صدد الوحي القرآني
وكتاب الله وهدفه ، وفي واحدة منهما تأكيد بأن القرآن منزل من الله على
رسوله لينذر به الناس والعالمين ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ،
وأنه كتاب حكيم مبين الآيات والفصول ، وفيه هدى وشفاء ورحمة ،

(١) هناك آيات كثيرة من باب هذه الآيات فاكثفينا بما أوردناه . اقرأ أيضاً آيات
الانعام ٥١ و ٧٠ والاعراف ١ و ٢ ويونس ٩٩ وهود ١٢ و ١١٩ - ١٢٣ والرعد ٢٧ و ٢٨
و ٣١ و ٣٢

وفي الأخرى إهابة بالسامعين بأن يتفكروا ويترووا ويتدبروا ما يتلى عليهم من آيات القرآن وتقريراته ، وبأنه أنزل لقوم يعلمون ويعقلون ويسمعون ويتفكرون ، ولأجل أن يتدبروا ويتذكروا .

وهذه طائفة من المجموعة الاولى :

١ - (ألم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين .) لبقرة : ١ و ٢

٢ - (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد والله عزيز ذو انتقام ، إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .) آل عمران : ١ - ٣

٣ - (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً .) النساء : ١٦٦

٤ - (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم .) المائدة : ١٥ و ١٦

٥ - (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ .) الانعام : ١٩

٦ - (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون .) الانعام : ٩٢

٧ - (أفقر الله ابتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً
والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق .) الانعام : ١١٤

٨ - (المص . كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر
به وذكرى للمؤمنين .) الاعراف : ١ و ٢

٩ - الر . تلك آيات الكتاب الحكيم . اكان للناس عجباً أن أوحينا
إلى رجل منهم أن انذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند
ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين .) يونس : ٢٠ ، ١

١٠ - (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق
الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين .) يونس : ٣٧

١١ - (الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .)
هود : ١

١٢ - الر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم
تعقلون .) يوسف : ١ و ٢

١٣ - الر . تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق
ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .) الرعد : ١

١٤ - (الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى
النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد .) ابراهيم : ١

١٥ - الر . تلك آيات الكتاب وقرآن مبين . ربما يود الذين
كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف
يعلمون .) الحجر : ١ - ٣

١٦ - (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى
للمسلمين .) النحل : ٨٩

١٧ - (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك
لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين .) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥

١٨ - (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم .
إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من
رب العالمين .) الواقعة : ٧٥ - ٧٩ (١)

ومن المجموعة الثانية :

١ - (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات
لعلكم تتفكرون .) البقرة : ٢١٩
٢ - (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون .) البقرة : ٢٤٣

٣ - (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر
قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة
فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون .) الانعام : ٩٧ و ٩٨

٤ - (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق
قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل
الآيات لقوم يعلمون .) الأعراف : ٣٢

(١) هنالك آيات كثيرة أخرى من باب ما أوردناه ، فاكثفينا بما تقدم ، اقرأ إذا شئت
آيات سورة النحل ١٠١ و ١٠٢ ، والاسراء ٨١ و ٨٢ ، والكهف ١ و ٢ والفرقان ١ ، والنمل
١ ، ٢ ، والعنكبوت ٥٠ - ٥٢ ، ولقمان ١ - ٣ ، والسجدة ١ - ٣ ، ويس ٦٩ و ٧٠ ،
والزمر ١ و ٢ و ٢٣ ، وفصلت ١ و ٢ و ٤١ و ٤٢ ، والزخرف ١ - ٤ ، والدخان ١
- ٨ ، والنجم ١ - ٤ ، والهاقة ٢٨ - ٤٢ ، والتكوير ١٥ - ٢٧ .

٥ - (إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها آتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون .)
يونس : ٢٤

٦ - (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال .) الرعد : ١٧

٧ - (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون .) إبراهيم : ٢٥

٨ - (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرا لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون .)
النحل : ١١ و ١٣

٩ - (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم واللغات إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .)
الروم : ٢٠ - ٢٤

١٠ - (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب .) ص : ٢٩

١١ - (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ لعلمهم يتذكرون .
قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج لعلمهم يتقون .) (١) الزمر : ٢٧ و ٢٨

- ١٢ -

وهذا بالإضافة الى أن في القرآن آياتٍ فيها تعظيم لجريمة الافتراء على الله بسبيل تأكيد كون النبي لا يمكن أن يرتكب هذه الجريمة ، وأنه صادق كل الصدق في التبليغ عن الله كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو قال أوحى إليّ ولم يُوحَ إليه شيء .) الأنعام : ٩٣

٢ - (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين .)
الأعراف : ١٨٤

٣ - (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبتيتها قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .)
الأعراف : ٢٠٣

٤ - (وإذ تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى اليّ اني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون .
فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته أنه لا يفلح المجرمون .) (٢)
يونس : ١٥ و ١٧

(١) والآيات ليست كل ما في القرآن من بابها ، ففيه آيات كثيرة أخرى ، اقرأ أيضا آيات النحل ٤٤ والقصص ٤٦ ، والعنكبوت ٤١ و ٤٤ ، والجاثية ١٣ ، والحديد ١٧ ، والحشر ٢١

(٢) الآيات تأمر النبي بأن يقول لهم : إنه لم يكن يتصدى لهم قبل وهم يعرفون أخلاقه وعدم فضولته ، وهذا وحده يكفي ليعرفوا أنه صادق ، وأنه يبلغهم وحي الله ، ويوقف عنده ، ويخاف أن عصاه ، ويعرف أنه ليس من إجرام أعظم من الافتراء على الله .

٥ - (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) النحل : ١٠١ و ١٠٢

٦ - إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . (النحل : ١٠٥)

٧ - (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) (١) المؤمنون : ٦٨ - ٧٠

٨ - (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين) ص ٨٦ - ٨٨

٩ - (أم يقولون افتري على الله كذباً فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور .) الشورى : ٢٤

١٠ - (أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم) الأحقاف : ٨

١١ - (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول قليل ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين . وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين) الحاقة : ٣٨ و ٥١

(١) في هذه الآيات ما في آيات يونس ، فانهم يعرفون النبي ويعرفون أخلاقه وصدقه ولا يمكن أن يكون به جنة .

١٢ - (فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس .
والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش
مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين .
وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فإين تذهبون .
إن هو إلا ذكر للعالمين .) التكوير : ١٥ - ٢٧

- ١٣ -

وفي سورة القيامة آيات ذات دلالة عظيمة في صدد الوحي الرباني للنبي
صلى الله عليه وسلم وهي :

(لاتحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرآنه
فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه .) القيامة : ١٦ و ١٩

فهذه الآيات جاءت معترضة بين آيات متصل قبلها بما بعدها اتصالا
موضوعياً ، واتصال خطاب ونظم ، في حين أنها غير متصلة بهذه الآيات
لاموضوعاً ولا خطاباً ولا نظماً كما يبدو حين قراءة السياق بطوله ، وهذا
ما جاء قبلها منه :

(لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة . يحسب
الانسان أن لن نجعل عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه . بل
يريد الانسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة . فاذا برق البصر .
وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ أين المفر .
كلا لاوزر . الى ربك يومئذ المستقر . ينبا الانسان يومئذ بما قدم وأخر .
بل الانسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره .) القيامة : ١ - ١٥
وهذا ما جاء بعدها :

(كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة .
الى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة .) الخ
ولقد روي في مناسبتها حديث يستفاد منه أنها نزلت على النبي ،

- ٦١ -

لأنه كان حينما يتلقى وحي القرآن يحرك شفثيه بما ينزل على قلبه خشية نسيانه ، ووجود الآيات في موضعها يلهم بقوة أنها أوحيت للنبي في أثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها ، ولا يصح فرض غير هذا فيما نعتقد لفهم حكمة وجودها في السياق . ولا مناص من فرض ثان ، وهو أن النبي أمر بتدوين آيات السورة فور وحيها ، وأملى على الكاتب هذه الآيات في سياق إملائه آيات السورة الأخرى ، لأنها أوحيت إليه مع آيات السورة ، مع أنها كانت خطاباً خاصاً له ، وبقصد تعليمه كيفية تلقي الوحي ، فدونت كما جاءت بين الآيات التي قبلها والتي بعدها .

وفي هذه الآيات في موضعها ملهمات أخرى عظيمة الخطورة أيضاً في صدد القرآن ، فهي تقف أمام أي شك حتى من أشد الناس تشككاً بأن ما كان يبلغه النبي من آيات القرآن إنما كان وحيّاً يشعر به في أعماق نفسه ، ويدركه ويستمتع إليه باذن بصيرته ، ويعيه بقلبه ، وأنه شيء منفصل عن ذاته غير نابع من باطنه كما يظنه بعضهم ، وتبين مقدار شدة حرصه على أن لا يفلت منه أية كلمة أو حرف أو معنى مما كان يوحى إليه به قرآناً ، فكان يسارع إلى ترديده وإملائه على كتابه حتى يبلغه تماماً كاملاً لا تبديل فيه ولا زيادة ولا نقصان ، ولا تقديم ولا تأخير . وهي تقرر معنى من معاني العصمة النبوية في صدد ما يبلغه النبي من وحي القرآن الرباني في توكيدها ، بأن الله يثبت في قلبه وذاكرته ما يلقي عليه ، ويجعله يحيط به ، ويلهمه فهمه وبيانه ، فالنبي بهذا قد عصم من الغلط والنسيان والخطأ ، والتقديم والتأخير والزيادة والنقص في القرآن . فكل ما بلغه منه هو وحي رباني ، وقد بلغ كل ما أوحى إليه بتمامه وحرفيته ، ولعلها تقوم قرينة على أن لا محل ولا معنى للقول : إن القرآن نزل على النبي بالمعنى لا باللفظ أيضاً ، وهذا مؤيد بآيات سورة الشعراء هذه :

(وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون

من المنذرين . بلسان عربي مبين) ١٩٢ - ١٩٥

واذا لاحظنا أن ضمير الآيات هو ضمير المتكلم ، وأن القرآن كلام

الله وأوامره ، أمكننا أن نقول : إن في الآيات دلالة على أن القرآن كان حياً ربانياً مباشراً . ينقذف في قلب النبي فيعيه ويبلغه ، أو على الأقل إن هذه الطريقة من الطرق التي كان يوحى الله الى النبي بما يشاء ان يوحى اليه به (١) .

كذلك فان هذه الآيات تفيد أن ما كان يوحى به الى النبي كان يبادر الى الامر بتدوينه وتسجيله حتى ولو كان موضوعه خاصاً به ، وبصدد تعليمه تلقي الوحي واستيعابه . وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد جرى على هذا منذ اوائل نبوته ، لأن هذه السورة من أوائل القرآن نزولاً . وهذا المعنى عظيم من وجهة عصمة النبي في تبليغ كل ما كان ينزل على قلبه من وحي الله قرآنًا بما في ذلك من خطرات النفس ، وأسلوب تلقي القرآن ، والتصرف الشخصي ، أو الحركة الشخصية اللاشعورية . وهو مؤيد بآيات عديدة حيث أمر بتسجيل كل ما نزل عليه في شؤونه الخاصة ، وفي بعض تصرفاته التي كانت خلاف الاولى في علم الله ، وعوتب عليها . وفي سورة « طه » آية فيها مشهد مماثل للمشهد الذي حكته آيات سورة « القيامة » في معناه وظروفه وهي :

(١) نقول هذا استدراكاً لسببين : الاول أن في آيات سورة الشورى هذه (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء . انه عليّ حكيم . وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض الا الى الله تصير الامور .) الزخرف : ٥١ - ٥٣ ثلاث طرق لوحي الله لانبياؤه : منها القذف المباشر الذي عبر عنه في الآية بجملة (إلا وحياً) والله اعلم . والسبب الثاني : ان هناك أحاديث وردت في كتب الحديث المعتمدة تذكر ان النبي كان يتلقى القرآن من الملك يأتيه بصورة ما ، فقد روى الشيخان والترمذي عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقاً) .

(فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك
وحيه وقل رب زدني علماً) ١١٤

والظاهر والله أعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كرر حركته بسبيل
استذكار ما أوحى به إليه في إحدى المرات ، فاقترضت حكمة التنزيل
تنبيهه مرة أخرى .

— ١٤ —

وكل ما تقدم يبعث أقوى اليقين بالله والنبي والوحي الرباني للنبي
بالقرآن في كل شخص ذي ضمير حي ، ورغبة صادقة في الحق والهدى
مهما كانت ثقافته ونحلته . وإذا كان الملحدون بعد ذلك كله ، لا يراعون
عن غيهم ، ولا يثوبون إلى رشدهم وضمائرهم ، فلن يضر ذلك الحق
والحقيقة والإيمان والدعوة الإسلامية في شيء . ولقد حكى القرآن مواقف
عديدة عن أمثال لهم ، أصروا على مواقفهم وهواهم رغم كل ما سبق من
عديدة عن أمثال لهم ، أصروا على مواقفهم وهواهم رغم كل ما سبق من
المواقف ، ويستمر بالنزول بالهدى والحق ليهتدي بهما من حسنت نيته ،
وطابت سريرته ، ورغب بالحق والهدى مما أوردنا أمثلة كثيرة منه في
النبد السابقة . ونضع مع ذلك بعضها أمام القارئ في لحظته هذه :

١ - (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .
ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب
عظيم .) البقرة : ٦ و ٧

٢ - (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه
وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤك يجادلونك
يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين .) الانعام : ٢٥

٣ - (واتل عليهم نبا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان

— ٦٤ —

فكان من الفاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع
هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل
القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون .)
الاعراف : ١٧٥ و ١٧٦

٤ - (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى
إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع
الحساب . أو كظلمات في بحر لجي يفشاه موج من فوقه موج من فوقه
سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل
الله له نوراً فما له من نور .) (١) النور : ٣٩ و ٤٠

- ١٥ -

وقد يسائرنا بعض الملحدين فيقولون : إن محمداً صلى الله عليه
وسلم لم يتعمد الكذب حين كان يقول : إن القرآن يوحى اليه من الله
وحياً ، وإنما كان متوهماً متخيلاً منفعلاً انفعلاً عصبياً نتيجة لما يعرفه من
أخبار الأنبياء ولما كان يشعر به في داخله من انفعال وجيشان وإيمان
بالله ورغبة في الدعوة اليه ومحاربة الشرك ، وتقاليد الجاهلية ، واصلاح
الانسانية وسعادتها بدءاً بالمجتمع العربي والحجازي . ونقول : إن هذا
قد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم مواجهة أيضاً بالاسلوب الذي كان
يخطر على بال القائلين إذ ذاك حيث قالوا : إن به جنة ، وإنه كان يتلقى
ما يقوله من الشياطين ، وأنه مجنون ، وقد سجل القرآن أقوالهم هذه
بدون أي تحرج ورد عليها وأكد ان القرآن وحي من الله تعالى كما جاء
في آيات عديدة نافذة الى أعماق القلوب والعقول والضمائر كما ترى
فيما يلي :

(١) صيغة الآيات اسلوبية بسبيل تقرير شدة إصرار الكفار المسبق على الكفر والجحود
والتكذيب . وفي آيات النور بخاصة تمثيل لما سوف تصير أمورهم اليه من خيبة وضياغ
ومواجهة لعذاب الله الرهيب .

١ - (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين .)
الاعراف : ١٨٤

٢ - (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين . إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .) الحجر : ٦ - ٩

٣ - (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون .) المؤمنون : ٦٨ - ٧٠

٤ - (وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون .)
الشعراء : ٢١٠ و ٢١١

٥ - (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم .
يلقون السمع وأكثرهم كاذبون .) الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣

٦ - (ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون .
وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلی خلق عظیم . فستبصر وبصرون .
بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .)
القلم : ١ - ٧

٧ - (فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس .
والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش
مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين .
وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فإين تذهبون
إن هو إلا ذكر للعالمين .) التكوثر : ١٥ - ٢٧

٨ - وفي سورة سبأ آيات فيها رد من جهة ، وفيها من جهة خطاب نافذ الى القلوب والعقول من شأنه أن يهز الضمائر ، ويبعث أقوى اليقين حيث يهيب بالسامعين بأن يترووا ، ولا يؤخذوا بالتهوئش الذي يكون في

الاجتماعات الصاخبة ، ويتفكروا في ما جاء اليهم به واحدا واحدا ، أو اثنين اثنين فقط ، وحينئذ يرون أنه ليس في صاحبهم جنة ، ولا يريد أجراً ، وأنه نذير لهم ، وأن الله شهيد على ذلك ، وأنه الحق الذي يدحض الباطل . وهي :

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد . قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد . قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد .) سبأ : ٤٦ و ٤٩

٩ - وفي سورة الجن آيات أخرى ذات معنى رائع في صدد رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تبعث هي الأخرى أقوى اليقين بصحة الرسالة والوحي القرآني أيضاً وهي :

(قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً . قل !ني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً . قل !ني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً . حتى إذا رآوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً . قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً .) الجن : ٢٠ و ٢٨

ومع تقرير كون النبي صلى الله عليه وسلم ، قد اتجه منذ شبابه نحو الله وحده ، وأنف مما كان عليه قومه من شرك وتقاليد جاهلية ، وأخذ يقوم باعتكافات روحية مفكراً في آلاء الله وعظمته ، فإن في القرآن آيات تقرر أنه لم يكن مطلعاً إلى نبوة ورسالة وكتاب ينزل عليه من الله ، ولم يكن بدا عليه أي فضول ونشاط بسبيل الدعوة إلى أن شاءت حكمة

فالله فاصطفاه للرسالة لما كان عليه من أخلاق عظيمة(١) تؤهله لذلك .

(١) أما أخلاقه العظيمة ، فقد اثني عليها الله في القرآن ومن ذلك في آية سورة القلم هذه : (وإنك لعلى خلق عظيم) . وأما أهليته للرسالة فقد قرر الله في القرآن ان الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فجعلها فيه لأهليته لها ، وأما اتجاهه نحو الله واعتكافاته الروحية ، والتفكير بآلاء الله ، فقد جاء في ذلك أحاديث صحيحة ، منها حديث أول نزول الوحي عليه . روي عن عائشة قالت : (أول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث – أي يتعبد – فيه الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم ..

فرجع بها النبي يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب منه الروح . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . قال : ماذا ترى يا ابن أخي ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى فقال له ورقة : يا ابن أخي هذا الناموس الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجي هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي ، وان يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة ان توفي) .

وتم الاتصال بينه وبين الله عز وجل ، وتبلغ أمر مهمته كما ترى في الآيات التالية :

١ - (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون .) يونس : ١٦

٢ - (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربّي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين . وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكون ظهيراً للكافرين .) القصص : ٨٥ و٨٦

٣ - (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . !ن هو إلا ذكر للعالمين . وتعلمنّ نبأه بعد حين .) ص : ٨٦ و ٨٨

٤ - (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه عليّ حكيم . وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الارض الا الى الله تصير الامور .) الشورى : ٥١ - ٥٣

ففي هذه الآيات جواب أيضاً على ما قد يقوله الملحدون مسaire من أن النبي كان منفعلاً بما عرفه من الانبياء ، وبما انبثق في نفسه من جيشان ورغبة في الدعوة إليه مثلهم .

والذي يؤمن بوجود إله حكيم مبدع للكون ومدبر له ، لا يصح أن ينكر مهما بلغ من العقل والتحفظ جواز اتصال الله عز وجل بأفراد يصطفهم من خلقه مؤهلين لذلك إيماناً وخلقاً وحيوية ليوحي اليهم بدعوة البشر اليه ، وعبادته والاتجاه اليه وحده ، وبيان أفضل الاساليب والمبادئ والقواعد الايجابية والسلبية التي يجب عليهم أن يسيروا عليها ، ويلتزموها لضمان خيرهم وسعادتهم وصلاحهم ونجاتهم مما يعلم الله أن عقول البشر قد لا تهتدي اليها بجهدا . ويكون في مصدريتها الإلهية من قوة التأيد والالزام الإيمانيين ما لا يكون لما يضعه البشر

باحتهادهم من قوانين وتقاليد، وقواعد مما هو ممتثل في كل آيات القرآن وفصوله ، لا يمكن لعادل منصف يرغب في الحق والحقيقة أن يماري فيه .

— ١٦١ —

ونصل الآن الى مواجهة الملحد في إنكار وجود ذلك الإله الذي هو أساس الحادهم وانكارهم لكل ما يصدر عنه ، وللنبوة والوحي بالتبعية .
و حين تسألهم عن علة الكون الاولى ، أو أصل الكون ومصدره لا يستطيعون الاجابة إجابة جازمة ، ويقولون بالجهل مع تجريدهم العلة الاولى ، أو المصدر الاول للكون من أي عقل وإرادة وحكمة ، وبكلمة أخرى يقولون : إن الكون المادي أو السديم الاول صدر عن تلك العلة المجردة من ذلك بالصدفة العمياء ، وظلت تسير كذلك . والمؤمن وإن كان بدوره يجهل كنه الله تعالى ، فإنه على الأقل - ونقول هذا للمساجلة - يكون في موقف المطمئن بوجود خالق باري مصور مبدع حكيم عليم خبير مدبر قوي محيط أزلي أبدي وراء هذا الكون ، يراقبه ويلاحظه ، ويجعله يلتزم حدود الحق والعدل والخير مطلقاً ، في حين أن الملحد يكون في فراغ وضياح ، متحلاً من أي التزام لا يلزمه إياه مقياس نفعه وضرره الخاص ، مادياً كان أم أدبياً ، والذي هو على الأعم الأغلب عابر متحول . وليس في موقف المؤمن - ونقول هذا للمساجلة أيضاً - أي ضير على الإنسانية وخيرها وصلاحتها إذا لم يكن فيما يعتقده ما يتعارض مع ذلك ، أو يؤدي الى الشلل والجمود ، وعدم الانطلاق العقلي والعلمي والفني والحضاري والمعاشي والعمراني ، والتطور في كل ذلك الى أبعد الحدود . وهذا ما تكفلت به تعاليم القرآن المحكمه خاتم كتب الله الذي صار به الدين الاسلامي الذي جاء به خاتم أنبياء الله رب العالمين فريداً مختلفاً كل الاختلاف عن غيره من حيث إنه دين نظام وعقيدة وتنظيم شامل لكل الشؤون على اختلاف نواحيها من روحية وسياسية واقتصادية ومعاشية واجتماعية وشخصية وأخلاقية، وسلوكية واسرورية ، وفكرية وعلمية على أحسن الوجوه وأقومها وأفضلها ، مستجيباً لكل مطلب ، حالاً لكل مشكل ، مستهدفاً لمصلحة الإنسانية وصلاحتها وسعادتها في الدنيا والآخرة ، ودعوة مفتوحة للجميع ، ومرشحة بكل ذاك لتكون دين الإنسانية العام على اختلاف أجناسها وألوانها ومراكزها وعلى قدم المساواة التامة بدون أي اختصاص وتميز وطبقات ، وفيه الدليل

— ٧٠ —

الذي لا يدحض على أنه لا يمكن أن يصدر عن عقل بشري مهما بلغ من رقي وصفاء وإحاطة ، ولا يمكن إلا أن يكون صادرا عن الله عز وجل الحكيم المدبر العليم الخبير خلافاً لما يظنه بعضهم والمحددون منهم بسبب ما في القرآن من آيات متشابهة يسيئون فهمها وتأويلها ، وبسبب أقوال واجتهادات ووقائع واحداث ومواقف شاذة عن جوهر تعاليم القرآن المحكمة لا تتحمل هي مسئوليتها على ما سوف يأتي شرحه ، بل فيه كل الخير مادياً ومعنوياً من حيث إن المؤمن يكون مطمئن النفس بحكمة الله برقابته عليه في جميع أفعاله مؤملاً برحمته ورعايته وعونه مما يجعله ممثلاً بالأمل والرجاء وحسن العاقبة مستمداً من ذلك نشاطه وحيوته متأثراً بذلك في الانكماش عن الشر والضرر والسوء والمنكر والأذى والالمانية والنفعية المفرطة قولاً وفعلًا حيث يكون له من تدينه وأزع عن كل إنهم ، وحافظ على كل خير لذاتهما ، في حين يكون الضياع والفراغ واليأس ، وفقدان الوازع والحافر لذاتهما إذا ما حزبت الامور من صفات الملحد .

على أن هناك مئات من أساطين العلم المعاصرين الذين صاروا أصحاب اختصاصات وشهرة عالمية في مختلف العلوم الرياضية والفلكية والنباتية والحيوانية والطبيعية والنفسية والذرية والجيولوجية والبيولوجية والفيزيولوجية والكيميائية والفيزيائية ، والذين نال كثير منهم جوائز عالمية على بحوث متفوقة لهم في اختصاصاتهم ينكرون كل الإنكار أن يكون هذا الكون المذهل في سعته وكائناته البديع المتقن في نظمه وأنسجামه وتركيبه وتوازنه ، بدءاً من الذرة والخلية والأحماض والعناصر البسيطة الى أصل الحياة ونشوتها وبدايتها وتطورها الى الاحياء المتنوعة النباتية والحيوانية الى السماوات وما فيها من مجرات وشموس وكواكب وحركانها الى الكهرباء والمغناطيس الى العضويات وغير العضويات والرياح والسحاب ، والوراثات والفرائز المذهلة في مظاهرها الثابتة في القوانين التي تسير عليها سيرا ثابتاً عجيباً ، حتى ليعرف بها ماكان وسوف يكون من مشاهدتها لمئات آلاف السنين الماضية والآتية ، وحتى أمكن أن تعرف بها ثغرات سلسلة العناصر البسيطة التي لم تكن اكتشفت ثم اكتشفت في المركز المخمن لها في السلسلة ، قد جاء صدفة عمياء ، ومظهراً عشوائياً بدون تدبير محكم من مدبر حكيم ، وخالق مبدع غير حادث .

وقد جاء هذا في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» لمحرره وجامعه جون كلوفرمون والذي ترجم الى العربية من قبل الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ، وروجع وعلق عليه من قبل الدكتور جمال الدين الفندي . ثم كتاب « العلم يدعو الى الايمان » لمؤلفه ، كريس موريسون الذي ترجم من قبل الاستاذ محمود صالح الفلكي ، وصدره الاستاذ الشيخ حسن الباقوري ، وقدمه الدكتور أحمد زكي .

وهناك عشرات الكتب والابحاث والمقالات العربية وغير العربية التي كتبها علماء في مختلف العلوم المادية ، تحتوي تقارير ماثلة .

وفي القرآن آيات كثيرة جدا ، فيها تنبيهات نافذة الى أعماق القلوب والعقول بأسلوب يفهمه أوساط الناس فضلا عن متعلميهم وأذكيائهم على آيات الله في كونه الدالة على وجوده وحكمته ، وبديع تدبيره وتقديره ، وإحاطته وعظمته . نكتفي منها بالأمثلة التالية :

١ - (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون .) البقرة : ١٦٣ و ١٦٤

٢ - (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين .) الأنعام : ٥٩

٣ - (ان الله فالحق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأتى توفكون . فالحق الاصبح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل

من طلعتها قنوان" دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً
وغير متشابه انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه إن" في ذلكم لآيات لقوم
يؤمنون (. الأنعام : ٩٥ - ٩٩

٤ - (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على
العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر
يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مدّ الارض وجعل
فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي
الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الارض قطع متجاورات
وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء
واحد ونفصل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (.
الرعد : ٢ - ٤

٥ - (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل
شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين . وإن من
شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح
فانزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين (.
الحجر : ١٩ - ٢٢

٦ - (أولم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما
وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون . وجعلنا في الارض رواسي
أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاًجاً سبلاً لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء
سقفاً محفوظاً وهم عن آياتنا معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار
والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (. الأنبياء : ٢٩ - ٣٣

٧ - (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً
فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد
فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار .
يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار . والله خلق كل
دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين
ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير .

لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . (
النور : ٣٤ - ٤٦

٨ - (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن
آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً
ورحمةً إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات
والارض واختلاف السنتكم واللوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن
آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم
يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً
فيحيي به الارض بعد موتها . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .)
الروم : ٢٠ - ٢٤

٩ - (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً
ألوانها ومن الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلف ألوانها وغرايبٌ سود .
ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من
عباده العلماء إن الله عزيزٌ غفور .) فاطر : ٣٧ و ٣٨

١٠ - (فاطر السماوات والارض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن
الأنعام أزواجا يدرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . له
مقاليد السماوات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء
عليم .) الشورى : ١١ و ١٢

١١ - (إن في السماوات والارض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما
يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله
من السماء من رزق فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات
لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله
وآياته يؤمنون . ويل لكل أفككٍ أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم
يُصِرُّ مستكبراً كان لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا
شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ولا يغني
عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم .
هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم .)
الجناتية : ٣ - ١١

١٢ - (والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا
جلاها . والليل إذا يقشها . والسماء وما بناها . والارض وما طحاها .

**ونفس وما سواها . فآلهما فجورها وتقواها . قد افلح من زكاهما . وقد
خاب من دساها (١) . الشمس : ١ - ١٠**

ففي كل ما تقدم ما يكفي لجعل الملحدین واللامبالین إذا لم يكونوا
متعمدين المكابرة والعناد والتصامم عن سماع كلمة الحق ، ووعي الحق
يشوبون الى رشدهم ، وينتهون عن مواقفهم ، ولن يضير الدين والمؤمنين
أصرار المكابرين والمعاندين على المكابرة والعناد ، ولقد كان هذا موقف
فريق من أمثالهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على ما شرحناه في
الفقرات ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ وأوردنا شواهد القرآنية ، وما كان من ردود
القرآن على مواقفهم وتحدياتهم ومكابرتهم . ولقد وصفهم القرآن بهذا
الوصف في آيات سورة البقرة .

**(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .
ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب
عظيم .) البقرة : ٧ وفي آية سورة الأنعام . (ومنهم من يستمع إليك
وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية
لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا
أساطير الاولين .) الأنعام : ٢٥**

تعبيراً عن إصرارهم على المكابرة والعناد . ولقد أوحى الله لرسوله
الآيات التي أوردناها في الفقرات ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ والتي يأمره بها بعدم
الأبوة لمواقفهم ، وتحدياتهم وعنادهم ، والمضي قدماً في تبليغ رسالته

(١) ما أوردناه من الامثلة على كثرته ليس كل ما في القرآن من بابها . ففيه آيات كثيرة
أخرى . اقرأ إذا شئت آيات سورة آل عمران ١٨٩-١٩١ ، والأنعام ١٤-١٤ ، ويونس ٦٤-٦٤
و ٣١-٣٥ ، والرعد ٨-١٥ ، والنحل ٢-١٨ ، والحج ٦٣-٦٦ ، والمؤمنون ١٢-٢٢ ،
والنمل ٦٠-٦٥ ، والروم ٤٨-٥١ ، ولقمان ١٠ و ٢٥-٢٩ ، والسجدة ٤-٩ ، وسبأ
٢-٦ ، وفاطر ١-٣ ، و ١١-١٤ ، ويس ٣٣-٤٢ ، وص ٢٧-٢٩ ، والزمر ٥٦ و ٢١ . وفصلت
٩-١٢ ، والزخرف ٩-١٢ ، وق ٦-١١ ، والرحمن ١-٢٠ ، والحديد ٦-٦ ، والملك
١-١٤ ، ونوح ١٤-٢٠ ، والنبأ ٦-١٦ ، والنازعات ١٧-٢٢ ، وعبس ٢٤-٢٩ ، والانشقاق
١٦-١٩ ، والطورق ٥-١٢ ، والاعلى ١-١٥

ودعوته لذوي الرغبات الصادقة والقلوب الحية حتى حقق الله وعده الذي وعده في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ - (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً .) الفتح : ٢٨

٢ - (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً .)
النور : ٥٥

فأظهر دينه على الدين كله ، وصارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، ومكن الله للمؤمنين في الأرض . ولقد بدأ ذلك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يتوفه الله إلا وعمت دعوته ، وساد الاسلام وسلطانه جميع أنحاء جزيرة العرب على اختلاف منازل أهلها وثقافاتهم ونحلهم وأجناسهم ، وأخذت تتسرب إلى خارجها على ما سوف نشرحه في الفصل الثاني . ثم اتسع نطاق ذلك حتى عم مشارق الأرض ومغاربها ، وفي هذا تعليم وتطمين لنا ولسائر المؤمنين ، ورد على المكابرين والمعاندين المحدثين . وليستمرن الله في تحقيق وعده ونصره . والله لا يخلف وعده ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .



الفصل الثاني

أثر الدعوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم

- ١ -

نبه أولا على أن هذا الفصل ليس للتاريخ ، وإنما هو متصل بموضوع الكتاب من حيث إنه يتضمن الشهادات العينية للآلاف المؤلفة من الناس على اختلاف مراكزهم وثقافتهم ونحلهم الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن مواجهة ، وآمنوا بهما .

فإنه برغم مواقف الزعماء والأغنياء الجحودية الحجاجية المعاندة ، وتأليبهم الجماهير منذ بدء الدعوة في مكة ، فإن هذه الدعوة بقوة ما انطوى فيها من عناصر الاستجابة التي احتواها كثير من السور المبكرة في النزول مثل الفاتحة والأعلى والليل والشمس والعصر والماعون والفجر والبلد والاخلاص و ص و يس والأعراف وغيرها وغيرها من دعوة الى الله وحده وعبادته وحده ، والتحرر مما سواه بأي أسلوب وصورة والإيمان بنبوة رسوله ، والتزام مكارم الأخلاق ، وأحسن الصفات والأفعال من بر ورحمة وتعاون ورفق وصبر وصدق وعدل ، وحق وإحسان ، واجتهاد المنكرات والفواحش والظلم والبغي والتقاليد المنكرة والكذب والرياء والبخل والفساد ، أخذت تجذب إليها فئات عديدة في مكة أولا وبمقياس ضيق ، ثم اتسع النطاق بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم منها إلى المدينة حتى عمّت سائر أنحاء الجزيرة العربية ، وأخذت تتسرب الى خارجها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تم هذا بخاصة بعد أن يسر الله لرسوله فتح مكة حيث أسلم جميع أهلها بما فيهم الذين بقوا أحياء ،

من الذين وقفوا موقف الجحود من الزعماء والجماهير في المرحلة الاولى . حيث كانت مكة إماماً وقدوة وحاجزاً . وقد عبرت سورة النصر التي نزلت في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك تعبيراً قوياً ، حيث جاء فيها :

(إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .

ولقد كان المنضوون الى الدعوة في مكة يمثلون مختلف الفئات والطبقات ، من شباب وكهول وشيوخ ، ورجال ونساء ، وقرشيين ذوي أحساب وأنساب ، وأغنياء وفقراء وأرقاء ، وعرب وعجم ، وبيض وسود وسمر ، ومشركين ووثنيين وكتابين نصارى ويهود وصائبين^(١) بحيث يمكن القول إنهم كانوا يمثلون جميع أنواع البشر والنحل ، وصار الاسلام بهم مصداقاً لما رشحه الله ليكون دين الانسانية جميعاً كما جاء ذلك في آيات التوبة (٣٣) والفتح (٢٨) والصف (٩) التي أوردناها في مطلع الكتاب . وظلت هذه الظاهرة مستمرة في العهد المدني .

ولقد سجل القرآن مشاهد عيانية رائعة لايمان بعض الذين آمنوا بالنبي والقرآن من ذوي العلم وأهل الكتاب وشهاداتهم بصدق وحي الله وفرحهم به في العهد المكي أولاً ، ثم في العهد المدني . وهذه تسجيلات ذلك في السور المكية :

١ - (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) (٢) .
الأنعام : ٢٠

(١) رجحنا في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وببئته قبل البعثة أن الصائبين هم الذين تركوا دين وتقاليد المشركين ، واتجهوا نحو الله وحده من العرب . وأيدنا ترجيحنا بأحاديث عديدة . انظر الطبعة الثانية ٦٩٦-٧١٩ .

(٢) المتبادر انهم كانوا يشهدون أيضاً بصدق دعوى النبي صلى الله عليه وسلم لانهم عرفوا أنها حق ، وعرفوا أنه صادق كمعرفتهم أبناءهم .

٢ - (أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) (الأنعام : ١١٤)

٣ - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) (الأعراف : ١٥٧)

٤ - (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) (هود : ١٧)

٥ - (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) (.)
الرعد : ٣٦

٦ - (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) (٢) .
الرعد : ٣٤

٧ - (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) (٣) . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً .)
الاسراء : ١٠٧ - ١٠٩

(١) ما دام أنهم يفرحون فقد استبشروا وصدقوا وآمنوا .

(٢) الآية تتضمن أن الذي عنده علم الكتاب مستعد للشهادة إيجاباً وهذا يستتبع كونه آمناً بالقرآن والنبي .

(٣) في العبارة تأكيد لما ذكرته آية سورة الاعراف ١٥٧ من أن النصارى واليهود يجدون صفات النبي مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل ، ويجب عليهم ان يتبعوه . فلما

٨ - (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتُونَ

بعث قالوا : إن بعثته هي تحقيق لوعد الله السابق المذكور في كتبهم . وفي سورة الصف هذه الآية :

(وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ..) الصف : ٦
وفي آية الانعام (١٩) صراحة أنهم عرفوا النبي وصدق دعواه كما عرفوا أبناءهم . وفي سورة البقرة هذه الآية :

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين .) البقرة : ٨٩
ففي هذه الآية تصديق قرآني مدني لما ذكر في آية سورة الاعراف المكية بالاضافة الى الصراحة التي في آية سورة الصف . حيث جاء فيها هذه الآية :

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ..)

ونقول من باب المساجلة : إنه لا يعقل أن يذكر القرآن ذلك الا أن يكون هناك تصديق إيجابي من أهل الكتاب اليهود والنصارى على السواء . وقد آمن بالقرآن والنبي يهود ونصارى في مكة ثم في المدينة كما سجل ذلك القرآن على ما جاء في الآيات التي أوردناها في المتن ، فكان ذلك التصديق يقيناً قائماً . وصادق العظم في كتابه (نقد الفكر الديني) . يصف محاولة المسلمين إثبات ذكر النبي في إنجيل برنابا سخافة . ونحن نعترف أن النصارى يتكرونها الانجيل غير أن إثبات كون صفات النبي محمد مذكورة في الكتب التي يتداولها اليهود والنصارى غير مرهون بذكر برنابا بذلك . فالقرآن قد ذكر ذلك ، وكان يتلى علناً ، وأهل الكتاب آمنوا وصدقوا ، فظهر الحق وزهق الباطل ، وصار ما أراد صادق العظم نفيه ووصفه بمحاولة سخيفة هو سخر متهافت لا معنى ولا محل ولا طائل له . وجود طوائف من اليهود والنصارى لنبوة النبي في عهده وبعده لا ينقض ما قلناه وله أسباب أخرى دنيوية . ومع ذلك ففي نصوص بعض أسفار العهد القديم والجديد اشارات وبشارات عديدة بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم على ما استنبطه بعض باحثي المسلمين قديماً وحديثاً فقد ذكر السيد رشيد رضا في تفسيره (النار) ثمان عشرة بشارة وأورد النصوص المستنبطة منها . وقد ذكر عدداً من الاشارات أو البشارات الامام ابن قيم الجوزية في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» استنباطاً من هذه الاسفار .

أجرهم مرتين بما صبروا ويدرون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم
ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم
سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين (١) . القصص : ٥٢ - ٥٥ .

٩ - (قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني
إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي الظالمين (٢)) .
الأحقاف : ١٠

وهذه تسجيلات لايمان أهل الكتاب بالقرآن والنبي في العهد
المدني :

١ - (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن
يكفر به فأولئك هم الخاسرون (٣)) البقرة : ١٢١ .

٢ - (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء
الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين . وما
يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين .) آل عمران : ١١٣-١١٥

٣ - (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل
إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند
ربهم إن الله سريع الحساب .) آل عمران : ١٩٩ .

٤ - لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل
من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر
أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً (٤) . النساء : ١٦٢ .

(١) الآيات تلهم أن المذكورين المؤمنين فيها ليسوا من أهل مكة وأنهم كانوا في حالة حسنة
اجتماعيا وخلقيا وماليا ، وأن كفار مكة أو زعماء كفارها وبخوهم على ايمانهم بالنبي فلم
يألوا وثبتوا على ايمانهم .

(٢) أشير قبل هذه الآية الى القرآن ، وأشير اليه في آية بعدها فيكون ضمير (به)
راجعاً اليه .

(٣) قبل هذه الآيات آيات فيها اشارة الى النبي والقرآن فيكون ضمير (به) عائداً
إليهما .

(٤) الآية من سياق في صدد اليهود .

٥ - (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود الذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكذبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين . فاثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين .) المائدة : ٨٢ - ٨٥

٦ - (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون .) الحديد : ٢٧

- ٣ -

وهذا فضلا عما احتواه القرآن من إشارات عديدة إلى المؤمنين المحسنين المخلصين بصورة عامة ، وتنويهات بإيمانهم وتقواهم وصالح أعمالهم ، منها ما جاء في صدد المؤمنين في العهد المكي عامة ، ومنها ما جاء في آيات مدنية في صدد المؤمنين في العهد المدني عامة ، أي : تشمل المؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم ، فمما جاء في القرآن المكي :

١ - (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون . ولا تظرد الذين يدعون ربهم بالفداء والشهي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتظردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم .) الأنعام : ٥١ - ٥٤

٢ - آية سورة الأعراف ١٥٧ التي أوردناها قبل قليل

٣ - (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .) يونس : ٩٠ و ١٠٠
٤ - (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .) يونس : ٢٦

٥ - ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل للكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم .) يونس : ٦٢ - ٦٤

٦ - (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .) الرعد : ٢٠ - ٢٢ (١)

٧ - (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب .) الرعد : ٢٨ و ٢٩

٨ - (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين . الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون .) النحل : ٣٠ - ٣٢

٩ - (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤنهم في الدنيا

(١) هذه الآيات وإن كانت تذكر الصفات التي يجب أن يتصف بها المؤمنون إلا أن روحها يلهم بقوة أنها تتضمن وصف حالة المؤمنين في العهد المكّي .

حسنة ولاجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . (النحل : ٤١ و ٤٢)

١٠ - (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم (١) .) النحل : ١١٠

١١ - ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً . (الكهف : ٣٠ و ٣١)

١٢ - (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (٢) .) المؤمنون : ١ - ١١١

١٣ - (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون (٣) .) المؤمنون : ٥٧ - ٦١

١٤ - (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً

(١) هذه الآية في حق فريق تعرضوا لضغط الكفار حتى أجبروهم على الارتداد ولكنهم اغتصموا فرصة ففروا وهاجروا وعادوا الى الاسلام صابرين مجاهدين في سبيله .
(٢) ما قلناه ذيلاً على آيات سورة الرعد ١٩-٢٤ يقال أيضاً : في صدد هذه الآيات .
(٣) ما قلناه ذيلاً على آيات سورة الرعد ١٩-٢٤ يقال أيضاً في صدد هذه الآيات .

والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً . خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً (١) . الفرقان : ٦٣ - ٧٦

١٥ - (طس . تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى المؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون (٢) . النمل : ١ - ٣

١٦ - (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فيايي فاعبدون . كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبؤنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون .) العنكبوت : ٥٦ - ٥٩

١٧ - (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور .) فاطر : ٢٩ و ٣٠

١٨ - (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأتوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .) الزمر : ١٧ و ١٨

١٩ - (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد .) الزمر : ٢٣ .

(١) و (٢) وما قلناه في صدد الآيات السابقة يقال في صدد هذه الآيات .

٢٠ - (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة
ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن
أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها
ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم .) فصلت : ٣٠ - ٣٢

٢١ - إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا
قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم
يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم . (الذاريات : ١٥ - ١٩
٢٢ - إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه
الخير منوعاً . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في
أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين .
والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين
هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير
ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم
وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم
يحافظون . أولئك في جنات مكرمون (١) .) الماعراج : ١٩ - ٢٥

٢٣ - (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عينا يشرب
بها عباد الله يفجرونها تفجيراً . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره
مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم
لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً
قمطيراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً .)
الانسان : ١١ ، ٥

ومما جاء في القرآن المدني في وصف واقع المؤمنين والتنويه بهم :
١ - ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون
بالغيب وقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل
إليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم

(١) في هذه الآيات وصف لواقع المؤمنين أيضاً مثل سابقاتها .

- وأولئك هم المفلحون (١) . البقرة : ١ - ٥
- ٢ - (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد . البقرة : ٢٠٧)
- ٣ - (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم . البقرة : ٢١٨)
- ٤ - (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . البقرة : ٢٧٤)
- ٥ - (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين . البقرة : ٢٨٥ و ٢٨٦)
- ٦ - (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إنا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار . آل عمران : ١٥ - ١٧)
- ٧ - الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤)
- ٨ - (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في

(١) هذه الآيات من أوائل ما نزل في العهد المدني بحيث يمكن أن يكون فيها وصف لواقع المؤمنين في العهد المكي أيضاً .

خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتنا وما للظالمين من انصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم أو ذوا في سبيلي وقتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب) آل عمران : ١٩١ - ١٩٥

٩ - (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) الأنفال : ٧٤ و ٧٥

١٠ - (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) التوبة : ١٩ - ٢١

١١ - (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) التوبة : ٧١

١٢ - (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون) التوبة : ٨٧

١٣ - (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم . والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من

تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم . (التوبة : ٩٩ و ١٠٠)

١٤ - (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب .)
النور : ٢٥ - ٢٨

١٥ - (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً .) الأحزاب : ٢٢ و ٢٣

١٦ - (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا .)
الفتح : ٢٩

١٧ - (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم .) الحديد : ١٩

١٨ - (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا إنك رؤوف رحيم .) الحشر : ٨ - ١٠

١٩ - (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم (١) (٢٠) المزل : ٢٠

ولقد تقصدنا الاكثار من النصوص لتبدو دلالتها قوية للقارىء غير المسلم أيضاً .

ونلفت النظر الى ما احتوته من صور قوية تعبر أقوى تعبير عن قوة إيمان و يقين المستجيبين للدعوة بصدق الرسالة النبوية ، وصلتها بالله عز وجل ، وما احتوته من سمو المبادئ الايمانية والاجتماعية والاخلاقية والانسانية . ومن شدة استغراقهم فيها .

- ٤ -

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ضعيفاً من حيث عدد أتباعه وقوته المادية ، وكان أعداؤه هم الاكثر والاقوى بحيث ينتفي أي ظن بأن الذين آمنوا به من أهل الكتاب والعلم ومشركي العرب وملحديهم ووثنيتهم قد آمنوا بضغط وإكراه ، بل كانوا يؤمنون به وينضون اليه وهم يعلمون أنهم يخاطرون بأنفسهم ويعرضونها للملامة والتوبيخ والخطر . وفي آية سورة القصص هذه :

(وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين .)

(١) هذه الآية مدنية . ولقد كان النبي وأصحابه في مكة يجتهدون في عبادة الله في الليل كما وصفتهم آيات سورة الذاريات

(كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون .)

وواظبوا على ذلك بعد هجرتهم الى المدينة ، وأراد المؤمنون الجدد أن يحذوا حذوهم . وقد علم الله أن المؤمنين قد كثروا وصارت لهم مشاغل وأعداء متنوعة ، وأنهم لا يقدرُونَ على الاستمرار في ذلك ، فخفف عنهم في هذه الآية .

التي هي من آيات سورة القصص (٥٢ - ٥٥) التي أوردناها قبل في صدد إيمان بعض أهل العلم والكتاب دليل على أن ذلك وقع على هؤلاء ، وفي آية أخرى في سورة الفرقان تعبير مماثل فيه دلالة على أن اللوم والتوبيخ كان يشمل مختلف فئات المؤمنين وهذا نصها :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (٦٣)

ولقد اشتد الأذى والمضايقة والخطر ومحاولات الارغام على كثير من شباب الأسر القرشية الذين انضوا الى دعوة الله ورسوله نابذين الشرك وتقاليد الجاهلية من قبل الزعماء والأغنياء والآباء والأعمام ، فأذن الله ورسوله لهم بالهجرة الى الحبشة أولا ، فهاجروا فارين بدينهم ضاربين بذلك أروع الأمثلة على التضحية بالمال والوطن والأقارب والمصالح في سبيل الدين الحق الذي اهتموا اليه معربين بذلك عن شدة استغراقهم فيه وتمسكهم به ، وقد أشارت آيات سورة النحل هذه الى هذا الحادث :

(والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوتنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) (١)
النحل : ٤١ و ٤٢

ولقد استطاع الطغاة أن يرغموا بعض الضعفاء الذين لم يتمكنوا من الهجرة على الارتداد عن دينهم ، غير أنهم بادروا الى اغتنام فرصة سنحت لهم ، فهاجروا بدورهم ، وعادوا الى دينهم والجهاد في سبيله على ما تفيد آيات سورة النحل هذه أيضا :

(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك

(١) في أذهان بعض الناس أن الذين هاجروا الى الحبشة هم من الفقراء والارقاء والضعفاء . ولكن الواقع أن كلهم أو جلهم من أبناء الأسر القرشية البارزة بل ومنهم من أبناء زعماء وقادة المعارضة للنبي ورسالته . وقد هاجر المتزوجون منهم هم وزوجاتهم اللاتي هن الأخريات من بنات الأسر القرشية البارزة . انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٢-٣٣٠

الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون . ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم . (النحل : ١٠٥ - ١١٠)

وفي هذا الموقف نفس الصورة القوية من التضحية والتمسك التي نبهنا عليها ، والآيات قد تفيد أن بعض المرتدين ظل مرتدّاً طمعاً بالسلامة والإغراء ، ولكن هذا ليس من شأنه الإخلال بالصورة . ولقد بدأت فتنة المؤمنين عن دينهم أي إرغامهم على الارتداد في وقت مبكر ، وشملت النساء والرجال معاً على ما تفيد آية في سورة البروج التي هي من السور المبكرة في النزول وهي :

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق .)

ثم استمرت على ما تفيد آيات قرآنية أخرى كما ترى فيما يلي بالإضافة إلى آيات سورة النحل التي أوردناها قبل :

١ - (وقالوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث تقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (١) .) البقرة : ١٩٠ و ١٩١

٢ - (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وأخرج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلوكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا (٢) .) البقرة : ٢١٧

٣ - (فاستجاب لهم ربهم أني لا أصنع عمل عامل منكم من ذكر أو

(١) و (٢) الآيات مدنية . نزلت بعد هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة وبسبيل تشريع قتال الكفار والإعداء . وفي الآيتين إشارة إلى ما كان من فتنة الكفار للمؤمنين وتضييقهم على ذلك .

أنثي بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم أودوا في سبيلي وقتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار (١) (٠) آل عمران : ١٩٥

ولقد اشتد الأذى والضغط على الذين لم يهاجروا إلى الحبشة ، واستطاعوا أن يصمدوا مدة أخرى ، فأذن الله ورسوله لهم بالهجرة إلى المدينة بعد أن انضوى فريق من زعماء يثرب (المدينة المنورة) من الأوس والخزرج إلى دين الله ، ورحبوا بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إليهم ، ووعدوه بالنصر والدفاع ، فهاجروا فريق بعد فريق ورجال ونساء مكررين الصورة المشرقة بالتضحية بالمال والوطن والأقارب والمصالح في سبيل دين الله معبرين بذلك عن شدة تمسكهم به ، واستغراقهم فيه كما فعل رفاقهم من قبل ، مما عبرت عنه آية سورة الحشر هذه تعبيراً قوياً .

(الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون (٠) الحشر : ٨

وقد أشارت الآية التالية لهذه الآية إلى إيمان زعماء الأوس والخزرج وأقاربهم قبل الهجرة وترحيبهم بالمهاجرين من مكة بهذه العبارة التوثيقية القوية :

(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٠) الحشر : ٩

ولقد أحس زعماء الكفار من قريش بالخطر بعد ذلك ، فتآمروا على النبي صلى الله عليه وسلم على ما تفيد آية سورة الأنفال هذه :

(١) الآية كذلك مدنية وبعد الهجرة . وتعبير (أخرجوا) يعني : أنهم الجئوا على الخروج نتيجة للأذى والضغط .

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون
ويمكر الله والله خير الماكرين (١) (٥) ٣٠

فأذن الله حينئذ لرسوله بالهجرة بدوره مما أشارت إليه آية التوبة
هذه :

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما
في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه
وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي
العليا والله عزيز حكيم (٥) ٤٠

وفي سورة الممتحنة آيات أخرى تشير إلى اضطراب النبي صلى الله
عليه وسلم وأصحابه إلى الهجرة نتيجة لأذى الكفار وهي هذه :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم
بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وأياكم أن تؤمنوا
بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم
بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء
السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم والسنتهم
بالسوء وودوا لو تكفرون .) الممتحنة : ١ و ٢

وقد تعذر على بعضهم الهجرة مع النبي والمؤمنين إلى المدينة فظفوا
تحت الضغط والأذى ، ومنهم من اضطرب إلى كتم إسلامه على ما تفيد
هذه الآيات :

١ - (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال
والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها
واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً .) النساء : ٧٥
٢ - (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا
كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها

(١) تأمروا على النبي صلى الله عليه وسلم فمنهم من أشار بحجسه ، ومنهم من أشار
بنفيه ، ومنهم من أشار بقتله ، والروايات تذكر أن الاتفاق قد تم على قتله ، فأخبره الله
بذلك وأذن له بالهجرة .

فأولئك ماواههم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً (١) .
النساء : ٩٧ - ٩٩

٣ - (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً (٢)) . (الفتح : ٢٥)

وفي سورة المتحنة إشارة إلى صورة مشرقة قوية أخرى حيث تفيد أن بعض المؤمنات اللاتي تعذر عليهن الهجرة ، وكن زوجات للكفار ، اغتنمن فرصة سانحة ، فتركن أزواجهن ووطنهن ومصالحهن وهاجرن إلى المدينة ملتحيات بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ضاربات بذلك المثل الرائع الذي ضربه الرجال ، وقد جاء ذلك في الآية التالية :

(يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لا هن حلّ لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تتكحوهن إذا آتيتوهن أجورهن (٣)) . (المتحنة : ١٠)

(١) الآيات تفرق بين من يستطيع الهجرة ولو مجازفة ، وبين من لا يستطيع ، فتلوم الأولين وتحنن ، وتعذر الآخرين .

(٢) في الآية إشارة إلى أناس مؤمنين رجال ونساء في مكة يكتُمون إسلامهم ، وهم على الأرجح الذين لم يستطيعوا الهجرة وعذرهم الله .

(٣) كان ذلك بعد صلح الحديبية الذي كان من شروطه أن يرد النبي من يأتي إليه من مكة ولو كان مسلماً ، فجاء أزواج النساء المؤمنات الفارات أو أهلهم يطلبون الوفاء بالشرط ، فأمر الله بعدم إعادتهن ، لأنهن أصبحن محرمات على أزواجهن الكفار ، وأمر بالتعويض على هؤلاء الأزواج حلاً للأمر . انظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٥ وبعدها . مطبعة حجازي بالقاهرة .

وفي كتب السيرة ما يفيد أن من المؤمنين الذين تعذر عليهم الهجرة إلى المدينة من كان محبوساً مقيداً بالأغلال منعاً له من الهجرة (١) والرعيل الأول من الأنصار (أهل المدينة من العرب) قد آمنوا قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم على ما تفيد آية سورة الحشر هذه :

(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم مَن يحبون هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .)

حتى لقد روت كتب السيرة أنه لم يكن بيت في المدينة لم يدخله الاسلام قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (٢) .

وكل هذا يؤيد أن إيمان الذين آمنوا في مكة ، ثم في المدينة قبل هجرة النبي إليها كان بحافز الرغبة في الايمان بأنفسهم لما رواه من اعلام صدق نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومبادئ الدعوة السامية التي دعا بها .

ولقد كان من هؤلاء أهل كتاب وعلم وجدل وحجاج ، ومنهم من ثبتت عبقرية عقولهم وحكمتهم وحنكتهم القيادية ، وثاقب بصائرهم ، وقوة شخصياتهم وقدرتهم على استيعاب الأمور والنفوذ إليها ، ولا يمكن أن يكونوا قد خدعوا أو توهموا ، ولا بد من أن يكونوا قد تيقنوا بما لا يتحمل أي ريب من صدق تلك الاعلام فضلا عما كان من قوة مبادئ الدعوة وأهدافها الإصلاحية والانسانية والاجتماعية والسلوكية والروحية . وعدد هؤلاء كبير ، فيكون امر صدق صلة النبي صلى الله عليه وسلم بالله ووحيه يقيناً ثابتاً بالمشاهدة العيانية ، وإنكار ذلك بعدهم هو إنكار تعسفي لحادث مشهور مشهود متيقن منه ، شاهده وتيقن به ، وأخبر به جمهور كبير من مختلف الفئات ، وفيهم العلماء والنبهاء والأذكياء والخبراء ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ وبعدها .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٨ وبعدها مطبعة حجازي .

ومنهم ما لا يصح أن يفرض أنه كان مخدوعاً أو متوهماً ، ويكون ذلك الإنكار متهافتاً وجرافاً من دون ريب .

وتبدو قوة الشهادات والمشاهد العيانية عظيمة إذا ما لوحظ أنها وردت أيضاً في القرآن الكريم الذي هو بقطع النظر عن قدسيته عند المسلمين وثيقة مسلم بها من كل الناس بأن ما فيها من أحداث وأخبار ومشاهد وشهادات قد دون فور نزوله دون تأخر ، ودون أن يشاب بشائبة من خيال ومبالغة وتناقض وروايات متعددة أو متأخرة مما هو فريد بالنسبة لما هو من بابه من أخبار الأنبياء السابقين .

وإذا نحن قلنا : إن أي ظن بأن إسلام الرعيل الأول من المكين أو المدنيين الذين سماهم القرآن (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) كان بالضغط أو التهويش أو الخداع غير وارد البتة ، فإن هذا لا يعني أن ذلك وارد بالنسبة للذين آمنوا من بعدهم في العهد المدني وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فالدعوة استمرت وفق توجيه القرآن الذي تمثله آية سورة النحل هذه :

(أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .)
١٢٥ .

ومن لم يؤمن كان يترك وشأنه إلى أن يرعوي فيؤمن أو يموت كافراً حسابه عند الله ما دام مسلماً لا يمد يده للإسلام والمسلمين بأذى ، اتباعاً لتوجيه القرآن كذلك في آيات كثيرة مكية ومدنية معاً منها هذه الآيات :

١ - (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم .) البقرة : ٢٥٦ مدنية .

٢ - (إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب .) فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين

أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد (٠) آل عمران : ١٩ و ٢٠ مدنية .

٣ - (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٠) آل عمران : ٦٤ مدنية .

٤ - (إلا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلاً (٠) النساء : ٩٠ مدنية .

٥ - (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون (٠) الأعراف : ١٥٨ مكية .

٦ - (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم (٠) فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (٠) التوبة : ١٢٨ و ١٢٩ مدنية .

٧ - (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل (٠) واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (٠) يونس : ١٠٨ و ١٠٩ مكية .

٨ - (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً (٠) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً (٠) وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً (٠) ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً (٠) الأحزاب : ٤٥ - ٤٨ مدنية .

٩ - (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل (٠) الزمر : ٤١ مكية .

١٠ - (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار (٠) فذكر بالقرآن من يخاف وعيد (٠) ق : ٥ مكية .

١١ - قل يا أيها الكافرون (٠) لا أعبد ما تعبدون (٠) ولا أنتم عابدون

ما أعبد . ولا أنا عابداً ما عبادتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين (١) . سورة الكافرون : مكية .

ويلفت النظر إلى التساوق والانسجام البارزين في التوجيه القرآني بقطع النظر عن اختلاف العهد ، وتبدل مركز القوة إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين في العهد المدني ، بل إن القرآن قد حث في هذا العهد - والنبي ، والمسلمون في مركز القوة - على البر بمن يسالم المسلمين من الكفار والإقساط إليهم كما جاء في آية في سورة الممتحنة التي نزلت بين يدي بلوغ النبي والمسلمين شأواً كبيراً في القوة ، جعلهم يتحفظون إلى الزحف على مكة ذلك الزحف الذي أدى إلى فتحها وهي هذه :

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين .) الممتحنة : ٨ .

وكل ذلك يبلغ الذروة والجلال واليقين بأن الدعوة هي إلى الحق والصلاح وخير الإنسانية وسعادتها ، وقد كانت تسير في نطاق الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وترك الناس بعد ذلك لعقولهم وتميزهم واختيارهم ، وكل دعوى خلاف ذلك هي داخضة باطلة .

ولقد ظل ينضوي إلى الإسلام بعد الرعيل الأول من الأنصار من مختلف فئات الناس من مشركين ووثنيين وكتابين وعرب وغير عرب طوائف بعد طوائف استجابة للدعوة التي ظلت تسير في هذا النطاق مما يمثله جملة (والذين اتبعوهم بإحسان) في آية سورة التوبة هذه :

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه .) التوبة : ١٠٠ .

وآية سورة الحشر هذه :

(والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم .) الحشر : ١٠ .

التي جاءت بعد ذكر الرعيل الاول من المهاجرين والانصار في الآيتين (٨ و ٩) حتى عم سائر انحاء الجزيرة مما تمثله سورة النصر هذه التي نزلت في اواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم :

(إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً .)

وأخذ يتسرب إلى خارج الجزيرة ، ويدخل فيه أناس من المشركين والكتابيين في بلاد الشام والعراق والحشة على ما ذكرته روايات السيرة الوثيقة ، وقد يكون بعض طوائف دخلت في الدين الاسلامي رغبة وطمعا أو تقية ، وأن لا يكون الايمان قد تمكن من قلوبها ، وهذا مما تؤيده نصوص قرآنية عديدة كما ترى فيما يلي :

١ - (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون .) البقرة : ٨ و ٩ .

٢ - (ويخلفون بالله إنهم لنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون .) التوبة : ٦ و ٥٧ .

٣ - (سيقول لك المخلفون من الأعراب شفطنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً) الفتح : ١١ و ١٢ .

٤ - (سيقول المحلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدونا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً .) الفتح : ١٥ .

٥ - (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتمس من أفعالكم شيئاً إن الله غفور رحيم .) الحجرات : ١٤ .

وقد كان الله ورسوله يقبلون منهم هذا الموقف لأنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام ، ويحلفون أنهم من المسلمين كما جاء في آيات سورتي البقرة والتوبة التي أوردناها قبل قليل ، ولأنهم كانوا يصلون ، ويؤتون الزكاة ولو بكسل ورياء على ما ذكرته آيات أخرى كما ترى فيما يلي :

- ١ - (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يראؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً .) النساء : ١٤٢ .
- ٢ - (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون .) التوبة : ٥٤ .

وذلك على احتمال توبتهم ، وكان القرآن يحثهم دائماً على ذلك كما ترى في هذه الآيات :

- ١ - (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً .) النساء : ١٤٥ و ١٤٦ .
- ٢ - (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا بك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير .) التوبة : ٧٤ .

ولقد سجل القرآن صورة متطورة للأعراب ، فقد جاء في سورة التوبة فصل عنهم انتهى بهذه الآيات :

- (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مفرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم .)

ثم جاء بعد ذلك هذه الآية :

- (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات

عند الله وصلوات الرسول إلا إنها قرينة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم . (التوبة : ٩٧ - ٩٩ .

ولقد تطير اليهود في المدينة حينما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليها لأنهم رأوا في هجرته خطراً على ما كان لهم من مصالح ومراكز ، فأخذ معظمهم موقف المناوء المتأمر . ولقد كان عبد الله بن أبي زعيم عشيرة قوية من الخزرج مرشحاً للملك على قومه قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فحالت هذه الهجرة دون مطمح فحقده وناق (١) ، وتعصب له بعض أفراد عشيرته ، فقامت حركة النفاق في المدينة ، وسارع اليهود إلى التحالف معهم والوسوسة لهم ، وتحريضهم فكانت المواقف المتنوعة التي ذكرها القرآن ، وندد بأصحابها وأنذرهم (٢) . فلما أجلى النبي صلى الله عليه وسلم اليهود عن المدينة ، أخذت هذه الحركة تضؤل ، وثاب كثير من المنافقين إلى رشدهم ، وتابوا إلى الله ، ولم يستمر على نفاقه إلا أفراد قليلون ماتوا أو مات جلهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . ولم ترو أية رواية أن النبي طاردهم أو أمر بقتل أي منهم ، والمتبادر أنه لم يعتبرهم أعداء خطرين على الإسلام والمسلمين ، فوسع الصدر لهم ، ولا سيما أنهم كما قلنا : كانوا يظهرهم الإسلام ، وقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة .

وما كان من أمر قرآني بالقتال ، أو عمل نبوي حربي وتأديبي وتنكيلي ضد الجاحدين إنما كان بسبب أنهم لم يبقوا في نطاق الجحود والمماحكة الكلامية والجدلية ، بل تجاوزوا هذا النطاق إلى الأذى والعدوان ، ومصادرة حرية الدعوة ، وتهديد سلامة المسلمين ، والاعتداء

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٣٤ - ٣٣٥

(٢) اقرأ اذا شئت آيات سورة البقرة ٨-١٦ ، وآل عمران ٥٦ و١٦٦ و١٦٧ ، والنساء ٦٠-٩١ و ١٣٧-١٤٦ ، والمائدة ٥٢ و٥٣ ، والانفال ١٩ ، والتوبة ٤٢-١١٠ و ١٢٤-١٢٨ ، والنور ٤٨-٥٤ ، والاحزاب ١-٢٠ و ٥٧-٦٣ ، ومحمد ٢٠-٣٠ ، والمجادلة ٨-٩ و ١٤-٢٢ والحشر ١١-١٥ ، والمنافقون ٨ .

عليهم بالقتال مع عدم العدوان ، وعدم تجاوز الحد في التأديب والمقابلة بالمثل ، ودفع الأذى والخطر مما احتوت تقريره آيات قرآنية عديدة منها هذه الآيات :

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله وأعلموا أن الله مع المتقين . وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين .) البقرة : ١٩٠ - ١٩٥ .

٢ - (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً .) النساء : ٩١ .

٣ - (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلفوا وإن يعودوا فقد مضت سنتة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير .) الأنفال : ٣٨ - ٤٠ .

٤ - أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (١) .
الحج : ٤٠ و ٤١ .

(١) هذه الآيات أول ما نزل بالاذن للمسلمين بقتال أعدائهم الكفار الذين كانوا يعتدون عليهم باللسان واليد والقتال .

ولقد لقي مسلمون بعض الناس ، فالقى هؤلاء السلام ، أو اظهروا أنهم مسلمون أو مسالمون ، فلم يصدقهم المسلمون ، وقتلوهم وغنموا ما معهم اجتهداً أنهم من الكفار الأعداء ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : إنهم كانوا كاذبين مخادعين ، فقال لهم : هلا شققتم عن قلوبهم . وأنزل الله هذه الآية الرائعة :

هـ - (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً) النساء : ٩٤ .

ولقد كان يقبل من الأعراب أن يقولوا : أسلمنا ولو لم يدخل الإيمان في قلوبهم أملاً بأن ذلك سيكون بالقدوة والممارسة على ما تضمنته آية سورة الحجرات هذه :

(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم) (١٤٠) .

وفي سورة الأنفال آيات تأمر النبي بالجنوح للسلم إذا جنح إليها العدو حتى ولو كان قد نقض العهد قبل أو كان متوقفاً منه الخداع وهي :

(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون .

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) (٥٥ - ٦٣) .

والوقائع الحربية التي جرت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم سواء التي قادها بنفسه أم عهد بقيادة المسلمين فيها إلى قواد عينهم كانت في نطاق هذه التوجيهات . وما يقال ويروى ويفسر خلاف ذلك لا يثبت على تمحيص .

ولو كان في الملحين حسن نية ورغبة في الإذعان للحق وضمير حي ، لتأثروا بدون ريب بما احتوته الآيات التي أوردناها في جميع النبذ السابقة النافذة إلى الأعماق الباعثة لأقوى اليقين في النفس الصافية بأنها لا يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم فيها كاذباً ومفترياً ومتوهماً ومتخيلاً ، ولا بد من أن يكون قد تم اتصال بينه وبين مبدع الكون الحكيم ، وتلقى وحياً منه بتبليغ رسالته إلى خلقه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، وبأن آلاف الآلاف من الناس الذين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمعوا منه مواجهة ، وآمنوا به ، وكان منهم كثيرون من أهل الكتاب ، ومن الراسخين في العلم ، ومن ذوي العقول الراجحة والنباهة والذكاء والاطلاع والشخصيات القوية ، ومنهم وافدون عليه من خارج الجزيرة لاستطلاع أمره والسماع منه ، إنما آمنوا تأثراً بذلك وتيقناً منه ، وفي ذلك شهادات عيانية لا يماري فيها إلا مكابر عنيد متعسف ولن ينقض هذا أن يكون طوائف أو أفراد من الذين أسلموا من بدو قد أسلموا رغبة وطبعاً أو تقية ونفاقاً على ما شرحناه آنفاً ، فإن إيمان الرعيل الأول والذين اتبعوهم باحسان ، والذين هم متصفون بالصفات التي ذكرناها يظل شهادة عيانية لا يمكن أن تدحض .

وليس ما تقدم هو كل حجتنا عليهم ، ففيما يأتي المزيد المقنع لمن يريد أن يقنع ويدعن للحق .

الفصل الثالث

النظرة الاعتبارية الجرافية إلى القرآن والعواصم من ذلك

- ١ -

يقع الملحدون فيما يقعون فيه من سوء فهم وتأويل وتمحل ، ويجرؤون على ما يجرؤون عليه من تخرص وتنطع في صدد محتويات القرآن بسبب كونهم ينظرون فيه نظرة اعتبارية وجرافية ، ويتعسفون في فهمه تعسفاً متناقضاً مع اللغة والتاريخ والوقائع والحقائق والمنطق العام . وكثيراً ما يأخذون آية بل جملة من آية ، أو فصلاً من سورة فيماحكون ، ويتمحلون فيه دون أن يتنبهوا ، أو يهتموا ، أو يستوعبوا لما في بقية الآية أو سياقها السابق أو اللاحق ، أو السور الأخرى من تتمات واستدراكات وتوضيحات في حين أن الواجب والمنطق والحق والعلم معاً يقضي بأن يؤخذ القرآن ككل متكامل ، يفسر بعضه بعضاً ، ويوضح بعضه بعضاً ، ويتم بعضه بعضاً بحيث يقال بحزم : إنه لا يوجد آية فيها وهم تعارض وتباين وإشكال إلا وفي سياقها أو في آية أخرى ما يزيل ذلك الوهم ، ويظهر وجه الحق والحكمة والصواب مما هو من معجزات القرآن العظيمة الخالدة .

وكثيراً ما يتجاهلون أو يجهلون ، أو لا يتنبهون إلى الصلة الوثيقة بين القرآن والبيئة التي نزل فيها ، وبين القرآن والسيرة النبوية ، فينظرون في آياته وفصوله نظرة منعزلة عن ذلك وغير متسقة مع ظروف نزولها وبواعثها وأسبابها وجوها ، وكثيراً ما يكونون جاهلين للغة التي نزل بها القرآن ، وأساليبها الخطابية ، فيتعسفون في تأويل لغة القرآن ، وكثيراً ما يتمسكون بجوانب متشابهة من القرآن ، ويهملون ما فيه من

محكمات حاسمة فيها تفسير لهذه الجوانب. وفي كتاب «نقد الفكر الديني» لصادق جلال العظم نماذج كثيرة من هذه المسائل مما سوف نعرض له بعد .

ومن المؤسف أن كثيراً من المسلمين ، بل ومن علمائهم وباحثيهم ومفسريهم قديماً وحديثاً وقعوا في كل ذلك بقطع النظر عن حسن نية هؤلاء وسوء نية أولئك ، فكانوا مع ذلك فيما يقولون ويكتبون ويؤلفون تكأة للملحدين أيضاً فيما يقولون ويكتبون ويؤلفون ويتخرصون ويتمحجون ، وقد استند العظم على كثير من ذلك فيما ساقه وتحجج به .

ولو تروى الناظرون في القرآن من الفريقين ، لأمكنهم أن يصححوا كثيراً من الأخطاء التي يقعون فيها ، ويفهموا القرآن على وجهه الحق . وفيما يلي شرح وتوضيح .

ولقد أطلنا الشرح في مباحث هذا الفصل حتى صار أطول فصول الكتاب ، لأن هذه المباحث مهمة جداً في فهم القرآن ، واستيعاب محتواه وأهدافه بصورة عامة للمسلمين وغيرهم ، ولأن صادق العظم وهو يمثل الملحدين قد تصدى في كتابه « نقد الفكر الديني » لكثير من محتويات القرآن التي تدخل في نطاق هذه المباحث ، فصار من المفيد والواجب التصدي والرد عليه ، ووضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .

- ٢ -

أولاً :

القرآن والسيرة النبوية

إن التروي في القرآن يظهر أنه من اعتبار ما سلسلة تامة للسيرة النبوية وتطورها منذ بدئها إلى نهايتها ، متصل بعضها ببعض ، ومفسر

- ١٠٧ -

بعضها لبعض^(١) ففي كل سورة من سوره ومجموعة من مجموعاته ، أو فصل من فصوله صورة لموقف من مواقف النبي صلى الله عليه وسلم من اهل بيئته من العرب وغير العرب ، ومن المشركين والوثنيين والكتابين ، أو صورة لموقف من مواقفهم منه ومن دعوته ، أو صورة من صور مواقف النبي صلى الله عليه وسلم من الذين استجابوا للدعوة ، أو من مواقفهم منه ، أو من مواقف الكفار منهم ، أو مواقف الكفار ، أو صورة لتطورات جميع هذه المواقف دعوة وتبياناً وبرهنة وتديلاً وعظة وتنبيهاً وتبشيراً وإنذاراً ووصفاً وتشبيهاً ، وقصصاً وأمثالا ، وترغيباً وترهيباً ووعداً ووعداً ، وجدالاً وحجاجاً ، وتحدياً وعناداً ، ومكابرةً واستكباراً وأذىً وتنديداً ، وتنوياً وتسلياً وتثبيتاً وتطميناً وتصبيراً وسؤالاً وجواباً وجهاداً وتشريعاً وتسجيلاً لواقع وقت النزول إلخ الخ ، وكل صورة معطوفة على صورة سابقة ، أو مرتبطة بصورة لاحقة في انساق وانسجام تامين ، وضمن نطاق واحد مما يتضح لكل من ينعم النظر في القرآن ، ويقرأ سوره خاصة وفق تتابع النزول المعروف أو المخمن بقدر الامكان . وملاحظة ذلك مهمة جداً في فهم مواضيع القرآن وتقريراته ومداه وروحه ، وفي جعل الناظر فيه لا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث ، ولا يأخذ ما يقرأ منعزلاً عن ملابساته ، وهذه الملاحظة تعصم من التورط في التخمينات والتزييدات والجدليات وتحميل العبارات القرآنية ما لا تحمله .

ففي القرآن مثلاً ما يفيد أنه جرى تبديل بعض الآيات ببعض ، وأن بعض آيات أو أمور مأمورة نسخت بغيرها ، وأن ذلك أثار إشكالا بين

(١) نقول من قبيل الاستدراك : إننا لا نعني أن القرآن قد احتوى جميع صور السيرة النبوية ، أو ما احتواه منها قد جاء قصداً لها بالذات ، فهناك من دون ريب أحداث وصور كثيرة من السيرة النبوية لم ترد في القرآن ، كما أن ما جاء منها فيه إنما جاء في الحقيقة عرضاً وبسبيل الدعوة أو الموعظة أو التذكير أو التشريع أو الأمر والنهي ، أو التوضيح أو الإجابة على سؤال ومشكل مما اقتضته الحكمة ليكون مصدر إلهام وإحياء وتوجيه ومرجع تشريع وتلقين في جميع العصور ، وليس محصوراً بأهل عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته كما يفيد الأسلوب الذي جاءت به والذي صار بذلك فريداً معجزاً ومرشحاً له وللشريعة القرآنية والرسالة الإسلامية للخلود والأبدية .

المسلمين ، وأن الكفار من أهل الكتاب والمشرّكين استغلّوا ذلك فأنبروا للتشويش ، كما يستفاد من الآيات التالية :

١ - (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير . ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل . ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير .) البقرة : ١٠٥ - ١١٠ .

٢ - (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين . إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون .) النحل : ٩٨ - ١٠٥ .

وفي القرآن مثلاً ما يفيد أن أحكاماً وأوامر وتشريعات ، عدلت أو نسخت ، أو تطورت كما تدل عليه الآيات التالية :

١ - (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهم إن الله كان تواباً رحيماً .) النساء : ١٥ و ١٦ .

٢ - (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين .) الأنفال : ٦٥ و ٦٦ .

٣ - (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين (١)) . النور : ٢ .

٤ - (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم . أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون .) المجادلة : ١٢ و ١٣ .

وفي القرآن مثلاً تنوع في الخطاب للناس عامة مسلمين وغير مسلمين ، سواء أكان ذلك في صدد الدعوة أم في صدد المواقف أم في صدد التبشير والإنذار والتمثيل والتشريع والهداية والضلال والكفر والإيمان والإحسان والإساءة حيث يكون الخطاب شديداً ميثساً حيناً ، وليناً مؤملاً حيناً ، وجانحاً حيناً إلى تقرير كون الهداية والضلال والكفر والإيمان والإحسان والإساءة من مكتسبات المرء ، وتقدير التبعية عليه فيها حسنة أم سيئة نتيجة لذلك ، وجانحاً حيناً إلى تقدير كون ذلك من تقديرات الله ومشيئته المطلقة التي لا ينفع فيها إنذار ولا تبشير مما هو مبثوث في مختلف السور والفصول في القرآن ، ومستغن عن التمثيل هنا .

وفيه مثلاً تقارير شديدة وميئسة بالنسبة للكفار والمنافقين ، كما جاء مثلاً في الآيات التالية :

١ - (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم .) البقرة : ٦ و ٧ .

(١) في الآية تعديل لبعض أحكام آيتي سورة النساء ١٥ و ١٦ المذكورتين في الرقم -١-

٢ - (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم .) التوبة : ٦٧ و ٦٨ .

٣ - (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم تنذرهم لا يؤمنون .) يس : ٨ - ١٠ .

٤ - (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أني يؤفكون . وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم يستكبرون . سواء عليهم أاستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لك يغفر لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين .) المنافقون : ٣ - ٦ .

وقد تضمنت هذه الآيات تقريراً جازماً بمصير رهيب محتوم لهؤلاء بعدم الإيمان باستحقاق الخلود في النار مع أن آيات عديدة أخرى ، فتحت لكفار والمنافقين على اختلاف فئاتهم باب التوبة ، وآيات أخرى سجلت إيمان بعضهم ، وأثنت عليهم . وهذه آيات فتح فيها لهم باب التوبة :

١ - (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم .) البقرة : ١٦٠

٢ - (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول بحق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين . أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم .) آل عمران : ٨٦ - ٨٩ .

٣ - (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً .
إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع
المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً . ما يفعل الله بعذابكم إن
شكرتم وأمنتُمْ وكان الله شاكراً عليماً .) النساء : ١٤٥ - ١٤٧ .

٤ - (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض
فساداً أن يقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا
من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين
تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم .) المائدة :
٣٣ و ٣٤ .

٥ - (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم
وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن
يتوبوا بك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة
وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير .) التوبة : ٧٤ .

٦ - (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي
حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب
يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك
يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً .) الفرقان :
٦٨ - ٧٠ .

وهذه آيات سجل فيها انضمام طوائف منهم إلى المؤمنين بعد كفرهم
أو نفاقهم وارتدادهم مع الثناء والتوبيخ :

١ - (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم
وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض (١) .) الأنفال : ٧٥ .

٢ - (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم
باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه (٢) .) التوبة : ١٠٠ .

(١) كان التوارث قد منع بين المؤمنين وأقربائهم الكفار ، وجعل بين المخاضين من الانصار
والمهاجرين ، فلما آمن الأقرباء عدل ذلك ، وعاد التوارث الى حالته الطبيعية وهي أولوا
الأرحام بعضهم أولى ببعض .

(٢) جملة الذين اتبعوهم باحسان تعني كما هو المتبادر : الذين آمنوا بعد وحسن
إسلامهم .

٣ - (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون (٢) .) التوبة : ١١ .

٤ - (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لففور رحيم (١) .) النحل : ١١٠ .

٥ - (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم (١٠) الحشر : ١٠ .

وهناك أمثلة كثيرة أخرى من هذا الباب لا تفوت المدقق في الآيات القرآنية ، فاكثفنا بما تقدم لأن فيه الدلالة التي نريد أن نبه عليها .

ولقد كانت هذه المسائل وما تزال مثار جدل وحيرة حول ما إذا كان يصح على الله المحيط بما كان ويكون ، والأزلي العلم والارادة البداء أي الرجوع عما أنزله وقرره وأمر به وشاءه وأراده ، ونسخه ، وتعديله وتبديله ، وتنويع مفهومات الاحتمالات والنصوص فيه . في حين أن ملاحظة الوحي القرآني الوثيقة بالسيرة النبوية ، وأحداثها على تنوع وتطور صفحاتها وظروفها تجعل الناظر في القرآن يندمج في الوقائع والمقتضيات ، ويجد أن كثيراً من الآيات والفصول القرآنية إنما كانت تنزل حسب حوادث السيرة وظروف الدعوة ، وتسجيلاً للواقع عند النزول ، وأنه لما كانت هذه الحوادث والظروف متحركة متكررة متجددة متطورة ، فإن ذلك يجعله يرى الحكمة واضحة في التعديل والتكرار والتبديل ، والنسخ والتنويع والشدة واللين في الخطاب ، ويجعله يرى أن الحدال في ذلك النطاق لا محل له ولا طائل من وزائه ، لأن التطور والتنوع في الأحداث والظروف والأذهان والمواقف متسقان مع طبائع الأمور والحياة ونواميسها التي فطر الله الكون عليها ، فلا بدع أن تقتضي حكمته أن يكون ذلك في التنزيل القرآني اتساقاً مع هذه الطبائع والنواتيس .

(١) هذه الآية في صدد أشخاص ارتدوا من الإسلام تحت ضغط الكفار وإغرائهم ثم فروا فعادوا إلى الإسلام ثانية .

(٢) من الأمور اليقينية أن من هؤلاء من تاب وآمن ودخل الأخوة الإسلامية .

والمدقق في الآيات القرآنية التي تفيد ذلك يجد القرآن يورد التقارير المقتضية حسب الأحداث والظروف وتنوعها وتطورها على أسلوب الحكيم ، فلا يدخل في نقاش جدلي إلا بمقدار الضرورة المناسبة مع الموقف الواقعي المتحرك ، فيعلمنا بذلك الطريقة المثلى لفهم القرآن وروحه ومداه ، وظروف تنزيله وتنوعه وأسلوبه ، وكون المهم فيه هو الإصلاح والتوجيه إلى خير الوجهات لظروف قائمة وأذهان وفئات ومواقف متفاوتة ومتنوعة ومتطورة .

- ٣ -

ثانياً :

القرآن والبيئة النبوية

إن المدقق في القرآن يجد الصلة وثيقة بين ما كانت عليه بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره من تقاليد وعادات وعقائد وأفكار ومعارف ، وبين محتويات القرآن (١) . وهذه الصلة واضحة :

أولاً - من جهة أن الدعوة الإسلامية والوحي القرآني بوجه عام إنما اقتضتهما حكمة الله بسبب ما كان عليه الناس - وأهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم في مقدمتهم وهم المخاطبون الأولون - قبل البعثة من ضلال في فهم وإدراك وجوب وجود الله وكمال صفاته وتنزهه عن الشريك والولد ، واستغنائه عن الولي والمساعد ، ومطلق تصرفه في كونه ، واستحقاقه وحده للعبودية والخضوع والاتجاه ، ووجوب نبذ ما سواه . ومن انحراف عن طريق الحق والخير والعدل والفضيلة . ومن اختلاف عظيم في المذاهب والعقائد والطقوس ، سواء في ذلك كله العرب وغيرهم ، والكتايبون والمشركون ثم بسبب أن ذلك ناشئ عما كان من تقاليد وأفكار ومعارف وأهواء وتأويلات ومفاهيم عند الناس وفي بيئة النبي صلى الله عليه وسلم في المقدمة ، اقتضت حكمة الله نسخها أو تعديلها .

(١) الاستدراك الذي أوردناه في صدد صلة القرآن بالسيرة النبوية وأرد بتمامه في صدد الصلة بين القرآن والبيئة النبوية ، فنكتفي بهذا التنبيه دون التكرار .

وثانياً - مما احتواه القرآن من فصول الجدل والتنديد والتفريع في صدد هذه التقاليد والعادات والأفكار والمعارف والأهواء والتأويلات والمفاهيم ، فيها إشارات كثيرة إلى كثير من صورها المتنوعة ، وفيها ربط بينها وبين مواقف أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم من الدعوة النبوية ، يضاف إلى هذا المظهر القرآني العام نصوص قرآنية خاصة في هذا المعنى ، وردت في مواضع عديدة وبأساليب متنوعة إذا تمعن القارئ فيها ظهرت له هذه الصلة ظهوراً جلياً (١) . ونزيد بالإيضاح بالأمثلة التالية :

١ - في القرآن تأكيدات مكررة بعدم جدوى الشفاعة والشفعاء عند الله إلا بأذنه ورضاه ، وتنديدات باعتذار المشركين عن عبادتهم لشركائهم واتجاههم إليه في الدعاء والتصريح بأنهم إنما يتخذونهم شفعاء ووسائل قربى إلى الله ، وتكرر ذلك يدل على رسوخ هذا المفهوم في أذهان المشركين في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره قبل البعثة ، وهكذا تبدو الصلة وثيقة بين ذلك وبين ما جاء في القرآن في صده .

٢ - في القرآن آيات بل فصول كثيرة عن الملائكة والجن والشياطين بأساليب متنوعة مما يفيد أنهم كانوا يشغلون حيزاً كبيراً في أذهان سامعي القرآن الأولين ، وهم أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعقائدهم ، فكان ذلك مما يلمح فيه حكمة التنزيل فيما جاء عن هذه المخلوقات الغيبية في القرآن .

(١) الآيات كثيرة . فرائنا أن نكتفي بذكر أرقام المهم منها وسورها للرجوع إليها في المصحف عند قراءة هذه النبرة ، سورة البقرة ٨١-٨٥ و ١٠٧-١١٦ و ١٢٥-١٢٩ و ١٥٨-١٥٩ و ١٩٧-٢١٩ و ٢٤٧-٢٨٣ ، سورة آل عمران ٥٩-٦٠ و ٧٧ و ٧٨ و ٩٣-٩٧ ، سورة النساء ٢-١٢ و ١٩-٢٤ و ١٥٢-١٦١ ، سورة المائدة ١-٥ و ١٢-١٩ و ٧٢-٨٠ و ٩٠-٩٧ و ١٠١-١٠٤ ، سورة الانعام ٥١-٥٣ و ١١٩-١٢١ و ١٣٦-١٤٤ ، سورة الانفال ٣٤ و ٣٥ ، سورة التوبة ١٦-١٩ و ٣٥-٣٧ و ٨٩-٩٧ ، سورة النحل ٥٣-٦٤ ، سورة الأنبياء ٢٧-٣٩ ، سورة الشعراء ٢١٠-٢٢٣ ، سورة لقمان ٢١ .

٣ - في القرآن المكي نفي لاتخاذ الله ولداً في معرض الرد على المشركين والتنديد بهم ، وفيه آيات تفيد أن ذلك متصل بعقيدة العرب التي حكاها القرآن أيضاً بكون الملائكة بنات الله ، وقد تكرر كل هذا مما يدل على رسوخه في أذهان المشركين من أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم .

٤ - إن آيات القرآن الواردة في شعائر الحج ، تفيد صراحة حيناً وضمناً حيناً آخر ، أنها كلها أو جلها قد كانت ممارسة قبل البعثة ، فأقرت في الإسلام بعد تنقيتها من شوائب الشرك والوثنية والقبح (١) ، وكان العرب ينسبونها إلى إبراهيم عليه السلام ، وقد أبد القرآن ذلك ، وكان ذلك التجريد إعادة للأمر إلى نصابه الذي لا بد من أنه هو الذي كان عليه في عهد هذا النبي المؤمن الموحد المخلص ، مع أن فيها ما قد لا يفهم حكمة إقراره الآن مثل الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار (٢) . واستلام الحجر الأسود ، فهذه الآيات متصلة بتقاليد الحج العربية قبل الإسلام ورسوخها وأهدافها ، وفيها مظهر ما لوحدة العرب على اختلاف منازلهم ونحلهم حيث كانوا يشتركون جميعهم في الحج ومواسمه وتقاليده وحرماته ، وأشهره الحرم . وحكمة إقرارها في الإسلام منطوية في ذلك الرسوخ من جهة وما كان له من فائدة وأثر في الوحدة المذكورة التي كان القرآن يدعو إليها من جهة أخرى . ولعل قصد تأنيس العرب بالدعوة الإسلامية مما ينطوي في تلك الحكمة أيضاً ، وفي سورة القصص آية مهمة في هذا الباب وهي :

(وقالوا إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا .)

حيث تفيد أنهم حسبوا أن تكون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قد هدفت إلى إلغاء تقاليد الحج ، وكان من مقتضى هذه التقاليد حرمة مكة ومنطقتها وتوافد العرب عليها من كل صوب ، وإقامة المواسم حولها ،

(١) مثل الطواف في حالة العرى .

(٢) رمي الجمار كناية عن الحصوات التي يقدفها الحجاج على انصاب في منى بعد

نزولهم من عرفة في أيام العيد .

فَكَانَ خَوْفُهُمْ مِنْ أَسْبَابِ امْتِنَاعِهِمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِلدَّعْوَةِ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ حَوُوا أَنْ فِيهَا هُدًى وَحَقًّا . وهكذا تبدو الصلة وثيقة بين ما جاء في القرآن من ذلك ، وما كان عند أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم من هذه التقاليد الراسخة .

٥ - في القرآن آيات كثيرة فيها قصص وأخبار ، ومواقف عديدة عن إبراهيم عليه السلام ، ليست واردة في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم الذي هو المصدر القديم الوحيد الذي وصل الى عهدنا ، والذي فيه تفصيل لسيرة هذا النبي وذريته ، ومن ذلك دعوته لقومه ومحاججته معهم ، وتكسيه الأصنام ، ومحاولتهم إحراقه بالنار ، ودعاؤه بأن يجنبه الله وبنيه الأصنام ومحاججته مع أبيه ومع ملكه ، وإسكانه بعض ذريته في منطقة الحرم المكي ، وإنشاؤه مع إسماعيل ابنه الكعبة ، وكونه أول من دعا إلى الحج إليها ، وكون العرب أو بعضهم ينتسبون إليه ، ودعاؤه مع إسماعيل بأن يرسل إليهم منهم رسولا يهديهم . وجميع ذلك الذي لم يذكر في المصدر الوحيد القديم الذي ذكرت فيه سيرة هذا النبي مما كان يتداوله أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً قبل البعثة ، وهكذا تبدو الصلة وثيقة بينما انفرد القرآن بذكره من ذلك ، وبين ما كان معروفاً متداولاً في هذه البيئة ، ومن الحكم الملموحة في ذلك تنبيه العرب إلى ما كان من عقيدة إبراهيم التوحيدية الخالصة ، ورغبته ودعائه في أن يكونوا على ذلك ، ووجوب استجابتهم للدعوة النبوية التي هي ملة أبيهم إبراهيم ، ونبذ ما شابهها من شوائب (١) .

٦ - ليس في القرآن المكي حملات عنيفة على اليهود الذين كان يسكن منهم في الحجاز جاليات كثيرة من أصل إسرائيلي ، واكتفى فيه بذكر قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل الأولى مستهدفاً بذلك ما استهدفه بذكر قصص الأنبياء الأخرى من عبرة وعظة ، وقد جاءت هذه القصص بإسهاب أوفى مما جاءت قصص الأنبياء والأمم الأخرى مما يمكن أن يكون

(١) إقرأ آيات البقرة ١٢٢-١٢٣ و ٢٥٨ و ٢٦٠ وآل عمران ٩٥-٩٧ والأنعام ٧٤-٩٠

و ١٦١ والتوبة ١١٣ و ١١٤ وإبراهيم ٣٥-٤١ ومريم ٤٤-٥٠ والأنبياء ٥١-٧٣ والحج

٢٦-٢٧ و ٧٨ والشعراء ٦٩-١٠٣ والصفات ٨٢-٩٨ .

سببه أو الحكمة فيه وجود تلك الجاليات الكثيرة ، وصلته الوثقى بالبيئة الحجازية العربية، في حين أن القرآن المدني احتوى حملات شديدة لاذعة على اليهود ، ووصفاً لسوء أخلاقهم ودسائسهم ومكائدهم مع وصل حاضر هذه الأخلاق بأخلاق آبائهم الأولين . فهذا متصل بدون ريب بحالة قائمة في البيئة النبوية وظروفها ، إذ لم يكن لليهود في مكة كيان ومركز قوي راسخ في حين كان لهم ذلك في المدينة، فلم يقع بينهم وبين النبي في مكة احتكاك وصدام وتشاد بل وكان منهم نحوه موقف إيجابي في حين أن ذلك قد وقع بينهم وبينه في المدينة بسبب ما كان لهم فيها من كيان قوي ، وقدم راسخة ، ومصالح حيوية ، ومركز ممتاز ، لأنهم رأوا في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبروزة ، وانتشار دعوته ، وتعلق الناس به خطراً على ذلك ، فظهر أثر ذلك في الأسلوب المدني دون الأسلوب المكي (١) .

٧ - ولقد كان صنع الخمر والانتفاع به تجارياً وممارسة شربه راسخاً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، فانعكس ذلك على ما جاء في القرآن من تدرج في النهي عنه وتحريمه (٢) .

٨ - ومثل هذا يقال في الميسر والربا أيضاً ، ولقد نبه القرآن بناء على ذلك والله أعلم ، أولاً على عدم رضى الله عن الربا ، وعلى إثم الميسر، ثم نهى عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة ، ثم شدد النهي والتحريم في النهاية بالنسبة لكليهما (٣) .

(١) قارن بين ما جاء في القرآن المكي وأسلوبه في سور الاعراف ١٠٣-١٠٦ ويونس ٩٥-٧٥ والاسراء ٨-٤ وطه ٩٩-٩٦ والمؤمنون ٤٥-٤٨ والشعراء ١٠-٦٦ والقصص ٣-٤٣ والصفات ١١١-١٢١ وغافر ٢٢-٤٦ وبين الأسلوب المدني في صدد بني إسرائيل واليهود في سورة البقرة ٤٠-١٢٤ و آل عمران ٦٥-١٢٠ و ١٨٠ - ١٨٨ والنساء ٤٤-٥٦ و ١٥٠-١٦١ والمائدة ١٢ و ١٣ و ٢٠-٢٣ و ٤١-٨٢ .

(٢) اقرأ آيات البقرة ٢١٨ والنساء ٤٢ والمائدة ٩٠ .

(٣) اقرأ آيات سورة الروم ٣٩ والبقرة ٢١٩ و ٢٧٥-٢٨١ وآل عمران ١٣٠ و ١٣١ والمائدة ٩٠ و ٩١ وآيات البقرة ٢٧٥-٢٨١ في الربا نزلت بعد آيات آل عمران فيه فهذه الآيات نهت عن أكله أضعافاً مضاعفة وآيات البقرة نهت عنه كلياً وبكل شدة .

٩ - وفي القرآن فصول عديدة في الأنعام وأنواعها وأكلها وتقاليدها ومحرماتها ، ولقد كانت الأنعام تشغل حيزاً كبيراً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أهل هذه البيئة يصدرون في تقاليدهم فيها عن زعم كونها تقاليد دينية ، فكان من حكمة التنزيل ذكر ذلك في مناسبات عديدة ووضع الأمر فيه في نصابه الحق (١) .

١٠ - ولقد كان الرق والانتفاع به تجارياً وجنسياً راسخاً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، فانعكس ذلك فيما جاء عنه في القرآن حيث اقتضت حكمة التنزيل تنظيمه تنظيمًا عادلاً مع الحث على تحريره والرفق به ، ومع أساس تشريعي لالغاء استرقاق أسرى الحرب ، وهذا هو المورد الأعم الأغلب للرق (٢) .

وليس ما أوردناه هو كل ما تظهر الصلة بينه وبين ما احتواه القرآن، فهناك كثير يمكن أن يورد أيضاً فاكتفينا بما تقدم .

وملاحظة هذه الصلة مهمة جداً كسابقتها في فهم مواضيع القرآن وتقريراته وروحه ومداه وفي جعل الناظر فيه يندمج في الوقائع ومقتضياتها، ولا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث ، وفي عصمته من التورط في الجدل والتزيد ، وتحميل العبارات القرآنية ما لا تتحملة ، وما لا طائل من ورائه، وأخذها مجردة عن ملابساتها ، مع التذكير بأن ما نبهنا عليه في صدد ما احتواه القرآن من صور للسيرة النبوية ينسحب على ما احتواه من صور ما جاء فيه مما له صلة بالبيئة النبوية من حيث إنه قد جاء بأسلوب يجعله مصدر إلهام وإيحاء وتوجيه ومرجع تشريع وتلقين في جميع العصور ، وليس محصوراً بأهل عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته .

(١) اقرأ آيات المائدة ٣-١ و ١٠٣ و ١٠٤ والأنعام ١١٨-١٢١ و ١٢٦-١٥٠ .

(٢) اقرأ آيات البقرة ١٧٧ والنساء ١٥ و ٣٦ و ٩٢ والمائدة ٨٩ والتوبة ٦٠ والمؤمنون ٧ والنور ٣١ و ٢٣ و ٥٨ والمجادلة ٣ والانسان ٨ والبلد ١١-١٣ أما التشريع الذي انطوى على أساس الفاء استرقاق أسرى الحرب فينطوي في آية سورة محمد الرابعة ، مع التنبيه على أن السنة النبوية أقرت لولي الأمر أن يسترق الأسرى إذا كان في ذلك مصلحة عامة .

ثالثاً :

اللغة القرآنية

مما يجب ملاحظته على الناظر في القرآن أن مفردات اللغة القرآنية واصطلاحاتها وأساليبها وأمثالها وتشبيهاتها واستعاراتها ومجازاتها هي لغة البيئة النبوية ، وأنها مألوفة ومفهومة ألفة وفهماً تامين من أهلها .

وليس الذي نعينه بهذا تقرير قضية قد تكون بديهية في بعض الأذهان ، ولكن الذي نعينه وجوب ملاحظة ذلك حين النظر في القرآن ، لأنه يساعد على فهم اصطلاحات لغة القرآن وأساليبه وأمثاله وتعبيراته واستعاراته ومجازاته وجدلياته ، ومعاني مفرداته من جهة ، ثم ملاحظة كون القرآن من جهة أخرى قد وجه أول ما وجه إلى أناس ألفوا لفته كل الألفه ، وفهموها كل الفهم ، ووصلوا في عقولهم ومعارفهم وبياناتهم ودقة تعابيرهم ، وبلاغة أساليبهم ، وفصاحة أسنتهم والاستمتاع بمتنوع أشكال الحياة المادية والمعاشية ، والنفوذ الى المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية والعلمية والأدبية إلى درجة غير يسيرة من الرقي متناسبة مع ما عبرت عنه لغة القرآن ، وقررت ، وأشارت إليه وتضمنته مما هو نتيجة لازمة لكون القرآن إنما نزل بلسانهم ، ولكون لغة القوم هي أصدق مظهر لحياتهم المادية والعقلية والاجتماعية والدينية . ثم اننا نعني بذلك بالإضافة إلى هذا أن ينتفي من ذهن الناظر في القرآن :

أولاً : المعنى الذي حلا لبعضهم أن ينوده به وهو انطواء بعض حروف القرآن وكلماته بل وبعض جملة وتعابيره وصور سبكه ونظمه على أسرار وألغاز ومعميات .

وثانياً : المعنى الذي قرره بعضهم من علو طبقة القرآن عن افهام سامعيه إطلاقاً دون استثناء .

وثالثاً : المعنى الذي قرره بعضهم من أن لغة القرآن قد احتوت أو قصد أن تحتوي جميع لهجات ولغات العرب القديمة والحديثة - عند نزوله - مع لغات الأمم الأخرى .

ورابعاً : الحجة التي حلا لبعضهم أن يسوقها وهي أن الله كما أرسل موسى عليه السلام في ظرف ارتقى فيه السحر وشاع ، بمعجزات تشبه السحر وليست سحراً ، وكما أرسل عيسى عليه السلام في ظرف ارتقى فيه الطب وشاع ، بمعجزات يعجز عنها الطب والأطباء ، فقد أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن في ظرف كانت سوق الفصاحة والبلاغة رائجة ، ووصلنا إلى أعلى الذرى نظماً ونثراً ، فقصر عنه البلاء والفصحاء ، فكان في ذلك معجزته (١) من حيث إن جميع ذلك لا يصح في حال . فمن ناحية علو طبقة لغة القرآن عن أفهام الناس إطلاقاً أو انطواء حروفه وكلماته على أسرار ومعميات ، فإن في القرآن نصوصاً حاسمة تنفي ذلك حيث تنص على أنه أنزل بلسان مبین ، أي : واضح مفهوم ، وإن آياته فصلت تفصيلاً ، وأنه أنزل ليتدبره السامعون ويعقلوه ويفهموه ويتذكروا به ، ويحلون به ما يختلفون فيه . وأنه أنزل لقوم يعلمون وبلغه النبي صلى الله عليه وسلم التي هي لغة قومه كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .)

هود : ١ .

٢ - (إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون .) يوسف : ٢ .

٣ - وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .)

إبراهيم : ٤ .

٤ - (تلك آيات الكتاب وقرآن مبين .) الحجر : ١ .

٥ - (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى

ورحمة لقوم يؤمنون .) النحل : ٦٤ .

٦ - (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتذر به قوماً لداً .)

مريم : ٩٧ .

٧ - (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي

مبين .) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥ .

٨ - (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حياً ويحق القول

على الكافرين .) يس : ٦٩ و ٧٠ .

(١) في كتاب الاتفاق للسيوطي مثلاً أقوال كثيرة من كل هذه الابواب .

٩ - (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب .)
ص : ٢٩ .

١٠ - (كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون .)
فصلت : ٣ .

١١ - (إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون .) الزخرف : ٣ .

١٢ - (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون .) الدخان : ٥٨ .

وفي سورتي النساء ومحمد آيتان مهمتان في هذا الباب وهما :

١ - (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافًا كثيرًا .) النساء : ٨٢ .

٢ - (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .) محمد : ٢٤ .

حيث تنطويان على تقرير كون تدبر القرآن سهلا على من أراد ،
وليس من مانع يمنعه إلا المكابرة والعناد .

وفي سورة الزمر هذه الآيات :

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون .)
قرآنًا عربيًا غير ذي عوج لعلهم يتقون (٢٧ و ٢٨ .

حيث تنطوي على تقرير كون أمثال القرآن مضروبة لجميع الناس
ليتدبروا ويتذكروا ، وكون القرآن سلس اللفظ لا غموض فيه ولا تعقيد .
وهناك آيات عديدة من باب آيات سورة الزمر هذه ، وفي مداها منها
هذه الآيات :

١ - (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس
إلا كفورًا) الإسراء : ٨٩

٢ - (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورًا .)
الفرقان : ٥٠ .

٣ - (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم
بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون .) الروم : ٥٨ .

وهذه الآيات وآيات كثيرة أخرى تفيد بقوة وحسم أن القرآن كان
موجهًا إلى كل طبقة من أهل بيعة النبي صلى الله عليه وسلم . يحكي

كلامهم وأسئلتهم ، ويرد عليها مجيباً أو منهدداً أو مكذباً أو ملزماً ، أو واعظاً أو مشرعاً . وفي هذا ما يتنافى كذلك مع تلك المعاني . ومن ناحية أخرى ، فإن ذلك لا يمكن أن يتسق مع مهمة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي بالدرجة الأولى تلاوة القرآن على جميع الناس ، ودعوتهم به إلى الله ، وقد جاء في القرآن فيما جاء :

(وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به . الأنعام : ١٩ .)

ولا مع هدف القرآن الذي أنزل ليكون هدى ورحمة للناس جميعهم ، والذي أمرهم فيه باتباع ما جاء فيه من أحكام ، وفهم ما فيه من عبر ومواعظ ، وأمثال وبتدبر آياته ، وبالتروي في محتوياته ، والذي نبههم فيه إلى أنه مرجعهم في مختلف شؤونهم ، ومنه يستمدون تشريعهم ، وأخلاقهم ونذرهم وبشائرهم وحل مشاكلهم وخلافاتهم . . الخ .

ومن ناحية احتواء القرآن لمختلف اللهجات ولفات الأمم عربها وعجمها وقديمها وحديثها على المقصد الذي قصده القائلون - وهو أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم رسول إلى جميع العرب وإلى جميع الأمم ، وأن القرآن يقول : إن الله لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ، فصار من الضروري أن يكون في القرآن لغة كل العرب وكل الأمم الأخرى ، فانه لا يتسق مع نصوص القرآن المطلقة والمتعددة بأنه أنزل بلسان عربي ، وجعل لساناً عربياً ، وأنزل بلسان النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يقال بكل حزم : إن كل كلمة فيه هي عربية كانت مستعملة مفهومة من سامعيه قبل نزوله ، وإن كان حقاً فيه كلمات أعجمية الأصل ومن ذلك أسماء معظم الانبياء الذين هم ليسوا من العرب الصريجين ، والذين وردت أسماءهم معربة بصيغ عربية ، ومن ذلك جبريل وميكال ومالك وهاروت وماروت وطالوت وجالوت الخ . . ، ومن ذلك سندس واستبرق ودينار وقنطار ودرهم وفردوس وسجيل وغيرها وغيرها فانها قد عبرت ، واستعملت من قبل العرب قبل نزوله ، ففدت جزءاً من اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن ، وما يمكن أن يكون فيه من كلمات تنسب الى قبائل عربية غير قریش فان ذلك يكون عائداً إلى وقت ماض ، ثم صارت جزءاً من اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن .

ولقد أمر الله رسوله بأن يتلو القرآن على الناس كما جاء في آيات كثيرة منها هذه الآيات :

١ - (واوحى إلي هذا القرآن لأنفركم به .) الأنعام : ١٩

٢ - (اتل ما اوحى إليك من كتاب ربك .) الكهف : ٢٧ .

٣ - (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين .) النمل : ٩١ - ٩٢ .

٤ - (اتل ما اوحى إليك من الكتاب .) العنكبوت : ٤٥ .

٥ - (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .)

العنكبوت : ٥١ .

ومن الأمور اليقينية أن الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم القرآن ، كانوا من مختلف الفئات والطبقات والجهات ، وكان منهم من يأتي من أنحاء بعيدة من جنوب الجزيرة وشرقها وشمالها بل ومن خارجها من العرب الذين كانوا يقيمون في بلاد الشام والعراق ، ولا ينبغي أن يشك شك في أنهم كانوا يفهمون ما يتلى عليهم . ولقد احتوى القرآن نصوصاً كثيرة تقرر المرة بعد المرة ماهو عليه من وضوح وبيان وإحكام وتفصيل ويسر فهم وسهولة إدراك في معرض التنديد بالمكابرين والمجادلين . وهذا إنما هو ملزم مفحم ، لأن اللغة التي يسمعونها واضحة بينة مما الفوه كل الالفة ، وليس فيها غموض ولا تعقيد ولا إشكال ، ولا علو عن الافهام . لا من ناحية النظم والسبك والمفردات ولا من ناحية المعنى والمفهوم والدلالة . ولقد تكرر في القرآن المكي والمدني الاشارة الى أهل الكتاب وأهل العلم ، وفي بعض الآيات ما يفهم أن من هؤلاء من جاء خصيصاً ليجتمع بالنبي ويسمع منه ، وكان منهم من تفيض عيونهم بالدمع ، ويخرون سجداً من تأثير ما يسمعون منه ويعلنون إيمانهم وتصديقهم على ما سجله القرآن ، وأوردنا تسجيلاته في نبذة سابقة مما يلهم أنهم كانوا يسمعون كلاماً يفهمونه مع أنهم جاؤوا من نجران اليمن أو بلاد الحبشة أو بلاد الشام على ما روته الروايات ، كما أن اليهود الاسرائيليين والنصارى غير

الحجازيين ، والذين يمتون أو يمت أكثرهم إلى أصول غير صريحة العروبة كانوا يفهمون ما يتلى عليهم منه .

على أن كل هذا ملموح في القرآن إلى اليوم من كل امرئ متوسط الثقافة فضلا عن رفيعها ، وإذا كان يبدو فيه لبعض الناس شيء من الغموض أو الغرابة في المفردات والتعبيرات ، وإذا كان بدا فيه شيء من ذلك في القرون التي تلت القرون الثلاثة الأولى ، فإن هذا كله إنما كان يسبب بعد الناس عن جو نزول القرآن وزمنه ، وجو لفته ، وجو البيئة التي نزل فيها من جهة ، وما طرا على اللسان العربي من الفساد من جهة ، وما كان من اندماج كثير من غير العرب في العروبة ولقتها وتعلمها تعلمًا لا يمكن أن يقوم مقام السليقة الأصلية في بنيتها الأصليين من جهة .
وفي كل ما تقدم دحض لما جاء في النقطة الرابعة من حجة أو بالأحرى (نكتة) لا تثبت على تمحيص لا في مقدمتها ولا في نتيجتها .

ومن هذه البيانات والشروح تتجلى فائدة ملاحظة كون اللغة القرآنية هي لغة أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي نفس الوقت هي لغة سائر جميع العرب والمستعربين الذين كان كثير منهم يلتقي بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويسمعون القرآن منه ، وأنها لم يكن فيها بالنسبة إليهم جميعاً غموض ولا تعقيد ، وأنهم كانوا يفهمونها ، فإن ملاحظة ذلك تجعل الناظر في القرآن يندمج في جو ذلك ، فتجلى له المعاني والأساليب الخطابية على وجهها ، وحقيقة مداها ، ويعتصم بذلك من الانحراف إلى معان ومفاهيم وتزييدات وتكلفيات وتخمينات ومعميات لا تتحملها نصوص القرآن وأساليبه ودلالاته وظروف وجو نزوله ، ومهمة من أنزل إليه .

ونريد أن نستدرك أمراً ، فأننا لسنا نعني بما نقرره أننا نشك في إعجاز القرآن ، وعلو طبقته اللغوية والنظمية كما أن كلامنا لا يفيد ذلك ، فإعجاز القرآن لا يحتمل شكاً ، فهو مقرر في القرآن ، وثابت فعلاً بعجز أي كان عن الاتيان بمثله أو بشيء من مثله رغم تكرار التحدي . وقد شرحنا ذلك في مناسبة سابقة ، وعلو طبقته بارز بوضوح لم يترك العلماء

الثقات في التنبيه عليه محلاً للزيادة ، غير أن الذي نعينه أن إعجاز القرآن ، وعلو طبقته ، وروعة أسلوبه لا تقتضي أن يكون أعلى من مستوى افهام الذين خوطبوا به ووجه إليهم ، ولا أن يكون أبعد من متناول إدراكهم ، ولا أن تكون مفرداته ومضامينه وتراكيبه غير مألوفة لديهم ، ولا أن يكون قصد به أن يكون معجزاً في بلاغته اللغوية والنظمية والفنية ، والفرق كبير بين المعنيين كما هو واضح فيما يتبادر . ولعله مما يصح أن يذكر في هذا المقام على سبيل التمثيل والتقريب - ولله ولكتابه ونبيه المثل الأعلى - مثل كاتب ذي أسلوب براق شائق قوي النفوذ ، يجعله في الطبقة الاولى أو ذروتها في حين يكون سهل التناول غير غامض ولا معقد ، يستطيع أن يسيغ كتابته ، ويفهمها مختلف القراء وأواسطهم بل وإن هذا الأسلوب ليكون دائماً أحسن الأساليب وأفصحها ، وهو الذي يسميه البيانيون بالسهل الممتنع ، هذا عدا عن أن إعجاز القرآن فيما نعتقد ليس من ناحية نظمه ، وأسلوبه اللغويين فحسب ، بل هو أيضاً من ناحية ما احتواه من احكام وإحكام ومبادئ وتلقينات روحانية نافذة باهرة ، ونعتقد أن لهذا الاعتبار الأول في اعجازه ، وأن التحدي وتقرير عدم إمكان الإتيان بمثله أو بشيء من مثله إنما هو (القرآن) وهذا هو الذي استعمل في القرآن الذي كما هو لغة وأسلوب هو كذلك معان ودعوة نافذة قوية باهرة في مداها ومضمونها ، وشمولها وسعة افقها وروحانيتها التي وصف أثرها في القرآن بهذا الوصف .

- ١ - (إن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم .) الإسراء : ٩ .
- ٢ - (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .) الإسراء : ٨٢ .
- ٣ - (الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء .) الزمر : ٢٣ .
- ٤ - (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء .) فصلت : ٤٤ .

٥ - (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .) الحشر : ٢١ .
ثم الذي وصف القرآن أثرها في أهل العلم والكتاب بهذا الوصف القوي النافذ :

١ - (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين .) المائدة : ٣٨ و ٨٤ .

٢ - (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك .)
الرعد : ٣٦ .

٣ - قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للاذقان يكونون يزيدهم خشوعاً .) الاسراء : ١٠٧-١٠٩ .
ونريد كذلك أن ينبه على نقطتين أخريين :

فأولاً : إن ما قلناه عن فهم المخاطبين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم للقرآن لا يقتضي أن يكون متناقضاً مع ما هو مقرر بصورة حاسمة من أن لغة القرآن هي لغة قريش ، فالقرآن وجه أول ما وجه إليهم وإلى القبائل والمدن الحجازية كما جاء في آيتين متماثلتين في سورتي الأنعام والشورى وهما :

١ - (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولننذر أم القري ومن حولها .) الأنعام : ٩٢ .

٢ - (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القري ومن حولها .) الشورى : ٧ .

على أن لغة قريش من جهة أخرى كانت إجمالاً في عهد البعثة النبوية لغة العرب جميعهم على اختلاف منازلهم ، أو على الأقل كانت مفهومة من

العرب جميعهم بسبب ما كان من اشتداد التحاك بين قريش وسائر العرب في مواسم الحج التي كان يشترك فيها العرب جميعهم الذين كانوا يفدون من كل صوب من انحاء الجزيرة وخارجها والتي كانت تقوم قبل البعثة بمدة ما ، بسبب وحدة الاصل من حيث المبدأ .

ولقد وصف القرآن بالعربي كما جاء في الآيات التي أوردناها قبل ، وكان من يتكلم بغير العربية يسمى أعجمياً كما جاء في آية سورة النحل هذه :

(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين .)

بحيث يستفاد من ذلك أن العربية حينما تطلق كانت تشمل العرب جميعهم لغةً وجنساً ، وأنه لم يكن للعرب جميعهم لغة غير اللغة التي نزل بها القرآن ، وأن لغة قريش التي هي لسان النبي صلى الله عليه وسلم الذي ذكر القرآن أن الله قد يسر القرآن به :

(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون .) الدخان : ٥٨ .

أي لغة النبي صلى الله عليه وسلم كانت هي لغة العرب جميعهم التي وصفت بأنها (لسان عربي مبين .)

وثانياً : أن ما قلناه من أن كل كلمة في القرآن كانت مفهومة من العرب والمستعربين على حقيقة مداها ومعناها لا يقتضي أن يكون مناقضاً لما هو طبيعي فرضاً وواقعاً وبديهة من وجود كلمات فيه لا يفهم مداها ومعناها بعض فئات من العرب ، بل ومن وجود كلمات قد لا يكون سمعها بعض فئات من العرب بل ومن وجود تعبيرات يقال في صدها مثل ذلك . وهذه الظاهرة ملموسة في كل ظرف وقطر ، وفي كل فئة بما فيها الفئات المتعلمة ، ومع ذلك فمن المشاهد الملموس أن الناس على اختلاف فئاتهم وثقافتهم وخاصة أواسطهم لا يعيهم أن يفهموا ما يقرؤونه من رسائل وكتب وصحف ويسمعونه من خطب وإذاعات . وطبيعي أن العرب في

عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن بعثته لم يكونوا ليخرجوا عن نطاق هذه الظاهرة وإذا روي عن بعض الصحابة جهلهم لمعنى كلمة من الكلمات القرآنية ، فلا يكون في ذلك غرابة بقطع النظر عن صحة الرواية متناً وسنداً .

- ٥ -

رابعاً : الأسس والوسائل ، أو المحكمات والمتشابهات في القرآن
مما يجب ملاحظته على الناظر في القرآن أن محتوياته نوعان متميزان ، وهما الأسس والوسائل ، والأسس هي التي انطوى فيها أهداف التنزيل القرآني ، والرسالة النبوية من مبادئ وقواعد وتشريع وأحكام وتلقينات ، مثل وجوب وجود الله تعالى ووحدته وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد ، واتصافه بجميع صفات الكمال ومطلق تصرفه في الكون ، واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ، ونبد كل ما سواه ، والإيمان باليوم الآخر وكتب الله ورسله ، والقيام بالواجبات التعبدية له ، ومثل المبادئ والأوامر والنواهي والتشريعات والأحكام والتلقينات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والسلوكية والاقتصادية سلبية كانت أم اجتماعية .

أما عدا ذلك مما احتواه القرآن من مواضيع مثل القصص والأمثال والوعد والوعيد ، والترهيب والترغيب ، والتنديد والجدل والحجاج ، والأخذ والرد والتذكير والبرهنة ، والإلزام ولفت النظر إلى نواميس الكون ، ومشاهد عظمة الله وقدرته ، وتقرير ما فيها من مدى ، وإلى مخلوقاته الخفية والعلنية والمشاهد الأخروية ، فهو وسائل تدعيم وتأيد لتلك الأسس والأهداف ، وبسبيل ذلك .

ومع أن النوع الثاني قد شغل حيزاً كبيراً ، بل الحيز الأكبر في القرآن مما هو متصل بمواقف السيرة النبوية ، وأحوال البيئة النبوية ، فإن ملاحظة هذا التقسيم لآيات القرآن تجعل الناظر في القرآن بل وتوجب

عليه أن يكون اهتمامه الأشد ، وعنايته الكبرى مصروفين لتفهم آيات الأهداف والمبادئ وتجليتها ، وأن يقف من آيات النوع الثاني - أي الوسائل - عندما اقتضت حكمه التنزيل إبحاؤه منها بالأسلوب الذي أوحى به دون تزييد ولا تكلف ولا تخمين ، ولا تحميل لها ما لا ضرورة لتحميلها إياه ، ولا سيما أنها جاءت بأساليب متنوعة تتحمل وجوهاً عديدة التأويل لتحقيق هدفها التدعيمي ، وأن لا يترك لها المجال لتغطي على النوع الأول - الأسس - وتكون له شغلا شاغلا مستقلا بحيث يستغرق فيها مثل استغراقه في النوع الأول ، فضلا عن استغراقه فيها أكثر من استغراقه في هذا مما هو مع الأسف واقع ومشاهد ، كالانشغال بماهية القصص القرآنية ، والنواميس والمشاهد الكونية ، والمخلوقات الخفية من ملائكة وجن وشياطين ، ومشاهد الحياة الآخروية ، وبحيث يغفل عن هدفها الرامي الى تدعيم النوع الأول ، ويجعله يهمل التدبر فيه ، ويتورط فيما لا طائل من ورائه ، ويقع نتيجة لذلك في الحيرة والبلبله دونما ضرورة وموجب .

ونسارع إلى استدراك مهم ، وهو أن كلامنا في صدد مدى آيات الوسائل إنما هو من أجل الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إبحاؤه منها بالأسلوب والمدى اللذين أوحى بهما لتحقيق الهدف منها ، ومن أجل التنبيه على عدم ضرورة التزييد والتكلف في استكناه الماهيات وحسب ، ولا يعني ولا يصح أن يعنى أنها ثانوية أو أنها غير جوهرية أو أنها زائدة ، فجميع ما في القرآن من النوعين هو كلام الله ، وكله حق وحكمة ومهم وجوهري في ما أنزل في صدره ، وإلى هذا فان المتعمن في القرآن لا بد من أن يلمح ما في هذه الآيات من روائع الموعظة والحكمة والأمثال والبيان وقوة الجدل والحجة والإلزام والتذكير والتنبيه والترغيب والترهيب مما فيه إلهام وتلقين جليان لكل مسلم ، بل لكل إنسان على مر العصور ، وفي كل المناسبات .

وننبه على أن هذا التقسيم بالمعنى الذي نقرره مستلهم بوجه عام من روح القرآن وأسلوبه وآياته مما يستطيع أن يلمحه كل من انعم النظر فيها حيث يجد أنه لم ترد قصة أو مثل أو موعظة أو جملة تنديدية أو

إنذار أو تنويه أو أشادة أو إشارة تنبيهية إلى السابقين أو إلى ملكوت الله وعظمته ودعوة إلى التفكير في آلائه ، أو ذكر للملائكة والجن والشياطين ، أو وعد ووعد بالحياة الآخروية ، ومشاهدها ونتائجها المبهجة أو المزعجة إلا بعد تقرير الأسس والأهداف أو شيء منها ، أو الدعوة إليها ، أو بيان الحق والخير والصالح والسعادة والنجاة فيها أو حكاية مواقف الكفار منها ، أو تثبيت النبي والمسلمين فيها وتصبيرهم عليها ، وهذا من مميزات الأسلوب القرآني وخصوصياته بالنسبة لسائر الكتب التي يتناولها أهل الكتاب ، وينسبونها إلى الله وأنبيائهم ، وحيث يجد أن هذه الأسس والأهداف تظل محكمة ثابتة مع ما هو طبعي من اختلاف مواقف النبي صلى الله عليه وسلم وتنوعها بالنسبة لفئات الناس والعقول والظروف في حين يجد أن ما هو من الوسائل والتدعيمات يتنوع ويختلف أسلوباً ومدى وتعبيراً مع اختلاف تلك المواقف وتنوعها ، وهذا خاصة من شأنه أن يكون مقياساً وضابطاً للتفريق بين نوعي آيات القرآن المذكورين ، بل ومن شأنه أن يحل ويزيل ما يتوهم الناظر في القرآن من إشكالات في الأسلوب والمدى والتعبير أيضاً .

وهو مستلهم كذلك من آيات كثيرة جداً ذكر فيها القرآن في معرض التنويه بما احتواه من هدى ونور ورحمة وذكر ، أو في معرض الجدل مع الكفار ، أو حكيت فيها أقوالهم عن القرآن كما ترى في هذه الآيات التي لها أمثال كثيرة جداً .

١ - (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .) المائدة : ١٥ و ١٦ .

٢ - (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ .) الأنعام : ١٩ .

٣ - (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم

لغافلين . او تقولوا لو انا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . (الانعام : ١٥٥ - ١٥٧ .

٤ - (كتاب انزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتتذبر به وتذكرى للمؤمنين .) الاعراف : ٢ .

٥ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين .) الأنفال : ٣١ .

٦ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون .) يونس : ١٥ و ١٦ .

٧ - (آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .) إبراهيم : ١ .

٨ - (لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم .) الحجر : ٨٢

٩ - (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً .) الإسراء : ٩ .

١٠ - (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .) الإسراء : ٨٢ .

١١ - (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً .) الفرقان : ٤ و ٥ .

١٢ - (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً .) الفرقان : ٣٠ .

١٣ - (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً .) الفرقان : ٣٢ .

١٤ - (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون .) فصلت : ٢٦ .

١٥ - (إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدير واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر (١) .) المدثر : ١٨ - ٢٥ .

فمع أن من المسلم به أن كلمة (القرآن) تطلق على كل ما بين دفتي المصحف من كلام الله ، فإن هذه الآيات وأمثالها الكثيرة جداً ، والتي لا تكاد سورة من سوره الطويلة أو المتوسطة أو القصيرة نوعاً ما تخلو من آية أو أكثر منها تشير إلى شيء آخر غير ما احتوته من ردود ومجادلات وتنديدات وتحديات ومواقف وأقوال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو الكافرين والجاحدين ، وتسليات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوامر ربانية الخ . . . وتفيد بدون شك أن المقصود الأصلي هو الآيات والفصول التي فيها أسس الدعوة ومبادئها وأركانها وحكمها وتلقيناتها وأحكامها وتشريعاتها ، وتفيد أن الكفار إنما كانوا يقولون أقوالهم المحكية عن القرآن قاصدين بذلك هذه الآيات والفصول ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : ما حكته سورة الفرقان : (يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً .) قد قصد كذلك هذه الآيات والفصول ، وهذا فضلاً عما يفيد الجدال حول القرآن وكلام الكافرين عنه من أن ذلك خارج عن ذلك المقصود ، حينما نزلت الآيات التي تحكي هذا الجدال والكلام .

وهو مستلهم بوجه خاص من بعض نصوص صريحة في القرآن - مع ملاحظة ما قد يكون لها من خصوصيات زمنية ، يأتي في مقدمتها وقد يكون أقواها مدى وأوضحها دلالة آية سورة آل عمران هذه :

(١) الآيات التي من هذا الباب التي فيها ذكر القرآن والكتاب وكلام المشركين والكفار والجدال معهم في صده كثيرة ، وقد اكتفينا بما تقدم على كثرته لإبراز المعنى الذي نريد تقريره إقرأ أيضاً آيات البقرة ١ و ٢ ، والنساء ٨٣ ، والانعام ١١٤ ، ويونس ٣٨ ، وهود ١٢ وطه ٣ و ١١٢ .

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب
وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء
الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون
آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب . ربنا لاتزغ قلوبنا
بعد إذ هديتنا وهب لنا من لذلك رحمة إنك أنت الوهاب . ٧ و ٨

والآيات نزلت في سياق الرد على وفد نصراني من اليمن ، تناظر مع
النبي صلى الله عليه وسلم في أمر المسيح عليه السلام ، فلما أفحمه النبي
صلى الله عليه وسلم قال له : (ألا تقول : إن المسيح كلمة الله وروح منه)
قال النبي صلى الله عليه وسلم : بلى ، فقال الوفد : هذا حسبننا . فنزلت
الآية الأولى تندد بالوفد الذي ترك الأصل القرآني المحكم ، وهو أن الله
واحد ولا يصح أن يكون له ولد ولا شريك ولا شبه ولا يتجزأ ، ولا يصح
فرض انتقال جزء منه إلى غيره ، وجنح إلى تأويل بعض آيات قصد بها
التقريب والتمثيل تأويلاً متناسباً مع هواه حيث أريد بما ذكر في القرآن
عن ظروف ولادة عيسى عليه السلام تقرير كون ذلك قد تم بإعجاز رباني
وحسب ، وهذا فضلا عن المحكم القرآني المقرر أن عيسى عبد الله
ورسوله ، وأنه كمثل آدم خلقه من تراب ، والمقرر كذلك بلسان عيسى
بأنه عبد الله ورسوله ، وكان الواجب أن يلتزم بالمحكم ، وأن يقول
للمتشابه : آمنا به كل من عند ربنا ، وأن يدعو الله بأن لايزيغ قلبه كما
هو شأن الراسخين في العلم .

وعلى خصوصية الآيات من حيث المناسبة ، فإنها جاءت بأسلوب
تقريري عام لتكون شاملة الحكم والمدى بحيث يصح أن يستلهم منها بقوة
أن القرآن نوعان متميزان ، أحدهما محكم أساسي لا يحتمل تأويلاً ولا
تنوعاً ولا وجوهاً افتراضية وتقريبية ، وهو (أم الكتاب) .

وثانيهما متشابه بسبيل التقريب والتمثيل والإلزام والبرهنة ،
ويحتمل التأويلات المتعددة أو الوجوه الافتراضية العديدة .

والمتعمن في الفصول والآيات التي تدخل فيما سميناه بالوسائل يرى

أنها قد اختلفت أساليبها والفاظها ، وأنها أريد بها التشبيه والتمثيل والتقريب والترغيب والترهيب والوعظ والتذكير ، والتنبيه والتنويه والتنديد والتبشير والإيضاح والإنذار ، ويلمح فيها بكل قوة هدف تدعيم المبادئ والأسس والأحكام والتلقينات التي احتوتها آيات وفصول النوع الأول ، الذي نعتقد أن القرآن قصده بتعبير (آيات محكمات هن أم الكتاب) ونعتقد أن تعبير (آخر متشابهات) قد قصد به آيات النوع الثاني . وفي هذا تلقين قوي بعدم الضرورة ديناً لاستكناه ماهيات مافي النوع الثاني من مسائل ومواضيع ، وبوجوب الوقوف عندما اقتضت حكمة التنزيل إحياءه بالأسلوب الذي أوحيت به لتحقيق الهدف التدعيمي الذي استهدفه دون تزييد ولا تكلف ، والتزام ما أمر به من القول (كل من عند ربنا) وما علمته من الدعاء (ربنا لاترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا) .

وسياتي بعد هذا البحث بحث في كل نوع من انواع الآيات التدعيمية والمتشابهة المذكورة ماسوف يزداد الأمر به وضوحاً أمام القارئ إن شاء الله . وفي سورة محمد هذه الآيات :

(ويقول الذين آمنوا لولانزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ٢٠ و ٢١)

فإن كلمة (محكمة) في الآيات تفيد كما هو واضح (الأمر المبرم) أو (الغرض المطلوب) الذي لا بد من القيام به ، والمراد الذي لا يتحمل تأويلات عديدة .

وآيات آل عمران على هذا هي ضابط ومفتاح حاسم للقرآن ، ولا يصح لذي نية حسنة ورغبة في الحق والحقيقة غير قاصد للتمحل والتعسف والمحاكة أن لا يتقيد بها . ويلفت النظر إلى جملة (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . .) حيث

تعبّر تعبيراً تظهر معجزته الربانية من حين إلى حين فيما يعمد إليه المباحكون والمتحطلون والمتواقحون والمتنطعون من ملحدين ومبشرين من التوقف عند التشابهات ، والتمسك بها وسوقها في معرض النقد والتجريح والتحجج والتشكيك حيث يكون هذا بنص القرآن الذي شاء الله منزله أن يكون فيه المحكم ، وفيه التشابه ، وأن يكون المحكم هو (أم الكتاب) دليلاً على سوء النية ، وزيف القلوب ، والانخساء أمام محكمات القرآن والهروب منها ، والرغبة فقط في التجريح والتشكيك والنقد والفتنة وإثارة الإشكالات دون تقيّد بالضابط الذي قرره القرآن ، والمفتاح الذي وضعه له منزله سبحانه وتعالى .

ولقد انكشف للنبي صلى الله عليه وسلم احتمالات هذا الموقف ، فنبه على ما في ذلك من انحراف وخطأ ، وعلى الموقف السليم تجاه ذلك ، حيث روى الشيخان عن عائشة قالت : «لا رسول الله هذه الآية ثم قال : «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى فاحذروهم» (١) ، وروى مسلم حديثاً جاء فيه «سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين اختلفا في آية ، فعرف في وجهه الغضب ، وقال : إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» وروى ابن مردويه حديثاً عن ابن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فأمنوا به» وروى الحافظ أبو يعلى حديثاً عن حذيفة ، عن رسول الله قال : «إن في أمتي قوماً يقرؤون القرآن ، ينثرونه نثر الدقل ، ويتأولونه على غير تأويله» وروى الإمام أحمد حديثاً عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : «سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً يتدارؤون في القرآن فقال : «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل الله كتابه ليصدق بعضه وبعضاً ، فلا تكذبوا بعضه بعض ، فما علمتم فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه» .

(١) أي : وصفهم الله بأن في قلوبهم زيفاً .

ففي هذه الاحاديث تدعيم لما قررناه من كون الآية مطلقة عامة ،
تشمل كل موقف مماثل للموقف الذي نزلت فيه ، وفيه تلقين بما يجب
أن يكون عليه موقف المخلصين المؤمنين وذوي النيات الحسنة من الآيات
المتشابهة ، وتحذير من ابتغاء الفتنة ، وإثارة الشبهات والإشكالات
حولها ، وفيها تأييد لما استلهمناه من نص الآية من أنه ليس من الضروري
دينا استكناه ما في الآيات المتشابهة من ماهيات . .

وإذا كان من المسلمين وكتابهم بل ومفسريهم قديماً وحديثاً من
شغل بالمتشابهات وتأويلها واستكناه ما فيها من ماهيات ، ومنهم من
أغرب وتورط في التخمين والتخيل والتزيد والتكلف ، وصرف آيات الله
عن أهدافها الوعظية التذكيرية التمثيلية التقريبية المنذرة المبشرة إلى ما
كاد يتحول القرآن به إلى كتاب تاريخ وفلك وهندسة وتنجيم ، وإلى
كتاب له ظاهر وباطن ، وفيه أسرار والغاز ، وإلى ما فيه كفر بواح ،
وتأييد للمذاهب والأهواء ، وإلى ما فيه إخراج له عن نطاق قدسيته
وهدايته . وإذا كان ما فعلوه قد صار مع الأسف تكة للملحدين والمبشرين
الذين وجدوا فيما فعلوه كثيراً من الثغرات فحاولوا أن ينفذوا منها فلا
يتحمل قرآن الله ورسوله مسؤولية ذلك .

وننبه على أن هناك من يعطف جملة (والراسخون في العلم) في آية آل
عمران على كلمة (الله) ليكون المعنى : والراسخون في العلم يعلمون أيضاً
تأويله بالإضافة إلى الله ، وهناك من يجعل الجملة مستأنفة ليكون المعنى :
إنه لا يعلم تأويله إلا الله وحده .

ومما دلل عليه قائلوا القول الأول والآخرون به أنه لا يصح أن يكون
في كتاب الله ما لا يعرف تأويله وما لا يفهمه أحد ما .

وللامام ابن تيمية كلام طويل في صدد البرهنة على وجاهة هذا
القول أو رد فيه حججاً عقلية ونقلية قوية ، وقد يكون هذا وجيهاً إذا
أريد بكلمة (تأويله) حكمته وهدفه والمقصود منه ، ويصح أن يقال حينئذ :

أنه ليس في تشابهات القرآن ما يمكن أن يعجز الراسخون في العلم عن لحج حكمته وهدفه والمقصود منه فضلاً عن محكماته . أما إذا أريد بالكلمة (السرو الماهية) فإن في القرآن مالا يمكن لأحد من البشر أن يعرف سره وماهيته ، مثل كنه الله عز وجل ، وسر الوحي والنبوة ، وسر خلق الله للكون والحياة الأخروية ، وسر ومدى المخلوقات الخفية مما يجب على المسلم الإيمان به ، لأن القرآن أخبر به بأسلوب قطعي ومحكم غير قابل للتأويل . ومهما سما العقل البشري ، فإنه يظل عاجزاً عن إدراك سرها إدراكاً تاماً . ولا يكفي أن يقال : إنها سر الله وحكمته ، وإنها في نطاق قدرته فهذا صحيح ، غير أنه لا يمكن أن يوصف بأنه علم بتأويلها إذا أريد بالكلمة السرو الماهية ، وإن كان يمكن أن يقال : إن المستيرين والراسخين في العلم يستطيعون أن يلمحوا حكمة الله ومدى هدفه فيها وفي ذكرها ، وإن العقل البشري لا يستطيع رفض التسليم بها حقاً وصدقاً . ولقد يصح القول أيضاً : إن ما لا يعلم تأويله إلا الله ، وإن الأمر بالقول (آمنا به كل من عند ربنا) هو التشابه الذي يشكل فهمه صراحة أو ضمناً ، ولا يكون له حسم من المحكمات . أما ما لا يكون فيه ذلك وما يكون في المحكمات حسم له فلا يدخل في حدود ذلك ، ومع ذلك كله فنحن نرجح أن لا تكون الجملة معطوفة ، وأن يكون السر والماهية هما المقصودان من كلمة تأويله ، وبقية الآية الأولى ، وفحوى الآيتين الثانية والثالثة مما يؤيد هذا الترجيح فيما نعتقد . والقول الثاني يمكن أن يصح بدون ضرورة لأن تكون جملة (والراسخون في العلم) معطوفة على ما قبلها بوجه عام ، والله تعالى أعلم .

والمحددون لا يقبلون حقيقة كون العقل البشري لا يستطيع رفض التسليم بأسرار وماهيات وحقائق غيبية ، لأنهم ينكرون مالا يثبت بالحس والمادة ، ومقاييس العلم والمعرفة ، ويقولون : إن المفاهيم التي يؤمن بها المؤمنون تتنافى مع العلم والعقل ، وإن الدين يتنافى بالتالي مع العلم والعقل ، ولا يقنعون بالتقريرات السديدة التي يسوقها علماء المسلمين

وباحثوهم بسبيل التوفيق بين الدين والعلم والعقل (١) . وفي كتاب صادق العظم نماذج من كل ذلك . ونقول نحن : إن من حق المؤمن الذي اطمأن قلبه بالإيمان بوجود الله الحكيم المدبر المبدع للكون أن يؤمن بما ثبت خبره ، وتقرير وجوده ووقوعه عن الله بواسطة من اصطفاهم الله من خلقه من مفيبات ، وأن يستوحي ويلمح حكمة ذلك ولو لم يدرك سره وكنهه وليس كل مالا يقبله ويقنع به إنسان ما هو في حد ذاته غير مقنع ولا مقبول ، ومقاييس العلم والعقل متبدلة متحولة غير ثابتة وغير مطلقة ، وأمور كثيرة كانت تقاس بمقاييس علمية وعقلية كانت معتبرة وظهر فسادها ، وقام مقامها بمقاييس جديدة ، وأمور كثيرة لم يكن تصورهما ووقوعها معقولا وممكنا ، قد وقعت وصارت قائمة . وعقول الناس ومعارفهم وتجاربهم متفاوتة ، وهذا التفاوت يؤدي إلى أن كثيراً من الناس يدركون مالا يدركه غيرهم ، ويعقلون مالا يعقله غيرهم ، ويقنعون بما لا يقنع به غيرهم ، ويكون ذلك ناشئاً عن ذلك التفاوت ، وليس مسوغاً لذاته ، ولذلك يظل إنكار الملحدون وقولهم جزافاً ، وكل ما ثبت تقريره من المفيبات بأسلوب قطعي ومحكم مما ذكرناه قبل ممكن عقلاً ، وهو في نطاق قدرة الله ، وما دام أن العلم مظهر أو حصيلة من مظاهر العقل وحصائله ، فيكون الإيمان بذلك ، وبالتالي يكون الدين غير متناف مع العلم . وقد أشرنا قبل إلى المثلثات أساطين العلوم المادية من تقارير مقنعة عن وجود الله وحكمته وبديع تقديره في كونه استنتاجاً من هذه العلوم التي تعمقوا فيها ، ووجود الله عز وجل في رأس هذه المفيبات .

ويركز الملحدون بخاصة على أمر وهو أن الإيمان بالمفيبات ، وأن الدين بالتالي يتعارضان مع حرية انطلاق العقل والعلم والنشاط في المؤمنين بها والمتدينين بدين . وأن ذلك مما يشل قوى العرب والمسلمين

(١) من واجبا أن ننبه إلى أن المؤمنين بالله والمفيبات التي يؤمن بها المسلمون من أهل الكتاب يسهمون أيضاً في سوق مثل هذه التقارير .

ويعطلها ، وهذا مما يركز عليه صادق العظم كثيراً في كتابه . وهذا زعم باطل ، تكذبه نصوص القرآن المحكمة ، وتكذبه وقائع التاريخ الاسلامي ، وآلاف الكتب التي كتبها علماء المسلمين في مختلف مواضيع الحياة ، ولقد انطلق المسلمون والعرب في الطليعة بعد إيمانهم بكل ما في الرسالة الإسلامية القرآنية النبوية قدرة وعظمة وسلطاناً وعلماً وحضارة وازدهاراً ، وفتحاً ومرونة وخبرة واقتباساً واستكشافاً للآفاق الكونية والفنية إلى أبعد الحدود التي كانت ممكنة في القرون الإسلامية الأولى دون اصطدام بمعتقداتهم الغيبية والإيمانية ، وجمعوا بينهما جمعاً عظيماً رائعاً ، ولا يصح ان يؤخذ ما عليه المسلمون اليوم سبباً ولا مقياساً . وإذا كان هناك حكام من العرب والمسلمين أو أفراد يتظاهرون بالتمسك بالدين ، أو يتكئون عليه ، ثم يكونون متخلفين في سلوكهم وحكمهم وأنظمتهم وتنظيماتهم وعقلياتهم منحرفين عن جادة الحق والعدل والصالح العام ، وأساليب العقل والعلم ، فيكونون في حقيقة الأمر منحرفين عن أحكام القرآن وتلقياته المحكمة التي سوف نورد موجزاتها في فصل لاحق من الكتاب .

والقول بعد هذا كله : إن الإيمان بالله والنبوة والوحي والحياة الآخورية ، والملائكة والجن ، يشل القوى ويعطلها قول فيه كثير من الفلو والسطحية ، ولا يستحق ان ينظر فيه بجد . ولقد كان أهل القرون الإسلامية الأولى يؤمنون بكل ذلك ، ولم يمنعهم هذا الإيمان عن الانطلاق كما قلنا في كل ميادين الحياة بقوة واندفاع عظيم ، ولقد كان الغربيون الذين نهضوا وتقدموا في القرون الأخيرة والحديثة في ميادين العلم التي تخلف عنها المسلمون والعرب لأسباب غير أسباب الدين الصحيح مؤمنين بكل هذه الغيبيات حينما بدؤوا ينهضون ويتقدمون ، وما يزال معظمهم مؤمنين بها فلم يمنعهم إيمانهم من النهوض والتقدم ، بل إن هذا الإيمان مع العمل الصالح الذي يشمل كل أمر دينوي أيضاً ، وما ينطوي في الدين الإسلامي من حوافز عظيمة ، هو الذي مكن المسلمين الأولين في الأرض ذلك التمكين الشديد الذي ارتفعت به راياتهم على مشارق الأرض ومغاربها بما لم يتيسر مثله لآية حركة قديمة وحديثة سعة وقوة وعزة ، وقامت

به حضارة باذخة فاقت كل ما تقدمها ، تحقيقاً لوعد الله لهم في آية النور هذه :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون .) ٥٥

وجعلهم ينطلقون ذلك الانطلاق العظيم . والظن بأن الدين الاسلامي هو مجموعة عقائد غيبية ظن غبي جاهل ، فهذا الدين متكامل ، وبقدر ما هو دين عقيدة وإيمان هو دين نظام وتنظيم وسلوك واجتماع وإنسانية وعلم وعقل وفكر وجهد وجهاد وعمل ، وصلاح الإنسانية في الدنيا من مختلف النواحي هو من أهدافه الجوهرية ، ولا يمكن أن يتّم هذا إلا باستيفاء كل أسبابه . ولقد انطوت تعاليم هذا الدين على أفضل القواعد والأسس والتوجيهات والتلقينات ، وأشدّها انسجاماً مع مصلحة الإنسانية وخيرها وسعادتها في كل ظرف ودور وطور . ويجب على من يريد أن يتكلم فيه أن ينظر إليه بمثل هذه النظرة الشاملة ، ويدرسه دراسة صادقة جادة ، ويستوعبه استيعاباً صحيحاً إذا كان ممن يحترم العقل والعلم والحق والحقيقة .

هذا وقد يلحظ أن هناك فرقاً بين تسميتنا لنوعي الآيات القرآنية بالأسس والوسائل ، وبين النص القرآني في سورة آل عمران الذي يسميهما (الآيات المحكمات) و (الآخر المتشابهات) غير أنه ليس هناك فرق إلا في التعبير ، فجمهرة العلماء والمؤولين والمفسرين يقولون : إن الآيات المحكمة التي هي أم الكتاب هي ما في القرآن من أحكام وحلال وحرام ، وأركان الإسلام ، وعماد الدين ، والفرائض ، والحدود ، وسائر ما يكلف به المسلمون ويحسن بهم لعاجلهم وآجلهم ، وما لا يتحمل تأويلات عديدة . وأن المتشابهات : هي ما سوى ذلك ، ويظهر من هذا أن الأولى هي ما يصح تسميته بالأسس والثانية هي مما يدخل فيما سميناه بالوسائل ، لأن معظم النوع الثاني بل كله تدعيم للنوع الأول عبرة وعظة وتمثيلاً وتقريباً وترغيباً وترهيباً وتنويعاً وتنديداً

وإنذاراً وتبشيراً وإفحاماً وإلزاماً . . الخ وآية سورة محمد التي أوردناها قبل شاهد على ذلك . فالسورة المحكمة التي ذكرت فيها قد فُسرَت فيها بأنها فرض القتال الذي ذكرت آيات أخرى أنه كتب على المسلمين ، أي فرض عليهم ، وبالتالي : أن المحكمة هي الفروض والتكاليف الأساسية القرآنية ، ولقد روي عن ابن عباس أن المحكم هو أمثال ما جاء في آيات سورة الأنعام ١٥١ - ١٥٣ وسورة الاسراء ٢٣ - ٣٨ التي هي مجموعات رائعة من الأسس والمبادئ والأهداف التوحيدية والأخلاقية والاجتماعية والسلوكية كما ترى في آيات الانعام هذه :

(قل تعالوا ائلا ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا اولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قُلتُم فاعدوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون . وآن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون (١) ١٥١ - ١٥٣

وهذا التقسيم متسق مع حكمة بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته في الدعوة ، فقد أخذ منذ نزول الوحي عليه يدعو إلى الله ومكارم الأخلاق والمبادئ التي يقوم عليها صلاح الإنسانية وسعادة الناس في

(١) آيات سورة الاسراء مماثلة إجمالاً لهذه الآيات ، فاكثفينا بإيراد هذه : وننبه على أن في القرآن آيات ومجموعات أخرى فيها مثل هذه الوصايا ، وفيها بيان لمهمة الرسول مثل الوصايا الحكيمة المحكمة مثل آية سورة البقرة (١٧٧) وآيات سورة آل عمران ١٠٥-١٠٢ والنساء ٢٩-٣٢ و ٣٦-٤٢ والاعراف ٣١-٣٣ و ١٥٧ والنحل ٩٠-٩٧ والمؤمنون ١١-١١ والفرقان ٦٣-٧٦ والماعز ١٩-٣٥ وهذا عدداً مفردات كثيرة جداً فيها الحكم وآيات وفصول كثيرة جداً فيها أحكام ومبادئ ووصايا وتشريعات وتلقينات محكمة .

الدارين ، ونبذ المستنكر المنحرف من عقائد وتقاليده وعادات وأخلاق ويتلو آيات القرآن في ذلك ، فوقف الزعماء بخاصة يناوئونه لأسباب متنوعة شرحناها قبل ، فصارت تنزل الفصول القرآنية مسجلة لمواقفهم وراية عليها ، ومنذرة منددة مذكرة قاصة لأخبار الأمم والأنبياء الأولين واعظة منبهة ، داعمة من جهة ومستمرة في تقرير مبادئ الدعوة والأحكام والتشريعات والتلقينات الأساسية من جهة ، ومسجلة لآثار دعوته في الفريق الذي استجاب إليها من جهة .

ومما يزيد ما نقرره قوة ووضوحاً ما يلاحظ من تطور التنزيل القرآني ، وتطور إطلاق تعبير (القرآن) على أجزاء القرآن وسوره وفصوله . فالقرآن يطلق كما هو معروف على مجموعة السور التي بين دفتي المصحف ، غير أن هذا التعبير بدى باستعماله منذ مبادئ نزول القرآن ، وبدى بإطلاقه على ما كان من مجموعاته وآياته قبل تمامه بل قبل أن ينزل منه إلا القليل ، ثم ظل يطلق على ما كان ينزل منه وما يجتمع من مجموعاته إلى أن تم تمامه بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم كما يفهم أولاً من آيات عديدة مكية هذه أمثلة منها تمثل مختلف أدوار التنزيل المكي (١) .

- ١ - (يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً) . المزمل : ١ - ٤
- ٢ - (ص . والقرآن ذي الذكر) . ص ١ و ٢
- ٣ - (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) . الفرقان : ٣٠

- ٤ - (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) . الإسراء : ٨٢
- ٥ - (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) . الأنعام : ١٩

(١) سنورد آيات السور حسب ترتيب نزول هذه السور المروي .

٦ - (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والفوا فيه لعلمكم
تغلبون .) فصلت : ٢٦

٧ - (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم
بآية ليقولنّ الذين كفروا إن أنتم إلا ميطلون .) الروم : ٥٨
وثانيا : من آيات عديدة مدنية هذه امثلة منها مختلف ادوار التنزيل
المدني :

١ - (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من
الهدى والفرقان .) البقرة : ١٨٥

٢ - (افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافاً كثيراً .) النساء : ٨١

٣ - (لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعاً متصدعاً من
خشية الله .) الحشر : ٣١

٤ - (إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة
يقاتلون في سبيل فيقتتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل
والقرآن .) التوبة : ١١١

والمعقول والواقع ان الآيات والسور القرآنية التي نزلت قبل غيرها
في أوائل الدعوة قد احتوت في الأكثر أسس الدعوة ومبادئها وأهدافها ،
واقترنت أو كادت تقتصر على التبشير بها ، وإنذار الذين لا يستجيبون
إليها ، ولم تتوسع في الوسائل كما يظهر للمتمعن في سور الفاتحة والأعلى
والشمس والليل والعصر والإخلاص والتكاثر والبلد والفجر والتين
والقارعة مما يؤيد ان الأهداف والأسس هي المقصودة في البدء من تعبير
(القرآن) والأساسية فيه ، وقد خلت هذه السور وأمثالها أو كادت تخلو
من العنف مما هو طبيعي ، لان الدعوة وأهدافها ومبادئها هي التي قصد
عرضها ونشرها والتبشير بها أولاً دونما عنف ، ثم اخذت الفصول
والسور بعدها تحتوي إلى جانب المبادئ والأهداف حملات عنيفة على
الجاحدين والكافرين والصادين ، وحكاية مواقفهم وإنكارهم لصحة الوحي

القرآني ، وتحديهم كما أخذت تتوسع في الوسائل التدعيمية من قصص وأمثال ، ووصف لنواميس الكون ، ومشاهد عظمة الله وآياته ، وذكر لفيثيات إيمانية الخ . مما هو طبيعي كذلك ، لأن الجحود والجدل والإنكار والشك والاستغراب والأذى والصدّ والتحدي والتحريض انما وقع بعد عرض مبادئ الدعوة وأهدافها . ولأن مواقف الجاحدين والمنكرين والشاكين والمستغربين والمترددین والصادّين والمكابرين والمتحدّين استتبعت التوسع في الوسائل التدعيمية والتأييدية . وهذا ما يجعلنا نرجح أن فصول سور العلق والقلم والمزمل والمدثر التي جاءت بعد مطالعها ، والتي احتوت مواقف جدلية وحملات على الكافرين والطفة قد نزلت منفصلة عن مطالعها إذا صح أن هذه المطالع نزلت أبكر من غيرها من القرآن . ولقد احتوت الفصول التالية المذكورة جدلاً وحجاجاً بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار حول القرآن وصحة الوحي القرآني الرباني مثل آيات سورة القلم ٩ - ١٥ والتكوير ١٩ - ٢٩ والفرقان ٦١ - ٣٢ والشعراء ١٩٢ - ٢٢٦ والإسراء ٤٥ - ٤٧ و٨٨ - ١٠٥ و١١١ ويونس ١٥ - ١٧ و ٣٧ - ٤٠ وهود ١٣ و ١٤ والسجدة ١ - ٣ وسبأ ٣١ وفصلت ٤٠ - ٤٥ الخ (١) .

والمعقول أن يكون الكفار قد اعتبروا (القرآن) بدورهم هو ما احتوته

(١) الآيات كثيرة ، ويحسن أن يقرأها القارئ في المصحف ، ونورد بعضها فيما يلي لبيان المقصود من الكلام لمن لم يقرأ القرآن :

- ١ - (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً .) الفرقان ٦٤
- ٢ - (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً .) الفرقان : ٣٢

٣ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوث عليكم ولا أدراككم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون .) يونس : ١٥ - ١٧ .

الأجزاء التي فيها الأهداف والأسس ، فجادلوا فيها وكفروا بنبوّة النبي صلى الله عليه وسلم وصحة الوحي الرباني ، فأخذت هذه الآيات وأمثالها تحكي أقوالهم ، وترد عليها ردوداً مفحمة ، وتضرب لهم الأمثال ، وتذكرهم بمن سبقهم من الأمم والأنبياء ، وتتوعددهم وتنذرهم بالآخرة وهولها وعذابها ، وتتحداهم وتندد بما هم عليه من سخف وضلال ، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم وتسليه وتذكره بما كان من أمر الأنبياء السابقين ، ومواقف أمهم منهم ، وتبشر المستجيبين بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وثبتهم وتصبرهم إلخ . ثم استمر الأمر على ذلك كله مع تنوع في الأساليب حسب تنوع المواقف وتجدها .

فالإنذار والتبشير والتنديد والتنويه والوعد والوعيد والقصص والأمثال والإلزام والإفحام والجدل والبرهنة والتثبيت والتطمين إنما كان وجاء - كما هو واضح - تبعاً للأسس والمبادئ والأهداف أو المحكمات ، ودار حولها بسبيل التدعيم والتأييد اللذين اقتضتهما ظروف السيرة والدعوة ، ومواقف الناس مستجيبين وجاحدين من تلك الأسس والمبادئ والأهداف التي هي المحكمات في التنزيل القرآني .

وكلمة أخيرة مهمة نختم بها البحث . ففي رواية أسباب نزول آيات آل عمران (٨٧) تنبيه إلى وجوب الرجوع إلى المحكمات في تأويل المتشابهات ، وهذا يقتضي أن يتنبه المرء إلى اعتبار كون القرآن متكاملاً يوضح بعضه بعضاً ، ويتم بعضه بعضاً ، وأن يكون محيطاً لمختلف آيات القرآن المحكمة والمتشابهة في مختلف المواضيع ، أو يرجع إلى من يكون كذلك ، وأنه ليصح القول بناء على ذلك إنه ليس من شيء يرى امرؤ فيه إشكالات ، أو وهم تناقض في آية قرآنية من الآيات المتشابهة إلا وهو واجد على الأعم الأغلب ما يزيل ذلك الإشكال والوهم ، ويحسمه في الآيات المحكمة . وفي المأثورات أمثلة كثيرة لذلك . من ذلك مثلاً ما روي عن جواب لعائشة على سؤال عما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربّه حيث قالت : «إن من يقول : إن محمداً قد رأى ربه ، فقد أعظم الفرية ، والله يقول (لاتدرکه الأبصار) فهذه جملة في آية في سورة الأنعام محكمة في وصف الله

عز وجل "ساق إزاء كل ما يرد في القرآن من صفات الله وحركاته واحتمالات رؤيته ، والتي قد توهم الجسمانية ومثل ذلك كثير حيث يوجد في القرآن آيات كثيرة يبدو فيها إشكال أو وهم تعارض وتناقض في حين أن فيه آيات أخرى تحسم هذا الإشكال والتناقض والتعارض ، وتكون ضوابط محكمة للعبارات المتشابهة في صدد الملائكة والجن ، ونشأة الإنسان والكون والقدر والجبر والهدى والضلال ، وصفات الله الذاتية والفعلية الخ الخ مما سوف نزيده شرحاً في بحوث آتية . وحيث يمكن أن يقول قائل : إن ما كان من خلافات جدلية وكلامية ومذهبية ، وشغل حيزاً كبيراً في كتب علماء الكلام والمذاهب والطوائف والفرق الإسلامية ، إنما جاء من الاستناد إلى آيات وعدم الربط بينها وبين آيات أخرى ، وعدم اعتبار القرآن كلاً متكاملًا ، وإن ما فيه من متشابهات تتحمل وجوهاً عديدة للتأويل يمكن أن تحسم بالضوابط المحكمة القرآنية ، فتظهر بذلك معجزة الله تعالى في قوله :

(افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً) النساء : ٨٢

ولقد استغل الملحدون والأغيار ذلك ووجدوا فيه منفذاً للتجريح والغمز مما المما بكثير من أمثله ، وفندناه في كتابنا « القرآن والمبشرون » ومما سوف نأتي فيما بعد بأمثلة منه ، يسوقها الملحدون ، ونفنده على ضوء المحكمات الحاسمة إن شاء الله .

خامساً : القصص القرآنية .

- ١ -

مما يجب ملاحظته أن ما ورد في القرآن من قصص وأخبار الأمم السابقة وأحداثها وأنبيائها بما في ذلك معجزات الأنبياء ، وما وقع على الأمم الجاحدة من عذاب الله ونكاله لم يكن :

أولاً : غريباً عن السامعين إجمالاً سماعاً أو مشاهدة آثار ، أو اقتباساً وتناقلاً ، وسواء منه ما هو موجود في أسفار وكتب أهل الكتاب

وغيرهم المتداولة مماثلاً أو زائداً أو ناقصاً أو مبيناً لما جاء في القرآن ،
أم ليس موجوداً فيها مما يتصل بالأمم والأنبياء الذين وردت أسماؤهم
فيها مثل قصص ابراهيم المتعددة مع قومه ، وتسخير الجن والريح
لسليمان ، وقارون ، والعبد الصالح مع موسى ، ومائدة المسيح ، أو مما
يتصل بغيرهم من الأمم والبلاد العربية وأنبيائها مما لم يرد أسماؤهم فيها
مثل قصص عاد وثمود وسبأ وتبع وشعيب ولقمان وذو القرنين .

وثانياً : إنها لم ترد للقصة ذاتها ، وإنما وردت للعتبة والتمثيل
والتذكير والإلزام والإفحام ، والتنديد والوعيد والتسليسة والتطمين ،
وبكلمة أخرى هي من ما سميناه بالوسائل .

وثالثاً : إنها وردت بأساليب متنوعة تتحمل وجوهاً للتأويل ،
ويصدق عليها وصف المتشابهات .

وفي القرآن شواهد وقرائن ونصوص عديدة مؤيدة للنقطة الأولى كما
هو ظاهر في الآيات التالية التي لها أمثال :

١ - (ألم يأتهم نبا الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم
إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله
ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .) التوبة : ٧٠

٢ - (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم
إبراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين
ثم أخذتهم فكيف كان نكير . فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي
خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض
فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار
ولكن تعمي القلوب التي في الصدور (١) .) الحج : ٢٢ - ٢٦

(١) الآية الأخيرة تفيد أن السامعين عرفوا أخبار السابقين ، ونكال الله فيهم أثناء تطوانهم
في بلادهم . وكان ذلك في رحلاتهم التجارية وغير التجارية كما هو المتبادر .

٣ - (ولقد اتوا على القرية التي امطرت مطر السوء افلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً (١) .) الفرقان ٤٠

٤ - (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين .) العنكبوت : ٢٨

٥ - (وإن لوطاً لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهليه أجمعين . إلا عجوزاً في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون .) الصافات (٢) : ٣٣ - ١٣٨

ولقد جاء في سورة القلم التي هي ثانية سورة في ترتيب النزول هذه الآيات :

٦ - (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبد بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فجعله من الصالحين) القلم : ٤٨ - ٥٠

فالاكتفاء بهذه الإشارة الخاطفة إلى قصة يونس ونعته بصاحب الحوت في هذه السورة المبكرة جداً في النزول دليل قاطع على أن القصة لم تكن مجهولة عند النبي صلى الله عليه وسلم والسامعين قبل البعثة . وإذا كانت سور أخرى نزلت بعد ، واحتوت تفصيلاً أكثر عن القصة مثل ما جاء في آيات سورة الصافات (١٣٩ - ١٤٨) فالتبادر أن لذلك حكمة سامية ، ولكنها لا تنقض الدليل من دون ريب ، وهذه القصة واردة بتفصيل في سفر يونان بن متاي من أسفار العهد القديم المتداول اليوم ، والذي نعتقد أنه كان متداولاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته في أوساط الكتائبيين ، وهناك حديث رواه مسلم وأبو داود عن النبي صلى

(١ و ٢) والمقصود هم قوم لوط وبلادهم المدمرة الواقعة على ضفاف بحيرة لوط في غور الأردن . وكان تجار الحجاز يمرون بها أثناء ذهابهم الى مصر وفلسطين للتجارة ، فيرون آثار الدمار ويسمعون قصته .

الله عليه وسلم جاء فيه «ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أبيه واسم الأب لم يرد في القرآن ، وإنما ورد في سفر يونان بصيغة (متاي) . وفي سيرة ابن هشام حديث يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما ذهب إلى الطائف قدم له غلام طبقاً عليه فطف عنب فسمى أولاً اسم الله ، ثم أكل ، فأكب الغلام على يده يقبلها ويقول : إن هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد فسأله النبي صلى الله عليه وسلم من أي بلد هو ؟ فقال له : إنه من نينوى ، فقال له : «بلد يونس بن متى» فقال له : ومن أين عرفت يونس بن متى ؟ فقال له : «هو نبي ، وأنا نبي» مثله» ونينوى لم تذكر في القرآن ، وإنما ذكرت في السفر المذكور .

٧ - ومثل هذا يقال في الإشارة الخاطفة المقتضية في سورة الزمّل ثالث سورة في ترتيب النزول إلى فرعون وهي :

(إنا أرسلنا إليك رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً . فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً) ١٥ و ١٦

فقصص موسى وفرعون مما كان معروفاً متداولاً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ومبثوثاً بسعة في أسفار العهد القديم التي كان يتداولها أهل الكتاب فيها . وفي آية سورة القصص هذه :

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) ٤٨

دليل قاطع على أن هذه القصص كانت معروفة عند أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم من المشركين العرب قبل البعثة .

٨ - ومثل هذا يقال في أولى إشارة إلى قصة صالح وحمود وناقتهم في سورة الشمس التي هي من السور المبكرة جداً في النزول وهي :

(كذبت ثمود بطغواها . إذ انبثت اشقاها . فقال لهم رسول الله
ناقة الله وسقياها . فكذبوه ففقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم
فسواها) ١١ - ١٥

فالإشارة المقتضية في سورة مبكرة جداً دليل على أن سامعي القصة
يعرفونها ، وهذه القصة قصة عربية ، ومنازل ثمود وآثارهم في حدود
الحجاز الشمالية مما يسمى اليوم مدائن صالح ، ولا محل للريب في أن
قصة صالح وقومه وناقته ودمارهم ما القصص التي كان يتداولها أهل
بيئة النبي صلى الله عليه وسلم جيلاً عن جيل . وفي سورة العنكبوت آية
تذكرهم بأنهم يعرفون ذلك معرفة مشاهدة وسماع معاً وهي :

(وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان
أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين .)

٩ - ومثل هذا يقال في الإشارات المقتضية الواردة في آيات سورة
ص ١٢ و ١٣ وسورة ق ١٢ - ١٤ والفجر ٦ - ١٤ إلى الأقوام السابقين
حيث يصح القول بجزم: إن هذه الإشارات دليل على أن السامعين
للقرآن من العرب يسمعون أسماء أقوام يعرفون قصصها قبل أن ينزل
القرآن .

١٠ - وفي سورة الأنبياء آية يصح أن تورد في هذا المساق وهي :
(بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما
أرسل الأولون) ٥

حيث ينطوي في قولهم الأخير أنهم كانوا يعرفون خبر الرسل
السابقين ، وما كان يظهر على أيديهم من آيات ومعجزات .

أما النقطة الثانية ، أي : كون القصص لم ترد في القرآن لذاتها، وإنما
وردت للعتة والتذكير والالزام والافحام والتنديد والوعيد والتسليّة
والتثبيت ، فهو ظاهر في أسلوب جميع القصص القرآنية الذي لم يكن سرداً
تاريخياً ، والذي تخلله الوعظ والارشاد والتبشير والانداز بل الذي جاء

سبكه وعظاً وارشاداً وتبشيراً وإنذاراً وتنبيهاً وتذكيراً . ثم في سياق إيراد القصص ، حيث تورد على الأعم الأغلب عقب التذكير والتنديد والتسليّة والتطمين والموعظة وحكاية مواقف الكفار وعنادهم وحجاجهم أو بين يدي ذلك . ثم في تكرار القصص في سور عديدة بأساليب متنوعة ، وصيغ مختلفة بعض الشيء بسبب تنوع وتجدد المواقف النبوية دعوة وحجاجاً وتنديداً وبيانا ، وعظة وتذكيراً ، وإنذاراً وتبشيراً سنين طويلة ، وتجاه فئات مختلفة مما هو مبثوث في مختلف السور وبخاصة المكية ، وفي غنى عن التمثيل مع بروز القاسم المشترك الذي يجمع بين هذه الصيغ ، وهو الأسلوب من جهة ، وقصد العظة والتذكير ، والمثل من جهة ، وكون ما جاء فيها مما ليس غريباً كلياً وجزئياً عن السامعين من جهة .

ويلفت نظر القارئ إلى آيات سورة الحج ٤١-٤٦ وآية سورة العنكبوت ٣٨ وآيات سورة الصافات ١٣٣-١٣٨ التي أوردناها قبل ثم إلى آية سورة الأنعام هذه :

(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وادؤا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين) ٣٤ .
حيث يبدو هذا الهدف صريحاً قاطعاً ومائلاً أمامه ، وفي سورة يوسف هذه الآية بعد تفصيل قصة يوسف وإخوته التي تطلّها حكم ومواعظ ، وعبر عديدة :

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وهدي ورحمة لقوم يؤمنون) .

حيث يبدو الهدف المذكور صريحاً وقاطعاً أيضاً . كما يبدو فيها دليل أو قرينة على النقطة الأولى أيضاً .

وأما النقطة الثالثة ، أي : كون القصص من التشابهات التي تحتمل وجوهاً عديدة للتأويل أو التي يعجز عقل الإنسان عن إدراك سرها وتأويلها ، ويكون من واجب المسلم المحقق أن يكتفي بالقول (آمنا به كل من عند ربنا) فهي ماثلة في كثير من آيات القصص وصيغها المتنوعة التي لا يعيا عن لمحها المتوسطون في الثقافة فضلا عن الرفيعين فيها .

ومن الأمثلة البارزة على ذلك قصة خلق آدم ، فقد ذكرت آية

البقرة (٣٠) أن الله سبحانه أراد من خلقه أن يجعله خليفة في الأرض ، ومع ذلك فإنه أسكنه الجنة هو وزوجته ولم يخرجهما منها إلى الأرض إلا عقوبة على أكلهما من الشجرة المنوعة كما جاء في آيات البقرة (٣٥-٣٧) والأعراف (١١-٢٧) وغيرها . وقد ذكرت بعض الآيات أن الله خلقه من تراب (٥٩ آل عمران) وبعضها أنه خلقه من طين (ص ٧٦) وبعضها أنه خلقه من صلصال كالفخار (الرحمن ١٤) وبعضها أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون (الحجر ١٨) وخطب في بعضها الناس جميعهم في معرض خلق الإنسان الأول (الأعراف ١١ والمؤمنون ١٢-١٥ والسجدة ٧-٩) وذكر في بعضها أن الملائكة راجعوا الله ، وجرى حوار بينه وبينهم في صدد خلق آدم ، وأن الله علم آدم الأسماء كلها ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ، فسجدوا إلا إبليس ، فطرده الله ، فطلب إنظاره ، فأنظره ، فألقى على نفسه أن يغوي ذرية آدم (البقرة ٣٠-٣٦ الأعراف ١١-١٨ وص ٧١-٨٥) .

فمما احتوته هذه الآيات ما يتحمل تأويله وجوهاً عديدة ، ومنه ما لا يدرك عقل الإنسان سره .

- ٢ -

ومن الحكم المتبادرة في النقطة الأولى بخاصة أي : في كون قصص القرآن مما كان يعرفه السامعون أن المخاطبين ، يتأثرون بما احتوته الحادثة أو القصة التي تورد عليهم من موعظة أو مثل ، أو تذكير أو زجر وتنبيه ودعوة إلى الاعتبار والارعاء والتأسي والتدبر في العاقبة . إذا كانت مما يعرفونه أو يسمعون عنه . حتى ولو كان في نطاق هذه المعرفة والسماع ضيق من حيث التفصيل ، أو عدد الأشخاص العارفين والسامعين . أما إذا لم يكن أحد يعرف ذلك فإن الكلام لا يكون مستحكم الإلزام والإفحام والتأثير والعبرة ، ولا سيما على مخاطبين كافرين بأصل الدعوة التي يراد التذكير بمواقف الفير والسابقين من مثلها ومصائرهم بسبب هذه المواقف ، أو جاهلين للحادثة التي يراد استخراج العبرة من سيرها وظروفها وعواقبها .

وملاحظة ذلك مع ملاحظة هدف القصص القرآنية ، وكونها لم ترد لذاتها أو للسرد التاريخي ، ومع ملاحظة أن كثيراً من عباراتها يدخل

في وصف التشابهات التي تحتمل وجوهاً عديدة للتأويل أو التي يعجز عقل الإنسان عن سرها وتأويلها مما شرحناه آنفاً ضروري بل واجب على من حسنت نيته من الناظرين في القرآن والراغبين في فهم مداه ، ومن شأن ذلك أن يعصمه من الاستفراق في ماهيات ووقائع ما احتوته القصص التي لم ترد لذاتها ، وأن يفنيه عن التكلف والتجوز والتمحل في التخريج والتأويل والتوفيق ، وأن ينجيه من الحيرة أو التساؤل في صدد تلك الماهيات والوقائع ، وأن يجعله يبقى القرآن في نطاق قدسيته وهدفه من التذكير بالمعروف والارشاد والموعظة والعبرة . ولا يخرج به إلى ساحة البحث في الوقائع ، وما يكون من طبيعته من الأخذ والرد والنقاش والجدل والتشكيك على غير طائل ولا ضرورة . ولا سيما انها ليست من المحكمات والأسس الدينية ، وإنما هي كما قلنا من الوسائل التدعيمية والمتشابهات التي لا ضرورة دينية للاحاطة بوقائعها وماهياتها ومداه ، ولا للتوسع والترديد فيها في سياق التفسير .

وإذا كان غير واحد من المفسرين المطولين قد تورطوا في ذلك ، وأوردوا بيانات كثيرة على هامشها ، شابها كثير من الخيال والإغراب والتكلف حتى شغل ذلك الحيز الأكبر من كتبهم ، وصارت القصص نتيجة لذلك قديماً وحديثاً شاغلة لأذهان الناس والمسلمين ، وكادت أن تغطي على أهداف القرآن ومحكماته ، وصارت مثار جدل بسبيل إثباتها وإنكارها وتعليقها ، واستكشاف الحقائق ، والأحداث التاريخية منها حتى تعرض القرآن للجدل والنقاش بسببها ، فان القرآن لا يتحمل مسؤوليته ، وإن كان ذلك يدل على أن بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تتداول كثيراً من الروايات المتصلة بهذه القصص ، وبالتالي يؤيد ما قلناه من أن أهل هذه البيئة كانوا يعرفون ، ويتداولون الشيء الكثير عنها . وفي القرآن الدليل الناصع القاطع على أن ذلك ليس من أهداف قصصه ، وأن أهداف قصصه هي ما ذكرناه من العظة والعبرة والانداز والتبشير والتسلية والتطمين على ما نهنا عليه آنفاً ، وعلى ما يستطيع أن يلمحه كل ناظر في القرآن ، ويظل الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحائه منها بالأسلوب الذي أوحى به هو الحق الأولى بالقول والتقرير . مع واجب التنبيه على أن آيات القصص جاءت بأسلوب يجعل ما احتوته من هذه

الأغراض غير قاصر على سامعي القرآن لأول مرة ، بل شاملاً وعاماً ومطلقاً على الأعم الأغلب لتكون كذلك بالنسبة للأجيال الانسانية التالية الى ما شاء الله ليجدوا فيها العبرة والعظة والتلقين والتوجيه والتشريع والطمأنينة ، وهو الأسلوب الذي تميز به القرآن ، ورشحه للخلود والشمول .

ويجنح بعض العلماء والمفسرين إلى القول أو الظن بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم شيئاً من القصص القرآنية التي كان يوحى بها إليه قبل نزولها ، بل وإلى القول إن جميع معارف النبي صلى الله عليه وسلم ومكتسباته هي من الوحي وحسب ، ولسنا نرى هذا وجيهاً لا من وجهة نظر الوحي القرآني ، ولا من وجهة نظر النبوة ، ولا من وجهة نظر الوقائع والحقائق ، فالنبي كان يعيش قبل نزول الوحي عليه في بيئة فيها كتابيون يروون ما في كتبهم من قصص ويتداولونها ، وهناك روايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع منهم ما في كتبهم . وفي القرآن إشارة ما إلى ذلك حيث كان المشركون يعرفون اتصاله بهم فنسبوا ما يقوله إلى تعليمهم ، وقد تضمنتها آية سورة النحل هذه :

(ولقد نعلم انهم يقولوا إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه

أعجمي" وهذا لسان عربي مبين) ١٠٣

وآية الفرقان هذه :

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون

فقد جاؤا ظلماً وزوراً) ١٠٤

والآيات تنفي التعليم والاعانة دون الاتصال ، ولم يكن المشركون يقولون ذلك لو لم يروا اتصاله بهم . وهو ما أيده روايات عديدة في كتب السيرة والتفسير مع ذكر أسماء أفراد من أهل الكتاب كانوا في مكة (١) .

(١) اطلع الدكتور محمد أديب الصالح الاستاذ في كلية الشريعة الاسلامية السورية ورئيس تحرير مجلة «حضارة الاسلام» الدمشقية على المخطوطة ، فنبه على أن كلامنا قد يستغله ذوو القلوب المريضة ، وتمنى عدم فتح الباب لهم ، ونقول أولاً : إن ذوي القلوب المريضة من ملحدين ومبشرين لا يجهلون ما ورد في كتب التفسير والسيرة ، ولا تفوتهم ما في القرآن من إشارات . وثانياً : انه ليس في كلامنا وفي ما أوردناه من روايات مما يستطيعون أن يستغلوه بحق وصدق في صدد صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحة الوحي القرآني ، وإذا فعلوا فيكون منهم تمحلاً متهافتاً ، وهم يفعلون سواء أكتبناه

وكان أهل بيثة النبي صلى الله عليه وسلم يرحلون إلى البلاد المجاورة للجزيرة التي كانت بيئات متحضرة وكتابية على الأغلب مثل العراق والشام ومصر والحبشة وجنوب الجزيرة ، ويسمعون من أهلها مختلف الأنباء والأخبار الحاضرة والغابرة ، ويرون فيها مختلف المشاهد الحاضرة والغابرة ، وقد أشير إلى ذلك في بعض آيات قرآنية أوردناها قبل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم نفسه قد قام ببعض الرحلات في شبابه إلى هذه البلاد ، وسمع ورأى وشاهد ، ورواة العرب يروون ما يتناقله الأجيال من أخبار وأحداث وقصص عربية . فليس من المعقول ولا من الطبيعي أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يجهل هذه القصص كلياً أو جزئياً . وفي ما ذكرناه في صدد قصة يونس دليل بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة في الرقم (٦) من شواهد النقطة الأولى ، ومعرفة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه القصص قبل نزول القرآن الكريم لا يمكن أن تتعارض مع وحي الله القرآني بها ، ولا مع نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الوحي القرآني بالقصص قد استهدف كما قلنا : التمثيل والتذكير والإنذار والموعظة والتسلية والتثبيت ولم يستهدف التاريخ والأخبار والسرود والتعريف .

ويتبادر لنا أن ذلك القول أتى من عدم النفوذ إلى مرمى وهدف الوحي بهذه القصص عن حسن نية وليس من تعارض قط بين وحي ما اقتضت

أم لم تكتبه رغم ما يكون في ما يفعلونه من تحمل وتهافت . وقد رأينا من الحق والأولى أن يبقى جميع ما كتبناه لأننا أردنا أن نضع الأمر في صدد في نصابه الحق وأن يكون فيه رد وإفحام لكل متحمل متواقع ، ونرجو الله أن يكون قد ألهمنا الصواب ، وحققنا ما أردنا ، ونتعلم هذا من كتاب الله الكريم . فهو يسجل كل ما صدر عن الكفار والجاحدين ، من العرب وغير العرب ، وكتابين وغير كتابيين في صدد القرآن ، وفي شخص النبي صلى الله عليه وسلم من تخريصات وأقوال وتهم وسخرية وتحد وتكذيب ونسبة الافتراء والحنون والسحر والكهانة والشعر والافتباس من الأساطير السابقة والتعلم من الغير والاستعانة بهم بدون أي تخرج ، ويرد عليها الردود القوية القارعة المفحمة الملزمة مما مرت شواهد قبل ، لأنه الحق الذي يدفع الباطل فإذا هو زاهق ، ولأن كتاب الله هو العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولأن الله اصطفى رسوله ليكون رحمة للعالمين ..

حكمة التنزيل ايحاؤه منها بالأسلوب الذي أوحيت به وبين ما يمكن ويصح أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد عرفه منها قبل نزول الوحي بما نزل منها . ولقد كان في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم تقاليد دينية ، واجتماعية متنوعة ، وكان يجري فيها أحداث متنوعة شاهد النبي بعضها ، وسمع بعضها ، وعاش بعضها ، ولقد ذكر القرآن كثيراً من ذلك ، وليس من أحد يدعي أو يصح أن يدعي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف ذلك قبل بعثته ، وهذا وذاك من باب واحد .

وواضح أن هذا ليس بمخل بقدر النبي صلى الله عليه وسلم وعظمته التي إنما كانت تقوم في الحقيقة على ما امتاز به من عظمة الخلق وقوة العقل ، وصفاء النفس ، وكبر القلب ، وعمق الإيمان والاستغراق بالله . ولقد قرر القرآن طبيعة النبي صلى الله عليه وسلم البشرية مما أوردنا نصوصه في مناسبات سابقة ، وهذا متصل بهذه الطبيعة التي من البديهي جداً أن لا تتناقض مع معرفة النبي صلى الله عليه وسلم ما كان متداولاً في بيئته أو في أي بيئة ونحلة تيسر له الاتصال بأهلها من أقوال وأفكار وأخبار وعقائد وتقاليد وظروف وأحداث حاضرة وغابرة ، بل إن من البديهي جداً أن يكون عارفاً ملمماً بكل ذلك غير غافل عنه ، وأن هذا هو المعقول الذي لا يصح في العقل غيره . واننا لنشعر بالدهشة مما أبداه ويديه بعض العلماء المسلمين من حرص على تأكيد كون النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له معارف مكتسبة . مما لا يتسق مع المنطق والعقل والبداهة توهماً بأن في هذا مأخذاً ما على كون ما بلغه النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن الذي فيه الأخبار والقصص السابقة أتى من هذه المعارف ، ونرى في هذا التوهم خطأ أصلياً في فهم معنى ومدى الرسالة النبوية التي هي هداية وإرشاد ودعوة والتي لا يعهد بمهمتها العظمى إلا لمن يكون أهلاً لها في عقله وخلقه وروحه وإيمانه ووعيه وعدم غفلته عما يدور في المجتمع الذي بعث إليه كما ذكرت آية الأنعام :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) ١٢٤

كما أنه أت فيما يتبادر لنا من عدم ملاحظة كون القرآن نوعين متميزين أسساً ووسائل .

ومما يورده بعضهم آيات سورة العنكبوت هذه :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب

المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون (. ٤٨ و ٤٩

التي فيها دلالة على أمية النبي صلى الله عليه وسلم حيث يظنون على ما يبدو أن اكتساب المعارف والإطلاع على ما عند الناس من أخبار وأفكار ، إنما هو حصر على القارئ الكاتب ، وليس هذا صحيحاً دائماً . كما أنه ناشئ من قياس الغائب بالحاضر ، وهو قياس مع الفارق أيضاً ، والآيات والله أعلم بسبيل تقرير كون الدعوة التي يدعو إليها النبي صلى الله عليه وسلم ، وما يبلغه في صدها إنما هو وحي رباني غير مقتبس من كتاب ، وبسبيل تنبيه المشركين الى أنه لا يصح أن يكون عندهم شك في ذلك لأنهم يعرفون أنه لم يكن يقرأ ويكتب ، وأنهم إذا جحدوا آيات الله التي يبلغهم إياها النبي صلى الله عليه وسلم الذي اختصه الله بمهمته وبيئاته ، فيكونون ظالمين مكابرين . وأمية المرء لم تكن في وقت من الاوقات مانعة من أن يختزن كثيراً من المعارف والصور والروايات ، والنصوص الطويلة سماعاً ومشاهدة . وهناك من يفوق في ذلك غير الاميين ، وهذا بالإضافة إلى أن الأمية في الزمن القديم ، وفي بيئة النبي كانت هي الغالبة ، ولم يكن هذا ليمنع نبهاء هذه البيئة من اختزان المعارف والصور والروايات ، والنصوص المحلية والعالمية التي كانوا يشاهدونها ويسمعونها في بيئتهم ، وخارج بيئتهم .

ومما يورد أيضاً للتدليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ذا نشاط وحركة وتطلع ما قبل نزول الوحي عليه هذه الآيات :

١ - (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون .) يونس : ١٦

٢ - (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك .) القصص : ٨٦

٣ - (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين .) ص : ٨٦

٤ - (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان .) الشورى : ٥٢

والآيات قد تفيد شيئاً من ذلك ، ولكنها لا يمكن أن تفيد أن النبي كان غافلاً عما يجري ويروى ويتداول في بيئته من أخبار وأحداث وصور ومشاهد حاضرة وغابرة .

- ٣ -

ويشترك الملحدون ، والمبشرون الحاقدون معاً في غمز النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن بسبب ما بين بعض القصص القرآنية والأسفار والكتب التي وصلت إلينا والتي كانت على الأغلب متداولة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بين أيدي أهل العلم والكتاب من تطابق ما ، ويقولون : إنها مقتبسة منها ، ولقد قال كفار العرب ذلك في مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحكاه القرآن عنهم بدون أي حرج مؤكداً أن الله الحكيم الذي يعلم السر هو الذي أوحى به وأنزله ، كما ترى في آيات سورة الفرقان هذه :

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً (١)) . ٦٥٥

ونقول رداً على الغامزين المحدثين : إن ما بين القصص القرآنية والأسفار والكتب القديمة من تطابق ليس من شأنه أن يطعن بصحة وحيتها الإلهي ، لأنها لم تجيء للسرد التاريخي ، وإنما للعظة والعبرة والتذكير ، وليس من تعارض بين هذا وذاك ، بل إن ذلك من الحكمة المتبادرة من إيرادها في القرآن كذلك على ما شرحناه قبل من حيث إن السامعين يتأثرون بما يعرفون . فليس من محل ولا معنى للغمز والنقد كما هو واضح ، بل إن في الغمز والنقد دليلاً على غفلة الغامزين والناقدين عن مدى وهدف الوحي القرآني بالقصص . ولقد غمزوا النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حكى آيات أخرى مثل هذا الزعم للكفار وردت عليه ، وقد أوردناه في النسخ الأولى ، وقد فسر المفسرون كلمة (اكتتبها) بمعنى (استكتبها) لأنه لم يكن يكتب ، وكلمة (تملى عليه) لأنه لم يكن يقرأ ، وهذا وذاك صحيح وقد قال الكفار ذلك لأنهم يعرفون أنه لا يقرأ ولا يكتب . وهذه الآية أقوى دلالة على أمية النبي من آية العنكبوت .

والقرآن كذلك ، لأن بعض القصص التي ذكرت في القرآن ووردت أو ورد ذكر أصحابها في الأسفار والكتب التي وصلت إلينا جاءت متباينة زيادة ونقصاً ومشاهد مع ما ورد في القرآن . ومن ذلك مثلاً تسخير الجن والريح والطير لسليمان والجبال والطير والحديد لداود ، وقصص إبراهيم مع قومه وملكه ، وجزئيات كثيرة في قصص آدم ونوح ويوسف وموسى وفرعون وبني إسرائيل ويونس وأيوب الخ . وقالوا إن النبي خلط وخطأ فيها ، أو اخترع ما ليس وارداً منها في الأسفار والكتب . وهذا القول متهاافت والمتمعن فيما جاء في الصيغ القرآنية لا يجد له ضرورة فنية ولا أسلوبية - ونقول ذلك من قبل المساجلة - حتى يخترعه النبي صلى الله عليه وسلم ، ويزيد عليه وينتقص منه ، ولا يستطيع أحد أن يدعي بصدق أن الأسفار والكتب المتداولة اليوم هي كل ما كان في أيدي أهل العلم والكتاب والأمم الأخرى في زمن النبي وقبله ، وفي أسفار العهد القديم التي وصلت إلينا أسماء أسفار عديدة من جملتها سفر التوراة شريعة موسى لم تصل إلينا . وفي الأناجيل المتداولة اليوم ، وفي الأسفار الملحقّة بالانجيل التي تنعت جميعها باسم (العهد الجديد) ذكر لانجيل عيسى ، ولم يصل إلينا ، وهناك روايات عن أناجيل عديدة أخرى لم تصل إلينا وبين نصوص الأسفار التي وصلت إلينا من مجموعتي العهد القديم والعهد الجديد تضارب وتنقّاض وزيادة ونقص واختلاف مشاهد حيث يفيد هذا أن الذين كتبوها قد استقوها من مصادر مختلفة ضاعت أو بادت ، ولقد اكتشف في مغارة في جهة البحر الميت أوراق من سفر اشعيا قال الدارسون : إن بينها وبين ما هو متداول معروف من هذا السفر تبايناً . وهذا يعني أنه كان هناك نسخ عديدة للسفر الراحده بينها تناقض وتباين ، وكل هذا ما يصح القياس عليه ، وفي القرآن آيات تذكر أن أهل الكتاب كانوا يخفون كثيراً مما في أيديهم ، منها آية سورة المائدة هذه :

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ١٥)

ومنها آية سورة الأنعام هذه :

(وما قبروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ٩١)

وفي سورة النمل هذه الآيات :

(إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون .
وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) ٧٦ و ٧٧

حيث تفيد أن القرآن قد جاء بما هو الحق والصدق والصحيح .
وفي سورة المائدة هذه الآية :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب
ومهيئناً عليه) ٤٨

حيث تفيد أن القرآن متطابق في الأسس والأهداف مع كتب الله
السابقة ، وأنه ضابط لما هو الصحيح من وحي الله ، ومصحح لما يمكن أن
يكون وقع في هذه الكتب من تحريف ورقيب عليها .

ولقد كانت هذه الآيات ، وآيات القصص القرآنية تتلى علناً ،
ويسمعها أهل الكتاب ولا يمكن أن يكون ما جاء فيها جزافاً ، وغير وارد
في أسفار وقراطيس في أيدي أناس أو غير مروي على السنة أناس ، ثم ضاع
أو نسي ، ولقد آمن كثيرون منهم قدروا على التغلب على أنانياتهم
وأهوائهم ، وأعلنوا صدق القرآن على ما أوردنا شواهد القرآنية قبل .
وليس هناك أية رواية فيها إنكار أهل الكتاب لشيء مما ورد في قصص
القرآن ، ولقد حكى القرآن بدون حرج نسبة الكفار إلى النبي صلى الله
عليه بإفراء القرآن وكذبه ورد عليهم ، فلو كان صدر شيء من ذلك من
أهل الكتاب لحكاه وردده عليهم .

وفي كل هذا حجة لاقتناع من يبغي الحق ، ولا يكون موقفه موقف
المكابر العنيد الذي جعل إلهه هواه .

- ٤ -

ونحن نعرف أن هناك ما يمكن إيرادَه على النقطة الأولى ، وهي كون
القصص مما كان معروفاً من النبي صلى الله عليه وسلم والسماعين ، حيث
ورد في القرآن آيات قد يبدو أنها تناقض ذلك كما ترى فيما يلي :

١ - (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون

أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون (١) (٠) آل عمران : ٤٤

٢ - (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (٣) (٠) هود : ٤٩

٣ - (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون (٣) (٠) يوسف : ١٠٢

ونقول في صدد ذلك : إن قصتي نوح ويوسف عليهما السلام قد وردتا في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم المتداول اليوم ، والذي نعتقد أنه كان متداولاً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاءتا قريبتين جداً مما وردتا في القرآن ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، وأهل بيئته متصلين بالكتابين ويعرفون أخبار ما عندهم ، وما في كتبهم على ما تفيدته آيات عديدة أوردناها قبل ، فليس مما يصح فرضه أن النبي صلى الله عليه وسلم والعرب السامعين أو بعضهم لم يكونوا يعرفون هاتين القصتين .

ولقد أشير إلى نوح وموقف قومه من رسالته إشارات خاطفة في سور مبكرة في النزول بأسلوب يلهم أن قصتهم مما كان معروفاً متداولاً من قبل سامعي القرآن مثل سورة النجم (الآية ٥٢) وسورة ق (الآية ١٢) وسورة القمر (الآيات ٩-١٥) وسورة ص (الآية ١٢) .

ولقد ذكر في سورة نوح أسماء أصنام قوم نوح (ود وسواع ويعفوث ويعوق ونسر) وذكرت الروايات أن بعض قبائل عربية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقبله كانوا يعبدون هذه الأصنام ، ويعرفون ويقولون : إنها أصنام قوم نوح . ولقد وردت قصة نوح مفصلة بعض الشيء في سور

(١) هذه الآية من سياق الآيات التي حكى نذر أم مريم مافي بطنها ، وكفالة زكريا لمريم وبشارة زكريا بحيي وعناية الله بمريم .

(٢) هذه الآية جاءت عقب قصة نوح عليه السلام .

(٣) هذه الآية جاءت عقب تفصيل قصة يوسف وأخوته .

ترتيبها سابق لسورة هود في النزول مثل سور الأعراف ويونس والقمر ، وليس فيها تنبيه مثل التنبيه الذي احتوته آية سورة هود ، ووردت مفصلة أيضاً في سورة الشعراء والصفات ونسوح والانبياء والمؤمنون والعنكبوت خالية من مثل هذا التنبيه . وفي أول قصة يوسف في سورة يوسف هذه الآية :

(لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . ٧)

وهذا النص يفيد أن من السامعين العرب من كان يسمع بقصة يوسف ، وأنهم طابوا من النبي تفصيلاً لذلك ، فأوحى الله إليه بالقصة كما جاءت في سورة يوسف ، ومتطابقة كثيراً مع ما جاءت في سفر التكوين المتداول اليوم مع تباين في بعض الجزئيات ، ولا نرى هذا يتناقض أو يتعارض مع احتمال أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يعرف تفصيل هذه القصة في سفر التكوين أو نسخه المختلفة المتعددة التي يمكن أن يكون بينها تباين ، ولم يصل إلينا منها إلا النص المتداول ، وقصة بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليهما السلام واردة في الإصحاح الأول من انجيل لوقا المتداول اليوم بما يقرب لما ورد من ذلك في سورتي مريم وآل عمران ، وفي الإصحاح خبر حبل امرأة زكريا يحيى وهي في شيخوختها بأمر الله وقدرته ، ووصفت بأنها نسيبة مريم ، وهذا يعني أن حياة مريم قبل ولادتها لعيسى ونذر أمها بما في بطنها ، وكفالة زكريا لها ، والاختلاف على كفالتها ، والاقتراع على ذلك بما عبر عنه القرآن (يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) كل ذلك مما يمكن أن يكون متداولاً في أوساط النصارى في البيئة النبوية ، ومما يمكن أن يكون قد سمعه وعرفه كلياً أو جزئياً النبي صلى الله عليه وسلم وقومه .

ولقد قال المفسر الخازن تعليقاً على آية سورة هود : إن قصة نوح مشهورة ، وإنه ليس مما يحتمل أن لا تكون معروفة ، وإنه يجب صرف الآية إلى قصد عدم معرفة النبي وقومه جميع تفصيلاتها . وهذا قول وجيه ، مع إضافة شيء عليه ، وهو عدم معرفة النبي وقومه جميع التفصيلات التي جاءت في سورة هود بخاصة ، لأن مثل ذلك التنبيه لم يرد في سياق القصة في السور الأخرى .

ويصح أن يشمل هذا القول ما جاء في سورة يوسف من تفصيلات في قصة يوسف وإخوته ، وما جاء في سورة آل عمران في قصة مريم أيضاً ، حيث تكون حكمة التنزيل اقتضت الإيحاء بما كان النبي صلى الله عليه وسلم وقومه لا يعرفونه من تفصيل القصص الثلاث ، وننبه على أن هذا ليس من شأنه أن ينفي أن تكون هذه التفصيلات واردة في قرايطيس أو روايات كان يتداولها أهل الكتاب والله أعلم .

وهناك آية أخرى قد تساق أيضاً وهي آية سورة يوسف هذه :

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن

كنت من قبله لمن الغافلين ٣٠)

وإزاء ما ذكرناه وشرحناه من حقائق ووقائع لا مناص من تأويل الآية بتأويل لا يتناقض مع ذلك أيضاً ، فيقال والله أعلم بتأويله : إن القصد هو التنبيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان غافلاً عن حقيقة تلقي وحي الله القرآني ، أو عن أمور كثيرة من قصص السابقين .

- ٥ -

ويتظارف بعض الأدباء ، ومنهم مسلمون ، فيطلقون على أسلوب القصص القرآنية نعت (الفن القصصي) في القرآن ، ولا ندري ماذا يقصدون من ذلك ، فإذا كانوا يعبرون بهذا الوصف عن توهم كون القصص القرآنية حبكة بالخيال والتزويق والافتعال كما هو شأن القصص ، ففي ذلك تجوز وسوء أدب ، لأن القصص القرآنية منزهة من كل ذلك . فقد كانت كما قلنا معروفة مروية متداولة ، فأوحى الله بها بالأسلوب والفحوى اللذين أوحيت بهما لتحقيق هدف الموعظة والتذكير والتمثيل والعبرة والالزام والافحام والانداز والتبشير ، وقد يكون من مقاصدهم بذلك النعت التنويه بروعة الأسلوب الفني الادائي الذي جاءت عليه هذه القصص وما فيها من صور كلامية رائعة ، وهذا خطأ بدوره ، لأن روعة الأسلوب والصور الكلامية في القصص القرآنية ليستا أمراً متميزاً عن روعة الأسلوب والصور الكلامية في سائر مواضع القرآن وآياته وفصوله ، فكل هذا بارز في كل مواضع القرآن الأخرى سواء أكانت أمثالا أم آيات في مشاهد الكون والخلق ، أم في المشاهد الأخروية ، أم في الجهاد ، أم في الأخلاق والاجتماع ،

أم في الجدل والحجاج ، أم في الإنذار والتبشير ، ففي كل ذلك كما في فصول القصص من الصور الكلامية الرائعة والأسلوب الأخاذ ما هو نافذ إلى أعماق القلوب والعقول ، وكل ما جاء في القرآن من ذلك قد هدف إلى هدف وحقق الهدف الذي جاء من أجله .

- ٦ -

هذا ، وقد يسأل سائل عما إذا كانت القصص القرآنية حقائق ووقائع تاريخية في جزئياتها وکلياتها . ومع أن بعض علماء المسلمين قالوا إنه ليس في قصص القرآن ما هو مستحيل عقلاً ، أو ما ثبت قطعياً عدم وقوعه أو مما ليس محتملاً أن يكون وقائع تاريخية حقيقية ، ومع ما في هذا القول من سداد ، فإننا نرى الأولى والأفضل أن نكتفي ، ويكتفي المسلم معنا بالقول أن كل ما في القرآن وحي رباني وإنا (آمنا به كل من عند ربنا) مع القول أيضاً إن هذه القصص لم يوح بها لتقرر وقائع تاريخية ، وإن الوقائع المذكورة فيها كانت معروفة عند سامعي القرآن ، أو واردة في كتب وقراطيس ، أو متداولة في روايات شفوية في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاقترضت حكمة التنزيل بأن توحى قرآناً بالأسلوب والفحوى اللذين أوحيت بهما ، وبتكرارها في سور متعددة ، وبصيغ متنوعة لتحقيق الأهداف المستهدفة منها ، والتي نوهنا بها قبل . وإنها من الوسائل والمتشابهات التي لا ضرورة إلى استقصاء حقائق جزئياتها ووقائع ما ورد فيها من أحداث ، أو المجادلة أو النقاش والأخذ والرد فيها ، وإن من الواجب الديني ، بل مقتضى الحق والعقل والوقوف عند ما ذكره القرآن منها دون تزيد وتكلف وتخمين .

ومن الجدير بالذكر والتذكير أن القرآن لا يحتوي استقصاء لحوادث القصص الواردة فيه ، ولم يكن ما احتواه منها سرداً تقريرياً لوقائعها . حيث اكتفى بذكر ما اقتضت الحكمة ذكره بالأسلوب والفحوى اللذين اقتضت هذه الحكمة ، ومناسبات السياق لتحقيق الهدف الذي جاءت من أجله من عظة وتذكير وتمثيل وإنذار وتبشير وتوضيح وتلقين . وهذا واضح ملموح لكل من يمعن النظر فيها ، ولو كان متوسط الثقافة ، وهو ضابط مهم يجب على الناظر في القرآن أن يلتزم به . وفي القرآن ظاهرة مهمة فيها توكيد لذلك واتساق معه ، وهي أن أسلوب القرآن في القصص وهدفه قد اتسقا مع ما ورد فيه من ذكر الوقائع الجهادية والواقف

القضائية والحجاجية وغيرها من أحداث السيرة النبوية ، بحيث ان الناظر في القرآن يجد أن ما ورد فيه من ذلك ، إنما ورد للعتة والتذكير والتنبيه والحث والتحذير والارشاد والتعليم والتسليية والتثبيت والتشريع ، وهذا ظاهر من كون المذكور في القرآن من ذلك لا يحتوي كل الصور والمشاهد والتفصيلات للمواقف والأحداث . وإنما احتوى ما اقتضت الحكمة ذكره منها لتحقيق المقاصد المذكورة . وفي هذا دليل على الانسجام في الأساليب القرآنية ومراميها ، والخروج عن هذا النطاق هو خروج عما يلهمه القرآن من نطاق مرسوم لقصصه ، وتعريض له كما قلنا للنقاش والجدل ، وإخراج له عن هدفه وهو الهدي والموعظة والذكرى ، وهو بعد ليس كتاب تاريخ ، ولا يجوز النظر إليه على هذا الاعتبار .

قصة آدم وإبليس

ونرى أن نشير في هذا السياق الى قصة آدم وإبليس ، وسجود الملائكة لآدم ، وتمرد إبليس الواردة في القرآن ، والتي كانت مما أكثر صادق جلال المعظم فيها إكثاراً فيه تعسف وتمحل ومماحكة وسوء أدب معاً^(١) . فنقول : إن كل ما أوردناه في مدى وصدد القصص القرآنية وارد بتمامه في مدى وصدد هذه القصة ، وإنها لا تخرج عن خطوط ومظاهر القصص القرآنية الأخرى ، أي من ناحية كونها غير مجهولة من سامعيها قبل نزول القرآن ، ومن ناحية كونها واردة في القرآن للعتة والعبرة والتذكير والتمثيل والتحذير والتنديد وحسب ، ثم من ناحية كونها من

(١) ألقى صادق جلال المعظم في النادي الثقافي العربي في بيروت في سنة ١٩٦٥ محاضرة بعنوان مأساة إبليس ، وقد أورد نص المحاضرة في كتابه (نقد الفكر الديني) مع بعض ردود جاءت إليه ، واستغرق ذلك نحو ثلث كتابه ، وقد كنا أرسلنا له رداً ، وقد نشرت المحاضرة والردود في أول الامر في مجلة النادي ، ومن عجيب أمر صادق المعظم أنه ناقش في كتابه وفي المجلة بعض الردود ، ولم يناقش رداً ، ونعتقد أن رداً كان مفحمة له ، ولم يجد منفذاً منه للمماحكة ، ولقد علق الدكتور برهان الدجاني رئيس النادي والمجلة على رداً في كتاب أرسله إلينا قائلاً : (ان رداً يقدم وجهة النظر الرصينة المنعمقة التي تحترم التراث ، وتؤمن به وتجله وتحاكم الامور في الوقت نفسه بميزان العقل والخبرة البشرية والحكمة الراسخة) وودنا دار في نطاق شرحنا في المتن الذي يقرؤه قارئ الكتاب ، ويلمح قوة الالتزام فيه .

المتشابهات من جهة ، ومن ناحية كونها من الوسائل التدعيمية للدعوة النبوية من جهة أخرى .

ومن الدلائل الحاسمة على ذلك تكرر القصة مثل معظم القصص القرآنية حيث تكررت في القرآن بأساليب وصيغ مختلفة سبع مرات ، ستاً منها في السور المكية ، وهي سورة الاعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص ، ومرة في سورة البقرة المدنية ، وبينها وبين قصص الأقوام وأنبيائهم السابقين مماثلة من ناحية التكرار ، ومن ناحية الأسلوب والسياق ، حيث جاءت متتضبة حيناً ومسهيّة حيناً ، وفي كل مرة جاءت في سياق التنديد بالكفار ومواقفهم وتمردهم كما كان ذلك شأن القصص الأخرى ، وقد ربطت بين موقف إبليس واستحقاقه لغضب الله بسبب تمرده ، وبين مواقفهم وتمردهم ، وأسلوبها وعظي ، وليس سرداً قصصياً .

وهذا هو شأن القصص الأخرى في القرآن ، ولح ذلك سهل على القارئ المتوسط ، والمصحف في تناول الجميع ، فلم نر حاجة إلى إيراد صيغ القصة .

وكلمة إبليس هي من جذر (أبلس) بمعنى يئس (١) ، وقد جاء هذا الجذر في آيات عديدة منها آية سورة الروم هذه :

(ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ١٢٠)

وسورة الزخرف هذه :

(إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه

مبلسون ٧٤ و ٧٥)

والكلمة نعت ذم ، ولا شك في أنها كانت مستعملة قبل نزول القرآن بهذا المعنى ، وبالتالي إن العرب كانوا يفهمون دلالتها ، وهي اليأس من رحمة الله ، وأنهم كانوا يعرفون أن إبليس كان علماً على من يوسوس

(١) بعضهم يقول : إنها معربة من اليونانية (ديابلوس) ونحن نعتقد العكس أي : إن اليونانية مأخوذة من العربية وما دام في القرآن جذر فصيح لها فلا يصح أن يفرض أنها غير عربية ، وصيغتها صيغة عربية وعلى كل حال فلا محل للمراء في أنها كانت مستعملة قبل نزول القرآن في لسان العرب للدلالة على الشخصية التي تطلق عليها ، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين ..

للناس ، ويفريهم بالكفر والمنكرات ، ويصرفهم عن الله والمكرمات ، وأنه مطرود ملعون من الله (١) . وقصة خلق آدم وزوجته وخروجهما من الجنة بإغراء الحية من قصص سفر التكوين أول أسفار العهد القديم المتداول اليوم نسخة منه ، والذي نعتقد أنه كان متداولاً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ما فيه من قصص معروفاً في أوساط هذه البيئة ، وفي الإصحاح (٢٠) من سفر رؤيا القديس يوحنا من أسفار العهد الجديد المتداول اليوم ، والذي كان على ما نعتقد متداولاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته أن الحية القديمة هي إبليس ، أي : أن أهل الكتاب كانوا يتداولون أن الذي أغرى آدم وزوجته ، وكان سبباً في طردهما من الجنة وهبوطهما إلى الأرض هو إبليس ، ويجوز أن يكون هذا وارداً في قراطيس وأسفار أخرى ، بل يجوز أن يكون وارداً في نسخة من نسخ سفر التكوين لم تصل إلينا ، وفي صيغة القصة في سورة الأعراف (الآيات ١١ - ٢٧) وما جاء في سفر التكوين المتداول اليوم عنها (الإصحاحان الثاني والثالث) تطابق غير يسير . وكل هذا يسوغ القول: إن سامعي القرآن من العرب ، كانوا يعرفون القصة قبل نزوله ، وإذا كان هناك نقاط لم ترد في القرآن ووردت في السفر أو لم ترد في السفر ووردت في القرآن فالذي نعتقد ، أن ما ورد في القرآن ، كان هو المتداول ، أو كان متداولاً . وهكذا تكون القصة من ناحيتها كقصص القرآن جاءت للعظة والتذكير بأمر كان معروفاً من السامعين ، فكان ذلك من حكمة إيرادها حتى يتأثر بذلك سامعوا القرآن من العرب .

والمتمعن في صيغ القصة يجد العظة والتذكير والتحذير هو المقصود الرئيسي فيها ، ولقد وجه الخطاب في معظمها إلى الناس ، وإلى بني آدم بصورة عامة ، ومما استهدفته القصة كذلك تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فالذين لا يستجيبون إلى الدعوة هم ذوو النيات

(١) كان معظم العرب مشركين يؤمنون بوجود الله ، ويشركون معه في العبادة والاتجاه
آلهة أخرى هم على الأغلب الملائكة على اعتبار أنهم بنات الله ، وعلى سبيل الاستشفاع
بهم عنده والتقرب بهم إليه على ما شرحناه قبل وأوردنا شواهد .

الخبیثة ، والقلوب المريضة المنكرون المتعالون الذين یجد إبلیس فیهم مجالا واستعداداً للوسوسة والإغراء ، ومصیرهم جمیعاً النار . والطریق مسدود أمام إبلیس بالنسبة لذوی النیات الحسنة والرغبة الصادقة فی الحق والهدی الذین یتستجیبون إلى دعوة الله ، ورسالة رسوله . وهذا مما تمثّل فیما جاء فی أكثر الصیغ .

(قال ربّ بما أغويتني لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين .
إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط عليّ مستقیم . إن عبادي
ليس لك عليهم سلطانٌ إلا من اتّبعك من الفاوين . وإن جهنّم لموعدهم
أجمعين . لها سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزءٌ مقسوم . إن المتقين في
جنّات وعیون . أدخلوها بسلام آمین (١) الحجر : ٣٩ - ٤٦

ولعلّ مما یندمج فی أهداف القصة وأسلوبها أمرین مهمین بالنسبة إلى عقائد العرب فی الملائكة ، فقد كانوا یعتقدون أنهم بنات الله ، ویعبدونهم أو یشركونهم فی الدعاء مع الله لیکونوا شفعاء لهم عنده ، وفي أذهانهم صورة فخمة عنهم ، فأرید بذلك **أولا** : توجیه العرب الذین للملائكة فی أذهانهم هذه الصورة إلى الاحتذاء بهم فی طاعة أمر الله ، واستجابة الدعوة التي دعاهم بها رسوله .

ثانيا : تفهیم العرب أن الملائكة الذین یعبدونهم ویشركونهم مع الله ليسوا إلا عبيداً له یسجدون بأمره لمن خلقه من طین استغراقاً فی الخضوع له ، وأن من كان هذا شأنه ، لا یجوز اتخاذه إلهاً أو شریکاً مع الله ، واعتقاد القدرة فیهِ على النفع والضرر والمنع والمنع ، وفي القرآن آیات عديدة فیها حكاية تنصل الملائكة من الذین یعبدونهم ، وتقریر بخضوعهم لله وعبودیتهم له وحده كما ترى فی هذه الآيات التي فیها فی الوقت نفسه تنذیر بالمشركین ، وإنذار بما سوف یشرفون من أمرهم یوم القيامة ، وكيف یتنصل منهم الملائكة بقصد حملهم على الارعاء :

(١) جاء ذلك فی الصیغ الأخرى أيضاً . انظر آیات البقرة ٢٨ و ٣٩ والأعراف ١٦ -

٢٧ ، والاسراء ٦٠ - ٦٥ وص ٧١ - ٨٥

١ - (والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة
وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .)
النحل : ٤٩ و ٥٠

٢ - (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا
يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا
يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله
من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين .) (الانبياء : ٢٥ - ٢٩

٣ - (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم
عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل . قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن
نتخذ من دونك من أولياء ولكن متّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا
قوماً بوراً . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن
يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً .) (الفرقان : ١٧ - ١٩

٤ - (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا
يعبدون . قالوا سبحانه أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ
أكثرهم بهم مؤمنون .) (سبأ : ٤٠ و ٤١

٥ - (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد
أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .) (النجم : ٢٦

٦ - (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس
والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما
يؤمرون .) (التحريم : ٦

كذلك فإن المتمعن في آيات صيغ القصة السبع يجد أنها تحتمل
وجوهاً عديدة للتأويل ، وأن فيها ما لا يعلم تأويله إلا الله ، ولا يدرك سره
العقل البشري ، وبكلمة أخرى يظهر له أنها من المتشابهات التي أوجب
القرآن الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إichاء منها بالأسلوب
الذي جاءت عليه لتحقيق الهدف الذي استهدفته دون تورط في التخمين

والتزيد والتكلف والاستنتاج ، واستكناه الماهيات ، والاستنباط الموضوعي على غير طائل ولا ضرورة من دين وعلم . بحيث يكون الخروج عن هذا النطاق خروجاً عن نطاق الضابط القرآني ، والهدف القرآني ، ودخولاً في متاهات التأويل التي حذر القرآن ورسول الله منه .

وإذا كان المفسرون قد أوردوا بحسن نية بيانات كثيرة على هامش صيغ القصة في صدد خلق آدم وزوجته ، والجنة والملائكة ، وإبليس وهويته وذريته وطرده ، وخروج آدم وزوجته من الجنة وما كان في الكون قبلهما من خلق ، وما جرى من حوار بين الله والملائكة ، وبينهم وبين إبليس ، وبينهم وبين آدم الخ الخ شبيبت بكثير من الإغراب والخيال والمبالغة كما فعلوا بحسن نية أيضاً مثل ذلك على هامش القصص القرآنية الأخرى ، فإن كتاب الله ورسوله لا يتحملان مسؤوليته ، وإن كان فيه دلالة على أن هذه القصة كانت متداولة مع كثير من الحواشي والزوائد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته .

والجواب الذي أوردناه في بحث القصص القرآنية على سؤال قد يرد عما إذا كانت القصص حقائق ووقائع يورد هنا أيضاً ، فكل ما جاء في القرآن من هذه القصة وحي رباني ، وإننا نقول وينبغي على كل مسلم أن يقول : **(أما به كل من عند ربنا)** مع القول : إن القصة مما كان معروفاً عند السامعين ، وإن ما ورد في القرآن في صدها وبصيغها المتعددة ، قد استهدف في الدرجة الأولى تدعيم الرسالة المحمدية والعبرة والعظة ، وإنه من التشابهات التي يجب الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحاءه بالأسلوب الذي جاء به لتحقيق الهدف الذي جاء من أجله ، والذي شرحنا ما هو الملموح منه دون تزييد ولا تكلف لضرورة لهما ولا طائل من ورائهما ، وليس من ضرورة دينية لاستكناه كنهه الذي حصر الله علم تأويله في نفسه كما جاء في آية سورة آل عمران .

ولقد احتوت محاضرة صادق العظم التي أشرنا إليها قبل ذلك ، والتي جعلتنا نستطرد إلى ذكر هذه القصة كثيراً من التمثل والتعسف والسفسطة عن عمد وقصد دون اعتبار بما هو واضح من صيغ القصة من أهداف العظة والعبرة .

ومن محصل ما قاله : إن إبليس الذي كان كبير الملائكة (١) ، قد وجد نفسه أمام أمر وواجب ، فآله يأمره بالسجود لغيره ، والله أوجب

(١) لم يرد في القرآن أن إبليس كان كبير الملائكة ، وقد يكون بعض المفسرين أوردوا ذلك ، ولكن ليس هناك حديث نبوي وثيق يؤيده ، وهو تخميني واجتهادي من القائلين ، وقد يكونون استنبطوه من كون الآيات تذكر أن أمر الله بالسجود كان للملائكة فقط ، غير أن في القرآن تقريراً صريحاً لهوية إبليس ، وكونه من الجن كما جاء في صيغة سورة الكهف : **(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ..)** ولقد روي عن ابن عباس أن الجن هؤلاء طائفة من الملائكة غير أن الرواية غير وثيقة وغير مقبولة ، ونستبعد أن يكون ابن عباس قال ذلك ، لأن في القرآن آية جمعت الملائكة والجن كجنسين مختلفين ، كما جاء في آيات سورة سبأ ٣٠ و ٣١ التي أوردناها قبل قليل ، وفي القرآن آيات تذكر أن الله خلق الجن من نار ، منها آيات سورة الحجر هذه : **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُومِ)** ٢٦ و ٢٧ وآيات سورة الرحمن هذه : **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ)** ١٤ و ١٥ أتم فيه حكاية لقول إبليس أنه خلق من نار بينما خلق آدم من طين كما جاء في آية سورة الاعراف هذه . **(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . ١٢)** وتكرر ذلك في آية سورة ص ٧٦ أما لماذا اعتبر إبليس نفسه مأموراً بالسجود مع أنه من غير الملائكة الموجه اليهم الأمر ، فهذا من التشابهات التي يوقف منها عندما وقف عندها القرآن فضلاً عن أن آيات جميع الصيغ هي من التشابهات . ومع ذلك يمكن القول : أن ذكر الملائكة فقط هو من قبيل التخصيص مع إرادة التعميم ، وهذا أسلوب من أساليب القرآن ، ومن الأمثلة عليه آية سورة طه هذه : **(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا . ١٣٢)** ، والكلام موجه في السياق إلى النبي صلى الله عليه وسلم وليس معقولاً أن يكون مقصود الآية أن يكون أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة أهله فقط ، وهو المأمور بأن يأمر جميع الناس بالصلاة ، ويمكن إيراد أمثلة كثيرة ، هذا وفي حين أن قول صادق العظم (أن إبليس كبير الملائكة) يقتضي أن يكون من رأيته أنه من الملائكة ، فانه نزولاً على تقرير القرآن قال في مكان آخر : أن معدن إبليس الناري هو غير معدن الملائكة ، فكان ذلك سبب اختلاف موقفه عن موقفهم ! وفي حين أن العظم يومه في مناقشته للقصة موضوعياً أنه مؤمن بها ، فانه يعلن في مكان آخر عدم إيمانه بها وكونها أسطورة وحسب . وهذا من عجيب مفارقاته

على خلقه وهو من الجملة أن لا يسجدوا لغيره ، فتمرد على أمر السجود لغير الله مفضلاً الالتزام بواجب عدم السجود لغير الله ، فكانت مأساته ، وكان ضحية لتناقض الله بزعمه تعالى الله وتنزه عن ذلك . وقد جعل صادق العظم هذا الزعم اللولب والمحور اللذين تدور عليهما محاضراته ، وأكثر من الإبداء والإعادة فيهما إلى درجة الإملال ، وهو فيه مجازف متهافت ، ولقد ناقش كلام بعض المفسرين والباحثين الذين قالوا : إن السجود الذي أمر به الله الملائكة هو سجود تكريم ، وليس سجود عبادة ، ولكن العظم أصر على قوله ، وقال : إنه ليس للسجود في القرآن إلا معنى واحد وهو العبادة ، وتعامى عما في القرآن من آيات مؤيدة لأولئك المفسرين والباحثين ، والتي تلزمه إلزاماً لا فكاك له منه ، لأنه ينطلق من العبارات القرآنية للقصة . ولقد جاء في صيغة القصة في سورة الإسراء على لسان إبليس (قال أسجد لمن خلقت طيناً . قال أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً .) ٦١ و ٦٢ وهذا المعنى ملموح فيما حكته آيات الأعراف وص من قول إبليس : (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين .) الأعراف ١٣ وص ٧٦

ولقد حكى القرآن سجود أبوي يوسف وإخوته ليوسف في سورة يوسف (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً .) ١٠٠

ولا يمكن لأي كان أن يزعم أن سجودهم ليوسف كان سجود عبادة ، وتعامى العظم كذلك عما في القرآن من قول الله له إنه في عدم سجوده متكبر مستعل كما جاء في صيغة سورة الأعراف :

(قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين .) ١٣ وكما جاء في صيغة سورة ص (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين .) ٧٥

ولم يحك القرآن أن إبليس اعتذر بأنه لا يجوز أن يسجد لغير الله ،

ولكنه حكى قوله جواباً على السؤال الوارد في صيغة سورة ص (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين .) ثم تعامى عما قرره القرآن من اعتبار الله سبحانه إبليس بعدم سجودة متمرداً عليه ، واستحقاقه من أجل ذلك الطرد واللعنة المخلدة ، والنار مع من يتبعه كما جاء في صيغة الأعراف (قال أخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين .) ١٨ ، وفي صيغة الحجر (قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين .) ٢٤ و ٢٥ ، وفي صيغة سورة ص (قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين .) ٧٧ و ٧٨ و (قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين .) ٨٤ و ٨٥ ، وهو ملزم بهذا كما قلنا إلزاماً لافكاك له منه ، لأنه ينطلق من العبارة القرآنية للقصة التي لم ترد بعباراتها وأسلوبها ومداها في غير القرآن ، وتعامى صادق العظم كذلك تعامياً عجيباً عن أن القرآن يدور جملة وتفصيلاً في الدرجة الأولى على الدعوة إلى عبادة الله وحده ، ومحاربة كل أنواع الشرك ، وعبادة غير الله ، والسجود لغير الله بأي صورة وتأويل وعمل ، وعن أن الله يتنزه ، والحالة هذه عن أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم سجود عبادة ، وتعامى عن كون إطاعة الملائكة لآمر الله بالسجود لآدم سجود عبادة تجعلهم مشركين ، وهم الذين ينزههم القرآن عن ذلك ، ويقرر أنهم دائمو العبادة والتسبيح والتقديس لله وحده ، وتعامى عن كونه بدعواه يقف موقفاً فيه كل السخف إذ يجعل إبليس أشد حرصاً على التمسك بواجب توحيد الله من الله نفسه ، ويجعله مؤمناً موحداً ضحى بنفسه ببطولة مأساوية - على حد تعبير سخيف له - في سبيل عقيدته رغماً عن نصوص القرآن التي تصف إبليس بالكافر المتكبر المتمرد المتعالي على الله وأمره المستحق بذلك لغضب الله ولعنته والخلود في ناره ، وتغافل أو غفل عما انطوى في القصة في صيغها المتكررة وسياق هذه الصيغ من أهداف العبرة والتذكير والموعظة التي تبدو للناظر بدون حاجة إلى نباهة كبيرة ، وكونها هي المقصودة الجوهرية من قصة يعرفها السامعون ، ويعرفون مداها قبل نزول القرآن ، وعن كون آيات الصيغ

إذا ما عرضت كلها في نظرة واحدة شاملة من التشابهات التي تتحمل وجوهاً عديدة للتأويل ، والتي فيها ما لا يدرك تأويله عقل الإنسان ، وليست من المحكمات ...

ويقتبس صادق العظم أقوالاً لبعض المفسرين والمؤلفين المسلمين عن إبليس وتمرده ، ومحاورات مفروضة وتخيلية بينه وبين الله ، وبينه وبين موسى ، وبينه وبين بعض المؤلفين ، ويقارن بين موقف إبليس وآدم ، وقصة إبليس وابتلاء إبراهيم بذبح ابنه ، وبين هذه القصص ، وبين بعض قصص فيها مواقف محرجة ، أو مأس متناقضة . ولكن كل هذا جزاف لا يتحمل القرآن مسؤوليته . ومما قاله في صدد ذلك حتى لكأنه يناقش قصة يعتقد بها انه ليس معتقداً بها أصلاً : يتكون جوهر الكبرياء المساوية من رفض البطل لأن يبقى سلبياً في وجه ما يعتبره تحدياً لواجبه ومنزلته وكرامته حتى لو كان يعلم أن هذا التحدي هو جزء من مصيره وأن كبريائه سينتهي به إلى الدمار واليأس والموت ، وهكذا انتهى أوديب (بطل قصة شكسبير) وهكذا انتهت انتيجونا (بطل قصة أخرى) ، وهكذا انتهى إبليس ...

أما آدم فلم يعرف هذا النوع من الكبرياء على الإطلاق ، ولو كان مقدراً له أن يكون شخصية مأساوية لما قال (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم **تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** :) الأعراف : ٢٣ حيث نستنتج إذن أن كبرياء إبليس لم تكن ناتجة عن عجرفة فارغة ، ولا عن تطاول على معبوده ، بل كانت كبرياء مأساوية دفعته لأن يلجأ إلى الله من قضاء الله عليه ، ولم يغير إبليس موقفه من ربه حتى بعد أن أصبح طريداً ولعينا . وأقل ما يوصف به هذا الكلام بالنسبة لقصة آدم وإبليس إزاء الله تعالى هو هراء وكلام فارغ مادام في القرآن الذي ينطلق العظم من نصوصه ذلك الحسم الصريح الذي يخرج إبليس به من نطاق زعم المأساة والتضحية بالنفس ، وبطولة العقيدة وكرامة الواجب . والعظم يبدى ويعيد في موضوع المشيئة والإرادة الربانية ، وكون إبليس غير مستطيع الخروج من

نطاقهما ، فكان في ذلك مأساته ايضاً على حد زعم وتعبير سخيف آخر له .
(لأن الله لو شاء لإبليس - وهذا من أقوال العظم - أن يسجد لآدم
لسجد ، ولو شاء للملائكة أن لا يسجدوا لما سجدوا ، ولو شاء لآدم أن لا
يقع في إغراء إبليس لما وقع ، ولكنه لم يشأ أن لا يقع آدم في الإغراء ، وشاء
أن يقع فوقع ، ولم يشأ أن يسجد إبليس فلم يسجد في حين أنه لم يشأ
أن يعصي الملائكة فلم يعصوا ، وهكذا ذهب إبليس ضحية تناقض الله -
تعالى وتنزه عن ذلك - الذي أمره بشيء أو أراد منه شيئاً ولم يشأ أن
يفعله ، فلم يستطع أن يفعله بطبيعة الحال) . ولم يكتف بهذا الكلام الجدلي
السفسطي ، بل أتبعه بتعبير بذيء متهافت حيث قال (إن إبليس واجه
الرب وهو يناقض نفسه بصورة مباشرة مفضوحة - كبرت كلمة تخرج منه
- فذهب ضحية هذا التناقض ، وضحية الموقف الذي وقفه ، فكان
جوده أعظم تقديس للذات الإلهية ، وأكبر مثل على التمسك بحقيقة
التوحيد ...) .

وتعالمى وهو ينفث هذا الهراء والبذاءة عما في القرآن من تقارير
محكمة بأن الله أوجد في خلقه العقلاء قابلية التمييز بين الخير والشر ،
والهدى والضلال ، والحق والباطل ، والطاعة والعصيان ، وقابلية الاختيار
بين ذلك ، ورتب عليهم نتائج تمييزهم واختيارهم مما تمثل في آيات كثيرة
مبثوثة في مختلف سور القرآن ، وهذه الآيات تفيد أن ذلك مطلق لجميع
خلق الله العاقلين بما فيهم الملائكة وإبليس والجن ، وتغافل عن كون الأمر
قد وجه للملائكة وإبليس ضمناً ، وعاقبه الله على تمرده ، لأنه لم يسجد ،
وأن الملائكة اختاروا الطاعة ، وأن إبليس تكبر وعصى ، وأن ذلك كان
باختياره ، فاستحق لعنة الله وناره ، ولا يصح أن يستخرج من كون الله
لو شاء أن يسجد لإبليس لآدم لسجد ، وما استطاع أن يمتنع أن الله لم
يشأ ذلك مادام قد أمر به ، والتأويل الأوجه هو أن الله لم يشأ أن يقسر
إبليس على السجود بفرض مشيئته بذلك عليه فرضاً ، بل تركه هو والملائكة
لاختيارهم ، فاستجاب الملائكة باختيارهم طاعة وإذعاناً ، وعصى هو
باختياره تكبراً وانفة ، ومن تقارير القرآن المحكمة أن الله تعالى لا يكلف

نفساً إلا وسعها ، فلا يصح أن يفرض أن الله أمرهم بالسجود إلا مع فرض أنهم قادرون على فعله باختيارهم ، وقد غفل العظم عن آيات قرآنية عديدة فيها تأييد لذلك منها هذه الآيات :

١ - (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .) يونس : ٩٩ .

٢ - (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً .)
الرعد : ٣١

٣ - (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لآملنّ جهنّم من الجنة والناس أجمعين .) السجدة : ١٣

مما يعني أن الله تركهم لاختيارهم ، ولم يشأ أن يقصرهم ويجبرهم حتى ينال كل منهم جزاءه وفق اختياره ، وفي القرآن آيات حكمت احتجاج الكفار المشركين بمثل الحجة التي يسوقها العظم ، وردت عليهم بما فيه حسم لهذه النقطة أيضاً مما غفل عنه العظم كذلك . كما ترى في هذه الآيات :

١ - (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظنّ وإن أنتم إلا تخرصون .
قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين .) الأنعام : ١٤٨ و ١٤٩

٢ - (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمانا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين .) النحل : ٣٥

٣ - (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون .) الزخرف : ٢٠

وفي القرآن آيات أخرى يمكن أن تساق في هذا المساق كما ترى فيما يلي :

١ - (اتبع ما اوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين .
ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما انت عليهم بوكيل .
الأنعام : ١٠٦ و ١٠٧)

٢ - (وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجنّ يوحى
بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما
يقترون . ولتصفى إليه أئمة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتربوا
ما هم مقتربون .) الأنعام : ١١٢ - ١١٤

حيث تنطوي على تقرير كون الله قادراً على منعهم لو شاء ولكنه
تركهم لاختيارهم . ويتحجج صادق العظم فيما في آيات سورتي الاعراف
والحجر من حكاية لقول إبليس خطاباً لله تعالى :

١ - (قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لا تبينهم
من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم
شاكرين .) الاعراف : ١٦ و ١٧

٢ - (قال ربّ بما أغويتني لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينهم
أجمعين .) الحجر : ٣٩

لتسويغ كون ما وقع على إبليس كان من إغواء الله ، تنزه الله عن
ذلك ، والعبارة هي حكاية لقول إبليس ، وليس فيها إقرار لهذا القول ،
وقد جاء بعد هذه الآيات الآيات التالية :

١ - (قال اخرج منها مذمّوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنم
منكم أجمعين .) الاعراف : ١٨

٢ - (قال هذا صراط عليّ مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم
سلطان إلا من اتبعك من الفاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين .)
الحجر : ٤٠ - ٤٢

وكلام إبليس المحكي من نوع ما تحجج به المشركون ، وحكته آيات
سور الأنعام والنحل والزخرف ، وقد ردّ القرآن عليهم ، ولم يقرهم
عليه .

وقد تساق آيات قرآنية قد تفيد أن الناس لا يشاؤون إلا ما شاء الله كما ترى فيما يلي :

١ - (كلا إنه تذكرة . فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو اهل التقوى واهل المغفرة .) المدثر : ٥٤ - ٥٦

٢ - (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً .) الإنسان : ٢٩ و ٣٠

٣ - (إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين .) التكوثر : ٢٧ - ٢٩

غير أن هناك آيات تنسب المشيئة إلى الإنسان مطلقاً بدون استدراك كما ترى فيما يلي :

١ - (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .) الكهف : ٢٩

٢ - (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً .) الزمل : ١٩
٣ - (كلا والقمر . والليل إذا دبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة .) المدثر : ٣٣ - ٣٨

٤ - (كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة . قتل الإنسان ما أكفره .) عبس ٢
١١ - ١٧

حيث يصح القول إن تنوع الأساليب مما اقتضته حكمة التنزيل والسياق ، ولقد جاء بعد آيات سورة الإنسان ٢٩ و ٣٠ هذه الآية :
(يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً .)

حيث ينطوي فيها تقرير كون الذين لا يتخذون إلى ربهم سبيلاً هم الظالمون وحسب ، وفي الآية الأخيرة (٥٦) من سورة المدثر شيء من هذا المعنى ، فينبغي أن يعتبر هذا ضابطاً مزيلاً لإشكال ذلك التنوع ، ومن

الجدير بالذكر انه فضلا عما في آيات الكهف ٢٩ والمزمّل ٢٩ والمدرّ ٢٣ - ٣٨ وعبس ١١ - ١٧ من نسبة المشيئة إلى الانسان بدون استدراك ، فإن المتعمّن في سياق آيات المدرّ ٥٤ - ٥٦ والإنسان ٢٩ و ٣٠ ، والتكوير ٢٧ - ٢٩ التي فيها استدراك ، بل وان المتعمّن في كل سياق قرآني بصورة عامة يلمح أن القرآن ينسب الأفعال إلى أصحابها ، ويرتب نتائجها عليهم حسبها ، وأنه يأمر الناس بالاستجابة إلى دعوة رسول الله ، وبالإيمان بالله وحده والعمل الصالح ، وتقوى الله ، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبتجنب الكفر والشرك والمنكرات والموبقات ، وبشرب المستجيبين ، وينذر المتمردين ، فلا يصح مع هذه الظاهرة القرآنية العامة المنبئة في كل سور القرآن ، والمتسقة مع الحقيقة المحكمة الكبرى في إرسال الله الرسل للناس لدعوتهم وإنذارهم وتبشيرهم ، وفي أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وفي أنه يعلم أن الاستجابة ، وعدم الاستجابة من قابليات الناس التي أودعها فيهم أن يفرض الله تعالى ما يتعارض مع حكمته وعلمه ، ومع أوامره ونواهيه وتكاليفه وإنذاره وتبشيرهم ووعده ووعيده أو يشاء منع استجابة الناس لدعوة رسوله ، واهتدائهم بهدي قرآنه والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، ويكون ما في تلك الآيات القليلة من استدراك لم يكن في آيات مماثلة من نوع التشابهات أو الأسلوبيات وليس من نوع التقريرات المحكمات ، ومما يؤيد هذا آيات سورة الأنعام ١٤٨ و ١٤٩ والنحل ٣٥ والزخرف ٢٠ التي أوردناها قبل قليل التي تحكي احتجاج المشركين بأنهم لو شاء الله ما أشركوا ، ولا حرّموا من شيء ، وما عبدوا غير الله ، وترد عليهم وتكذبهم وتنذرهم ، فلو كان شركهم وتحريمهم وعبادتهم بمشيئة الله سبحانه لما كان هذا الرد والتكذيب والإنذار وفي سورة الزمر آية مهمة في هذا الباب وهي :

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٧)

ويتنزه الله سبحانه عن أن يشاء ما لا يرضاه ، فإذا ما جاء في آية ما ما قد يبدو فيه تعارض ، فلا يصح أن يعتبر ذلك ناقضاً للظاهرة القرآنية الغالبة .

وفي سورة ابراهيم آية مهمة في هذا الباب وهي : **(ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويصل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء . ٢٧)** ونص الشطر الأكبر الأول في الآية مفسر لمدى الجملة الأخيرة منها ، فالله يفعل ما يشاء حقاً ، ولكنه يرتب ذلك حسب سلوك وكسب الناس ، فالذين آمنوا وحسنت رغباتهم وإخلاصهم يشتم بالقول الثابت والذين ظلموا فأشركوا وفسقوا واقترفوا المنكرات يضلهم ولا يسعدهم ولا يوفقهم . وهكذا لا يبقى في العبارة القرآنية إشكال ، وفي القرآن آيات عديدة من بابها . سوف نوردتها ، وننبه على مداها في نبذة آتية .

وقد يسأل صادق العظم وأمثاله للمحاكمة ، وقد يسأل مسلم للتعلم عما إذا كان يصح أن يقع من الناس ما لا يشاء الله ، والجواب على هذا أن الله قد فطر الناس على قابلية التمييز والاختيار ، وهذه هي مشيئته الأصلية ، فالناس إذا استعملوا قابلياتهم في التمييز والاختيار ، يكونون قد فعلوا ذلك بمشيئة الله الأصلية ، وبهذا يكون التوفيق ، ولا يبقى محل ولا حاجة إلى ذلك السؤال .

ويقف العظم عندما جاء في بعض صيغ القصة من أمر خلق آدم من طين ، ونفخ الروح فيه ، ويورد أقوالاً لمفسرين لا تخرج عن كونها تخمينات واجتهادات شخصية ، لا يتحمل القرآن مسؤوليتها ، ويحاول أن يستخرج من ذلك تقارير قرآنية لبدء خلق الإنسان الأول مباشرة ليرز ما فيها من مباينة لما عرف من حقائق أو نظريات علمية وفنية أخرى . في حين أن المتمعن في الصيغ جميعها إذا ما استعرضها في سلسلة واحدة يجدها مختلفة حسب مقاماتها ، ويجدها مما تتحمل تأويلات عديدة ، وليست بسبيل تقارير محددة عن الخلق ، والخطاب فيها موجه إلى السامعين بما يتسق مع ما يعرفونه من القصة ، ومع ما في أذهانهم ومشاهداتهم ومعارفهم عن الخلق والتكوين ، ونواميس الله فيهما ، ويلمح بكل قوة قصد

التذكير والعظة والإنذار ، وبيان عظمة الله وقدرته أي قصد تدعيم الدعوة وحسب ، وهو أسلوب القرآن وهدفه في القصص ، وفيما جاء فيه من آيات عن خلق الكون ومشاهدته ونواميسه ، ويظهر كل هذا بوضوح تام حينما يقرأ القارئ سياق الصيغ وآيات الكون ومشاهدته .

ولقد سبق آيات صيغة البقرة للقصة مثلاً هذه الآيات :

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٣٠ - ٣٣

حيث انطوى فيها بيان هدف حكمة الله في اختصاص آدم وبنيه بالعقل والعلم والسلطان في الأرض ، أما الحوار ، وتعليم آدم الأسماء كلها ، فكل ذلك من التشابهات التي يأمر القرآن بعدم التورط في تخمينها واستكناها ، والتي لضرورة دينية إلى التوقف عندها ، ويكفي أن يستشف منها تلك الحكمة .

وقد سبق صيغة سورة الأعراف مثلاً هذه الآيات :

(ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون . ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (١٠ و ١١

حيث يبدو أن هدف تنبيه بني آدم إلى نعمة الله عليهم هو الرئيسي في القصة وسياقها ، وفي كل صيغة من الصيغ يبدو هدف العبرة والعظة والتنبيه هو الرئيسي حتى الصيغ التي فيها خلق الإنسان الأول من طين في سياق القصة لم تكن تقصد تقرير ماهية هذا الخلق وكيفيته ، وإنما هي بالدرجة الأولى بقصد التنبيه والعظة كما يبدو واضحاً حينما يقرأ القارئ هذه الصيغ وما قبلها وما بعدها .

ومن الجدير بالذكر أن في القرآن آيات فيها إشارات إلى خلق الإنسان من طين بدون ذكر آدم حيث يبدو من هذا أن ذكر خلق آدم من طين في سياق القصة لم يكن هدفها الجوهري ، ويبدو من هذه الآيات أيضاً أن الهدف الرئيسي هو التنبيه والعظة كما ترى في آيات سورة المؤمنون التي سبقها آيات فيها تنويه بالمؤمنين الصالحين وتبشير لهم ولحقها آيات فيها تذكير بنعمة الله على بني آدم السامعين .

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا مضغة عظماً فخلقنا العظيم لحمًا ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ١٢ - ١٦

حيث يصح القول : إن الآيات تذكر السامعين بما يعرفونه من مراحل خلق الإنسان كوسيلة لتذكيرهم وإنذارهم ، وهذا ملموح في آيات مماثلة جاءت في سورة السجدة وهي :

(ألم تنزل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون . الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) ١ - ٩

وكل هذا يوجب على من حسنت نيته ، ولم يرد المأحكة والتمحل ولو كان ملحداً أن يلتزم بما حدده القرآن والنبي من ضوابط ، وهي عدم التورط والتمحل في تأويل الآيات المتشابهات والتزيد في صدها ، لأن ذلك لم يكن من مقاصدها ومراميها التي هي العظة والتمثيل والعبرة والتنبيه والتذكير .

ويستطرد صادق العظم إلى ما في القرآن من إشارات إلى إغراءات إبليس وتزيينه للناس بإذن الله وما يترتب على ذلك ، ويذكر معه الشيطان المرادف له (١) ، ويحاول أن يجعل ذلك من المسائل القرآنية الكبرى ، ويصورها على أنها شغلت الحيز الأكبر في عقائد المسلمين وأعمالهم وحركاتهم ونشاطهم ، وأن يبرز ما في ذلك حسب زعمه من ثغرات وتناقض وتعارض ، ولا يتورع عن إساءة الأدب نحو الله تعالى فيقول في بعض مواضع كتابه : (إن الله قد سلط إبليس والشيطان على الإنسان ، وأمره

(١) القرآن يرادف بين إبليس والشيطان حتى يبدو الواحد بديلاً عن الآخر على ما تفيد آيات عديدة منها آيات قصة آدم وإبليس في البقرة : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فآذلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . .) ومثل ذلك في آيات القصة في سورة الأعراف حيث جاءت هذه الآية بعد ذكر تمرد إبليس عن السجود . (فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما) ثم هذه الآية : (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . .) وكلمة الشيطان في اللغة العربية بمعنى : العاتي الباغي ، وبالتالي أنها نعت ذم ، ولا شك في أن العرب كانوا يفهمون دلالتها هذه قبل نزول القرآن ، ولقد تكرر ذكر الشيطان كثيراً في القرآن في صدد بيان تزيينه للناس الشهوات والكفر والانحراف وإغوائهم وإضلالهم مما يسوغ القول : إن ذلك أيضاً مما كان مستقراً عنه في أذهان السامعين ، وفي سورة الصافات هذه الآيات : (اذلك خير نزلأ أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعمها كأنه رؤوس الشياطين . .) حيث يفيد هذا أن أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يتصورون الشيطان في صورة رهيبة ومنظر مخيف ، وبالتالي حيث يؤيد هذا ما قلناه من أن فكرة الشيطان ودوره الإغرائي كرديف لإبليس مما كان مستقراً في أذهان سامعي القرآن قبل نزوله ، وهذا ما يفسر ما جاء في القرآن من كثرة الآيات التي فيها ذكر للشيطان ، فالتنزيل القرآني متصل من ناحية ما بما كانت عليه بيئة النبي صلى الله عليه وسلم على ما شرحناه في نبذة سابقة ، ونبهنا على وجوب ملاحظة ذلك ، لأن ذلك يعصم الناظر في القرآن من التورط في التخمين والتزيد .

بالإيمان به ، وعدم إطاعة الشيطان في حين قدر عليه الوقوع في شبكته ، فلم يكن له مناص من ذلك ، فذهب بدوره ضحية تناقض الله ومكره ، كبرت كلمة تخرج من فيه . هذا في حين أن هذه المسألة أيضاً من المسائل المتشابهة في القرآن التي تتحمل آياتها تأويلات عديدة والتي قد لا يدرك مداها عقل الإنسان ، والتي لا يجوز أن تغطي على ما في القرآن من محكمات يوضع بها الأمر في نصابه الحق ، وفيها في الوقت نفسه تدعيم للدعوة النبوية ، وإذا كان حقاً في القرآن آيات فيها ذكر لتسلط إبليس والشيطان، بل ولتسليطهما من الله فإن في سياق هذه الآيات ما يفيد بجزم أن ذلك هو بالنسبة للمنحرفين الآثمين الكافرين الفاسقين دون عباد الله الصالحين المؤمنين المستقيمين ، فضلاً عما فيه من آيات فيها تحذير من اتباع الشيطان وآيات فيها حكاية تنصل الشيطان من الذين يفويهم بسبيل التحذير والتنبه أيضاً ، ولا يصح أن يكون هذا إلا مع فرض جازم بأن الله تعالى يعلم أنهم قادرون على الحذر والنجاة منه ، ولا يصح أن يفرض أن الله يقول هذا ثم يجعل الشيطان قادراً على نقضه ، وفيما يلي آيات فيها كل ما ذكرناه بحيث يظهر فيها الحق واضحاً ، ويظهر كون زعم العظم جزافاً متهاقفاً . وقد أكثرنا من الآيات لأن العظم كما قلنا يحاول أن يصور هذه المسألة من المسائل القرآنية والإسلامية الكبرى التي فيها ثغرات وماخذ :

١ - (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون .) البقرة : ١٦٨ و ١٦٩

٢ - (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إنه غفور حلیم .) آل عمران : ١٥٥

٣ - (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين .) آل عمران : ١٧٥

٤ - (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً .) النساء : ٦٠

٥ - (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً .) النساء : ٧٦

٦ - إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً . لعنه الله وقال لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولاصلنهم ولامنينهم ولامرتهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرتهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يعدمهم ويمنيهم وما يعدمهم الشيطان إلا غروراً . أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً . والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً .) النساء : ١١٧ - ١٢٢

٧ - (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون .) المائدة : ٩١

٨ - (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .) الأعراف : ٢٧

٩ - (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم . إن الذين أتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم في الفي ثم لا يقصرون .) الأعراف : ٢٠٠ - ٢٠٢

١٠ - (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم

لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخيّ اني
كفرت بما اشرکتون من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم . وادخل الذين
آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدین فيها
یاذن ربهم تحیتهم فيها سلام .) ابراهيم : ۲۲ و ۲۳

۱۱ - (قال ربّ بما اغويتني لازيتنّ لهم في الأرض ولأغوينهم
أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علي مستقيم . إن
عبادي ليس عليهم سلطان إلا من اتبعك من الفاوين . وإن جهنم
لموعدهم أجمعين .) الحجر : ۳۹ - ۴۱

۱۲ - (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزّين لهم الشيطان
أعمالهم فهو وليّهم اليوم ولهم عذاب اليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلا
لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .) النحل :
۶۳ و ۶۴

۱۳ - (إن المبشرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه
كفوراً .) الإسراء : ۷۲

۱۴ - (قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً .
واستغفر من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجالك وشاركهم
في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادي ليس
لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً .) الاسراء : ۶۳ - ۶۵

۱۵ - (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من
الجنّ ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ
بئس للظالمين بدلاً .) الكهف : ۵۰

۱۶ - (فوريك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحشرنهم حول جهنم
جثياً .) مريم : ۶۸

١٧ - (ألم ترانا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً) مريم : ٨٣ و ٨٤

١٨ - (وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك ربّ أن يحضرون .) المؤمنون : ٩٧ و ٩٨

١٩ - (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم .) النور : ٢١

٢٠ - (لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً) الفرقان : ٢٩

٢١ - (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون .) الشعراء : ٢٢١ و ٢٢٢

٢٢ - (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير .) لقمان : ٢١

٢٣ - (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شكّ وربك على كل شيء حفيظ .) سبأ : ٢٠ و ٢١

٢٤ - (إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّاً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .) فاطر : ٦

٢٥ - (ألم اعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وإن عبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون .) يس : ٦٠ - ٦٣

٢٦ - (ومن يَفْش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين .
وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال
يألت بيني وبينك بعدَ المشرقين فبئس القرين .) الزخرف : ٣٦ - ٣٨

٢٧ - (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى
الشیطان سول لهم وأملی لهم .) محمد : ٢٥

٢٨ - (استحوذ عليهم الشیطان فأنسأهم ذکر الله أولئك حزب
الشیطان ألا إن حزب الشیطان هم الخاسرون .) المجادلة : ١٩

٢٩ - (كمثل الشیطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء
منك إني أخاف الله رب العالمین . فكان عاقبتهما أنها فی النار خالدین فیها
وذلك جزاء الظالمین .) الحشر : ١٦ و ١٧

وقد تقصدنا إبراد الآيات على كثرتها لتكون ماثلة أمام القارىء لفهم
مدى المسألة على ضوء شروحنا الآتية ، وليس ما أوردناه هو كل ما في
القرآن من ذلك ، حيث ورد فيه آيات كثيرة أخرى من بابها .

وواضح منها أن الشيطان الذي هو رديف إبليس كان يشغل في
أذهان السامعين حيزاً كبيراً على اعتبار أنه مزين للشهوات مغرٍ مغفور ،
وصلة التنزيل القرآني بالبيئة النبوية وثيقة ، وملاحظة هذا ضرورة
وواجبة لفهم مدى الآيات القرآنية كما أن ملاحظة كون مجيء في الآيات في
ضدد دور الشيطان الذي له ذلك الحيز في أذهان السامعين هو بسبيل
التحذير والتنبيه ، بل وكونه قد هدف إلى إزالة الظن المستقر في أذهان
الناس بتأثير الشيطان عليهم تأثيراً فعالاً ، وتهوين دوره ، وتطمين المؤمنين
منهم بخاصة بأنهم محصنون من ذلك - وكل هذا مما تضمنته الآيات -
واجبة وضرورية أيضاً وحينئذ يصبح إبقاء المسألة في هذا النطاق لازماً
لا يصح تجاوزه ، ويصبح تهويلها وتضخيمها كما فعل صادق العظم
جزافاً وفي غير محله .

ولقد كان للشيطان ودوره حيّزٌ في اذهان الكتابيين وغيرهم من غير العرب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقبله ، وفي غير بيئته أيضاً ، ولقد امتد أثر ذلك وما يزال ، فيكون التلقين القرآني في كل ما تقدم إنسانياً أيضاً ، وهذا من معجزات وشمول القرآن .

ولقد ذكر في إحدى آيات سورة يوسف النفس الامارة بالسوء (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء .) ٥٣ وفي إحدى آيات سورة القيامة النفس اللوامة : (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة .) ٢١ وكل منها يعني مايتفاعل في النفس الإنسانية من وساوس وحوافز ودوافع ورواسب وتجاذب ، ولقد يتبادر إلى بعض الازدهان أن دور الشيطان المذكور في القرآن هو رمز لذلك بتعبير كان هو الوارد القائم في اذهان الناس إذ ذاك ، غير أن من الأولى أن يقول المسلم (أنا به كل من عند ربنا) مع واجب الوقوف عند ذلك ، واستشفاف الحكمة منه ، والحكمة الملموحة هي ما شرحناه ، ونعتقد أن في ذلك كفاية ومقنعاً ووضعاً للأمر في نصابه الحق بالنسبة لمن حسنت نيته ، وعزف عن المباحكة والممارة .

والعظم وهو يشير هذه المسألة يفغل أولاً عن ضابط قرآني مهم متصل بهدفه التحذيري المتمثل في تقرير كون المؤمنين الصالحين المتقين المخلصين خارجين عن نطاق سلطان إبليس ورفيئه الشيطان ، وكون المنحرفين والمشركين والفاسقين والظالمين والمجرمين هم الذين يستجيبون إلى وساوسه ، ويقعون في حباله ، وبعبارة أخرى إن القرآن قد اصطنع أسلوب المقارنة لتطمين الصالحين المؤمنين المتقين ، ودمغ المنحرفين الآثمين الكافرين بأنهم اتباع الشياطين ، وهذا يستتبع دمعهم بالانحراف موضوعياً ديناً وخلقاً ، فصاروا إخوان الشياطين ومن حزبهم ، وصار الشياطين أولياءهم من دون الله ، ويفغل عما هو ظاهر من هدف الآيات التهديمي للدعوة ، وإنذار الكفسار والمجرمين ، وتطمين المؤمنين المتقين وتبشيرهم ، ونفي خوف تأثير وساوس الشيطان منهم ، وبالتالي تخليصهم

من عقده التي كانت عقدة إنسانية عامة ، ويفغل عن كون سياق الآيات صريح الدلالة على أن كفر الناس وضلالهم ، وتسلب إيليس ورديفه الشيطان ، أو تسليطه كان نتيجة خبث طواياهم وتعمدهم الانحراف ، وإصرارهم عليه . ويفغل عما في القرآن من حقيقة كبرى متمثلة في إرسال الله الرسل لدعوة الناس ، وبيان الطريق القويم لهم ، وانهادهم وتبشيرهم وهدايتهم ، ومتمثلة كذلك في آيات محكمة كثيرة أخرى متسقة مع هذه الحقيقة أو مؤكدة لها بأن الله أودع في الناس قابلية التمييز والاختيار ، فصاروا مسؤولين عما يفعلونه ويختارونه مثل هذه الآيات :

١ - (إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً . إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً .) الإنسان : ٢ - ٥

٢ - (ألم تجعل له عينين . ولساناً وشفقتين . وهديناه النجدين .) البلد : ٨ - ١٠

٣ - (ونفس وما سواها . فآلهما فجورها وتقواها . قد افلح من زكاها . وقد خاب من دساها .) الشمس : ٧ - ١٠

يفغل عما في القرآن من آيات محكمة تقرر أن الله قد خلق الناس ليبتلهم (يختبرهم) أيهم أحسن عملاً كما جاء في الآيات التالية :

١ - (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لففور رحيم .) الأنعام : ١٦٥

٢ - (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً .) هود : ٧

٢ - (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً .)
الكهف : ٧

٤ - (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) الملك : ٢ .
فازاء هذه التقارير المحكمة لا يصح أن يوقف إزاء بعض عبارات
قابلة لتأويلات عديدة ليستخرج منها ما يناقض قابلية الإنسان التي أودعها
الله فيه للتمييز والاختيار ، ومع ذلك فإن من يقرأ سياق هذه العبارات
يجد أن الأفعال فيه تنسب إلى الناس على اعتبار أنها كسبهم وصنعهم ،
وترتب النتائج عليهم وفقها كما ذكرنا قبل . وهذا فضلاً عما في القرآن من
مئات الآيات التي تذكر مباشرة الناس لأفعالهم وكسبهم وصنعهم لها ،
وترتب النتائج عليهم وفق ذلك .

وبعد فإذا كان يحلو لصادق العظم أن يعلن إلحاده ، وعدم إيمانه بالله
والنبي والقرآن ، وأن يقول : إنه أورد ما أوردته في كتابه (نقد الفكر الديني)
على سبيل الدراسة ، ونقد الفكر الديني عند المسلمين وحسب ، فإنه
ملزم - ونقول هذا لكل ملحد على شاكلته - ما دام يستند في دراسته ونقده
إلى القرآن ، وهو الدكتور في الفلسفة والفروض فيه صدق الرغبة في
البحث والتحري والتروي والاستنتاج الصادق ، وعدم المجازفة والمغامرة ،
وإلقاء الكلام على عواهنه ، وعدم المماحكة اللفظية أن يكون أكثر تروياً
وأناة ، وأقل سخفاً وبداءة ، وأن يستوعب القرآن من كل جوانبه ،
ويربط بعضه ببعض ، ويفسر بعضه ببعض ، وأن لا يعتمد كما يفعل
سخفاء المبشرين إلى المماحكات الكلامية بقصد إظهار التناقض ، والثغرات
في القرآن وعقائد المسلمين ، وفي أسس الدين الإسلامي ، ولو فعل ذلك
حقاً وصدقاً ورغبة في الحق ودون قصد للمماحكة والتمحل ، لتبين له
الحق في صدد القرآن ، ولما سجل ما سجله على نفسه من التسف
والمجازفة والسخف وسوء الأدب حتى ولا الإلحاد . وإلحاده لا يسوغ له
أخلاقياً وعلمياً ذلك التسف والمجازفة والتمحل ، وعدم استيعاب القرآن ،
واعتباره كلاً متكاملاً يتم بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويوضح بعضه
بعضاً ويقرر أن فيه نوعين متميزين من الآيات هما آيات محكمات هن أم

الكتاب وآخر متشابهات - وهن اللاتي تتعدد وجوه تأويلها ، ويعيا فهمها وتأويلها على العقول أو بعضها - ويقرر أن الذي يقف عند التشابه دون المحكم ، ويتبعه هو الذي في قلبه زيغ ، ويقصد الفتنة في سوء التأويل ، والعلم والفلسفة اللذان يجب الاتسام بهما يوجبان عليه ذلك من حيث إنه أمام مدونة أو وثيقة بقطع النظر عن تقديس مئات الملايين لها من واجبه أن يكون في بحثها وفحصها أميناً متروياً ملماً لجميع جوانبها ، ملتزماً بما وضعته من ضوابط .

ولصادق العظم مواقف تعسفية وتمحلات عديدة أخرى في صدد بعض العبارات القرآنية سوف نلم بها ، ونضع الأمر فيها في نصابه الحق في مناسبة آتية .

سادساً : الملائكة في القرآن

مما يجب ملاحظته أن ما ورد في القرآن في صدد الملائكة لم يكن هو الآخر غريباً على السامعين حيث كان في أذهانهم صور متنوعة عنه أولاً . وأنه من وسائل التدعيم للدعوة وأهدافها ثانياً .

وأنه من التشابهات التي يجب التزام الضابط القرآني في النظر إليها والوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إichاءه بالأسلوب الذي أوحيت به لتحقيق الهدف الذي استهدفته ثالثاً شأن القصص القرآنية .

وهذا بقطع النظر عن أن عقيدة وجود عناصر خفية خيرة يرجى برها ومساعدتها ولها عند الإله الأعظم حظوة ، وتقوم بتبليغ وتنفيذ أوامره ، ويتقرب إليها للاستشفاع بها ، وطلب العون منها كانت قدراً مشتركاً بين العرب المشركين وغيرهم من الملل والنحل والأجناس الأخرى من كتابية وغير كتابية ممتدة الجذور إلى امد سحيق في القدم ووارد خبرها في الأسفار والنقوش . والملائكة جمع (ملك) وهي من جذر (الك) العربي بمعنى أرسل على ما يذكره المفسرون واللغويون ، والكلمة والحالة هذه بمعنى رسول ورسول ، وما دام القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فيكون العرب قد استعملوا هذه الكلمة قبل نزول القرآن في معنى كون الملائكة يبلفون رسالات

الله تعالى ، ويقومون بخدماتهم ويشفعون لديه وهذا مما كان في أذهانهم عنهم على ما يستفاد من النصوص القرآنية .

والبعض يقول : إنها عبرانية دخيلة على العربية ، ويمكن أن يورد على هذا أن العبرانية والعربية من أصل واحد والتشارك بين اللغتين في الأسماء والأفعال والمصادر واسع جداً ، وليس من الضروري أن تكون الكلمة دخيلة إلا إذا فقدت من العربية ما يمكن أن يكون أصلاً لها ، وما دام هناك جذر عربي فصحيح لها ، فالأوجه أن تعتبر عربية فصحي ، وعلى كل حال فإنها كانت عند نزول القرآن جزءاً من اللسان العربي .

ولقد ورد في القرآن في صدد الملائكة آيات كثيرة في معرض الحوار أو بيان عقيدة العرب فيهم . منها الأمثلة التالية :

١ - (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون .) الأنعام : ٨

٢ - (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين .) الحجر : ٦ و ٧

٣ - (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً أفاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً (١) .) الإسراء : ٣٩ و ٤٠

٤ - (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم

(١) كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ويعبدون لهم استشفاعاً بهم لديه فتصدت الآيات لتبكيهم ، فهم يفضلون البنين على البنات ثم ينسبون إلى الله ما لا يشتبهون لأنفسهم مع أنه من المقتضى أن يكون له الأفضل الأحسن ..

اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً (١) .
الإسراء : ٥٦ و ٥٧

٥ - (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً . ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً . لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً . وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً (٢)) . مريم : ٨٥ - ٨٩

٦ - (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) . طه : ١٠٩

٧ - (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) . الانبياء : ٢٦ - ٢٩

٨ - (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً) . الفرقان : ٧

٩ - (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً . يوم يرون الملائكة

(١) الإشارة في الآيات هي إلى الملائكة ، فهم الذين كان العرب يرجونهم كشف الضر عنهم والشفاعة لهم مع أنهم هم أنفسهم - أي الملائكة - يتحرون الوسائل إلى رضا الله ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وهذا على سبيل التحدي للكفار العرب الذين كانوا يشركون الملائكة في الدعاء والعبادة ، ويرجون شفاعتهم ونفعهم لهم .

(٢) كان المشركون يتعبدون الملائكة على سبيل الاستشفاع ، فالآية الاولى تؤذنههم بأن الشفاعة هي لمن يتخذ عند الله العهد ، أما الثانية فالولد فيها يعني عقيدة العرب بأن الملائكة بنات الله ، وكلمة الولد تشمل الذكر والانثى .

لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً (١) الفرقان : ٢٢ و ٢١

ففي هذه الآيات وأمثالها ما يفيد أن سامعي القرآن من العرب أهل بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعتقدون بوجود الملائكة ، وأنهم عند الله وبناته ، وينزلهم لتأييد من يريد ، وذوو حظوة لديه ، وأنهم كانوا يشركونهم معه في العبادة والدعاء بقصد الاستشفاع لديه ، وفيها تقرير لعبودية الملائكة لله وكونهم يعرفون حدهم ، ولا يجروؤن على دعوى المشاركة مع الله في الألوهية ، ويخافون منه ، ولا يستطيعون أن يشفعوا إلا لمن يرضى الله عنه ويأذن ، ولا يستطيعون أن يمنعوا عن أحد ضراً ، أو يجلبوا له نفعاً خلافاً لما يريده الله من ذلك ، ويوم القيامة سوف يتصلون من الذين كانوا يعبدونهم ويكذبونهم ، ويعلنون أن وليهم الله وحسب ، ولا يمكن أن يكونوا قد رضوا بذلك . وكل هذا مما يؤيد ما قلناه من أن موضوع الملائكة لم يكن غريباً على أذهان السامعين ، وأنهم من صلب عقائدهم ، وأن مما هدف إليه القرآن بذكرهم هو تدعيم الدعوة التي كان ركنها الأول تقرير وحدانية الله تعالى بدون ولد ولا شريك ولا معين ، وتقرير استحقاقه وحده للعبادة والخضوع والدعاء ، وتدعيم لنسبة الرسول الذي كلف بمهمة هذه الدعوة .

وفي القرآن آيات كثيرة أخرى ذكر فيها الملائكة في غير معرض الحوار مع المشركين وعقائدهم كما ترى فيما يلي :

١ - (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما

(١) هذه الآيات ليست كل ما ورد في القرآن حيث يوجد فيه آيات كثيرة أخرى من بابها . اقرأ إذا شئت آيات سورة سبأ ٢٢ و ٢٣ و ٤١ و ٤٢ والصافات ١٤٩ و ١٥٠ والزمر ٤٣ و ٣٨ والزخرف ١٩ و ٢٠ والنجم ١٩ - ٢٨

تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا . (البقرة : ٣٠ - ٣٤)

٢ - (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين .) البقرة : ٩٧ و ٩٨

٣ - (ليس البر أن تولثوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .) البقرة : ١٧٧

٤ - (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يشرك ببيحيى .) آل عمران : ٣٩

٥ - (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين .) آل عمران : ٤٢

٦ - (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .) آل عمران : ١٢٤ - ١٢٦

٧ - (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها .) النساء : ٩٧

٨ - (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً .) النساء : ١٣٦

٩ - (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً .) النساء : ١٧٢ و ١٧٣

١٠ - (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون .) الأنعام : ٩٣

١١ - (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشراً وتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم .) الأنفال : ٩ و ١٠

١٢ - (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق .) الأنفال : ٥٠

١٣ - (ويسبّخ الرعد بحمده والملائكة من خيفته .) الرعد : ١٣

١٤ - (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون (١) .) النحل : ٢

فهذه الآيات التي لها أمثال كثيرة أخرى من بابها متساوقة مع المجموعة الأولى وأمثالها حيث يلمح فيها كذلك مايفيد أن للملائكة حيزاً كبيراً في أذهان سامعي القرآن الأولين ،

(١) هناك آيات كثيرة أخرى من باب ماتقدم فاكثفينا بما أوردناه . اقرأ إذا شئت آيات سورة الاعراف ٤٦-٤٩ ، والانفال ١٥١٢ ، والتوبة ٢٦ ، والنحل ٢٢ و٤٤ و٥٠ ، والحج ٧٥ و٧٦ ، ومريم ٦٤ ، والاحزاب ٤٥ و ٥٦ ، وفاطر ١ ، والزمر ٧١ - ٧٥ ، وغافر ٧ و ٥٠ . وفصلت ٢٩ و ٣٨ ، والزخرف ٨٠ ، وق ١٦ و ١٧ ، والتحريم ٦ والنبأ ٣٨ والمدثر ٢٦ - ٣١ ، وعيس ١٣ - ١٦ ، والتكوير ١٩ - ٢٣ والعلق ١٧ - ١٩

وأنها بسبيل تدعيم الرسالة القرآنية النبوية ، ويبدو هذا واضحاً فيما قررته من أن الملائكة الذين لهم في أذهان السامعين تلك الصورة الفخمة يعرفون حدهم من الله ، ويقفون عنده ، ويعترفون بعبوديتهم له ، ويسبحونه ويقدسونه ، ويحملون عرشه ، ويخافون عذابه ، ويرجون رحمته ، وينفذون أوامره ، ولا يعصونه قط ، وهم رسله إلى أنبيائه ينزلون عليهم بكتب الله وتبليغاته ، ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم مع الله ، ويستغفرون للمؤمنين ، ويصلون عليهم ، ويؤيدونهم بأمر الله بالحرب والأخطار، وهم رقباء على الناس يحصون أعمالهم ويسجلونها، وهم ينزلون بعذاب الله على الظالمين والكافرين ، ويتلقون هؤلاء عند وفاتهم، وفي القيامة بالشدة والعنف والتشريب واللوم في حين يتلقون المؤمنين بالترحيب والبشرى ، وهم خزنة الجنة والنار .

وهكذا تكون الآيات الواردة في القرآن في صدد الملائكة على اختلاف مقاماتها تفيد من ناحية أنهم كانوا يشغلون في أذهان سامعي القرآن خيلاً كبيراً ، وتهدف من ناحية أخرى إلى تدعيم الرسالة القرآنية النبوية ، وتكون الصورة الفخمة للملائكة في أذهان السامعين من مرتكزات هذا التدعيم . ويلمح الناظر المتمعن فيها من ناحية ثالثة أنها من حيث فحواها وصيغها من التشابهات التي تتحمل وجوهاً عديدة للتأويل ، يعي عن تأويل بعضها عقول الناس، وإن من الواجب التزام الضابط القرآني إزاءها، فيقف عندما اقتضت حكمة التنزيل إحياءه بالأسلوب الذي جاء لتحقيق الهدف دون تزيد ولا تكلف .

ومن المسائل المهمة التي يحسن التنبيه عليها والتنبيه لها أن الآيات وهي تركز في التدعيم على الصورة الفخمة التي في أذهان السامعين للملائكة قد تضمنت ما من شأنه إزالة الظن بأنهم قادرون على النفع والضرر للناس ، وتقدير كون الله وحده هو كاشف السوء ، ومانح الرحمة والناصر الحقيقي للمؤمنين وكونه وحده الذي يجب التوكل والاعتماد عليه ، وإن الله إذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتأييده إياهم بالملائكة ،

فإنما يفعل ذلك للبشرى والتطمين . ولقد احتوى القرآن آيات كثيرة قررت إحاطة علم الله بكل شيء ، وإحصائه كل شيء ، وقدرته على كل شيء : وتصريفه كل شيء ، ورقابته على كل شيء ، وكونه أقرب الى خلقه من كل شيء . بحيث يكون في ذلك تقرير مباشر لاستغناء الله عن المعين والمساعد أيضاً . وهذا مما يمكن أن يساق أيضاً في تأييد كون الآيات قد هدفت إلى إزالة الظن بقدرة الملائكة على النفع والضرر للناس ، وبطلان وسخافة عبادتهم ، وإشراكهم مع الله في الدعاء ...

وملاحظة كل ذلك واجبة وضرورية ، لأنها تعصم الناظر في القرآن من التورط في الدخول في متاهات استكناه الماهيات والتأويلات على غير طائل ولا ضرورة .

ولقد أوجب القرآن حقاً الإيمان بالملائكة ، وجعل الكفر بهم مروقاً من الإيمان وضلالاً ، ومن حق الذي يؤمن بعظيم قدرة الله وعظيم حكمته أن يؤمن بما أخبر الله بوجوده ، ومهمته من هذا الخلق ، ويكون ذلك غير خارج عن نطاق قدرة الله وحكمته ، ولو لم يدرك مداه عقل الإنسان الذي يعيه ادراك كثير من قوى الكون ونواميسه مع وجوب الوقوف من أمر ماهيتهم ، وكيفية خدماتهم لله عز وجل ومداه وحكمته عند ما وقف عنده القرآن بدون تزيد ولا تخمين ، والتسليم به تبعاً لواجب التسليم والايمان بما في القرآن والقول (آمنا به كل من عند ربنا) ومع وجوب ملاحظة أن القرآن وهو يذكر الملائكة بما يذكر ، ويتحدث عنهم بما يتحدث، إنما يذكر ويتحدث عن مخلوقات وكائنات كان العرب يعتقدون بها بما يقارب ما جاء عنهم ، وهذه مسألة مهمة ، لأن الكلام عما هو معروف ومعترف به هو أقوى أثراً ونفوذاً . ومع واجب استشفاف الحكمة الربانية فيه ، والتي نرجو أن يكون منها ما شرحناه ، ونبها عليه هنا ، وفي سياق شرح قصة آدم وإبليس وسجود الملائكة بأمر الله من قبل . وإذا كان بعض المفسرين والباحثين الإسلاميين تزيدوا في سياق تأويل وتفسير الآيات التي ذكر فيها الملائكة ، وفي صدد استكناه ماهياتهم وخدماتهم فلا يتحمل القرآن مسؤوليته ، وإن كان يدل على كثرة ما كان يتداول عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم

وبيئته . فإله تعالى الذي أنزل القرآن قد أنزل ما اقتضت حكمته إحياءه في هذا الأمر المغيب غير المدرك من عقول البشر لتحقيق ما استهدفه من هدف ، ولو اقتضت حكمته مزيداً من بيان لأنزله . وما يسوقه المتزيدون والمستكنهون غير وثيق السند إلى رسول الله الذي هو المرجع الوحيد الإنساني الذي له حق الإيضاح والبيان ، فيكون تجاوز هذا النطاق تجاوزاً على حكمة الله بدون طائل ولا ضرورة . ونحن نرى في محاولة بعض الباحثين المعاصرين من المسلمين لتأويل ماهيات الملائكة ووجودهم على ضوء النظريات الكونية الحديثة تكلفاً ، ولا تتسق مع فحوى ومدى الآيات وليس لها طائل ولا ضرورة أيضاً .

وكل ما تقدم يساق للملحدين بتمامه ، ونعتقد أنه يسد عليهم باب التحمل والتنطع .

ونحن نعرف أن ملحدي العرب الذين يتظاهرون بالحرص على أن يكون العرب أقوياء أعزاء متقدمين آخذين بأسباب الحضارة والعلم غير متخلفين عن هذه الأسباب ، وغير مقصرين فيها يعززون ما عليه العرب من تخلف ، وما يقع عليهم من نكسات إلى الإيمان بالملائكة وغيرهم من المفيبات ، ويزعمون أن ذلك يشل قواهم ويعطلها . ولقد كذب هذا الزعم تاريخ المسلمين الأولين الذي كان إيمانهم بالملائكة والمفيبات أشد من إيمان مسلمي اليوم بالإضافة إلى إيمانهم بالله ورسوله وقرآنه ، والتزامهم بكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله حيث كان ذلك مانحاً لهم القوة المعنوية الهائلة التي ضمنت لهم النصر المبين في المعارك التي خاضوها مع قوى تفوقهم عدداً وعدة وحضارة ، كما أنه لم يكن مانعاً لهم من أن يجولوا تلك الجولات الواسعة الموفقة التي لاتزال آثارها قائمة ومدوية في كل ميادين العلم والفكر والفن والحكم والحضارة والفلسفة والتشريع والاجتماع والبحث والتدوين والاستكشاف والاختراع مما اعترف به ونوه به جمهور من علماء الغرب وباحثيهم في أزمان وأمكنة مختلفة .

وهذا الإيمان لم يكن في أصل الدين بديلاً عن العلم والعمل والإعداد والاستعداد والجهاد والثبات والمرابطة والتخطيط والتدبير والتصميم

في كل شيء وبكل الوسائل . ففي القرآن تقارير حاسمة صريحة ومحكمة في كل ذلك ماثورة في مختلف السور بأساليب ومناسبات مختلفة يستطيع المتصفح للقرآن أن يقع عليها بسهولة لكثرتها بحيث يفني هذا عن التمثيل ، ولقد قرن القرآن بين الإيمان وعمل الصالحات في كل أو جل الآيات ، وكلمة (الصالحات) عامة تشمل كل أمر إطلافاً ، ولقد جعل الله استخلاف المؤمنين وتمكينهم في الأرض رهناً بذلك كما جاء في آية سورة النور هذه : **(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون .)** فيكون الإيمان بتأييد الله وملائكته بعد هذا مانحاً لقوة معنوية لا يستهين بأثرها في أي موقف إلا الحمقى والمكابرون .

وإذا كان من أحد ينتظر من الله والملائكة النصر وهو لا يعمل ولا يعلم ، ولا يستعد ولا يعد ، ولا ينفق ولا يدبر ، ولا يستنفذ الأسباب والوسائل ، فليس من القرآن والاسلام في شيء ولا يتحملان مسؤوليته ، وفي كتاب صادق العظم انتقاد ساخر لطلب بعض الحكام العرب النصر والتأييد وانتظارهما من الله بعد نكسة حزيران (١٩٦٧) فالانتقاد يكون في محله إذا كان ذلك بدون عزم على الإعداد والاستعداد والتدبير والتصميم ، وتلافي الأخطاء والتقصير وسد الثغرات ، ولكن الوقائع لا تفيد ذلك ، فالجملة التي ينتقدها العظم صادرة من الرئيس المغفور له جمال عبد الناصر في برقية للملك حسين عقب الهزيمة بقصد بث الصبر والجلد والأمل . وقد حلت بالعرب المحنة المفجعة ، ولقد بدأ الرئيس الراحل بعد ذلك قوي الصمود ، صلب العود مصمماً على الإعداد والاستعداد وعلى التغيير الذي يتلافى به التقصير والنقص ، وسار هو والمتضامنون معه قدماً بكل قوة ونشاط في الاستعداد والاعداد للمعركة دون **كلل** ولا ملل حتى أمكن بناء جيش قوي في مدة قصيرة قياسية مما يشبه المعجزة ، وصار يقف إزاء التحدي بمثله عدة وعدداً وفناً وعلماً وبادر الى شن حرب الاستنزاف التي ازعجت الاعداء أشد الازعاج مع الاستمرار في البناء والتغيير ، والإعداد مما كان يبشر بأحسن النتائج ، ومع رفض **بات** وحازم للاستسلام

والرضوخ ، وتصميم قاطع على تحقيق الكرامة، واسترداد الأرض العربية، وضمان حقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة في أرضه المفتصة فيكون الانتقاد ، والتعامي عن ما تم من تغيير وتحسين وجهه ظلماً وجنفاً وبقصد التشكيك والتهديم ، وليس هذا مما يتسق مع العلم والأخلاق والوطنية، والحرص على المصلحة العربية العامة مما يتشدد به صادق العظم ...

سابعاً : الجن في القرآن

كذلك مما يجب ملاحظته أن ماورد في القرآن في صدد الجن لم يكن هو الآخر غريباً على السامعين حيث كان في أذهانهم صور متنوعة عنه أولاً ، وأنه من وسائل التدعيم للدعوة وأهدافها ثانياً ، وأنه من التشابهات التي يجب التزام الضابط القرآني في النظر إليها ، والوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إحياءه بالأسلوب الذي أوحيت به لتحقيق الهدف الذي استهدفته ثالثاً بشأن القصص وشأن الملائكة .

وهذا أيضاً بقطع النظر عن عقيدة وجود عناصر خفية شريرة ذات قدرة فائقة يخشى شرها وأذاها ، ويتعوذ منها بالتزلف والقرايين كانت قدراً مشتركاً بين العرب والمشركون وسائر الملل والنحل والأجناس الأخرى من كتابية وغير كتابية ممتدة الجذور إلى أمد سحيق في القدم ووارداً خبرها في الأسفار والنقوش شأن الملائكة .

وكلمة الجن وبعض متشابهاتها أو تفرعاتها اللفظية مثل جَنّ وجنين تنطوي على معنى الاستتار والخفاء في اللغة العربية ، وهذا يسوغ القول : إن معنى الخفيّ غير المرئيّ بالنسبة إلى الجني مما كان مستقراً ومفهوماً في أذهان العرب بالإضافة إلى ما في هذه الأذهان من الصور المتنوعة عن الجنّ .

وهذه آيات قرآنية توضح وتفيد ما في أذهان المشركون العرب من تلك الصور :

١ - (قل أتدعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونردّ على أعقابنا

بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حين أن له أصحاب
يدعونه إلى الهدى اتتناقل أن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم
لرب العالمين (١) ٧

٢ - (وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير
علم سبحانه وتعالى عما يصفون .) الأنعام : ١٠٠

٣ - (وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ يوحى
بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما
يفترون .) الأنعام : ١١٢

٣ - (ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس
وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي
أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء إن ربك حكيم عليم .
وكذلك نوتي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون . يا معشر الجنّ والإنس
ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا
شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا
كافرين . ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون .)
الأنعام : ١٢٨ - ١٣١

٤ - (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس في
النار كلما دخلت أمة لعنت أختها .) الأعراف : ٣٨

(١) الشياطين في الآية كناية عن عتاة الجن حيث كان العرب يعتقدون أن عتاة الجن
يخطفون من يقدر عليهم من الإنس في الوديان والبراري الموحشة .

(٢) الآية بسبيل الإشارة إلى النظام الاجتماعي الذي أقام الله المجتمع الإنساني عليه .
فكلما أتى نبي أنبى له العتاة من الإنس والجن للتشويش عليه ومناوآته ، لأنه يدعو إلى
الله والصلاح وهذا ما لا يتسق مع مآربهم ، والله قادر على منعهم ، ولكنه ترك الأمر
ليجري على نظامه حتى يحق الحق على المجرمين .

٥ - (وحفظناها من كل شيطان رجيم (١) إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين .) الحجر : ١٧ و ١٨

٦ - (قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .) الإسراء : ٨٨

٧ - (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين . ومن الشياطين (٢) من يفوضون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين .) الأنبياء : ٨١ و ٨٢

٨ - (ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات يعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور . فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين .) سبأ : ١٢ - ١٤

٧ - (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون .) سبأ : ٤٠ و ٤١

٨ - (إنا زينا السماء بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملائ الأعلى ويتفقدون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب . فاستفتهم أهم أشدّ خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب (٣) .) الصافات :

(٢١) الشيطان والشياطين في الآيتين تعني شياطين الجن على ضوء الآيات الأخرى .

(٣) الآية الأخيرة بسبيل افحام الكفار . فالله القادر على ذلك الخلق العظيم في

أذهانهم هو قادر عليهم من باب أولى ..

٩ - (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة أنهم
لمحضرون . سبحانه الله عما يصفون .) (١) الصافات : ١٥٨ و ١٥٩

١٠ - (ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب .
قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب .
فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين (٢) كل بناء
ونواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد .) ص : ٣٤ - ٣٨

١١ - (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما
حضره قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا
إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق
وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من
ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم . ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز
في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين .) الأحقاف :
٢٩ - ٣٢

١٢ - (خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجن من مارج
من نار .) الرحمن : ١٤ و ١٥

١٣ - (سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يا معشر
الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا
لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكم شواظ من
نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان .) الرحمن : ٣١ - ٣٦

١٤ - (قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا

(٢) مما روي أن العرب كانوا يتخيلون أن الله أسهر للجن ، فكان نتاج ذلك الملائكة ..
ويصح أن يكون قصد الآية الإشارة إلى عبادتهم للجن إشراكاً لهم مع الله .

(١) الشياطين في الآية كناية عن الجن بدلالة آيات سبأ ١٢-١٤ .

قرأنا عجباً . يهدي الى الرشـد فأـمنا به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً . وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً . وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً . وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً . وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً . وأنا ظننا^(١) أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً . وأن لو على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً . لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً^(٢) . (الجن : ١ - ١٧)

وفي الآيات تأييد لما قلناه من أن ذكر الجن لم يكن غريباً على السامعين حيث تضمنت ما يفيد أنهم كانوا يشغلون حيزاً في أذهانهم ، وكان منهم من يعوذون بهم ، ويشركونهم مع الله في العبادة ترفلاً وخوفاً . وكان منهم من يعتقد أن الجن والانس يستمتع بعضهم ببعض ، وأن بين الله والجن نسباً . وكان منهم من يعتقد أن عتاة الجن يخطفون من يستفردون به من الانس في البراري والوديان الموحشة بالاستهواء ، فيدعونه فيسلبون بدعوتهم إياه الإرادة ويتبعهم . ونعتقد الى هذا أن ما جاء عنهم في آيات سورة سبأ والصافات والجن من تسخير الجن لسليمان وأعمالهم الخارقة ، وتعذيب سليمان لهم وسجنه إياهم ، ومن استراق شياطينهم العتاة السمع من السماء ، ورشقهم بالشهب مما كان يتداوله أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول القرآن ، وصيغة الآيات تلهم ذلك مما يتبادر لنا .

(١) ظننا هنا بمعنى أيقنا وقد جاءت الكلمة بهذا المعنى في آيات عديدة .

(٢) الآيتان الأخيرتان تعقيب رباني على ما قبلهما كما هو المتبادر .

كذلك في الآيات ما يفيد ما قلناه من أنها هدفت الى تدعيم الرسالة القرآنية النبوية . فالجن العتاة ذوو الاعمال العظيمة عاجزون عن الاتيان بمثل القرآن ، وهذا التدعيم ملموح كذلك بقوة في آية سورة الصافات (١١) ، وفيما حكته آيات سورتي الأحقاف والجن من استماع الجن للقرآن وإيمانهم به ، فهؤلاء الذين لهم في أذهان العرب صورة رهيبة لم يلبثوا حينما سمعوا القرآن أن تبينوا الحق ويدعنوا ويؤمنوا على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم حيث قد يلوح فيها ما يفيد أن بعضهم كان يدين بالموسوية ، وبعضهم بالنصرانية ، ويلوح في بعض الآيات أنها بسبيل إزالة ظن علمهم بالغيب وقدرتهم على النفع والضرر ، وتمردهم على الله ، وتقرير كونهم غير معجزين له ، وفي هذا أيضاً ما فيه من الهدف التدعيمي .

وقد يتبادر الى هذا أن ما ورد عن الجن الذين منهم إبليس والشیطان المرادف له (١) من صور بغيضة وحملات على المشركين والكفار في سياقها متصل بما في أذهان العرب عنهم ، وبسبيل تقرير كون الانحراف عن الحق والمكابرة فيه ، والاستغراق في الكفر والخبائث والآثام ، والانصراف عن دعوة الله هو من تلقيناتهم ووساوسهم ، ومظهر من مظاهر الانحراف نحوهم ، وبسبيل التحذير من الاندماغ بهم لما في ذلك من مهانة ومسبة . ومن هنا يأتي الكلام قوياً ملزماً ولاذعاً ، ويتصل بهدف التدعيم أيضاً .

(١) في آية الكهف هذه (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ..) دليل قرآني على أن إبليس من الجن كما أن هذا الدليل قائم في تشارك إبليس والجن في كونهم مخلوقين من النار كما ذكر في آية سورة الرحمن (١٥) وكما حكى عن لسان إبليس ذلك في آيات عديدة من صيغ قصته على ما نبهنا عليه قبل . وبلحظ هذا التشارك في تعبير (الجنة) في سورة الناس (الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس .) فالمبادر أن تعبير (الجنة) قد قصد به إبليس والشیطان رديفه لأنهم هم الذين يوسوسون في صدور الناس حسب بناء القرآن . ومع ذلك فقد عبر عنها بهذا التعبير حيث يكون في ذلك مرجح الجن وإبليس والشیطان كان الجميع شيء واحد ، ويؤدون مهمة واحدة أو يرمزون الى شيء واحد .

وأما كون الآيات من التشابهات التي تحتمل وجوهاً عديدة للتأويل أو التي يعنى تأويلها على العقل الإنساني فهو واضح يستطيع كل قارئ أن يلمحها ، وقد تكون صيغة وفحوى بعض الآيات إيجابية تقريرية في صدد ماهية الجن النارية ، واستراقهم السمع ، ورميهم بالشهب وقيامهم بالأعمال الخارقة ، واحتمال رؤيتهم وجسهم حيناً ، غير أن ذلك لا يخرجها عن نطاق التشابهات . ومن الجدير بالذكر أن فحوى آيات الحادئين المهمين المتصلين بالسيرة النبوية المحكيين في سورتي الأحقاف والجن يفيد بصورة قاطعة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير الجن ولم يسمعهم ، وأن علمه بسماعهم للقرآن منه وإيمانهم به قد تم عن طريق الوحي القرآني وحسب ، وفي سورة الأعراف أية تفيد أيضاً أن إبليس والشیطان المرادف له وقبيلهما يرون الناس من حيث لا يرونهم . وهي :

(يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان (١) كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) ٢٧

وكل هذا مهم ومؤكد بكون الآيات من التشابهات .

وكل هذا مما يجب على الناظر في القرآن ملاحظته لأنه يجعله يستشف حكمة التنزيل فيما جاء عن الجن ويلمح صلة الآيات بالبيئة النبوية وذهنيتها ، وما فيها من تدعيم للدعوة النبوية ، ويقف عند ذلك ولا يتورط في متاهات التأويل والماهيات ، وكما قلنا في صدد الملائكة ، نقول في صدد الجن : إن وجودهم في نطاق قدرة الله وإن لم يدرك العقل الإنساني مداه ، وإن الإيمان بما جاء تقريرياً وإيجابياً عنهم في القرآن واجب مع الاكتفاء بالقول : (آمنا به كل من عند ربنا) ومع واجب استشفاف الحكمة منه أولاً ، والوقوف عندما اقتضت حكمة التنزيل الوقوف عنده دون تزيد ثانياً ، وملاحظة أن القرآن وهو يذكر الجن بما يذكر ، ويتحدث عنهم بما يتحدث ، إنما يذكر ويتحدث عن مخلوقات وكائنات يعتقد السامعون بوجودها بما يقارب ما جاء عنهم ثالثاً .

(١) الشيطان في الآية جاء بديلاً لإبليس في الآيات السابقة .

وهذه مسألة مهمة ، لأن الكلام عما هو معروف ومعترف به هو أقوى أثراً ونفوذاً ، وفي بعض الآيات ما يمكن أن يستشف منه أنها بسبيل تهوين شأن الجن وقدرتهم ونفوذهم ، وبسبيل إبراز عجزهم ، وهذا أمر مهم في بابه ، حيث يكون القرآن قد هدف فيما هدف إليه إلى تخليص الإنسان من عقدة الخوف منهم .

وإذا كان بعض المفسرين قد تزيدوا في إيراد البيانات عن ماهيات الجن وكيفياتهم وحركاتهم فإن القرآن لا يتحمل مسؤوليته ، وإن كان يدل على أن الكلام عنهم كان كثيراً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ، وليس فيما أورده ما هو وثيق السند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو المرجع الوحيد صاحب الحق في البيان والإيضاح عن المغيبات ، ولو اقتضت حكمة التنزيل مزيداً من البيان لنزل ، فيكون في تجاوز نطاق القرآن تجاوز على حكمة الله بدون ضرورة ولا طائل .

وننبه هنا إلى ما نبهنا عليه في بحث الملائكة من أننا نرى في محاولة تأويل ماهيات الجن على ضوء بعض النظريات الكونية الحديثة تكلفاً لا طائل من ورائه ، وهو في الوقت نفسه لا يتسق مع مدى وفحوى الآيات القرآنية وكل هذا يساق للملحدين أيضاً ، ونعتقد أن فيه سداً لكل تمحل وتنطع .

وإذا كان على المسلم ومن حقه أن يؤمن بما جاء في القرآن في صدد الجن في نطاق شروحنا السابقة فليس في ذلك ما قد يزعمه الملحدون من شل لقواه كما أنه ليس فيه ما يصرفه عن واجبه في التزام محكمات القرآن التي فيها ضمان صلاحه وكرامته وتقدمه وحرية وانطلاقه إلى أبعد الآمال . ومن يبدو منه خلاف ذلك فليس من القرآن والإسلام في شيء ، ولا يتحملان مسؤوليته . ونذكر هنا بما قلناه قبل من أن القرآن في بعض آياته قد هدف فيما هدف إليه إلى تخليص الإنسان من عقدة الخوف من الجن . .

ثامناً : مشاهد الكون ونواميسه في القرآن

خ د

مما يجب على الناظر في القرآن ملاحظته أن ما ورد فيه من آيات فيها إشارات الى مشاهد الكون وخلقه ونواميسه ، قد استهدفت لفت نظر السامعين الى عظمة الله تعالى ، وسعة ملكوته وبديع صنعه وإتقانه وتقديره ، وشامل إحاطته وقدرته وتديره ، يقصد تأييد هدف رئيسي من أهداف الدعوة وهو توكيد وجوب وجود الله تعالى ، واتصافه بأكمل الصفات ، وتنزهه عن الشوائب واستغنائه عن الولد والشريك والنصير والمساعد ووحدانيته وانفراده في الألوهية والربوبية ، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه والدعاء ومطلق تصرفه ، وشمول علمه وإحاطته بكل شيء دق أو عظم ، وحكمته السامية في خلق الكون على أسس النواميس التي شاعت هذه الحكمة أن تقوم عليها ، ثم بقصد بث هبة الله تعالى في قلوب السامعين ، وحفزهم على الاستجابة الى دعوة رسوله ، والانصياع لأوامره ونواهيه ، والتزام حدوده ، وبقصد البرهنة على قدرته على خلق الناس مرة أخرى يوم القيامة ، وبتعبير إجمالي آخر قد استهدف العظة والإرشاد والتنبيه والتلقين والتدعيم والتأييد دون قصد تقرير نظريات الكون وماهياته ، وأطوار الخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية مما يبدو واضحاً في جميع آيات المشاهد الكونية ، وحتى الآيات التي فيها بيان لبعض مراحل الخلق والتكوين لم يقصد فيها تقرير هذه المراحل لذاتها كما يتضح للمتمعن فيها ، وإنما قصد توكيد تلك الأهداف والمقاصد التدعيمية .

وحكمة ذلك واضحة . فالقرآن دعوة الله الى الناس كافة على تفاوت مداركهم وأذهانهم ومراكزهم ونحلهم . وقصد الموعظة والإرشاد والتنبيه والهداية والبيان هو القدر المشترك بين كافة الناس بالنسبة الى هذه الدعوة من جهة ، وهو الأصل في القرآن ، والمتسق مع طبيعته ومداه من جهة أخرى ، بحيث يمتد الى كل دور ومكان ، وتجاه أعلم العلماء ، وأبسط البسطاء . كما أن شواهد قائمة في أساليب الآيات سواء أكان ذلك

في كيفية التعبير والسباق أم في تنوعهما ، أم في التكرار في المناسبات والمواقف المتجددة مما هو مبثوث في مختلف السور وبخاصة المكية منها التي اقتصرَت دون المدنية على الأعم الأغلب على الدعوة الى الله ، والايمان باليوم الآخر ، ومحاربة الشرك والانحراف ، والى مكارم الأخلاق عامة .

والذي يتمن في هذه الآيات يجدها على الأعم الأغلب تبدأ بتنبية الناس الى مشاهد كون الله ، وتنتهي بتوبيخهم الى ما في ذلك من آيات لمن يعقل ويفكر ويسمع ويتقي ويتدبر ويعلم ، ويجد في سياقها السابق عليها أو اللاحق بها تنديداً بالكافرين المكابرين الذين يغفلون عن آيات الله في كونه ويمارون فيها ، ويمارون بالتالي بوجوده أو وحدانيته وشمول قدرته واستحقاقه وحده للعبادة والخضوع والاتجاه ، واستغنائه عن الشريك والولد والمساعد ، ويجدها في الوقت نفسه تخاطب السامعين بما يقع تحت أبصارهم وممارستهم ومتناول معارفهم ، وفهمهم ومداركهم وهذا مهم جداً في بابه .

وهذه بعض الأمثلة :

١ - (يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون .) البقرة : ٢١ و ٢٢ (١)

٢ - وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (٢) .) البقرة : ١٦٤

(١) جاءت هذه الآيات بعد حملة على الكافرين والمنافقين .

(٢) جاء بعد هذه الآيات تنديد بمن يتخذ أنداداً من دون الله ، وإنذار شديد لهم .

٣ - الحمد لله الذي خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور
ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً
وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون . وهو الله في السماوات وفي الارض
يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (١) . الانعام : ١ - ٣

٤ - (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج
الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً
والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل
لكم النجوم لتتهدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم
يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد
فصلنا الآيات لقوم يفقهون . . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به
نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من
طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير
متشابه انظروا الى ثمرة إذا اثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون .
وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه
وتعالى عما يصفون (٢) . الانعام : ٩٥ - ١٠٠

٥ - (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم
استوى على العرش يفشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر
والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . ادعوا
ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا في الارض بعد
إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين . وهو
الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً
سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج
الموتى لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا

(١) جاء بعد الآيات حملة على المكذبين الممتريين .

(٢) قبل الآيات أيضاً حملة على المكذبين والكافرين والظالمين والمشركين وانداد لهم .

يخرج إلا تكداً كذلك نصراف الآيات لقوم يشكرون .) الاعراف :
٥٤ - ٥٨

٦ - (اكان للناس عجباً ان اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس
وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر
مبين . إن ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى
على العرش يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه
افلا تذكرون . إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده
ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب
من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء
والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله
ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن في اختلاف الليل والنهار
وما خلق الله في السماوات والارض لآيات لقوم يتقون . إن الذين لا يرجون
لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون .
اولئك ماواههم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم .)
يونس : ٣ - ٩

وهذه امثلة مما فيه مراحل التكوين :

١ - (اولم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما
وجعلنا من الماء كل شيء حيّ افلا يؤمنون . وجعلنا في الارض رواسي ان
تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون .) الانبياء : ٣٠ و ٣١

٢ - (يا ايها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من
تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم
ونقر في الارحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا

تشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور .
الحج : ٥ - ٧

٢ - (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم فإن اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم إلا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء الله لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون . (١)
فصلت : ٩ - ١٤

ولعل في تعبير الأوتاد عن الجبال والسقف المبني عن السماء والفراش والبساط والذلول عن الأرض والمصابيح المضيئة التي زينت بها السماء عن الكواكب وجريان الشمس ، ومنازل القمر والسراج الوهاج

(١) الآيات من النوعين كثيرة جداً فنكتفي بما أوردناه ، ويحسن بالقارئ أن يرجع إلى المصحف فيقرأ الآيات الكثيرة الأخرى ليتبين ما نبهنا عليه من أساليبها ومداها وأهدافها ، وليقرأ بخاصة الآيات التالية سورة يونس ٣١ - ٣٣ ، وهود ٧ ، والرعد ٥ - ١٢ - ٢٧ ، والحجر ٣١ - ٣٣ ، والنحل ١ - ١٨ و ٦٥ - ٧٢ و ٧٨ - ٨٢ ، والحجج ٥ - ٧ و ٦١ - ٦٦ والمؤمنون ١٢ - ٢٢ والنور ٤٣ - ٤٦ ، والفرقان ٤٥ - ٥٥ ، والنمل ٥٩ - ٦٦ ، والروم ١٧ - ٢٩ و ٤٨ - ٥٠ والسجدة ٩ - ١٤ وقاطر ٩ - ١٤ و ٢٦ - ٢٨ ، ويس ٢٣ - ٤٤ ، والزمر ٢ - ٧ ، وغافر ٦١ - ٧٠ ، والجاثية ٦ - ٢ وق ١٥ - ١ ، والذاريات ٤٩ - ٥١ ، والرحمن ١ - ٢٩ ، والملك ١ - ٢١ ، ونوح ١٤ - ٢٠ ، والنبأ ١٦ - ١٧ والنازعات ٢٧ - ٣٢ ، وعيس ١٧ - ٣٢ .

للاولى والمصباح النير للثاني وفي ذكر إنزال الماء من السماء وتسيير السحاب ، وتصريف الرياح ، وإرسال البرق والرعد والصواعق ، وإنبات مختلف الزروع والأشجار ، وتسخير الدواب والأنعام وتسيير الفلك في البحار والأنهار وتسخيرها ، وتصوير الأرض كمركز للكون والإنسان كقطب للأرض ، وتسخير كل ما في السماوات والأرض له ، وإسباغ الله عليه نعمه الظاهرة والباطنة ، وتسويته إياه بيده ونفخه فيه من روحه الخ الخ تساوقاً واضحاً ومفهوماً مع مشاهد مختلف فئات الناس الذين يوجه إليهم الكلام ومدركاتهم وبتعبير آخر : إن القرآن خاطب السامعين بما يفيد أنهم يعرفون مدى ما يتلى عليهم ويذكرون به ، ويلفت نظرهم إليه مشاهدة أو ممارسة أو معرفة أو بما يتسق مع ما في أذهانهم إجمالاً من صور ومعارف من ممارساتهم ومشاهداتهم ومسموعاتهم حيث يكون في ذلك ما فتئنا ننبه عليه من أن الخطاب بما يعرفه ويفهمه السامع يكون أقوى أثراً في نفسه ، وأكثر تحقيقاً للهدف المستهدف منه ، وحيث يكون في أسلوب الآيات وفجوها دلالات على ما استهدف منها من الأهداف التي ذكرناها . مع التنبيه على أنها يصح عليها صفة التشابهات أيضاً لأنها تتحمل تأويلات عديدة ، ومنها ما قد يعنى عقل الإنسان عن إدراك ماهيته ومدها وتأويله ، ويلوح منها أن التقريب والتمثيل من أهدافها .

وملاحظة كل هذا واجبة وضرورية لكل من ينظر في القرآن ، حيث تجعله يقف من الفصول والآيات الواردة في صدد هذا الموضوع عند الحد الذي وقفت عنده ، وبالأسلوب والفحوى الذين جاءت عليهما لتحقيق الأهداف المذكورة التي استهدفتها ، وتعصمه من التكلف والتجوز والتخمين والتزيد ، ومحاولة تطبيق أو استخراج النظريات العلمية والفنية في حقائق الكون والتكوين ، ونواميسهما وأطوارهما ، والتمحل والتوفيق والتطبيق في ذلك مما يخرج القرآن عن نطاق هدفه من الوعظ والإرشاد ، ولقت النظر ، وبث الهيبة والإشعار بمظمة الله ، والتزام حدوده إلى مجال البحث ، وتعريض قدسيته بطبيعة هذا المجال إلى الجدل والنقاش والتعارض والأخذ والرد على غير طائل ولا ضرورة ، ولا تساوق مع هدف القرآن وطبيعته .

وبالإضافة إلى هذا الذي يتسق مع الهدف والمضمون ، والذي القرآني ، فإن للملاحظة ذلك فائدة عظيمة لذاتها من حيث إنها تجعل المسلم غير مقيد بنظريات كونية وفنية معينة بوهم أنها مستندة إلى القرآن ومستخرجة منه مع ما في هذا دائماً من تمحل ، وتبقى حراً طليقاً في ساحات العلوم والفنون ونظرياتها وتطوراتها وتطبيقاتها ، ولا سيما ان النظريات العلمية والفنية دائمة التطور ، وإحياناً كثيرة متحولة متبدلة ، فلا يختلط عليه الأمر في سيره العلمي ، وبحته الفكري ، ويكون كل ما يجب عليه أن يظل من ذلك في حدود الأسس والأهداف والمبادئ ، والمثل الإسلامية العليا ، وفي نطاق أركان الإيمان العامة التي قررها القرآن . وحيث يظل قصد القرآن ومداه ومفهومه سليماً في جميع الأدوار ، يخاطب بآياته وفصوله مختلف الفئات في مختلف الأزمنة ، فتشير فيهم الإجلال والهيبة والإذعان والخشوع . سواء أكانوا علماء أم بسطاء ، لأنه يخاطب عقولهم وقلوبهم معاً ، وهو قصد القرآن الجوهرى من دون ريب .

وفي هذا الذي نرجو أن يكون الحق والسداد رد على الملحدین إذا ما أرادوا التعسف وفهم الآيات فهماً خاطئاً ، وإبرازها على أن فيها قرارات محددة لإظهار ما بين ذلك وبين الحقائق العلمية والفنية من تباين ، وبالتالي لإظهار الثغرات في القرآن ، وتهوين مداه . كما فيه تنبيه للذين يؤخذون بهذا التعسف والفهم الخاطئ من المؤمنين بنية حسنة ويقولون بضرورة فصل الدين عن العلم حتى لا يتصادمان . في حين أنه لا تصادم حقيقي بينهما وبخاصة بالنسبة للدين الاسلامي على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

وإذا كان المفسرون قديماً وحديثاً أكثروا من البيانات والتفصيلات على هامش الآيات القرآنية ، فإن جلّها بل كلها اجتهادات وتخمينات وأقوال ، ولا تخلو من مفارقات ومبالغات وتناقضات ، وإذا كان كتاب وباحثون مسلمون قديماً وحديثاً تجاوزوا النطاق الصحيح لمدى الآيات القرآنية ، وحاولوا أن يستخرجوا منها نظريات وأسساً علمية وفنية ، أو يوفقوا بين ما ظنوه في القرآن من ذلك وبين ما عرفت حقائقه العلمية مؤخراً بحسن نية ، وبقصد إظهار معجزة القرآن بإبراز أمور لم تكن معروفة قبل وعرفت بعد تقدم العلوم ، وتطورها وحسب زعمهم رغم ما يكون في محاولاتهم من تمحل وتجوز وتعسف في الفهم والتوفيق والتطبيق

والاستنتاج بل ومن سذاجة في تصيد العبارات ، وتحميلها مالا تحتمل ، ومن تجاوز للوقائع والظروف والروايات الموضحة لنزول الآيات وهدفها ولسياقها الذي فيه توضيح لهدفها ومداهها ، حتى لقد وصل الأمر إلى أن يستخرج أحد الباحثين من آيات سورة الذاريات هذه :

(والسماء بنيناها بايد وإنا لموسعون) نظرية النسبية (لانشتاين) ونظرية أخرى سماها (انتشار الكون) وأن يقول : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعرفوا وجه إعجاز الكوني في الآيات ، لأنهم لم يطلعوا على حضارة وعلوم القرن العشرين (١) ، فبقيت معجزة غير مفهومة إلى عصرنا الحاضر ، فالعلم قرر النظرية في القرن العشرين في حين أن القرآن قررها قبل ١٤٠٠ سنة ، وقد ظل المسلمون يتلونها ، وتكون جزءاً من عقيدتهم دون أن يعرفوا ما فيها من إعجاز كوني إلى هذا القرن (٢) . نقول : إذا كان المفسرون والباحثون فعلوا هذا ، فالقرآن والإسلام لا يتحملان مسؤوليته ، وتظل فصول القرآن وأهدافها بكل إشراقها وقوتها وإفحامها ومداهها لكل فئة وفي كل زمن .

ولقد اتكأ الملحدون في مهاجمة القرآن وإبراز التناقض فيه إلى مثل هذه التخمينات والمحاولات والتمحلات ، وتصيد العبارات بقصد التوفيق

(١) ان الباحث لم يذكر رسول الله ، واكتفى بذكر أصحابه تأدياً وتحرجاً وحسب .
(٢) انظر كتاب الانسان بين العلم والدين لشوقي ابي خليل ص ٢٦ و ٢٧ وفي هذا الكتاب الكثير العجيب من هذا النوع والباحث وهو يقول ما يقول في صدد آية الذاريات مثلاً ، يتفاقل عن ما بعدها من آيات فيها خطاب للسامعين وتنبيه لهم الى ما ذكرته من آيات الله المائلة امامهم ، وفي انفسهم لعلهم يتذكرون وينيبون الى الله ولا يدعون مع الله الهسا آخر كما ترى : (والارض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله الهاً آخر اني لكم منه نذير مبين .) ولا يظن الى ان الله سبحانه ينزهه عن تذكير السامعين الاولين للقرآن بامور لا يفهمون مداهها ...

والتعليق ، وفي كتاب صادق العظم (١) نماذج من ذلك - ولكن القرآن كما قلنا لا يتحمل مسؤولية ذلك أولاً ، وليس هو ضرورياً لإثبات إعجاز كتاب الله والتدليل على ما في كون الله ونواميسه من إتقان وإبداع وعلى وجوب وجود الله ووحدانيته ثانياً .

وليس القرآن في حاجة إلى ذلك ثالثاً ، فدلائل إعجاز كتاب الله وكونه وحياً ربانياً بارزة ظاهرة في كل فصل من فصوله لمن رزق حسن النية والضمير والذوق ، ولم يتعمد المكابرة والعناد ، ودلائل إبداع الكون ونواميسه ، ووجوب وجود خالق مدبر له حكيم قادر عليم خبير أزلي أبدي ملموحة لكل ذي نظر وعقل وإذعان في مشاهد الكون دقيقها وجليلها . وليس القرآن بعد كتاب فن وطبيعة وفلك وبيولوجيا وكيمياء وفيزياء وهندسة حتى يخشى المسلمون أن يطعن فيه الأغيار ، لأنه لم يحتو تقارير علمية ونظرية في ذلك . وبعض الباحثين يرفعون في محاولاتهم وتمحلاتهم شعار آية فصلت هذه : **(سريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)** ليؤيدوا أن حقائق نواميس كون الله ظهرت بعد عصر النبوة ، وفي ظلال تقدم العلم والفن ، وإن في الآية إخباراً ربانياً إعجازياً لذلك ، مع أن الآية هي في مقام التنديد والإنذار لجاحدي القرآن من سامعيه الأولين من أهل بيئته النبي صلى الله عليه وسلم من الوجهة **القرآنية** مما تقوم الآية التالية عليه دليلاً حاسماً ، وهذا نصها **(إلا إنهم في مربة من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط . .)** وهذه الآية ليست الوحيدة في معناها ومداها ومقامها ، فهناك آيات مماثلة لها منها آية سورة النمل هذه : **(وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون .)** وآية سورة غافر هذه : **(هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب .)** غير متبهرين كما قلنا إلى ما يكون في تطبيقات هذا الشعار من تكلف وتمحل وتعريض للقرآن للأخذ والرد ، وإخراج له عن مدى مهمته العظمى التي هي هداية الناس ،

(١) هو مؤلف كتاب (نقد الفكر الديني) وقد كتب الكاتب كتاب «القرآن والملاحدون»

بمناسبة صدور ذلك الكتاب . . .

وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبيان الأسباب والوسائل الضامنة لسعادتهم وصلاحهم وأمنهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة .

والمحددون لا يقفون عند حد الاتكاء إلى محاولات وتمحلات الكتاب المسلمين في التماس النظريات العلمية والكونية من القرآن ، بل يتمحلون بما يتوهمونه في العبارات القرآنية في صدد نوااميس الكون ومشاهده من تنوع في العبارات ، وتوهم التباين فيها مما في كتاب العظم نماذج منه أيضاً .

وفيما ذكرناه من كون الآيات في هذا الموضوع هي من التشابهات ، ومن كون ما ورد في القرآن منها لم يرد بسبيل تقارير فنية ، وإنما للتنبيه والعبرة جواب على هذا التمحل ، كما أن المتمعن في الآيات التي يوردونها والمتنبه لسياقها ، والمقارن بينها عن حسن نية يجد لكل إشكال جواباً شافياً يزول به وهم التباين .

تاسعاً : الحياة الآخروية في القرآن .

مما يجب ملاحظته أن ما ورد في القرآن عن الحياة الآخروية ومشاهدها وصورها وأحوالها ونعيمها وعذابها هو ما ينطبق عليه وصف التشابهات لتحمله التأويلات المتعددة ، ولأن فيه ما لا يدرك سره ومده إلا الله تعالى وأنه استهدف فيما استهدفه إثارة الخوف والرغبة في نفوس الضالين حتى يرعوا ويستقيموا ، وبث الاغتباط والطمأنينة في نفوس المؤمنين الصالحين المتقين حتى يثبتوا في الطريق الذي اهتدوا إليه وساروا فيه .

وكل ذلك واضح ملموح بكل قوة في الآيات القرآنية ، وهذه بعض الأمثلة :

١ - (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه

ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ،
جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم
فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور .
الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب .
والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها
كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير
الذي كنا نعمل أو لم نمرهم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا
فما للظالمين من نصير) . . فاطر : ٣٢ - ٣٧

٢ - (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين
آمنا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين . ويقولون
متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم
وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في
الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من
مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة
فإذا هم جميعاً لدينا محضرون . فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا
ما كنتم تعملون . إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم
في ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلام
قولاً من رب رحيم . وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم يا بني
آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط
مستقيم . ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم
التي كنتم توعدون . إصلوها اليوم بما كنتم تكفرون . اليوم نختم على
أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون .) يس : ٤٧ - ٦٥

٣ - (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا
من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأشرق الأرض بنور ربها
ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا
يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين

كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (الزمر : ٦٨ - ٧٤

٤ - (إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يfli في البطون . كfli الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون . إن المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون . يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين (الدخان : ٤٣ - ٥٥

وامثال هذه الآيات كثيرة مبثوثة في مختلف السور . فلا ضرورة للإكثار .

وحكمة ذلك واضحة ، فالقصد القرآني في أصله هو دعوة الناس إلى الله وطريق الحق والخير والعدل والسلام والصلاح ، وتحذيرهم من الكفر والشرك والضلال والبغي والإثم ، وإنذارهم وتبشيرهم بالحياة الآخروية التي يوفى فيها كل منهم بما فعل من خير وشر بما يستحقه .

وهناك آيات عديدة فيها تأكيد صريح لذلك القصد كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - (وكذلك أنزلناه قرآنا عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لهم يتقون أو يخشون لهم ذكراً (طه : ١١٣

٢ - (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يعباد فائقون . والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأناثوا إلى

الله لهم البشرى فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الالباب (٠) الزمر : ١٦ - ١٨

٣ - (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن
الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم . وانيبوا إلى ربكم واسلموا
له من قبل أن يأتاكم العذاب ثم لاتنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم
من ربكم من قبل أن يأتاكم العذاب بغتة وانتم لاتشعرون . أن تقول نفس
يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول
لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة
فاكون من المحسنين . بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت
من الكافرين . ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة
أليس في جهنم مثوى للمتكبرين . وينجي الله الذين اتقوا بمقامتهم لا
يمسئهم السوء ولا هم يحزنون (٠) الزمر : ٥٣ - ٦١

٤ - (ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا
وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك
هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات
قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى (١) ومن يقترف حسنة نزد له
فيها حسناً إن الله غفور شكور (٠) الشورى : ٢٢ و ٢٣

ويلحظ في الأمثال السابقة وأمثالها الكثيرة جداً أن ما فيها من
إنذار وتبشير منسجم مع مفهومات السامعين ومألفاتهم ، وحكمة هذا
واضحة ، لأن ما يراد إثارته في نفوس الناس لا يتم إلا إذا جاء بالأوصاف
التي يستطيعون أن يحسوها ويدركوا مداها إحساساً وإدراكاً متصليين
بتجاربهم ومشاهداتهم ومألفاتهم بطبيعة الحال .

(١) لا أريد منكم الآن أن تحترموا ما بيني وبينكم من قرابة ، أو كل ما أريده هو أن
أهديكم لما بيني وبينكم من مودة القربى التي تجملني أحرص على ذلك .

فإذا ذكر في سياق مشاهد يوم الحساب ما فيه من صور مجالس القضاء والخصوم والشهود والاتهام والمخاورات الدفاعية ، وكتب الأعمال ، ففي ذلك صور دنيوية مألوفة للسامع يستطيع إدراك مداها والتأثر بها ، وإذا ذكر أن الجبال تتفتت وتصبح كالهباء والعهن المنفوش ، وأن الأرض تحمل وتلك ، وأن السماء تتفطر وتشقق ، وأن الكواكب تنتشر وتنكدر وتنطفئ ، وأن البحار تتفجر ، وأن العشار تتعطل ، وأن الوحوش تحشر ، وأن القمر يخسف والشمس تكسف ، وأن الولدان يصيرون شيبياً .

ففي ذلك صور هول لا يمكن للسامع إلا أن يتأثر بها ، ويدرك مداها ، ولا سيما ما يكون من تبدل مشاهد الكون المائلة عظمتها في ذهنه . وإذا ذكر في أوصاف النعيم ما ذكر من جنات وعيون وسرر وفرش ومجالس شراب انيقة ، وظلال وارقة ، وقطوف دانية ، وولدان كاللؤلؤ المكنون ، يطوفون بالأباريق الفضية والزجاجية البراقة الشفافة ، والخمر الممزوج بالكافور والزنجبيل ، والفواكه الكثيرة ، ولحوم الطير ، وصحاف الذهب والفضة ، وثياب الحرير ، وحلي اللؤلؤ والذهب والفضة ، والخورالعين كالبيض المكنون ، وكالياقوت والمرجان . الخ الخ مما جاء في الآيات التي أوردناها ، وكثير مما لم نورده ، فلا يمكن إلا أن يتأثر بها السامعون ، ويفهموا مداها ، وتتوق نفوسهم إليها ، لأنها منتهى ما تصبوا إليه النفوس والعرب بخاصة من نعيم وهناء وحبور ، يعرفون صورها في الدنيا معرفة مشاهدة أو ممارسة أو سماع . وإذا ذكر في أوصاف العذاب ما ذكر من نار حامية شديدة شرارها كقطع الحطب الضخمة ، ولهيبها كالجبال ، لا ماء فيها إلا الحار الشديد الحرارة (الحميم) ، ولا ظل فيها يحجب الحرارة ، ويكون الظل كوهج النار وهو ما وصف بالبحموم ، ولا هواء فيها إلا الريح السموم ، ولا شراب فيها إلا الفسلين والفساق والصدید ، ولا طعام فيها إلا الزقوم والضريع مما ورد في الآيات التي أوردناها ، وكثير مما لم نورده ، فإن السامعين والعرب بخاصة لا يمكن إلا أن يتأثروا بها ، ويفهموا مداها ، لأنها منتهى ما تهلع له قلوبهم ، وتكرهه نفوسهم مما هو من المشاهدات والمعاني الدنيوية المألوفة والمتصورة عندهم .

وقد اختلفنا السامع العربي بالذكر ، لأن كثيراً من الأوصاف والألفاظ مما يحمل الدلالة على الحياة العربية ومألفات وممارسات ومشاهدات البيئة العربية ، وهذا في حد ذاته قرينة قوية قائمة على ما نقرره .

ولعل في تنوع الأوصاف والصور والمشاهد القرآنية عن الآخرة ونعيمها وعذابها وهولها قرينة أو دليلاً على صواب ما نقرره أيضاً . فالجبال مثلاً في جملة قرآنية تسير سير السحاب ، وفي أخرى تنسف نفسها ، وفي أخرى كتيب مهيل ، وفي أخرى كالعهن المنفوش ، وفي أخرى كالهباء المنثور ، والسماء في جملة قرآنية تفتح أبواباً ، وفي أخرى تتشقق أو تنفطر ، والنجوم في جملة تنتشر ، وفي جملة تنطس ، والشمس في جملة تتكور ، وفي أخرى تجمع مع القمر ، وبينما السماء تبدل نواميسها ومشاهدها مستقلة عن الأرض في جملة ، والأرض تدك مستقلة عن السماء في جملة ، تذكر جملة أخرى أن الأرض والسماء تحملان وتذكان معاً دكة واحدة ، وجملة أخرى تذكر أن الأرض تتبدل غير الأرض والسموات تتبدل غير السماوات الخ الخ . وفي حين تذكر جمل أن الكافرين يدافعون عن أنفسهم ، ويتاح لهم إيراد أعذارهم ، ويجري حوار بينهم وبين الملائكة وبينهم وبين الله وبينهم بعضهم مع بعض ، تذكر جمل أخرى أنهم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ولا يتساءلون ، ولا يستعجبون ، وفي حين تذكر جملة أنه ينفخ في الصور تذكر جملة أنه ينقر في الناقور ، وفي حين تذكر جملة أن ليس للكافرين طعام إلا من ضريع ، تذكر جملة أن ليس لهم طعام إلا القسطين ، وجملة أن ليس لهم طعام إلا الزقوم ، وهذا في حين تذكر جمل أخرى أنهم يعذبون في النار أشد عذاب ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا بجلود غيرها ، وفي حين تذكر جملة أنهم يحشرون وقد كشف عنهم الفطاء ، وأصبح بصرهم حديداً ، تذكر جملة أخرى أنهم يحشرون عمياً ، ويسألون الله عن ذلك مع أنهم كانوا في الدنيا مبصرين . .

هذا بالإضافة إلى تنوع أوصاف النعيم حيث يكون بعضها خشناً يتسق مع الحياة المألوفة ويكون بعضها غاية في الأناقة والفخامة مع اتصال

بمعاني ومشاهد الدنيا ، وهذا عدا التنوع في جزئيات أخرى حيث تكون الصحف والأكواب في بعضها من فضة ، وفي بعضها من ذهب ، وحيث تكون الحلبي ذهبية في جملة ، وفضية في أخرى ، ولؤلؤية في ثالثة ، وحيث تشبه الحور العين في جملة بالياقوت والمرجان ، وفي أخرى بالبيض المكنون أي : اللؤلؤ . . .

وقد يتبادر أن هذا التنوع متصل بتنوع مواقف السيرة والدعوة ومراحلها المتجددة . وحالات المخاطبين المعنيين بها المتنوعة ، ويجمع بينه على كل حال قاسم مشترك ، أو المظهران الرئيسيان لأسلوب هذه الألفاظ ، وهما قصد الإنذار والتبشير والترهيب والترغيب من جهة ، وكون الأوصاف جميعها من مألوفات السامعين من جهة أخرى . وهذا كله بارز بكل قوة في الآيات القرآنية .

ومع تقرير كون الإيمان باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه واجباً ، وكونه ركناً من أركان العقيدة الإسلامية ، وكون حكمة الله في ذلك قائمة في قصد توفية الناس أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وفي تقرير القرآن بأن الله تعالى لم يخلق الناس عبثاً وسدى ، وأن الناس سيرجعون إليه بعد الموت في حياة أخرى ، فإن ملاحظة ما قدمناه ، أي : كون أوصاف الحياة الآخوية في القرآن من التشابهات التي تحتل وجوهاً عديدة للتأويل ، أو التي يعنى العقل الإنساني عن إدراك تأويلها وسرها ، وكونها هدفت فيما هدفت إليه إلى الإنذار والتبشير والترهيب والترغيب ، وكونها مستمدة من مألوفات الناس الدنيوية ضرورية وجوهرية ، لأن من شأنها أن تجعل الناظر في القرآن يتجنب الاستغراق في الجدل حول مشاهد الحياة الآخوية وصورها ، ويعتصم من التورط والتكلف والتزيد في صدد ما يقوم في سبيل الماهيات والحقائق والكيفيات لذاتها ، ويتذكر أن هدف القرآن فيما جاء في التعابير والأوصاف هو العظة والتنبيه ، وإيقاظ الضمائر ليرعوي الضال عن ضلاله ، ويثبت المهتدي ، في طريقه بأسلوب يتسق مع متناول إحساس المخاطبين وتجاربهم ومشاهداتهم ومداركهم ومألوفاتهم ، ويشير فيهم الرهبة من العاقبة .

ويتذكر كذلك أن ماهية هذه الحياة وحقيقتها مغيبتان لا يستطيع فهم شيء عنها إلا بالأوصاف الدنيوية ، وأن حكمة الله اقتضت وصفها بهذه الأوصاف على سبيل التقريب والتمثيل .

وإذا كانت الحياة الآخوية ومشاهدها وأوصافها وصورها المتنوعة قد شغلت حيزاً كبيراً في القرآن ، حتى إن معظم سورة احتوت شيئاً عنها بشكل ما ، فإن مرد ذلك - على كونه من خصوصيات القرآن - إلى أن هذه الحياة من أقوى الدعائم القرآنية الإنذارية التبشيرية والترهييبية والترغيبية لأهداف القرآن ودعوته ، وأشدّها تأثيراً وإثارة لأنها تمثل عالم ما بعد الموت الذي لا يكاد يخلو إنسان في أي دور من استشعار بالرهبة منه من جهة ، ومن العقائد الإيمانية الإسلامية من جهة ، ولأنها كانت من المواضيع الرئيسية أو بالأحرى أهم موضوع دار حوله الجدل بشدة واستمرار بين النبي صلى الله عليه وسلم وكفار العرب على ما نبهنا عليه في مناسبة سابقة ، ومما له صلة بظروف الدعوة النبوية من جهة .

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في إيجاب الإيمان باليوم الآخر ، وكونه من عقائد الإسلام الرئيسية :

١ - (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) . . البقرة : ١٧٧

٢ - (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً) . . النساء : ١٣٦

٣ - (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم

الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا
الجزية عن يد وهم صاغرون (٠) التوبة : ٢٩

٤ - (واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فاولئك في
العذاب محضرون (٠) الروم : ١٦

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في صدد إنكار الكفار للحياة الآخوية
والبعث ومجادلتهم في ذلك والبرهنة على قدرة الله عليه، وهو ما اقتضت
حكمة التنزيل إكثار الآيات في صده :
١ - (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه
على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت
ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٠) هود : ٧

٢ - (واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً
عليه حقاً ولكن اكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم
الذين كفروا انهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا اردناه أن نقول له
كن فيكون (٠) النحل : ٣٨ - ٤٠ .

٣ - (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل
ممزق إنكم لفي خلق جديد . أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون
بالآخرة في العذاب والضلال البعيد . أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم
من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من
السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب (٠) سبأ : ٧ - ٩

٤ - (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم .
قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم
من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق
السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم .
إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده
ملكوت كل شيء وإليه ترجعون (٠) يس : ٧٨ - ٨٣

٥ - (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم
لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير .) التغابن : ٧

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في صدد تقرير أن عدم الإيمان بالآخرة
مما يجرىء الإنسان على الانحراف والاجرام :

١ - (إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم
مستكبرون .) النحل : ٢٢

٢ - (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون .)
المؤمنون : ٧٤

٣ - (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون .
اولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (١) .)
النمل : ٤ و ٥

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في صدد تقرير أن الله لم يخلق الناس
والكون عبثاً وباطلاً ولا بد من أنهم راجعون إليه بعد الموت ليوفا أعمالهم ،
وأنة لا يصح أن يكون المفسدون والفجار والصالحون والأبرار سواء مما
قد يكون في الدنيا ، فافتضت حكمة الله أن يكون بعث بعد الموت لتوفى
كل نفس ما كسبت حقاً وعدلاً :

١ - (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى
الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم .) المؤمنون : ١١٥ و ١١٦

٢ - (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين
كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات

(١) عبارة الآية الاولى اسلوبية بمعنى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يستحسنون كل ما
يعملون مهما كان فيه اثم وجرم ، لانهم مطمئنون بعدم المحاسبة عليه ، وقد أندرتهم الآية
الثانية بالحساب والعذاب ، وفيها قرينة بل دليل على اسلوبيته الاولى ، لان الله يتنزه عن
تزيين السوء للناس ثم يعذبهم عليه .

كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه إليك مبارك
ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب . ص : ٢٧ - ٢٩

٣ - (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر
الناس لا يعلمون . وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا
الصالحات ولا المسيء قليلاً ماتذكرون . إن الساعة لآتية لا ريب فيها
ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .) غافر : ٥٧ - ٥٩

٤ - (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لالعين . ما خلقناهما
إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم
لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو
العزيز الرحيم .) الدخان : ٣٨ - ٤٢

٥ - (أychسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى
يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى .
أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى .) القيامة : ٣٦ - ٤٠

وهذه أمثلة لها أمثال كثيرة جداً بالوعد والوعيد الأخروي إطلاقاً :
١ - (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله
وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا
فأتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . وبشر الذين
آمَنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) .
البقرة : ٢٣ - ٢٥

٢ - (إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده
ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب
من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون .) يونس : ٤

٣ - (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا
تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير . وإن استغفروا ربكم ثم توبوا
إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن
تولوا فإنني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل
شيء قدير .) هود : ١ - ٤

٤ - (فاندركم ناراً تظى . لا يصلها إلا الاشقى . الذي كذب وتولى .
وسيجنبها الأتقى . الذي يؤتي ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة
تجرى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى .) الليل : ١٤ - ٢١ .

٥ - (إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال
الإنسان مالها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر
الناس اشتاتاً . ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن
يعمل مثقال ذرة شراً يره .) سورة الزلزلة

ويجب أن نستدرك أمراً ، فإن ما قلناه من أن أوصاف المشاهد
الأخروية منسجمة مع مألوفات الدنيا مما ينطوي فيه حكمة قصد التأثير
في السامعين ترغيباً وترهيباً ، ومن أن هذه الأوصاف متنوعة ، لا يعني أن
تلك المشاهد في انسجامها مع مألوفات الدنيا ، وفي تنوعها غير واردة في
الآخرة ، فإن الآيات القرآنية ، تفيد أن الناس في الآخرة سيكونون في حالة
جسمانية مشابهة لحالتهم في الدنيا ، فلا غرو أن تكون أسباب ومظاهر
حياتهم الأخروية مشابهة لأسباب ومظاهر حياتهم الدنيوية ، وفي سورة
البقرة آية قد يكون فيها قرينة على ذلك وهي :

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها
الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا
به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) ٢٥ .

وتنوع الأوصاف على اختلافها يمكن أن تكون في الآخرة حسب
حالات الناس ، وتنوع المواقف الحسابية أيضاً ، وفي سورة الواقعة ما يمكن
أن يكون قرينة على ذلك في سياق وصف منازل المقربين ومنازل أهل
اليمين ، فقد جاء في وصف الأولى :

(والسابقون السابقون أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلثة
من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها
متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . باكواب وأباريق وكأس من
معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير
مما يشتهون . وحور عِين . كامثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون .
لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً . إلا قيلاً سلاماً سلاماً .) الواقعة : ١٠ - ٢٦

وقد جاء بعدها في وصف منازل أهل اليمين

(وأصحاب اليمين . ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود . وطلح
منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لامقموعة ولا
ممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأنهن أنشاءً . فجعلناهن إكباراً .
عرباً أتراباً . لأصحاب اليمين . ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين .)
الواقعة : ٢٧ - ٤٠

وعلى المسلم على كل حال أن يؤمن بكل ما جاء في القرآن ويقول
(آمنا به كل من عند ربنا) وما أدركه عقله فهمه ، وما لم يدركه يكل تأويله
إلى الله تعالى مع محاولة استشفاف حكمته التي يمكن للمتوسطين فضلاً
عن النيرين والعلماء استشفافها ، والتي نرجو أن يكون ما شرحناه هو
هذه الحكمة أو من وجوهها .

والمحددون ينكرون هذه الحياة ، ويتخذون الإيمان بها وسيلة للطعن
والتجريح في الأديان وفي الدين الإسلامي بخاصة الذي انفرد كتابه الكريم
بتفصيلها ، ومنهم من يتمحك بما جاء في آياتها من أوصاف ومشاهد وما
في بعض هذه الأوصاف والمشاهد من تباين وتناقض ظاهريين .

لذلك نرى أن نتكلم في أصل المسألة أولاً ، فنقول : إن الآيات القرآنية
احتوت بياناً للأهداف والمقاصد ، يمكن تلخيصها بأن الله تعالى لا يمكن
أن يكون خلق الكون عبثاً ، وأن حياة الإنسان الذي شاء أن يكون أكمل
مخلوقاته الأرضية عقلاً ومنفرداً وحده بالتكليف لا يمكن أن تكون قاصرة
على الزمن القصير الذي يحياه في الدنيا ، وأنه لا بد من أن يكون لها
تمتة أفضل وأكمل وأدوم يسود فيها أهل الإيمان والحق والعدل
والخير ، ويتنعمون بالنعيم والسعادة والطمأنينة التامة ، وينخذل فيها
أهل الجحود والباطل والظلم والشر والعدوان ، ويذوقون العذاب بما
صنعوا ، وأنه لا يتسق مع عدل الله أن يفلت الشرير مما يرتكبه من الآثام
التي كثيراً ما ينجو من عواقبها في الدنيا ومن عقاب جحوده لخالقه ، وما
أسبغه عليه من نعم ، وأن يذهب عمل المؤمن الصالح وما يفعله من خير
وعدل وحق كثيراً ما لا ينال عليه مكافأة وجزاء في الدنيا هدرًا وهباءً ، وأن

يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالجاحدين لله المفسدين في الأرض ، وأن يكون المتقون كالفجار ، وأن حكمة الله اقتضت من أجل تلك التهمة المسماة بالحياة الآخروية ، يرجع فيها الناس الى ربهم ، ويكافأ فيها المؤمن المحسن ، ويعاقب فيها الجاحد الآثم الباغي .

والمؤمن بالله الذي ينعم النظر في مشاهد الكون ونواميسه ، ويلمس فيها ما يذهب بلبه ، ويملك عليه مشاعره من العظمة والاتقان والنظام البديع المعجز واجد كل الطمأنينة والحق في هذه المقاصد والأهداف ، وواجد أن الحياة الآخروية ، ليست مما يخرج عن نطاق قدرة الله مبدع هذا الكون ومدبره ، ولا عن حكمته السامية ، ولا عن نطاق التصور العقلي في الوقت نفسه ، ولقد أورد القرآن بدون أي تحرج اعتراضات الجاحدين لهذه الحياة ورد عليها ، ولا تخرج عما يورده الملحدون ، بحيث يكون الرد القرآني رداً عليهم وكفى .

ومن المتبادر بالاضافة إلى ماتقدم أن فكرة الحياة الآخروية وثوابها وعقابها تنطوي على الحافز على الخير ، والوازع عن الإثم ، فالذين لا يخافون الآخرة وحسابها ، ولا يعتقدون بها قلما يأبهون للحق والخير في شتى مجالاتهما ، ويندفعون فيها اندفاعاً ذاتياً وجدانياً دون انتظار مقابلة أو جزاء في الدنيا مادياً أم معنوياً ، وقلما يتورعون عن الإثم والمنكرات والفواحش والبغي والعدوان إذا ماتيقنوا من النجاة من العقوبة المادية والأدبية ، وأمنوا منها في الدنيا ، وفي ذلك الحافز والوازع اللذين ينطويان في فكرة الحياة الآخروية مافيه من صلاح الإنسانية وخيرها في الدنيا على مختلف المستويات ، وفي القرآن آيات عديدة تتضمن تقرير ذلك صراحة وضمناً كما ترى فيما يلي :

١ - (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون .)
النحل : ٢٢

٢ - (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون .) المؤمنون : ٥٧ - ٦١

٢ - (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون .) المؤمنون : ٧٤

وهذا يعني فيما يعنيه أن إيمان المؤمن بالآخرة، يجعله يتحمل المكاره،
ويصبر على الشدائد ، ويقدم على التضحية بماله ونفسه في سبيل الله
والحق دون أن يهتم كثيراً لما قد يصيبه أو يناله من جزاء دنيوي أو نكران
أو حرمان دنيوي ، لأنه يعتقد أنه سوف يستوفي جزاءه على أوفى ما يكون
في ذلك اليوم أكثر بكثير من غير المؤمنين بها ، وعلى أي مستوى ، وهذا
ما تضمنته آيات الليل :

(فأنذرتكم نارا تظلى ، لا يصلها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى .
وسيجنبها الأتقى . الذي يؤتي ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة
تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . وسوف يرضى) ١٤ - ٢١

وكل من يتمعن في آيات القرآن في الحياة الآخوية لا يمكن إلا أن
يلمح فيها من القوة والنفوذ والحرارة ما يث في النفس كل اليقين بصدق
وعد الله بها وقدرته عليها ، وحكمته السامية فيها .

ونحن نعرف أن الملحدين يقولون فيما يقولون : إنه ليس لفكرة الحياة
الآخوية التأثير الخلقي العميق ، لأنها سبب خارجي أو نظري ليس من
كيان النفس ، وأعماق الضمير ، وإن أقل صدمة لهذا السبب تجعل
ما أوجده من الحافز والوازع عدماً . وإن تربية الناس تربية خلقية
عميقة نافذة هي التي تستطيع أن تكون الحافز والوازع الذاتيين ، وينسى
القائلون - ونقول هذا من قبيل المساجلة - أن الأمل في هذه التربية
وشمولها خيال مستحيل التحقيق بالنسبة لجمهور الناس ، وإنه إذا
أمكن أن يتحقق في أناس ، فإنهم من الندرة والقلة في الدرجة التي لا يكون
أي أثر ايجابي محسوس بالنسبة للجمهور ، بل إن هناك ظروفاً اجتماعية
ونفسية تنفقد بها الحافز والوازع في هذه الطبقة القليلة النادرة ، وتصبح
تحت حكم الفرائز والطبائع البهيمية ، بل نستطيع أن نقول : إن الذين
يترددون في اقتراف البغي وعمل الإثم والمنكر أو الذين يفعلون الخير ذاتياً
من هذه القلة النادرة يندفعون الى ذلك بحافز من عقلهم الباطن المؤمن
بالآخرة وحسابها ...

وهذا إلى أن الكثرة العظمى من المجتمع لا يمكن أن يستغني عن حافز
ووازع مؤثرين ، وما اضطرار السلطات الحاكمة والهيئات الاجتماعية
إلى وضع القوانين والحدود والتقاليد إلا مظهر من مظاهر هذه الحاجة ،
وتثبيت لها ، ولم يقل أحد : إنه ليس من حاجة إلى هذه القوانين والحدود
والتقاليد لمنع الناس من الشذوذ والبغي والإثم والجريمة ، وحفزهم على
الاستقامة ، والتزام الحق والانصاف والعمل الصالح النافع ، وإن هذا
وذاك يمكن تحقيقه ذاتياً في يوم ما . وما دامت التجربة قد أثبتت أن كثيراً
من الناس ، بل معظم الناس ينزعون إلى التفلت من القوانين والتقاليد
والقيود والحدود ، ومعاكستها بشتى الأساليب تحقيقاً لمنافعهم وأهوائهم
الخاصة حينما يأمنون المغبة ، ولا يقبلون على الخير لذاته ، ولا يستقيمون
على طريق الحق ، ويلتزمون به إذا أمنوا اللوم والمهانة والحرج والخطر
والجزاء الخاص أو العام والرسمي أو غير الرسمي ، فإن الحاجة تظل
ماسة إلى حافز ووازع أقوى تأثيراً وأعمق أثراً في النفوس من القوانين
والتقاليد يجعلان المرء رقيباً على نفسه ولو لم يكن عليه رقيب ، ويحملانه
على الرهبة من الإثم والأذى والشذوذ ، والرغبة في المعروف والخير
والاستقامة في حال سره وعلمه ، وفي أعماق نفسه . والإيمان بالآخرة وثوابها
وعقابها هو الذي يستطيع أن يسد هذه الحاجة . وإذا كان كثير من
المؤمنين بالآخرة ينزعون أيضاً إلى الإثم والشر والأذى والعدوان ، ولا
يندفعون إلى الخير ، ويلتزمون الحق ، فإن غير المؤمنين أكثر نزوعاً إلى
التفلت من وازع الضمير ، ووازع الرهبة من القوانين والتقاليد ، إذا ما
أمنوا ضررها المادي والأدبي ، لأن أثراً ما من إيمان المؤمنين والخوف من
الحساب الأخروي يظل في هؤلاء قد يوقفهم في لحظة ما ، ويجعلهم يندمون
ويشوبون ويصلحون ، بينما لا يكون في الجاحدين أثر من شيء ، ماداموا
مستطيعين التفلت من العقوبة المانعة الرادعة أدبية كانت أم معنوية والفوز
بالمنفعة الذاتية .

ويمكن أن يضاف إلى هذا أمر خطير آخر ، وهو ما تكون عليه قلوب
ونفوس الجاحدين من فراغ ويأس وحيرة وقلق وتساؤل لا جواب عليه

عندهم من أمر هذه الحياة التي يحيونها بدون غاية ومدى بدءاً وسيرة ونهاية ، ثم من رغبة جامحة في استنفاد كل جهد في سبيل الاستمتاع بالحياة بأية وسيلة ممكنة ، ومهما كان فيها إثم وعدوان وفجور ، لأنها كل مالهم . في حين أن المؤمنين بالله واليوم الآخر تكون قلوبهم مطمئنة بحكمة الله السامية في خلقهم وحياتهم وسيرتهم ومماتهم ، وبعبارة أخرى: إن الإيمان بالآخرة يذهب الخوف من الموت من الناس ، ويهبهم الشجاعة والاقدام ، وعمل الخير للخير والتغلب على الشح ، ويبعدهم عن اليأس والتهور لاستنفاد كل ما يستطيعون من متع وشهوات مهما كان فيها إثم وعدوان . . . ويملاً نفوسهم أملاً بتتمة افضل وأسعد لكل ذلك ، لأن ما عند الله خير وأبقى ، وهذا ما أشارت إليه آيات عديدة منها آيات سورة النحل هذه :

(ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا اجرهم بأحسن ماكانوا يعملون(١) ٩٦ و ٩٧

ولقد قلنا : إننا نقول هذا من قبيل المساجلة وحسب ، والا فإن فكرة الآخرة متصلة أشد الاتصال بفكرة الإيمان بالله وعظمته وعدله وقدرته وحكمته ، وتقرير كتابه الصريح القاطع ، ثم هي متصلة بما في أعماق النفس البشرية من فكرة الدين ، وبما تثيره عظمة الكون وبدائعه ونواميسه في هذه النفس من يقين عميق ذاتي لوجوب واجب الوجود وعظمته وحكمته

(١) قرأنا ونحن نكتب هذا مقالا في اهرام الجمعة ١٨/١٢/١٩٧٠ ليوسف ادريس بعنوان (اكتشاف قارة) من جملة ما فيه مقارنة بين فكرة الموت والخلود نفسي مصر والشرق العربي وآسيا البوذية فيه تناقضات وغفلة عجيبة من شخص مثله ، وقد وصف حالة الهلع التي يشعر بها المصري والعربي من الموت ، لان الحياة الدنيا كل ماله في ذهنه ويريد أن يستنفد كل متعها وشهواتها في حين أن البوذي في حالة مطمئنة بالخلود بأسلوب ما . والوصف ينطبق على حالة الملحد دون المؤمن المسلم الذي يهبه إيمانه ، واسلامه طمأنينة أوفى من طمأنينة البوذي وغيره كما هو الواضح مما قدمناه . وهذا ما غفل عنه او جهله الكاتب .

وعدله ، واستحالة أن يكون قد خلق ما خلق من اكون ومخلوقات عبثاً ، لا يكاد يستطيع أحد أن يتفلسف منها حتى الذين يظنون أنهم استطاعوا التفلسف منها في وقت الرخاء والسعة حيث أنهم لا يشعرون إلا وهم تحت تأثيرها حينما تلم بهم النائبات ، وتحقق بهم أخطار .

ويغمر الأغيار الدين الاسلامي بالجنات الآخروية التي وعد بها معتقوه زاعمين أن ذلك يثير فيهم الانانية والطمع ، ويجعلهم لا يفعلون الصالحات الا رغبة في الأجر الشخصي وانه يخرج الحياة الآخروية من نطاقها الروحاني . أما إثارة الانانية والطمع ، فالبداية تقضي بأن تكون الحياة الآخروية قاضية عليها ، لأن الانسان الذي يؤمن بانه إذا آمن واتقى وعمل الصالحات واصل إلى أعلى ما تصبو إليه نفسه من لذة ونعيم في الحياة الأخرى يستطيع أن يوطن النفس على التضحيات المتنوعة وعلى القناعة والفيرية وأعمال البر ، دون أن ينتظر جزاء مادياً معجلاً في الدنيا ، وأما النطاق الروحاني ، فان القرآن قد جرى فيما يقرره في كل شيء مع طبائع الأمور وغرائز الانسان وتطلعاته مع الحرص على جعلها معتدلة خيرة غير عدوانية ولا آثمة . والدين الاسلامي من أجل ذلك صح أن يكون دين الخلود والانسانية العام ، وما جاء في القرآن من صفات الجنات ونعيمها قد جرى في هذا النطاق . على أنه لم يقصر على ما سوف يتمتع به المؤمن الصالح في الحياة الآخروية على الجنات واللذائذ الجسمانية بل ذكر أيضاً ما سوف يناله من رضوان الله الأكبر مما هو متسق كذلك مع طبائع الأمور من حيث إن الله يعلم أن هناك من يجد في هذا طمأنينة نفسه وقرّة عينه . وهكذا احتوى القرآن ما يرضي المطالب الجسمانية والمثالية معاً كما ترى في آية سورة آل عمران هذه .

(قل أُوْنِبْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ .)

وآية التوبة هذه

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو هو الفوز العظيم .) ٧٢

وننبه على جملة (ورضوان من الله أكبر) حيث يمكن أن يكون قد قصد بها تنويه أكثر برضوان الله الأكبر .

والمحددون العرب يركزون على ناحية من أمر هذه الحياة بالنسبة للعرب الذين أكثرتهم الساحقة مسلمون مؤمنون بها ، وهي أنها تجعلهم ينفضون أيديهم من الحياة ، ويعتبرون أنفسهم عابري سبيل فيها ، وقد يكون هذا من واقع الحال الذي لا يتحمل القرآن والإسلام مسؤوليته ، فكل ما في القرآن حتى العبادات من صلاة وصيام وحج ووضوء وتيمم هادف إلى صلاح الإنسان في الحياة الدنيا وحتى الحياة الآخوية نفسها قد انطوت على هذا الهدف فيه ، مما أوردنا عليه الشواهد سابقاً ، وصلاح الإنسان في الدنيا أمر عام يشمل كل شيء سياسياً واجتماعياً وعلمياً وسلوكياً واستعداداً وإعداداً وسعيّاً وجهداً الخ الخ .

ولقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً كما جاء في الآية (٥٥) من سورة النور ، والصالحات التي قرنت بالإيمان في هذه الآية وغيرها تشمل كل شيء يجعل المسلمين صالحين لهذه الخلافة من علم وعمل وقوة وعزة وكرامة ، وتقدم في كل مجالات الحياة . وكل هذا هو عماد النجاح للاستخلاف في الأرض والتمكن فيها ، ولا يصح أن يكون الله قد رشحهم لذلك ، ويرضى منهم أن ينفضوا أيديهم منه بطبيعة الحال ، ولقد توقع الله منهم أن يكونوا عند هذا حينما هتف بهم .

(ولنكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم .) آل عمران : ١٠٤ و ١٠٥

ورشحهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس إذا هم استجابوا لهذا الهتاف .

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .) آل عمران : ١١٠

وتوقع منهم أن يفعلوا ذلك حقاً . (الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . . .) الحج : ٤١

والمعروف هو كل ما فيه خير ونفع ومصلحة وعزة وكرامة وعدل وحق واستقامة وصلاح ، والمنكر هو كل أضداد ذلك ، وقد جعلهم الله وسطاً ليكونوا شهداء على الناس (سورة البقرة : ١٤٢) أي حاملي مشعل الهداية للناس الخيرين العادلين المستقيمين على الحق الذين برئوا من الإفراط والتفريط والفلو والتقصير ، ولقد استنكر الله تحريم طبيباته وزينة الحياة الدنيا ، وهتف بالمسلمين بأنها من حقهم مثل غيرهم في الدنيا مع اختصاصهم بها في الآخرة .

(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) الاعراف : ٣٢

ويضاف الى هذا ماسجله المسلمون من معالم الحضارة الباذخة في كل المجالات التي فيه الدلالة على استيعابهم لمدى تعاليم القرآن وتطبيقهم لها مما أداهم إلى الضرب بأوسع السهام في مختلف شؤون الحياة ، ومما فيه تكذيب لذلك الزعم .

ومع ذلك فإن واقع المسلمين لايفيد ذلك ، فهم منشغلون في الدنيا حسب ماتحمله أذهانهم وأفهامهم وظروفهم ، وإذا كان فيهم أو في أكثرهم هم فاترة ، فإن ذلك هو نتيجة لفتور أذهانهم وضيق أفقهم ، وسوء فهمهم لتعاليم وأهداف مدى الرسالة الإسلامية ، وهذا من أثر الدهر الطويل الذي عاشوا في ظله وظلمه وظلماته وجهله وجهالاته ، ولا يتحمل القرآن مسؤوليته ، وليس له بعد صفة الاستمرار . وهناك طوائف كثيرة من المسلمين أخذوا يتخلصون منه ، وفي كل ماتقدم مايسد على الملحدون باب التمثل والتنطع فيما نعتقد .

وكلمة أخيرة في صدد ما يتمحك به الملحدون فيما جاء في القرآن من أوصاف ومشاهد ، وما قد يكون فيها من تباين وتناقض ظاهرين . فنقول : إن الآيات القرآنية في مشاهد الآخرة هي من المتشابهات التي تحمل

وجوهاً عديدة ، ولا يتمحك بها إلا ذوو القلوب المريضة الزائفة على ما شرحناه قبل .

ولقد نبهنا مع ذلك إلى ما ينطوي فيها من حكم وعبر ، ومن ذلك إثارة الخوف والندم في نفوس الكفار ، وكون مرد التنوع هو تنوع المواقف والفئات في الدنيا والآخرة ، والناظر في الآيات وسياقها والمقارن بينها عن حسن نية يجد لكل إشكال لفظي أو تعبيري جواباً شافياً من ذلك مما نبهنا عليه في تفسيرنا الحديث .

عاشراً : صفات الله عز وجل وأفعاله وأسماءه في القرآن

في القرآن آيات كثيرة تنسب إلى الله عز وجل اليد واليمين والقبضة والوجه والاستواء بمعنى الجلوس ، وبمعنى الصعود ، والمجيء ، والطى باليد ، والاختذ باليد والقطع ، والنفخ من روحه في خلقه ، والعروج إلى السماء ، والنزول والكتابة والتجلي على بعض خلقه وإشراق نوره ، وتذكر أنه في السماء ، وأنه فوق شيء ما ، أو مع شيء ما ، أو عند شيء ما ، أو يقف عنده خلقه أو هو معهم أين ما كانوا أو ثم وجهه أين ما يتولوا . وفيها أسماء لله يشترك فيها البشر بحواسهم وأفعالهم وصفاتهم كالسمع والبصر والعلم والحكمة والتدبير والقبض والبسط الخ . كما ترى فيما يلي :

١ - (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم .) البقرة : ٢٩

٢ - (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم .) البقرة : ١١٥

٣ - (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش .) الأعراف : ٥٤

٤ - (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء .) الأعراف : ١٤٣ - ١٤٦

٤ - (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمنون .) النحل : ٥٠
٥ - (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين .) الانبياء : ٩١

٦ - (يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين .) الانبياء : ١٠٤

٧ - (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب .) النور : ٣٩

٨ - (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون .) ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون .) الزمر : ٦٧ - ٦٩

١٠ - (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين (١) .) الزمر : ٧٥

١١ - (وجاء ربك والملك صفاً صفاً .) الفجر : ٢٢

والتبادر بكل قوة أن هذه التعابير أسلوبية مما اعتاد البشر أن يفهموا بها المعاني المرادة بكلماتها ، وأنها بالنسبة الى الله عز وجل هي متشابهات تتحمل تأويلات عديدة ، ومنها ما لا يدرك العقل البشري تأويله ومداه ، وإن كان يستطيع أن يستشف منها أنها بقصد بيان شمول ملك الله وقدرته وعلمه وإحاطته ، وبقصد الإشارة إلى ذاته الإلهية وحسب ، لأن عكس ذلك يعني نسبة الحلول والجسمانية والعضوية إلى الله عز وجل ، وهذا من سمات الحدوث التي يجب تنزيهه عنها .

(١) في القرآن غير هذه الآيات آيات كثيرة ماثورة في مختلف السور المكية والمدنية فيها ما أردنا التنبيه عليه في هذه النبرة . وقد اكتفينا بما أوردناه لان فيه الدلالة التي أردنا إبرازها . اقرأ اذا شئت أيضاً آيات سورة فصلت ٩ - ١١ و ٣٨ ، والفتح ١٠ و ص ١٦ والرحمن ٢٧ ، والحديد ٤ ، والمجادلة ٧ والملك ١٦ - ١٨ والهاقة ١٦ - ١٨ و ٤٥ - ٤٧ والمعارج ٣ و ٤ والقيامة ٢٢ و ٢٣ والنبا ٣٧ .

ولقد ورد في آية سورة الأنعام (١٠٢) جملة (لا تدركه الأبصار) وفي آية سورة الشورى (١١) جملة (ليس كمثله شيء) فهذه الجمل وأمثالها الكثيرة يصح أن تكون ضوابط حاسمة في صدد الذات الإلهية ، السامية من أسماء وأفعال وصفات أخرى قد توهم مماثلة لأسماء وصفات وأفعال البشر أيضاً حيث يصح أن يقال : إنها جاءت على سبيل التقريب والتمثيل ، فالله سميع ، ولكن ليس كمثل سمعه شيء ، والله بصير ، ولكن ليس كمثل بصره شيء ، والله متكلم وليس كمثل تكلمه شيء ، وهو حي وعليم ومريد وقوي وحكيم وصبور وقابض وباسط ، وليس كمثل حياته وعلمه وإرادته وقوته وحكمته وصبره وقبضه وبسطه شيء ، ولا تستطيع أبصار البشر وأسماعهم فهم وإدراك كنه شيء منه ، مع وجوب إيمانهم بوجوب وجوده وكمال صفاته ، لأن دلائل ذلك ماثلة في كل شيء في الكون . (١)

وفي القرآن آيات فيها تنبيه على أن كل ما في الكون يسبح الله ويسجد له ، ولو لم يستطع الناس أن يفهموا كنه ذلك ، وأنه نور السماوات والأرض مع تنبيهه في المثل الذي ضربه لذلك بأن نوره ذاتي أو مضيء بذاته كما ترى في الآيات التالية :

١ - ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال (٠)
الرعد : ١٣

٢ - (والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالقدوس والإصباح) الرعد : ١٥

٣ - (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) (٠)
الأنعام : ٤٤

٤ - (ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء) (٠)
الحج : ١٨

(١) تنبيه على أن للسلف الإسلامي الأول مذهباً لعله أسلم المذاهب وهو تلقى ما جاء في القرآن من العبارات كما هي والقول (آمنا به كل من عند ربنا) وإيكال المراد منها إلى الله وعدم الخوض في تأويلها .

٥ - (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) (النور : ٣٥)

٦ - (ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون . والله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير .) (النور : ٤١ و ٤٢)

فكل هذا أساليب خطابية بلغة البشر الذين يوجه إليهم الكلام للتنبيه على كمال صفات الله ووجوده وإحاطته وقدرته وخضوع كل شيء له دون دخول في الماهيات والكنهيات ، ومن الواجب الوقوف عند ذلك .

وقد يقتضي هذا البحث كلمة في صدد صفة الله (المتكلم) لأن هذه الصفة متصلة عند أهل المذاهب الكلامية الإسلامية بأمر واقعي ، وهو كلام الله القرآني . والذي يتبادر لنا أن أهل هذه المذاهب قد شغلوا أنفسهم بما لا يتحمل الأمر ، وتاهوا في متاهات كنه الله بسبيل التوفيق بين صفة الله (المتكلم) التي يجب أن تكون كذاته أزلية أبدية غير حادثة ، حتى أدى الأمر إلى محنة مريرة دامية مما عرف بمحنة خلق القرآن (١) وعلمه في القرن الثالث الهجري مما لا ضرورة دينية له ، ولا طائل منه ، فتعبير (كلام الله) في سورة التوبة هذه :

(١) هذه المحنة نجمت في عهد الخليفة العباسي المأمون ، وكان أهل المذهب الذي عرف بالمعتزلة ، والذين يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، أقوياء الكلمة عليه ، وكانوا يقولون فيما يقولون : أن صفات الله وأسماء ذاتية ، فهو عالم بذاته ، متكلم بذاته ، سميع بذاته الخ. وكانوا يقولون : أن القرآن مخلوق ، لأنه منفك عن ذات الله ومعبر عن أمور حادثة ، فلا يصح أن يكون ذات الله ، وكان أهل مذهب السنة بزعامة الإمام أحمد ابن حنبل يقولون : أن الله عالم بعلم ، ومتكلم بكلام ، وسميع يسمع الخ. وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأراد المأمون بتأثير المعتزلة أن يفرض هذا المذهب ، فصار يطارد زعماء مذهب السنة ويضطهدهم لأرغامهم وأرغام تابعيهم الذين كانوا أكثرية سواد الشعب على القول بمذهبهم ، وأدى الأمر إلى تعذيب وسجن وضرب واضطهاد وسفك دم ، واستمرت المحنة نحو ثلاثين عاما حتى وقفت في زمن المتوكل على الله .

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله (١) الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون .) ٦ هو كناية عن القرآن . ويجب الوقوف عند ذلك .

والمتضمن في الآيات القرآنية التي وردت فيها تلك التعابير والأسماء والصفات مضمونا أو أسلوباً أو سياقاً يجدها قد استهدفت من جهة تقرير معاني القوة والإحاطة والشمول والقدرة والوجود الدائم الشامل ، والحكمة البالغة لله تعالى ، ومن جهة أخرى تقرير أحسن الأسماء والصفات الدالة على اكمل الحالات ، وأتم المعاني اللائقة بالذات الإلهية بما تتسع له لغة البشر التي نزل القرآن بها . ولعلّ تنوع التعابير مما يقوم قرينة قوية على صحة ما نقرره ، والمتبادر دائماً منها هو تدعيم الدعوة الى الله وحده ، وكونه المستحق وحده للعبادة والدعاء والاتجاه .

وملاحظة كل ذلك مهمة وضرورية جداً ، لأن من شأنها أن تعصم الناظر في القرآن من الاستغراق والتورط في التكلف والتخمين والتجوز في الماهيات من جهة ، ومن أي توهم بحسية الذات الإلهية وحلولها وجسمانياتها ومشابقتها لأي من الخلق من جهة ، ومن التورط في الجدل الكلامي في صدها على غير طائل ولا ضرورة له من جهة ، وتجعله يقف من هذه التعابير والأسماء والصفات عند الحد الذي وقف عنده القرآن

(١) هناك آيات أخرى فيها تعابير كلام الله وكلمة الله وكلمات الله ، ولكن فحواها وسياقها لا تعني أنها كناية عن القرآن مثل آية البقرة هذه : (افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) ٧٥ فهي على ما هو المتبادر في صدد بني اسرائيل وتاريخهم القديم ، ومثل آية الانعام هذه : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله) ٢٤ التي تعني حكم الله . وهذا المعنى وارد بالنسبة لآية سورة الانعام هذه : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا .) ١١٥ ومثل آية سورة الكهف هذه : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفذ كلمات ربي .) ١٩٠ التي تعني آيات الله في كونه ، ومثل آية سورة الفتح هذه : (سيقول المخلصون إذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونكم كذلك قال الله من قبل .) ١٥ التي تعني أمر الله وحكمه . .

لتحقيق الهدف الملموح منه مع استشفاف هذا الهدف الذي نرجو أن يكون ما ذكرناه ودون تزيد ولا تكلف ولا تمحل .

على أن الناظر في أساليب القرآن المتنوعة في هذا الصدد يجدها كما هو الشأن في غيرها من مشاهد كون وحياة أخروية وقصص وجن وملائكة من نوع (أسلوب الحكيم) الذي لا يدخل في نقاش وجدل وتقريرات كلامية ، ويتسق مع طبائع الأمور من حيث إنه المخاطب به أناس متفاوتون متنوعون في ذهنياتهم وثقافتهم وظروفهم ، والمهم الجوهري من أمرهم هو دعوتهم الى الله وحده ، ثم إلى الخير والصالح وإصلاحهم وتوجيههم إلى أحسن الوجاهات ، وتقريب الأمور والمعاني الى عقولهم وأذهانهم ومداركهم بأساليب سائفة منسجمة مع مداركهم ، واعطاء كل موضوع في كل موضع ما يتحمله لتدعيم هذه الدعوة وتأييدها وجعلها مؤثرة نافذة . وفي ذلك من دون ريب تعليم للطريقة الفضلى التي يجب فهم التعابير والأساليب القرآنية بها ، وتحصين من الوقوع فيما يقع فيه المسلمون وغيرهم ومن علماء وغير علماء من خطأ حينما يحاولون تجاوز هذه الطريقة والدخول في متاهات التخمينات والتأويلات والمحاولات الكلامية التي لا جدوى منها ولا ضرورة لها . ولقد وقع كثير من المسلمين في ذلك ، فأدى إلى ما أدى إليه من مجادلات ومهارات كلامية ، وإلى نشوء العديد من المذاهب والفرق الذي أدخل الوهن على الإسلام والمسلمين .

وقد يتفرع عن هذا مسألة يحسن الإمام بها ، لأنها مما تثير الحيرة والإشكال ، فإن في القرآن آيات يفيد ظاهرها أن الله أراد في موقف من مواقف خلقه أن يعلم أموراً لم يكن يعلمها مثل هذه الآيات :

١ - (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . .) البقرة : ١٤٣

٢ - (إن يمسخكم قرحاً فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) آل عمران : ١٤٠ - ١٤٢

٣ - (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين .
وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أوادفعوا قالوا لو
نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) آل عمران :
١٦٦ و ١٦٧

٤ - (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم
ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب
أليم) المائدة : ٩٤

٥ - (ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً)
الكهف : ١٢

٦ - (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن
الكاذبين) العنكبوت : ٣

٧ - (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو
أخباركم) محمد : ٣١

٨ - (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم
الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله
من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز) الحديد : ٢٥

٩ - (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل
شيء عدداً) الجن : ٢٨

ويقف بعض الناظرين في القرآن مستشكلين إزاء هذه الآيات . والوجه
الحق في ذلك هو أن الآيات من التشابهات التي تتحمل وجوهاً عديدة
للتأويل ، وأن في القرآن آيات فيها حسم لعلم الله لكل شيء كائن ويكون
قبل وقوعه ، وغائب وحاضر ، وخفي وظاهر مما يسوغ القول : إنها هي
المحكمة ، لأن ذلك هو المتسق مع وجوب صفات الكمال لله تعالى ، ويسوغ
القول : إن الآيات التي نحن في صددناها هي من التشابهات ، وإن الحكم

في الأمر ينبغي أن يكون للمحكّمات ، وهذه طائفة من الآيات التي فيها حسم
لكمال صفات الله وعلمه ، والتي يجب أن يكون لها الحكم في الأمر :

١ - (فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات
والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .) البقرة : ٢٣

٢ - (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في
السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير .) آل عمران : ٢٩

٣ - (إن الله كان بكل شيء عليماً .) النساء : ٣٢

٤ - (ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون .)
المائدة : ٩٩

٥ - (اليس الله بأعلم بالشاكرين .) الأنعام : ٥٣

٦ - (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل
شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من
أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار .)
الرعد : ٨ - ١٠

٧ - (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً .)
طه : ٩٨

٨ - (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً .)
الأحزاب : ٥٤

٩ - (قل بلى وربّي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في
السماوات ولا في الأرض ولا أصفر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .)
سبأ : ٣

١٠ - (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون .) يس : ٧٦

١١ - (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب
إليه من حبل الوريد .) ق : ١٦

١٢ - (وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل
سواء السبيل .) الممتحنة : ١

١٣ - (يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور (١)) التفابن : ٤

ولقد قال بعض أصحاب المذاهب الكلامية استناداً إلى تلك العبارات إن الله تعالى لا يعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها ، إلا أن معظم أصحاب المذاهب وجمهور علماء المسلمين وأئمتهم ومفسريهم ردوا ذلك بالدلائل القرآنية الكثيرة القطعية ، وبالدلائل العقلية والمنطقية على ازلية علم الله ، وإحاطته بكل ما كان ويكون وهو الحق والصواب اللذين تؤيدهما النصوص الآتية ، وقد أولوا العبارات تأويلات متسقة مع هذه الدلائل ، ومن التأويلات السديدة أن الله تعالى أراد بذلك إظهار المواقف المراد علمها للناس ، وتمييز المؤمنين من المنافقين أمام الناس ، أو إظهار حقيقة الأمر علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانت علم غيب ، حتى يترتب على أصحاب المواقف ما يستحقونه من عقاب وثواب من حيث إن ذلك إنما يترتب على ما تم وقوعه ومشاهدته حسيّاً ، ومنهم من قال : إن في تلك الآيات محذوفاً مقدراً وهو ليعلم أولياء الله ، وليعلم عباد الله ، وليعلم الناس الخ ...

حادي عشر تنبيهات على أخطاء أخرى يقع فيها الناظرون في القرآن

إن كثيراً من الناظرين في القرآن من مسلمين وغير مسلمين يقعون في أخطاء حينما يحاولون استخراج حكم ما ، أو فهم ما من آية دون أن ينتبهوا إلى سياق الآية الذي كثيراً ما يكون فيه دلالة على مداها تفهم به فهماً صحيحاً ، أو استدراك ، أو تنمة ، أو توضيح لما يبدو من عبارتها من إشكال ، أو دون أن ينتبهوا إلى آيات أخرى في السورة أو في سور أخرى فيها كذلك استدراك أو تنمة أو توضيح أو تعديل أو نسخ ، أو تخصيص بعد تعميم أو تقييد بعد إطلاق ، وبالتالي دون أن ينتبهوا إلى أن القرآن كل متكامل يفسر بعضه بعضاً ، ويجب أن يفهم بعضه من بعض ،

(١) هناك آيات كثيرة أخرى من باب هذه الآيات ، فاكثفنا بما أوردناه لان فيه الدلالة الكافية .

وأن يرجع بعضه إلى بعض بحيث يقال بجزم وقوة : إن الانتباه إلى ذلك يؤدي إلى ظهور الحق والصواب والحكمة الربانية ، والانسجام بين نصوص القرآن ، ويزيل ما يمكن أن يشير من وهم التعارض والتناقض ، وانسداد الباب على سوء الفهم والتأويل ، والحكم على مدى القرآن ، أو سوء الأدب مع منزله سبحانه وتعالى ، ومع المنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، **وبحيث** يقال بجزم وقوة : إنه ليس في القرآن إشكال لا يزول بآية أو سياق ، وليس فيه تعارض وتناقض إذا ما ربط بعضه ببعض ، وفسر بعضه ببعض ، وأرجع بعضه إلى بعض ، ونظر فيه ككل متكامل ، وهذا من معجزاته العظمى الخالدة .

ولقد جاء في سورة النساء هذه الآية : **(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ٨٢** وفي سورة فصلت هذه الآية **(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ٤٢** والآيتان تتضمنان هذه الحقيقة تقريراً حاسماً .

وقد يقع بعض المسلمين في شيء من ذلك عن غفلة وحسن نية ، ولكن الملحدون والمبشرين يقعون في ذلك عن عمد وسوء نية ، وللمحاكمة وإبراز الثغرات ، وكثيراً ما يكون ذلك منهم بسبب عدم فهم للعبارة القرآنية فضلاً عن سياقها **وعما** في غيرها من توضيح وتتممة واستدراك ، ولقد نبهنا على كثير من أخطاء المبشرين في كتابنا الذي كتبناه في الرد عليهم ، ونشر قبل هذا . وفي كتاب صادق العظم «نقد الفكر الديني» نماذج من ذلك نبهنا على بعضها ، ووضعنا الأمر فيها في نصابه الحق فيما نرجو في مناسبات سابقة ، وسوف ننبه على بعضها في هذه النبذة ، ونضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .

ولقد أشرنا إلى ما يتمحك به الملحدون من تباين **ظاهري** في بعض العبارات القرآنية في صدد الخلق والتكوين والقصص ، ونبهنا إلى خطئهم في أخذ كل شيء من ذلك لحدته وإلى أن أوهامهم تزول لو نظروا إلى سياق الآيات ، أو قارنوا بينها وبين مثيلاتها ، أو في مواضعها من آيات أخرى . وهذه طائفة أخرى من المواضيع والأمثلة :

(١) - ففي بعض آيات تنسب الهداية والضلال اطلاقاً إلى الله تعالى ومشيئته بحيث يظن المتسرع أن الله قد قدر على أناس الضلال ، وعلى أناس الهدى اعتباطاً وجزافاً ، فلا حيلة لهم في ذلك ولا جدوى لاجتهادهم وكسبهم من خير وشر ، وحذر ومغامرة وتقوى وفجور وفسق وبحيث يسوغ الماحكون والمتحطلون لأنفسهم أن ينسبوا إلى الله عز وجل التناقض والتباين والظلم .

ففي سورة الأنعام هذه الآيات :

١ - (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم (٠) ٣٩

٢ - (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون (٠) ١٢٥

وفي سورة الأعراف هذه الآيات :

١ - (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضل فاولئك هم الخاسرون (٠) ١٧٨

٢ - (من يضل الله فلا هادي له وينذرهم في طغيانهم يعمهون (٠) ١٨٦

وفي سورة النحل هذه الآيات :

١ - (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (٠) إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين (٠) ٣٦ و ٣٧

٢ - (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون (٠) النحل ٩٣

وفي سور فاطر والشورى والمدثر هذه الآيات

١ - (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (٠) فاطر : ٨

٢ - (ومن يضل الله فما له من وليٍّ من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل (٠) الشورى ٤٤

٣ - (كذلك يفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر) المدثر : ٣١

هذا في حين أن في سياق هذه الآيات وما قبلها وما بعدها ، بل في صلب بعضها ما يزيل الوهم والإشكال . فآية الأنعام (٣٩) بسبيل وصف شدة تصميم الكاذبين على عدم سماع الحق وقوله . وقد جاء في السياق السابق لها هذه الآية : (إنما يستجيب الذين يسمعون .) أي الذين حسنت رغباتهم في استماع الحق ، كما أن فيه وصفاً لمواقف الكاذبين ، وحكاية لندهم في الآخرة ، وتسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ونسبة موقف الضلال إليهم بحيث تكون عبارة الآية أسلوبية ، وليست تقريرية ، وبحيث يظهر من السياق كون الضلال إنما كان لموقف الضالين ، وليس مما حتمه الله عليهم اعتباطاً وجزافاً ، تعالى وتنزه عن ذلك . وفي صلب آية الأنعام (١٢٥) تقرير بتصميم الكفار على الكفر ، وفي السياق الذي قبلها شرح لمواقف الكفار وفكرهم ، بحيث يبدو أن ضلالهم وعدم هداهم هما نتيجة سوء نياتهم ، وعدم رغبتهم في الحق أي : كسبهم ، وأن العبارة أسلوبية ، وليست تقريرية .

وفي سياق آيات الأعراف تنديد بالكاذبين والجاحدين ، أي : الفريق الذي خبثت طويته ، وصمم على الانحراف والضلال ، فصار ضلاله باختياره ، وكسبه ، وتكون صيغة الآية أسلوبية لا تقريرية ويحسن أن يقرأ السياق ١٧٤ - ١٧٧ و ١٧٩ - ١٨٥ فهو قوي الدلالة على ذلك . وسياق آية النحل (٣٦ و ٣٧) يدور حول المستكبرين الماكرين والمتقين ، وينسب لكل منهم كسب موقفه ، ويرتب على كل منهم الثواب والعقاب حسب كسبه كما يبدو بارزاً في الآيات (٢٢ - ٣٥) وفي صلب الآية (٣٦) نعت لهم بالكاذبين ، وفي النعت تعليل قطعي ، وتقرير كون ضلالهم من كسبهم ، وفي صلب الآية (٩٣) من سورة النحل إيدان رباني بأنهم سوف يسألون عما عملوا بحيث يتضمن ذلك تقرير كون ضلال الضالين ، واهتداء المهتدين نتيجة لكسبهم ، وكون صيغة الآية أسلوبية ، وليست تقريرية وهذا فضلاً عن أن السياق قبل الآية وبعدها ينسب أفعال الناس إليهم ،

ويحذّرهم وينذّرهم ويبشّرهم ، ويرتب نتائج مواقفهم وفق أعمالهم كما هو بارز في الآيات (٨٩-٩٢ و ٩٤-٩٧) .

وفي آية سورة فاطر تسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم على موقف الجاحدين وحسب ، وفي الآيات التي قبلها تنديد بالكافرين ، وتنويه بالمؤمنين ، ونسبة مواقفهم إليهم كما هو بارز في الآيات (٣-٧ و ١٠) . وفي صلب آية الثورى نعت الظالمين لمن أضله الله ، وهذا تقرير صريح بأن ذلك بسبب ظلمهم وسوء نيتهم وكسبهم ، وفي ما قبل هذه الآية وبعدها أيضاً نفس التقرير الصريح المذكور . وبالنسبة لآية المدثر ، فقد جاء قبلها وصف لكافر مصمم على الكفر وموقفه الجحودي ، وجاء بعدها إنذار وتنديد بالكفار ، وتنويه بالمؤمنين كما ترى في الآيات (٨-٢٩ و ٣٢-٤٨) ، ولقد جاء في إحدى آيات السياق الثاني هذه الآية . (كل نفس بما كسبت رهينة) وهي صريحة التقرير بأن موقف الضلال والهدى هو كسب من الإنسان ، بحيث يسوغ كل هذا أن يقال : إن عبارة الآية (٣١) أسلوبية وليست تقريرية (١)

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن في القرآن آيات يمكن أن يكون فيها ضوابط حاسمة لهذه المسألة .

من ذلك آيات سورة البقرة هذه :

(يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) ٢٦ و ٢٧

حيث يتضمن كون الضلال انما حق على الذين انحرفوا وفسقوا وعصوا ، وتمكن الخبث وسوء القصد والطوية فيهم . ومن ذلك آيات سورة الأعراف هذه :

(١) في القرآن آيات أخرى من باب الآيات التي أوردناها ، وفي سياق كل منها وفي صلب بعضها ما يزيل الإشكال ، وقد اكتفينا بالأمثلة التي أوردناها لان فيها غنى ، ويمكن أن يقاس عليها .

(وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون . قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون (٢٨ - ٣٠

وفيها تقرير كون الضلال حق عليهم ، لانهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله وهم يفعلون الفواحش ، وينسبونها الى أوامر الله وشرائعه ، وينزه الله نفسه عن الأمر بالفحشاء . ويقرر أنه انما يأمر بالقسط ، والصلاة له وحده ، فيكون ضلال الضالين من كسبهم ونتيجة له ، ومن ذلك آيات سورة الرعد هذه :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (٢٧ - ٢٩

وفيها تقرر كون الله انما يهدي اليه من أناب إليه واذعن ، أي : من رغب في الحق والهدى ، وقبل هذه الآيات سياق طويل فيه تنويه بالمتقين وأعمالهم الصالحة ، ومنازلهم عند الله ، وتنديد بالمجرمين وأعمالهم السيئة ، ونكالهم عند الله بأسلوب فيه نسبة كل عمل لأصحابه ، وترتيب النتائج عليهم وفقه وهو الآيات (١٨ - ٢٥) وفي التنويه الذي احتوته الآيات (٢٨ و ٢٩) بالمؤمنين توكيد بأن الذين أنابوا الى الله هم المؤمنون الذين رغبوا بالحق ، واطمأنت قلوبهم به فحق لهم الهدى الرباني . ومن ذلك آية سورة يس هذه : (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم (١١ ، التي تتضمن تقدير كون أصحاب النيات الحسنة ، والرغبات الصادقة هم الذين يستجيئون لدعوة الرسول وانذاره . ومثلها آيات في نفس السورة وهي : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين (٦٩ و ٧٠

وفيها زيادة توضيحية بأن القول إنما يحق على من تعمد الكفر والجحود ، ومثلها آية سورة الانعام هذه :

(**إنما يستجيب الذين يسمعون** ٢٦) ، وآية سورة يونس هذه :
(**كذلك حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون**) ٢٩ وآية سورة الأحقاف هذه : (**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغٌ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون**) ٢٥ وآية سورة غافر هذه (**وكذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ١٠٠) ٦ ويضاف الى هذه الآيات الآيات العديدة التي فيها مقاطع (**إن الله لا يهدي القوم الكافرين**) و (**الظالمين**) و (**الفاستقين**) مما يتضمن تقرير كون الكفر والخيانة والظلم والفسق قد تحقق منهم فلم يستحقوا نتيجة لذلك عناية الله . وآية سورة ابراهيم هذه : (**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ١٠٠) ٢٧ مهمة في بابها فهي صريحة بأن الذين يشاء الله أن يثبتهم هم الذين اخلصوا وآمنوا ، وأن الذين يشاء أن يضلهم هم الذين ظلموا فأشركوا وارتكبوا الفواحش... ونقطة أخرى مهمة يمكن أن يشار إليها في هذا المساق ، فهناك آيات تقرر أن الله لو شاء لما ضل الناس مثل آية سورة يونس هذه : (**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**) ٩٩ وآية الانعام هذه : (**قل لله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين**) ١١٩ وآية الرعد هذه : (**أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً** ١٠٠) ٣١ وآية السجدة هذه : (**ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها**) ١٣

فلا يصح أن تؤول هذه الآيات وأمثالها أن الله منع الناس من الهدى ، وإنما الوجه في تأويلها أن الله قادر على قسره على الهدى ، ولكن حكمته اقتضت أن يتركوا لتمييزهم واختيارهم اللذين منحهما الله لهم . وفي كل آية من هذه الآيات وأمثالها وفي سياقها ما فيه تأكيد لذلك ، وتقرير لكون موقف الضلال وعدم الهدى إنما كان بكسب أصحابه ، ولقد كذب الله المشركين حيثما احتجوا بقولهم :

(**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم**

فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظنَّ وإن أنتم إلا تخرصون . .) الانعام ١٤٨
(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا
ولا حرمانا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل
إلا البلاغ المبين . .) النحل : ٣٥ وفي سورة الزمر هذه الآية : (إن تكفروا
فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم . .)
ومشيئة الإضلال الرباني تقتضي أن يكون شاء لمن أضلهم الكفر ، وتنزه
الله عن أن يشاء مالا يرضاه . . هذا فضلاً عما في الآية من نسبة الكفر
والشكر لمن يكفر ويشكر ، أي : تقرير كون الساكر أو الكافر هو كاسب
شكره أو كفره باختياره .

(٢) - إن كثيراً من الناس يوردون جملة (والله خلقكم وما تعملون)
في آية سورة الصافات (٩٦) للتدليل على أن الله تعالى قد خلق الناس
وأعمالهم ، فليس لهم حيلة ولا أثر من كسب واجتهاد ، وصارت حجة
لبعض المذاهب الكلامية الإسلامية التي تقرر أن الله هو خالق أفعال العباد
دون ما أثر لاختيارهم وكسبهم . في حين أن هذه الجملة ليست تقريراً
ربانياً لهذا المعنى ، وإنما هي من جملة حكاية كلام إبراهيم عليه السلام
لقومه بسبيل التنديد بهم وإفحامهم . والقول لهم إن مادة الأصنام التي
تحتونها وتعبدهونها هي من خلق الله مثلكم كما ترى في هذا السياق
(فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . ما لكم لاتنطقون .
فراغ عليهم ضرباً باليمين . فاقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تحتون .
والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا
به كيداً فجعلناهم الأسفلين .) ٩٠ - ٩٨ ولو لوحظ السياق جميعه لما
كان من محل ولا معنى لاقتطاع هذه الآية وحدها من السلسلة ، وتلقيها
كتقرير رباني مباشر بخلق الله لأعمال الناس .

(٣) - ولقد احتوى القرآن حقاً آيات كثيرة تنسب الى الله ما يفعله
الناس من أفعال كأنه هو الذي شاء لهم أن يفعلوها ، فصاروا مجبرين على فعلها ،
أو آيات تنيط هدى الناس ونشاطهم ومكتسباتهم إلى الله ومصائرهم
بمشيئته ، فلا يقع منهم إلا ما شاء من ذلك . غير أن في القرآن آيات

كثيرة تنسب إلى الناس كل ما يفعلونه من افعال ، ويكتسبونه من مكتسبات ، ويصيرون إليه من مصائر ، ويسيرون فيه من طرق الهدى والضلال والاستقامة والانحراف ، وتقدر لهم المشيئة الذاتية بما يختارون ويكتسبون ، وترتب عليهم نتائج ذلك في الدنيا والآخرة مما هو مبثوث في مختلف السور ، ويستطيع كل ناظر في القرآن أن يلمحه بسهولة وكثيرون يقعون في حيرة لما يوهمه ذلك من تباين وتناقض ..

ولقد شغل هذا الأمر الافكار في صدر الإسلام أيضاً ، وظل وما يزال يشغلها ، وادى إلى نشوء المذاهب الإسلامية الكلامية . حيث ذهب فريق الى أنه لايجوز أن يقال : إن الانسان خالق أفعال نفسه ، لأن الله خالق كل شيء ، وإن مثل ذلك القول يستتبع القول : إن الانسان يفعل ما لم يكن الله اراده وشاءه وهذا محال ، وإن الناس والحالة هذه مجبورون على أفعالهم ، وهو ما عرف بالمذهب الجبري أو الجهمي أو الإرجاء ، أي: إيكال مصائر الناس لله دون أفعالهم ، لأنهم فعلوها مجبرين ، فإن شاء عذبهم على ما فيه انحراف ، وإن شاء عفا عنهم .. وحيث ذهب فريق إلى أن الانسان هو خالق أفعاله ، وأنه ليس مجبوراً عليها من الله تعالى ، وأنه يتحمل مسؤوليتها وهو ما عرف بالمذهب القدري ، والمعتزلة والخوارج والشيعية على هذا المذهب أيضاً . وتوسط فريق ، فقال : إنه وإن كان لا يصح أن يقال : إن الانسان خالق أفعال نفسه ، لأن الله خالق كل شيء ، فإن الله أودع فيه إرادة واختياراً وتمييزاً ، فصار يكتسب أفعاله بذلك ، وقد دعم كل فريق مذهبه بآيات من القرآن .

ولقد ترجح عندنا من تمحيص هذه المسألة أن للسياسة دخلاً غير يسير في نشوء هذه المذاهب في عهد الدولة الأموية ، فقد انقسم علماء المسلمين في هذا الظرف إزاء الأحداث الدامية بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدت إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه ، ثم إلى حرب الجمل وصفين ، وقيام الدولة الأموية الوراثة إلى جماعتين : جماعة تعتبر ما وقع من صنع الناس ، وتتهم من تهمه وتسوغ الخروج عليه ، ثم على الدولة الأموية وإسقاطها . وكان من هؤلاء الجماعات التي

عرفت بالخوارج وبالشيعة ثم بالمعتزلة فيما بعد ، وإلى جماعة تعتبر ما وقع من مشيئة الله في الحقيقة يجب الوقوف عنده ، وعدم الخوض فيه ، ثم تطورت الجدالات والمناقشات ، فتبلورت تلك المذاهب .

وإذا كان حقاً في القرآن آيات متعارضة في مداها وظاهرها في هذه المسألة وتثير الحيرة كما قلنا حيث يفيد بعضها أن الله هو خالق أفعال الناس ، ولا يقع منهم شيء إلا بمشيئته وإرادته ويفيد بعضها أن الإنسان هو كاسب أفعاله ، وأن ما يفعله إنما يفعله بتمييزه واختياره ، وتقع مسؤوليته عليه نتيجة لذلك ، فإن مقارنة الآيات ، وربط بعضها ببعض يؤدي إلى زوال وهم التعارض والتباين ، بحيث يصح أن يقال : إن الأساليب تنوعت حسب ما اقتضته حكمة التنزيل ، غير أن مدى الآيات في النتيجة غير متعارض ، لأنها جميعها كلام الله الذي لا يصح أن يكون فيه تعارض ولا اختلاف ، وقد نبه القرآن إلى ذلك في آية سورة النساء هذه : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً) ٨٣ (٠٠) وفي آية سورة فصلت هذه : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ٤٢ (٠٠)

وفي النبذة الأولى من هذه الفقرة شرح لناحية من هذه المسألة فيه وضع للأمر في نصابه الحق فيما نرجو .

ونزيد هذا الأمر هنا شرحاً فنقول : إن هناك أولاً حقيقة كبرى يجب أن يجعلها الناظر في القرآن نصب عينيه ، وهي ضابط حاسم في الأمر ، ونعني بها إرسال الله رسله لإنذار الناس وتبشيرهم ، وتبليغ وعده ووعيده لهم حسب مواقفهم من رسالات رسله استجابة ووجوداً ، وطاعة وعصياناً ، وتقوى وفجوراً . والقرآن يدور في نطاق ذلك ، فلا يمكن أن يتسق لذلك حكمة إلا مع كون الله تعالى قد قضى أن يكون في خلقه العقلاء المكلفين قابلية التمييز والاجتهاد والاختيار والكسب والاستجابة وعدم الاستجابة ، والاهتداء وعدم الاهتداء ، واقتراف الآثام وتجنبها ، والطاعة والعصيان لأوامره ونواهيه ، ورتب على كل منهم نتيجة اجتهاده واختياره وكسبه وموقفه . وفي القرآن ثانياً آيات عديدة يصح أن تكون ضوابط

محكمة لاتتحمل ريباً ولا تعدداً في التأويل لتأييد ذلك مثل الآيات التالية التي لها أمثال كثيرة :

١ - (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . .)
البقرة : ٢٨٦

٢ - (فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر اوانثى بعضكم من بعض . .) آل عمران : ١٩٥

٣ - (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . .) الأنعام : ١٦٤

٤ - (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . .) التوبة : ١٠٥

٥ - (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل . .)
يونس : ١٠٨

٦ - (من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذنين حتى نبعث رسولا . .)
الإسراء : ١٥

٧ - (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . .)
الكهف : ٢٩

٨ - (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور . .) الزمر : ٧

٩ - (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب . .) غافر : ٧١

١٠ - (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد . .) فصلت : ٤٦

١١ - (كل امرئ بما كسب رهين . .) الطور : ٢١

١٢ - (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً . إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً .) الإنسان : ٢ - ٥

١٣ - (ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفهتين . وهديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة . أولئك أصحاب الميمنة . والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة ..) البلد : ٨ - ٢

١٤ - (ونفس وما سواها . فآلهما فجورها وتقواها . قد أفلح من زكّاهما . وقد خاب من دساها ..) الشمس : ٧ - ١٠

١٥ - (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليرَوّأ أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ..) الزلزلة : ٦ - ٨

وفي القرآن مئات الآيات التي فيها دعوة إلى التفكير والتدبر والتذكر والتعقل والسمع ، وتنديد بالذين لا يفكرون ولا يتدبرون ولا يتذكرون ، ولا يعقلون ولا يسمعون ، وتنويه بمن يتفكر ويتدبر ويتذكر ويعقل ويسمع . وحكاية لما يفعلته الناس ولما يجب أن يفعلوه في كل شأن من شؤون الدنيا والحياة ، وترتيب للنتائج عليهم وفق ذلك مما فيه تأييد لذلك أيضاً .

وفيه إلى هذا آيات عديدة تذكر أن الله تعالى خلق الناس ليلوهم أيهم أحسن عملاً ، وأن الله يأمرهم أن يستبقوا إلى الخيرات كما ترى فيما يلي :

١ - (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ..) المائدة : ٤٨

٢ - (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليلوكم أيكم أحسن عملاً ..) هود : ٧

٣ - (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ٠٠)
الكهف : ٧

٤ - (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ٠٠) الملك : ٢

ولا مناص والحالة هذه من أن يقال : إن الآيات الموهمة خلاف ذلك هي أسلوبية وليست تقريرية ، ومن التشابهات التي تتحمل وجوهاً للتأويل ، وإن من الواجب تأويلها على ضوء تلك الحقيقة ، وهذه الضوابط والتقريرات المحكمة .

ومع ذلك فإن التمعن يجد في سياق أو صلب كل آية من الآيات الموهمة خلاف ذلك ما يزيل الوهم ، ويتسق مع تلك الحقيقة وهذه الضوابط .

وفي سورة البقرة مثلاً هذه الآيات :

(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .
ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ٠٠) ٦ و ٧

فقد توهم الآيات في الظاهر أن عدم إيمان الكفار هو نتيجة ختم الله على قلوبهم وسمعهم وجعله على بصرهم غشاوة . ولكن الذي يتمن فيها ، ويقرا ما قبلها وما بعدها يجد أن الله تعالى قد عزا لكل فئة أعمالها ، ورتب على ذلك النتائج التي تستحقها ، فيكون التأويل الأوجه للآيات أنها أسلوبية بسبيل تصوير شدة تصميم الكافرين على الكفر ، ويلحظ أن الآية (٧) قد ختمت بالتقرير بأن لهم عذاباً عظيماً . ولا يصح أن يكون الله قد رتب على هذه الفئة ذلك إلا لأنهم كفروا باختيارهم ، وأصروا على الكفر ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الآيات نزلت في بدء العهد المدني ، وأن كثيراً من الكفار الذين عنتهم قد آمنوا ، وتغافوا في دين الله وطاعة رسوله كما هو معروف يقيناً ، فتكون الآيات في الوقت نفسه تسجيلاً لموقف قد تبدل فيما بعد .

وفي سورة الأنعام هذه الآيات :

(ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم

وقرأ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٢٥ - ٢٨)

فالآية الأولى توهم أن الله منعهم من أن يفقهوا ويسمعوا ، ولكن السياق احتوى توضيحاً يزيل ذلك الوهم ، ويبرز أن موقفهم كان باختيارهم وتصميمهم ، وبالتالي احتوى ما فيه تسويقاً للقول بأن الآية أسلوبية بسبيل التعبير عن شدة تصاممهم وإصرارهم على التكذيب والجدال بالباطل .

وفي سورة الانعام هذه الآية :

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون (١١١)

وتوهم الآية أن إيمانهم منوط بمشيئة الله وحسب ، في حين أن في السياق السابق واللاحق حملة على الكفار لموقفهم الجحودي ، ونسبة ذلك إليهم وإنذار ووعد لهم . بحيث تكون هي الأخرى أسلوبية لبيان شدة تصميمهم على عدم الإيمان مهما أظهر الله لهم من آيات ومعجزات . وهذا السياق يبدأ من الآية (٩١) وينتهي بالآية (١١٧) . ومثل هذا يقال في آية سورة الكهف هذه :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً (٥٧)

وسياق هذه الآية السابق واللاحق مثل سياق آية الانعام فيه حملة على الكفار لموقفهم الجحودي ونسبة ذلك إليهم وإنذار ووعد لهم ، ويبدأ هو الآخر من الآية (٢٦) وينتهي بالآية (٥٩) بل في الآية نفسها عدا سياقها السابق واللاحق ما يزيل الوهم حيث تتضمن تقرير كونهم ذكروا بآيات ربهم ، فاختاروا الإعراض والانصراف عنها فكانوا ظالمين . . ومثل هذا يقال في آيات سورة يس هذه :

(لقد حقَّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فاغشيئناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنا تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين (٧٠٠ - ٧ - ١٢)

فآيات تفسر بعضها بما يزيل أي وهم تباين وتعارض ، وقد جاء في خاتمتها تقرير بأن الناس سوف يحاسبون على ما قدمت أيديهم ، أي : ما كسبهوا باختيارهم ، وهذا فضلاً عن أطراد ما قلناه في صدد آيات البقرة من أن هذه الآيات بل ومثلها آيات الكهف والأنعام تسجل موقفاً قد تبدل فيما بعد .

وليرجع القارئ إلى ما أوردناه في سياق قصة آدم وإبليس من توضيح في صدد ما في القرآن من تقرير لمشيئة الله ، ومدى ذلك ، فهو متصل من ناحية بهذا البحث ، ومن شأنه أن يزيد شرحنا وضوحاً وتأيداً .

وبعد إن هذه المسألة مسألة عقيدية بحتة ، ليس من شأنها أن تمنع الإنسان من أي نشاط عملي وعقلي في كل مجالات الحياة ، فمادام الإنسان حياً ، فهو متحرك وعامل مهما كانت عقيدته في الدافع لحركته ، والمسألة ليست إسلامية فقط ، فهي مسألة فكرية مشتركة بين مختلف أهل الملل والنحل أيضاً . وفي صدد صلتها بالاسلام ، فالمرجع هو القرآن أولاً ، وحكمة إرسال الله الرسل ثانياً ، والقرآن المحكم في جانب كون الله تعالى قد أوجد في الإنسان قابلية التمييز والاختيار بين ما يعرض له من أمور متعارضة حيث إنه ينسب إليه أعماله ، ويرتب عليها النتائج وفق ذلك ، وما قد يكون فيه من آيات موهمة لخلاف ذلك ، ففي صلبها أو سياقها ما يزيل الوهم فضلاً عما في القرآن من آيات محكمة ، وضوابط حاسمة مما أوردناه قبل قليل . والقرآن بين أيدي الناس ، وحكمة إرسال الرسل في هذا الجانب وقد قرر محكم القرآن أن الله لا يكلف

نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، والله تعالى يتنزه عن تكليف الناس بما ليس في وسعهم الاستجابة له ، ومحاسبة الناس على غير ما اكتسبوه باختيارهم ، وقد طلب منهم أن يؤمنوا بالله ورسوله ، ويعملوا الصالحات ، ويجتنبوا الموبقات ، ووعدهم وأوعدهم ، وبشرهم وأنذرهم وقال لهم :

(من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد .)
فصلت : ٤٦

وقد يكون قول بعض أهل المذاهب (إن الإنسان خالق أفعال نفسه) مما يثير ، ومما أثار الجدل في الصدر الاسلامي الاول ، لأن ذلك يستتبع أن يقال : إن الإنسان يفعل ما لا يريد الله . . والخلق هو مختص بالله .
(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ٠٠) الأنعام : ١٠٢

وقد أقام الله الحجة على المشركين في ذلك في آية سورة النحل هذه :

(أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ٠٠) ١٧

وليس من ضرورة إلى استعمال هذا التعبير ، وكفي أن يقال : إن الله قد أودع في الناس قابلية التمييز والاختيار ، وجعلهم مكلفين بناء على ذلك ، فهم يميزون ويختارون بهذه القابلية المودعة فيهم ، وبذلك يوضع الأمر في نصابه الحق .

ولقد تعرض صادق العظم لهذه المسألة بأساليب مختلفة ومواضع عديدة من كتابه (نقد الفكر الديني) ومن أقواله : (إن نظرية الكسب فاسدة ، وهي نوع من البهلوانيات الفكرية ، والألاعب الكلامية كالتي لجأ إليها البعض لطمس معالم الخيار الحاسم الذي يوجب على الفكر أن يكون فيه بين موقفين متعارضين هما التسيير والتخير ، والجبرية والقدرية ، أو بين كون العبد خالقاً لأفعاله ، وبين كون الله خالقاً لأفعال العباد ، وبعبارة أخرى : إن نظرية الكسب ليست إلا محاولة لتزييف التضارب القائم بين هاتين النظريتين للخروج بأي ثمن من مأزق صعب يحتم على الإنسان إذا واجهه بصدق وأمانة أن يتخذ موقفاً محدداً

واضحاً من طرفي هذا التناقض بين فكرتي التسيير والتخير) ونظن أن فيما قدمناه وضعاً للأمر في نصابه الحق ، ولا يبقى للعظم محل للتمحل والتنطع بالنسبة لنصوص القرآن وما عدا ذلك فالاسلام والقرآن لا يتحملان مسؤوليته .

٤ - في سورة القمر هذه الآية : (**إنا كل شيء خلقناه بقدر**) وقد فسرها بعض المفسرين بأنها تعني ما هو معروف من عقيدة (القضاء والقدر) ولقد أوردها صادق العظم في كتابه على هذا التفسير ليحمل على اثر هذه العقيدة في المسلمين بزعمه ، لأن الملحد ينعتبرونها مما يشل قوى الانسان ، ويحملة على الاستسلام والرضا بما يقع منه وعليه . وقبل كل شيء نقول : إن استنباط عقيدة (القضاء والقدر) من هذه الآية غير سليم ، فالعبارة القرآنية هنا بسبيل تقرير كون الله خلق كل شيء بحساب وتقدير . وهذا المعنى ملموح في آيات كثيرة منها ما يلي :

١ - (**فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . .**) الأنعام : ٩٦

٢ - (**الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار .**) الرعد : ٨

٣ - (**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم .**) الحجر : ٢١

٤ - (**وانزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض .**) المؤمنون : ١٨
ومع ذلك فإن في القرآن والأحاديث ما يستند إليه أصحاب المذاهب الكلامية الإسلامية ، ويجعلهم يقررون أن الاسلام يعترف بعقيدة (القضاء والقدر) .

ومدى (القضاء والقدر) هو ما يقع من الانسان أو يقع عليه مما كان مفياً عنه قبل وقوعه ، ومدى (عقيدة القضاء والقدر) هو أن ما يقع على الإنسان أو يقع منه هو من قضاء الله وتقديره الأزلي الذي لا راد له ولا حيلة فيه والذي لا بد من وقوعه .

ومع تقرير واجب المسلم بأن يؤمن بما جاء في كتاب الله ، وبما ثبت من أحاديث رسول الله من نصوص فيها تقارير عقائدية من هذا الباب وغيرها ، فإنه يتبادر أن هذا الأمر يتحمل توضيحاً وكلاماً ، فقد انتهينا في البحث السابق إلى القول : إن محكم القرآن وضوابطه في جانب كون الإنسان كاسباً لأفعاله ومواقفه مختاراً لها بقوة القابلية التي أودعها الله فيه ، وأنه ليس مجبوراً عليها ، ولا يصح والحالة هذه أن يقال : إنها مقدرة عليه من الأزل ولا حيلة له فيها ، وأنها لا بد من أن تقع منه أو عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تلك الضوابط والمحكمات ، وإذا كان في القرآن والأحاديث ما فيه خلاف لذلك بالنسبة لأفعال الإنسان ، فتكون من التشابهات التي تتحمل وجوهاً أخرى للتأويل ، ويجب تأويلها على ضوء المحكمات والضوابط القرآنية . وقد يكون الأصح والحق أن يقال والله أعلم : إن (الله يعلمها من الأزل) ولا محل للاستشكال بين كون الله يعلمها ، ولا يكون قدرها من الأزل ، فالفرق واضح ، فالله يعلم من الأزل أن فلاناً سوف يكون موقفه من أمر ما ، أو دعوة ما ، أو عمل ما على وجه ما بقوة قابلية التمييز والاختيار التي أودعها فيه .

وفي سورة الحديد آية يمكن الاستئناس بها على ذلك ، وإن تكن في صدد ما يقع على الأرض والناس من مصائب ليست من أفعالهم . وهي :

(ما اصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل ان نبرأها إن ذلك على الله يسير) (٢٢)

وكلمة « كتاب » جاءت في آيات كثيرة بمعنى علم الله تعالى كما ترى فيما يلي :

١ - (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (الانعام : ٥٩)

٢ - (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في

الأرض ولا في السماء ولا أصفر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين . .)
يونس : ٦١

٣ - (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها
ومستودعها كل في كتاب مبين (١) .) هود : ٦

وآية الحديد تذكر مسألة أخرى ، وهي أن ما يقع على الناس والأرض
من مصائب ليست من كسبهم ، وتقرر أن الله يعلمها قبل وقوعها ، ولقد
جاء بعد هذه الآية هاتان الآيتان :

(لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل
مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن
الله هو الغني الحميد (٢٣ و ٢٤

حيث تفيد أن الله سبحانه إنما اقتضت حكمته أن يخبر الناس بما
أخبرهم به في الآية السابقة حتى لا يحزنوا إذا فاتهم ما يسرهم ، أو ساءهم
ما وقع عليهم ، ولا يفرحوا ولا يبطلوا إذا وقع لهم ما يسرهم . وقد
استطردت الآية (٢٣) إلى إعلان كون الله لا يحب المختال الفخور ، أي :
الذي يفرح ويبطر أو يختال ويتفاخر بما وقع له من خير وحظ ، وجاء
في الآية (٢٤) توضيح آخر بما يفيد أن ذلك قد يجر إلى البخل بما نالهم
من خير وأمر الناس بالبخل أيضاً ، وانتهت الآية بإنذار من يفعل ذلك .
وفي الشطر الأول من الآية (٣٢) ما يفيد أنه قصد بها التثبيت والتسليّة
بل وهذا ما يسوغ القول أن الآية (٢٢) نفسها بسبيل ذلك أكثر من كونها
بسبيل التقرير .

وهناك آيات أخرى في هذه المسألة أيضاً ، منها آية سورة التغابن
هذه :

(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل
شيء عليم (١١)

(١) هناك آيات عديدة أخرى من هذا الباب مثل آيات الاسراء (٥٨) والرعد (٤١) وطه (٥٢) والجن (٧٠) والنمل (٧٥) وسبأ (٣) وفاطر (١١) والنبأ (٢٩) .

وفي الآية قصد التسلية واضح أيضاً أكثر من قصد التقرير ، مع تقرير كون ما يصيب الناس هو بإذن الله وعلمه ... ومنها آية سورة الشورى هذه :

(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير (٣٠))
والآية تعزو ما يصيب الناس من مصائب إلى أخطائهم ، وتربط المصائب بأسباب تقع من الناس ، وتقرر أن هذه الأخطاء تستدعي أكثر مما يقع عليهم ، ولكن الله يتسامح ويعفو عن كثير مما يقع منهم .
وفي الآية التي تلي هذه الآية تتممة وهي :

(وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (٣١))

حيث توضح أن المقصود بالخطاب هم الكافرون ، ولعل الآيتين نزلتا في موقف حجاج بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار في صدد ما يصيبهم من مصائب . ومنها آيات سورة النساء هذه :

(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً . أين ما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً . من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفیظاً (٧٧ - ٨٠))

والآيات بسبيل التنديد في موقف لفريق من المسلمين هم على الأرجح منافقون ، حيث كانوا يعززون ما يصيبهم من مصائب للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وما ينالهم من خير إلى الله وحده لئلا يبدو أن الدعوة النبوية قد عادت عليهم بالخير والبركة . وقد أظهروا الجزع ، لأنهم كتب عليهم القتال بعد فترة من الزمن اكتفى فيها منهم بالإيمان بالله ورسوله وإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة ، فنددت الآيات بهم ، وردت عليهم بالأسلوب والفحوى اللذين اقتضتهما حكمة التنزيل ، والآيات هي بسبيل موقف جدلي للمنافقين ، ومع ذلك فقد تضمنت فيما تضمنته تقرير كون ماقد يقع على الناس من مصائب وأخطار هو بسبب أخطائهم وتصرفاتهم ... ومن ذلك آيات سورة التوبة هذه :

(إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون . قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . ٥٠ و ٥١

والآيات بسبيل موقف جدلي للمنافقين أيضاً . وقد تضمنت الرد عليهم والتنديد بهم مع تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتطمينه ، وقد تكون جملة (إلا ما كتب الله لنا) أقوى ما تضمنته آيات القرآن في تقرير كون ما يصيب الناس بغير كسبهم هو مكتوب عليهم ، غير أن قصد التطمين والتشبيت والتسلية هو الأبرز الأقوى .

ومهما يكن من أمر فمسألة (القضاء والقدر) هي كالمسألة السابقة عقيدية نظرية ، وهي ليست إسلامية فقط ، بل قدر مشترك عند جميع الملل والنحل ، ومثقفين وغير مثقفين ، بل وملحدين أيضاً من حيث إن هناك كلاماً يساق في صدد مسألة كون الناس مسيرين أو مخيرين ، وتأثرهم فيما يفعلون ، ويقع عليهم بظروفهم وبيئاتهم ونشأتهم وتربيتهم ووراثاتهم وظروف غيرهم ونشاطاتهم المعاكسة الخ ، وأنهم ليسوا مخيرين في الحقيقة في كثير مما يفعلون أو يقع عليهم .. ولكن ليس من شأن ذلك مع ذلك أن يمنع أحداً من العمل والنشاط في مختلف المجالات مهما كانت عقيدته فيها ، لأن نتائج ذلك العمل والنشاط مغيبة لاتعرف إلا بعد ظهورها ، ثم يستمر الإنسان في العمل والنشاط ، لأن ذلك من طبيعة الحياة .

والقدر إلى هذا وفي نطاق مداه النظري هو الذي وقع وتم يقطع النظر عما كان قبله وما يكون بعده ، وهو عرضة للتبدل دائماً ، فقد يصيب الإنسان مالا ، أو يقع في إفلاس ، وقد تقع منه جريمة ، أو يكون صالحاً

مستقيماً في وقت ما . وكل هذا عرضة للتبدل نتيجة لاستمرار الإنسان على النشاط ما دام حياً ، وهكذا تتسلسل المسألة فلا يبقى للقدر ذلك المعنى المحتم الجامد الراسخ في الأذهان من الوجهة النظرية أيضاً .

والقول والحالة هذه : إن عقيدة (القضاء والقدر) تشل قوى الإنسان ، وتجعله يستسلم للواقع مجاف للحقيقة والواقع ، فليس من إنسان وقع عليه شيء أو وقع منه فعل إلا استمر بعده في العمل والنشاط دون توقف .

وبالنسبة للمسلم فإن فيما تقدم ما يضع الأمر في نصابه . ومع ذلك حتى لو كانت هذه العقيدة مستحكمة عند المسلم بالنسبة لما يقع عليه من مصائب ، أو يقع منه من أفعال بقطع النظر عما كان قبل ذلك ويكون بعده ، فإن المسلم الذي يعتقد ذلك ، يقدم على جسيم الأمور غير هيب ولا وجل ، لأنه معتقد أنه لن يصيبه إلا ما كتب له ، ولن يفني عنه حذر من قدر كما يقول المثل ، وهذا هو التحليل المبدئي لأثر هذه العقيدة في المسلمين ، والذي كان يحركهم في الصدر الإسلامي ، ويجعلهم يقدمون على المخاطر والمصاعب ، وينجزون ما يكاد يكون من المعجزات في مختلف شؤون الحياة ومجالاتها .

ولقد اقتضت حكمة الله أن يزودهم بتطمين وتثبيت قرآنيين ، فجاء بعد آيات التوبة المذكورة هذه الآية :

(قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ٥٢٠٠) وجاء في سورة البقرة هذه الآيات :

(يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) ١٥٣-١٥٧

وفي هذا ردّ مبدئي وعملي على من يتمحل من الملحدّين في صدد
اثر هذه العقيدة في المسلمين ، ويريد هدم الإسلام من أجلها ، ساء فألهم ،
وخاب أملهم ، وردّ الله كيدهم إلى نحورهم .

وقد يكون واقع المسلمين يوحى ذلك ، ولكنه واقع له أسباب أخرى
غير الإسلام وعقائده السليمة الصافية مما لا يمكن أن يكابر فيه إلا أحمق .
هـ - ولصادق العظم مواقف تعسفية في صدد آيات قرآنية عديدة
أساء تأويلها وفهمها ومدّها ، وأساء الأدب في مناسبتها ، وقصد بذلك
المماحكة والتمحل ، وإظهار نقائص القرآن وانتقاد الفكر الديني الإسلامي
عبر ذلك كما كان شأنه وقصده فيما سماه مأساة إبليس . وقد رأينا أن
نلم بها لأنها قد تمثل رأي غيره من أمثاله الملحدّين أيضاً ، وقد يكون في
بعضها إشكال لذوي النيات الحسنة من مسلمين وغير مسلمين ، فيكون
الإلام بها ، ووضع الأمر في نصابه الحق في صدها إن شاء الله مفيداً لهم
مع ما يكون في ذلك من رد على الملحدّين ، وإظهار ما في تمحلّاتهم ومماحكاتهم
من ضعف وغثاثة وقصد سيء .

(أ) من ذلك آية سورة الإسراء هذه :

**(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها
القول فدمرناها تدميراً) ١٦٠**

وقد أورد العظم هذه الآية في البحث الذي سماه مأساة إبليس في
كتابه (نقد الفكر الديني) وقال بالحرف في تفسيرها : (إن الله قد شاء
تدمير القرية . . بمحض مشيئته ، ولكن لئلا يكون للعباد عليه حجة
فيما شاء لجأ إلى المكر ، فأمر مترفيها أن يفسقوا فيها حتى يبدو للجميع
وكان القرية استحقت ذلك التدمير ، بينما الحقيقة غير ذلك . وهذا
من مكر الله) !!

كبرت كلمة تخرج من فيه ، لايقولها إلا شخص فقد المنطق والدوق.
والعقل والأدب معا .

ولو أوتي شيئاً من ذلك حقاً ، لكان قبل كل شيء لاحظ أن الله يقتضي أن يكون في غنى عن إقامة حجة كاذبة لعباده فيها مكر وخداع مما هو محض هراء ، ثم كان انتبه إلى الآيات التي قبل هذه الآية وبعدها فرأى فيها ما يمنعه من هذا الهراء أيضاً ، فقد جاء قبلها هذه الآيات :

(وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ولا تزرّ وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) ١٣ - ١٥

وجاء بعدها هذه الآيات :

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) ١٧ - ١٩

فهل يقول ذلك الهراء عاقل ولو كان ملحداً في تأويل آية جاء قبلها وبعدها هذه الآيات التي تقول بلسان الله : إن الله لا يعذب أحداً حتى يبعث إليهم رسولاً ينذرهم ويبشرهم ، ويبين لهم الطريق ، فإذا ما جحدوا وانحرفوا حق عليهم العذاب ، وأنه لا يحمل ذنب أحد على غيره ، وأن الله لا يهلك الناس إلا بذنوبهم ، وأن من آمن واتقى شكر الله سعيه ... وشيء من التروي وحسن الفهم والذوق يظهر أن عبارة الآية على ضوء ما قبلها وبعدها أسلوبية أريد بها تقرير ناموس اجتماعي عام ، وهو أن الأمم والمدن إذا ما ساد عليهم الفساد وحكموهم ، ورضوا هم بذلك كان في ذلك دمارهم . وجملة (فحق عليها القول) في الآية مؤيدة لهذا التأويل ، فلا يصح أن يفرض أنه حق عليها القول بالتدمير إلا مع القول إنها وقفت موقفاً منحرفاً مع أمرائها الفساد متجاوبة معهم راضية بفسقهم ، ولقد فسرها المفسرون بتفسيرات أخرى ولكنها في معنى كون التدمير جزاء عادلاً من الله بسبب سيرة الأمراء الفاسقة ، ومن هذه التفاسير : (إن

الله يأمر الأمراء بأوامره ونواهيه ، فلا يعملون بها وينحرفون ، ويرضى أهل بلدهم بذلك فيستحقون التدمير) وفي هذا أيضاً صواب وسداد . والآية من ناحية أخرى تتضمن تقرير مسؤولية الزعماء ، لأنهم عادة يطاعون ، فإذا كانوا فاسقاً أثروا في قومهم ، وأوردوهم موارد الهلاك . . ولقد جاء في سورة هود هذه الآية :

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . ١١٧)

حيث تقرر تنزه الله تعالى عن إهلاك قرية إذا كان أهلها صالحين ومصلحين ظلماً واعتباطاً ، وجاء في سورة القصص هذه الآية :

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون . ٥٩)

وجاء في سورة الأنعام هذه الآية :

(ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ١٣١)

أي إن الله لا يهلك قرية غافلة لا يكون قد جاءها منه رسول يبين لها طريق الحق ، وبعبارة أخرى لا يهلكها عن غفلة وجهل وحسب ، بل إذا انحرفت عن طريق الحق بعد أن يكون بينها لها رسوله . وهذه الآية جاءت حجة على المنحرفين حيث جاء قبلها هذه الآيات :

(يا معشر الجنّ والإنس ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . ١٣٠) الأنعام : ١٣٠

وفي القرآن آيات عديدة أخرى تقرر كون الله عز وجل لا يظلم أحداً ، وأن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بما يفعلونه من سيئات ، ويقفونه من مواقف الكفر والانحراف كما جاء في هذه الآيات التي لها أمثال أخرى :
١ - (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . ٥٠) النساء : ٥٠

٢ - (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .) الأنفال : ٥٠ و ٥١

٣ - (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيذ .) هود : ١٠٠ و ١٠١

٤ - (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون .) النحل : ٣٣ و ٣٤

٥ - (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا بغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً .) الكهف : ٤٩

٦ - (ولا تكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون .) المؤمنون : ٦٣

وفي سورة النساء آية ذات مغزى عظيم في هذا الباب وهي :

(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً .)

١٤٧

فلا يصح لعاقل أن يفرض بعد كل هذا أن الآية في صدد تقرير أن الله شاء تدمير القرية بدون سبب من انحراف أهلها فضلاً عن أمرائها ، ويفسرها بالتفسير الهراء الذي فسر بها العظم . على أن المرء لا يحتاج إلى نباهة كبيرة ، ليلمح قصده الصريح في هذا التفسير وهو التجريح والتهوين مهما كان فيه سوء أدب ، وسوء فهم ، وسوء تأويل ، وسوء ذوق . وهذا لا يتسق مع أبسط مبادئ الأخلاق والعلم والأمانة إلا إذا كان الإلحاد يجعل صاحبه كذلك ، ويأبوساً له وتعبساً . . .

(ب) ومن ذلك آية سورة آل عمران هذه :

(ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم
ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) ١٧٨

وقد أورد العظم الآيه في معرض إبرازها كظاهرة من مظاهر مازعمه
من مكر الله بعباده . تنزه وتعالى عن ذلك ، كما كان أمره في صدد الآيه
السابقة ، وقال : إن (إملة الله لهم ليزدادوا إثماً هو مكر من الله بهم)
كبرت كلمة تخرج من فيه ، لايقولها إلا سيء الذوق والفهم والأدب .
والإملة هو الإمهال مع إدامة الحالة القائمة الحسنة ، ولقد كان زعماء
الكفار يحسبون أن ما يتمتعون به من خير ومال وقوة هو حظوة من الله
لهم ، ودليل على رضائه عنهم على ما تفيده آيات سورة المؤمنون هذه :

(أيعسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نساوع لهم في العييرات
بل لايشعرون) ٥٥ و ٥٦

وهذا الذي كان قائماً في أذهانهم تكررت حكايته في آيات قرآنية
أخرى منها آية سورة سبأ هذه :

(وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) ٣٥

وآيات سورة فصلت هذه :

(لايسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤس قنوط .
ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن
الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين
كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان
أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) ٤٩ - ٥١

وآية سورة آل عمران التي نحن في صدها قد تضمنت بل هدت
تطمين المؤمنين ، وإنذار الكافرين ، وفيما قبلها من السياق توضيح لذلك
حيث جاء قبلها هذه الآيات :

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم
مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر أنهم لن يضرؤا الله شيئاً

يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم (١٧٥-١٧٧)

وقد تضمنت الآية تنبيهاً بأنه لا ينبغي أن يظن المؤمنون ولا الكفار أن إيماء الله للكفار ، أو إهمالهم ، أو ما يكونون فيه من سعة رزق ونعمة هو مظهر من مظاهر رضائه عنهم وإنما هو مقتضى حكمته التي اقتضت تأخير عذابهم ، أو إفساح المهلة والفرصة لهم ، مما جاء صراحة في آيات أخرى منها آية سورة النحل هذه :

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (٦١ وآيات سورة الكهف هذه :

(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً . وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً) (٥٨ و ٥٩

وآية سورة فاطر هذه :

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً) (٥٠) أما عبارة (ليزدادوا إنمًا) فهي بسبيل توكيد الإنذار حيث قصد بها أن ذلك الإيماء الذي يحسبونه خيراً سوف يكون عليهم شراً ووبالاً ، لأنهم يزدادون خلاله إنمًا وانحرافاً ، فيكون ذلك سبباً في زيادة ما أعد لهم من عذاب وهوان . وهكذا يوضع هذا الأمر في نصابه الحق ، ويظهر تمحل صادق العظم الذي هو من نوع ما نبهنا عليه ، أي قصد التجريح والتهوين وإظهار النقائص والثغرات في القرآن . وفي مسائل ثانوية وجانبية واسلووية كما يفعل سخفاء المبشرين . مهما كان في موقفه سوء أدب وذوق . مع أنه كما قلنا مفروض فيه الأناة والتروي والأمانة والاستيعاب ، وكبح جماح الهوى .. وأبسط تفكير وترو في أي إنسان ولو كان ملحداً لا يمكن إلا أن يجعله يستبعد كون الله يصح أن يريد للناس أن يزدادوا إنمًا اعتباراً جزافاً . والقرآن جميعه يدور على صلاح الإنسان وسعادته ونجاحه وخيره في الدنيا والآخرة . وقد اقتضت حكمة الله إرسال الرسل للناس

ليبينوا لهم سبيل ذلك ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ويهدوهم إلى صراط الله المستقيم . وقد أوردنا قبل قليل كثيراً من الآيات التي تقرر ان كل نفس بما كسبت رهينة لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وان الله لا يظلم أحداً ، وأنه لا يرضى لعباده الكفر .

ت (وفي القرآن آيات أخرى ورد فيها عبارة (إملأ الله الكفار) ، ففي سورة القلم هاتان الآيتان :

(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين .)

٤٤ و ٤٥

وقد تكررت الآيتان حرفياً في سورة الأعراف وهما الآيتان (١٨٢ و ١٨٣) والتأويل الحق للآيات والله أعلم هو أنها الأخرى بسبيل إنذار الكفار ، وإنها صيغة أخرى تتضمن معنى آية سورة آل عمران (١٧٨) التي كانت موضوع الفقرة السابقة .

ولقد نسب صادق العظم إلى الله تعالى صفة الكيد في بعض مواضع من كتابه مستنداً إلى العبارة القرآنية في هذه الآيات وأمثالها . والكيد تدبير يقصده اذى الغير بأسلوب ملتو ، وتكرر ما قلناه قبل من أنه لو كان في العظم أدب وذوق وسلامة فهم ، لما نسب إلى الله الكيد لعباده اعتباطاً ، وهو يرى القرآن يدور على ما فيه سعادة الإنسان وخيره ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور . وسياق آيات القلم والأعراف يؤيد ذلك التأويل ، ويظهر غثاثة موقف العظم ، وهذا سياق آيات سورة القلم :

(سلهم أيهم بذلك زعيم . أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين . يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالون . فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين .) ٤٠ - ٤٥

وقد جاء بعد ذلك آيات فيها تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم تجاه موقفهم :

(فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . ١٠)

٤٨

وصاحب الحوت هو يونس عليه السلام ، وقد يؤس من إيمان قومه فتركهم غاضباً على ما جاء ذلك في آيات سورة الصافات (١٣٩ - ١٤٨) وسورة الانبياء (٨٦) وهذا سياق آيات سورة الأعراف .

(والله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون . ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملئ لهم إن كيدي متين . أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون . ١٠) ١٨٠ - ١٨٥

وقد وردت عبارات الكيد في آيات أخرى على سبيل المقابلة والمشاكلة منها هذه الآية في سورة الطور :

(أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون . ٢٠)

وهذه الآيات في سورة الطارق :

(إنهم يكيدون كيداً . وأكيد كيداً . فمهل الكافرين أمهلهم رويداً .)

١٥ - ١٧

وفي سورة الأنفال هذه الآية :

(ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين . ١٨)

حيث يبرز فيها قصد كون كيد الله هو بمعنى إحباط كيد الكافرين . وفي سورة غافر هذه الآية :

(وما كيد الكافرين إلا في ضلال . ٢٥)

وفي كل ما تقدم يبدو ما في تمحل العظم ومما حكته من غثاء وسوء أدب وذوق .

ث) ولم يكتف صادق العظم بما تقدم بل وقف عند آيات أخرى

لتوكيد تمحله ، وسوء فهمه وأدبه في نسبة المكر لله بعباده سبحانه وتعالى حيث أورد هذه الآيات :

١ - (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ٠٠) آل عمران : ٥٤

٢ - (وإذ يمكر بك الذي كفروا ليشبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ٠) الأنفال : ٣٠

٣ - (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرًا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ٠) يونس : ٢١

وفسر العظم (المكر) بأنه تدبير يكون فيه كيد وأذى وإظهار شيء وإضرار ضده بسبيل ذلك . والحق في هذه الآيات أنها أسلوبية لإبراز مكر الكفار والمجرمين ، وكون الله قادراً على إحباط مكرهم ، وأن العبارة فيها جاءت من قبيل المشاكلة في التخاطب ، وهي سائفة في الأساليب العربية وغير العربية ، ولا يمكن أن يستنتج منها ما استنتجه العظم بالنسبة إلى الله تعالى . ولقد يلمح المرء مقاصد مربية مؤذية ضده من شخص لآخر ، فيؤذنه بذلك ، وينذره بأنه قادر على مقابلة مكره بمكر مثله وإحباطه فلا يعني هذا أنه أراد أن يصف نفسه بالمكر ، وكل ما يمكن أن يعنيه أنه أدرك مقصد الآخر وفهمه ، وأنه قادر على إحباطه ، ولا يصح لعاقلي ذي روية وائزان وذوق ، ولو كان ملحدًا أن يستنتج منها غير ذلك إلا إذا أراد المماحكة والتمحل ، وتحميل الكلام غير ما يحمل ، وهو ما يتعمده صادق العظم على رغم دكتوراه الفلسفة التي يتبجح بها والتي توجب عليه أن يكون أكثر روية وأناة وذوقاً وأدباً وأمانة .

وأبسط ترو لا يمكن إلا أن يجعل أي عاقل حسن النية يرى فيما يقوله العظم مناقضة صارخة لمقاصد القرآن الرامية إلى خير الإنسان والانسانية ، وصلاحها وسعادتها ، ويستهجى نسبة المكر لله بعباده ، ويرى فيها تحميلاً للكلام غير ما يحمل عن قصد وسوء نية .

وما ذكرناه من مدى الآيات ظاهر من فحواها لذاتها ، ثم من سياق كل منها السابق واللاحق الذي يقرر أن الذين هم موضوع الإنذار الرباني قد استحقوا ذلك لمواقفهم الجحودية وانحرافاتهم الخلقية والدينية ،

ومقاصدهم الإجرامية . وليقرأ القارىء آيات سورة عمران (٤٥ - ٥٨)
وآيات سورة الأنفال (٢٩ - ٣٨) ، وآيات سورة يونس (٢٠ - ٢٧)
وفي سورة النمل آيات فيها شرح للمكر الذي مكره قوم صالح بنبيهم ،
وإيدان بأن الله قابلهم على مكرهم بمكر مماثل ، فأحبط مكرهم ودمرهم ،
وبعبارة أخرى فيها توضيح قرآني لمدى الكلمة ، وتوكيد لكونها بالنسبة
إلى الله تعالى أسلوبية خطابية بقصد إبراز كون الله محيطاً بمكر الماكرين
وهي هذه :

(ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان
يختصمون . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا
تستغفرون الله لعلمكم ترحمون . قالوا اطيننا بك وبمن معك قال طائركم
عند الله بل أنتم قوم تفتنون . وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في
الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه
ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم
لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين .
فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين
آمنوا وكانوا يتقون .) النمل : ٤٥ - ٥٣

وفي الآيات دلالات صريحة وحاسمة على أن المكر هو من جانب الظالمين
الكافرين المغامرين ، وأن التدمير إنما كان عليهم عقاباً عادلاً ، وقد نجى
الله المتقين المؤمنين ، وأي كلام بعد هذا هو تمحل ، ومن نفس وقلب
مريضين ، وهذه الدلائل قائمة في صلب وسياق النصوص السابقة أيضاً .
وفي سورة فاطر آية عبر فيها عن مقابلة مكر الماكرين من الله بعبارة
أخرى وهي :

(من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل
الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك
هو يبور .) ١٠

مما فيه توكيد لما قررناه من مقاصد الآيات .

(ج) ويسوق العظم آية سورة البقرة هذه :

(الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ١٥٠)

لأبراز ما أراده من ثغرات ونقائض قرآنية في زعم قصد الله سبحانه وتعالى الكيد والمكر بعباده .

والعبارة أسلوبية مثل العبارات السابقة ، وهي مثلها بسبيل المقابلة على موقف المنافقين الذي حكته الآية التي قبلها وهي : **(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون)**

فجاءت الآية التي أوردها العظم دون ما قبلها للقصد السيء الفث الذي قصده ، لتعقب على قولهم بالأسلوب الخطابي المألوف ، وإخراجها من هذا النطاق تمحل متهافت .

(ح) ويسوق العظم جملة **(يخادعون الله وهو خادعهم)** في سياق يحكي موقفاً للمنافقين ليزعم أن الخداع من صفات الله في القرآن ، كبرت كلمة تخرج من فيه ، والجملة مثل سابقتها أسلوب خطابي مألوف للتعقيب على موقف المنافقين على سبيل المقابلة والمشاكلة .

ولقد أورد العظم مماحكاته وتمحلاته في صدد النصوص التي أوردها في الفقرات السابقة في سياق بحثه الذي سماه (مأساة إبليس) ، وعقب على ذلك بقوله : (إذا كان الله صانع الأشياء كلها ، ومقدر الخير والشر على عباده ، فلماذا أراد للناس أن يعتقدوا أن إبليس هو سبب الشر والمعصية ولماذا شاء تحميله أوزار أولئك الذين خلقهم للشر ، وأجرى الشر على أيديهم ، وهل باستطاعتنا أن نعلل هذه المفارقة بردها إلى إحدى الصفات الإلهية المعروفة . وأجاب على ذلك بقوله : أعتقد أن الصفة الإلهية التي نبحت عنها للإجابة على هذه الاسئلة هي صفة المكر) .

وما تقدم من شروح لقصة آدم وإبليس وأهدافها ، ومدى دور إبليس ، ومدى كسب الإنسان لأفعاله يضع الأمر في نصابه الحق فيما

نعتقد ، ويظهر تهافت هذا الكلام جملة ، وما تقدم من شروح في الفقرات السابقة يظهر تهافت تمحللاته ومماحكاته تفصيلا .

وتصل الفثاة وسوء الأدب الى أدنى الدرجات في صادق العظم إذ يقول أيضاً في سياق كلامه : إن صفات الله البارزة في القرآن هي (المكر والكيد والتخويف) لأنه يعنى عن أسماء الله وصفاته المبثوثة في القرآن التي تتضمن مقاصده السامية في خلقه البارة الرحيمة الرؤوفة ، وما يفدقه عليهم من رعاية وعناية ، والتي ينتفي بها أي معنى من معاني المكر والكيد والخداع من الله بعباده والتخويف الجزافي لهم مثل (الرحمن الرحيم القدوس السلام الغفار الوهاب الرازق الرزاق الفتاح الحكيم العدل اللطيف الخليم الغفور المجيب الواسع الحكيم الودود الحق الولي الحميد الناصر النصير المولى البر التواب العفو الرؤوف الرشيد الصبور) ولأنه يعنى عن آيات كثيرة يقرر الله فيها أنه بعباده رؤوف رحيم ، وأنه رحيم ودود ، وأنه غفور حلیم شكور . كما ترى في الآيات التالية التي لها أمثال كثيرة :

١ - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد .
آل عمران : ٣٠

٢ - (كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم (٠) الأنعام : ٥٤

٣ - (فإن كنابك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين (٠) الأنعام : ١٤٧

٤ - (ورحمتي وسعت كل شيء (٠) الأعراف : ١٥٥

٥ - (ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم (٠) التوبة : ١١٧

٦ - (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود (٠٠) هود : ٩٠

٧ - (وإن ربك لئو مففرة للناس على ظلمهم (٠) الرعد : ٦

٨ - (وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم (٠) النحل : ٧

٩ - (وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب . .) الكهف : ٥٨

١٠ - (إن الله بالناس لرؤوف رحيم . .) الحج : ٦٥

١١ - (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم . .) النور : ٢٠

١٢ - (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور . .) فاطر : ٣٠

١٣ - (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم . .) الزمر : ٥٣

١٤ - (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللوم إن ربك واسع المغفرة . .) النجم : ٣٢

١٥ - (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم . .) الحديد : ٩

١٦ - (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم . .) التباين : ١٧

ولقد وصف الله نفسه في القرآن بالعزیز ذي الانتقام ، إلا أن الآيات التي جاء فيها هذا الوصف صريحة الدلالة على أن الانتقام الرباني هو ممارسة معاقبة المجرمين الآثمين على جرائمهم وآثامهم ، وليس جزافاً واعتباطاً كما ترى فيما يلي :

١ - (إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام . .) آل عمران : ٤

٢ - (عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام . .) المائدة : ٩٥

٣ - (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . .) الأعراف : ١٣٦

٤ - (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . .) إبراهيم : ٤٦ و ٤٧

٥ - ومن أظلم ، ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون (السجدة : ٢٣)

٦ - (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون . أفانت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ، فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون) (الزخرف : ٣٩ - ٤١)

وقد تعامى صادق العظم كذلك عما في القرآن من عشرات الآيات التي فيها تبشير وتطمين وترغيب بالإضافة إلى ما فيه من تلك الصفات والأسماء الإلهية البارة الرحيمة كما ترى فيما يلي مما له أمثال كثيرة :

١ - (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) (البقرة : ٢٥)

٢ - (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين . الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) (النحل : ٣٠ - ٣٢)

٣ - (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر : ٥٣)

٤ - (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم . ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) (فصلت : ٣٠ - ٣٣)

٥ - (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (الشورى : ٢٢ و ٢٣)

ولقد كان من عظيم سعة رحمة الله وحكمته وعدله أن وعد عامل
الحسنة بأضعاف أجرها في حين قرر أن عامل السيئة لا يجزى إلا بمقدارها
كما ترى في هذه الآيات :

١ - (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من
لده أجرًا عظيمًا . .) النساء : ٤٠

٢ - (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى
إلا مثلاً وهم لا يظلمون .) الأنعام : ١٦٠

٣ - (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى
الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون .) القصص : ٨٤

والناظر في الآيات القرآنية يجد أن ما فيها من تنديد وإنذار ، ووعد
وشدة وقسوة إنما هو ضد الكافرين الظالمين المنحرفين الصادين عن سبيل
الله المرتكسين في الفواحش والآثام ، أو بسبيل التحذير من هذه الأفعال ،
وإصلاح الإنسان وتنبيهه . والآيات في ذلك كثيرة جداً ومبثوثة في مختلف
السور ، وهذه أمثلة منها :

١ - (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا
قليلاً أولئك ما ياكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم
ولهم عذاب أليم .) البقرة : ١٧٤

٢ - (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على
ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك
الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة
بالآثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد .) البقرة ٢٠٣ - ٢٠٦

٣ - (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم
طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً .)
النساء : ١٦٨ و ١٦٩

٤ - (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم .)
المائدة : ٣٣

٥ - (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار .)
الرعد : ٢٥

٦ - واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ . (إبراهيم : ١٥ - ١٧)

٧ - (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً .) الفرقان : ٦٨ و ٦٩

وكل ما تقدم يظهر تمحل صادق العظم ، وسوء استيعابه للقرآن ، وسوء فهمه وتأويله ، وسوء أدبه معاً . ولقد أعماه كل هذا بالإضافة الى عماء الخاص إزاء مدى النصوص السابقة وسياقها عن الحقيقة القرآنية الكبرى التي تتمثل في أن القرآن ورسالة الرسول الذي أنزل عليه القرآن يدوران على صلاح الانسان وسعادته وخيره ونجاته ، وحثه على التمسك بأسباب ذلك والتحذير والانذار لمن يقصر فيه مما لا يصح معه أن يرد لعقل عاقل ذي ذوق وأدب وفهم ولو كان ملحداً أن يستنتج من بعض العبارات القرآنية أن الله تعالى يريد أو أراد لعباده الضلال والضرر والشر والهلاك والانحراف ، وأنه يمكر بهم ويكيد لهم . تنزه وتعالى عن ذلك .

وفي القرآن ظاهرة مهمة في صدد ذلك ، عمي عنها العظم وهي ظاهرة فتح باب التوبة لكل كافر ومجرم ومنافق ، والرغبة في إتاحة الفرصة له لفتح صفحة جديدة ، وإصلاح نفسه وسلوكه إزاء الله والناس ، بحيث يكون ذلك الاستنتاج هراء ، وقلة ذوق وأدب أكثر منه أي شيء آخر ، وهذه طائفة من الآيات تمثل تلك الظاهرة البارة الرحيمة :

١ - (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً .
إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع
المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً . ما يفعل الله بعذابكم إن
شكرتم وآمنتُمْ وكان الله شاكراً عليماً .) (١) النساء : ١٤٥ - ١٤٧

٢ - (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض
فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا
من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين
تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم .) المائدة : ٣٣ و ٣٤

٣ - (فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم
وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين
استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم
لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم
عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين .
كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولازمة يرضونكم بأفواههم وتأبى
قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله
إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولازمة وأولئك هم
المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل
الآيات لقوم يعلمون .) التوبة : ٥ - ١١

٤ - (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد
إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما تقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من
فضله . فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في
الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير .) التوبة : ٧٤

٥ - (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم
الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب
يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وعمل عملاً صالحاً فأولئك

(١) نلفت النظر الى روعة الآية الاخيرة ومدادها البليغ .

يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيمًا . (١) الفرقان :
٦٨ - ٧٠

وفي القرآن آيات قد تدخل في باب ما تقدم ، وقد رأينا أن نورد نماذج منها ، ونعلق عليها بما نرجو أن يكون الحق والسداد ، ويزيل ما قد يحيك في صدر أحد من وهم وتوهم في صدها :
(٢) من ذلك جملة :

(وكذلك زينا لكل أمة عملهم . . .) الأنعام : ١٠٨

وعلى ضوء المحكمات القرآنية التي شرحناها في صدد كسب الناس لأعمالهم وكونهم غير مقسورين عليها لامناس من تأويل الجملة بأنها تضمنت تقرير ناموس اجتماعي ، وهو استحسان الناس لما يفعلون ويكونون عليه من مواقف ، وتكون الجملة أسلوبية ، وليست تقريرية ، وقد يؤيد هذا تنمة الآية وهي :

(ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون .)

حيث نسب فيها الأعمال إلى أصحابها ، فصاروا مسؤولين عنها أمام الله ليحاسبهم عليها حينما يرجعون إليه يوم القيامة . كما يؤيده أول الآية وهي :

تأ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم . (.)
الأنعام : ١٠٨

حيث تقرر الجملة نسبة الدعاء من دون الله إلى من يفعل ذلك ، ويؤيده كذلك السياق السابق للآية وهو :

(قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ . وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل .)
الأنعام : ١٠٣ - ١٠٧

حيث تقرر أن الناس أمام ما جاءهم من بصائر في خيار من الإبصار

(١) هناك آيات كثيرة أخرى في التوبة فاكثفينا بما تقدم .

والعمى ، وإن تبعة اختيارهم عائدة إليهم ، وأن الله لو شاء لما أشركوا ، ولكن حكمته اقتضت تركهم لاختيارهم لتكون لهم ، وعليهم التبعة عدلاً وحقاً .

(ب) ومن هذا الباب آية سورة النمل هذه :

(**إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون .**)
ويقال في صدها ما قلناه في صدد آية الأنعام السابقة ، والآية التي بعدها تؤيد ذلك ، وهي :
(**أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون .**)
النمل : هـ

حيث تتضمن تقرير مسؤوليتهم عن عملهم وموقفهم ، وترتيب ما يقتضيه هذا الموقف والعمل من عقاب ، ولا يصح أن يكون هذا إلا بتأويل مماثل لتأويلنا لجملة سورة الأنعام ، والآيات التي قبلها تؤيد ذلك أيضاً وهي :

(**تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون .**) **النمل : ١-٣**
حيث تضمنت نسبة الإيمان والصلاة والزكاة والإيقان بالآخرة للمؤمنين الذين يكون كتاب الله لهم هدى وبشرى خلافاً للذين لا يؤمنون بالآخرة . .

(ت) ومن ذلك آية سورة الأنعام هذه :

(**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون .**) **١١٢**

وعلى ضوء المحكمات التي شرحناها في صدد كسب الناس لأعمالهم ومواقفهم تكون الآية أسلوبية ، وبسبيل تقرير ناموس اجتماعي أيضاً ، وهو أنه حينما يأتي نبي أو رسول قومياً ينبري له الطغاة والعتاة فيناوئونه ويكونون له أعداء . لأنه لا يصح أن يقال : إن الله قد حرض شياطين الإنس والجن على عداة رسوله ، والشرط الثاني من الآية يؤيد هذا التأويل بقوة ، حيث تضمن وصفهم بالافتراء ، أي : نسبة الافتراء إليهم ، وتسليية للنبي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى ، فعليه أن لا يعبأ بموقفهم ،

ولو كان الله يريد قسرهم لما وقفوا هذا الموقف ، ولكن حكمته اقتضت تركهم لاختيارهم حتى يستحقوا ما يترتب عليه . والآية التي جاءت بعد هذه الآية تؤيد هذا التأويل أيضاً وهي :

(ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون .) الأنعام : ١١٣

حيث احتوت تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم أيضاً ، فهذا الموقف لا يقفه ولا يصفي إليه ويرضى به ويندمج فيه إلا الذين لا يؤمنون بالآخرة ، فليقلعوا ما اختاروا ، وليس من سبب لاغتمام النبي صلى الله عليه وسلم بذلك . وقد نسب كل ذلك إلى أصحابه ، ويستمر السياق في تسليية النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأيد موقفه ، حيث جاء بعد ذلك :

أفغير الله أتبغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .) الأنعام : ١١٤ - ١١٧

(ث) ومن باب ذلك آية سورة الفرقان هذه :

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من الجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً .) ٣١

وهذه الآية مثل آية الأنعام السابقة بسبيل الإشارة إلى ناموس اجتماعي هو مبادرة الطغاة بالعداء لرسول الله ، ولا يصح تأويلها بغير ذلك ، لأن الله ينتزه عن أن يحرض أحداً على أنبيائه ، ويحرضهم بالعداء لهم ، وسياق الآية قبلها وبعدها مؤيد لذلك كما ترى فيما يلي :

(وبوم بعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . ياويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً . وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من الجرمين

وكفى بربك هادياً ونصيراً . وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن
جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل
إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً . الذين يحشرون على وجوههم إلى
جهنم أولئك شرّ مكاناً وأضلّ سبيلاً (٢٧ - ٣٤)

والسياق واضح بأنه في صدد مواقف الجاحدين للدعوة النبوية ،
وتنديد بهم وإنذار لهم ، وتسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم في الوقت
نفسه ...

ج (وقد يكون من هذا الباب عبارات فيها نسبة تسليط الله الشياطين
على الناس كما ترى في هذه الآيات :

- ١ - (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .) الأعراف : ٢٧
- ٢ - (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) مريم : ٨٣
- ٣ - (وقيضنا لهم قرناء ، فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحقّ
عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس إنهم كانوا
خاسرين .) فصلت : ٢٦
- ٤ - (ومن يعيش عن ذكر الرحمن نفيس له شيطاناً فهو له قرين .)
الزخرف : ٣٦

والله تعالى يتنزه عن تسليط الشياطين على عباده اعتباطاً ، والمحكمات
القرآنية تقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ولا يظلم الله
أحداً مما مرت نصوصه قبل بحيث يصح القول : إن العبارات أسلوبية ،
وليست تقريرية . وفي العبارات صراحة بأن الذين عندهم منحرفون
جاحدون أصلاً ، بحيث يصح القول : إنها بمثابة توبيخ وتنديد وعقاب
لهم ، وتنبيه للسامعين حتى يرفعوا ويرتدعوا . ويزيد هذا توضيحاً
وتوكيداً سياق العبارات . فقد جاء في سياق آية سورة الأعراف :

(يابني آدم لا يفتننك الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع
عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم
إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا
عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا
تعلمون . قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه

مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم
الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون .
٢٧ - ٣٠

وجاء في سياق آية سورة مريم :

(أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً . أطلع الغيب أم
اتخذ عند الرحمن عهداً . كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً .
ونرثه ما يقول وبآيتنا فرداً . واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم
عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً . ألم تر أنا أرسلنا
الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً . فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم
عداً) (٧٦ - ٨٤)

٧ - ومن تمحلات صادق العظم قوله : (إن المسلمين المعاصرين
ينسون ظروف حث القرآن على العلم واستعمال العقل ، وكون ذلك إنما
هو لعلم الدين ، واستكشاف آلاء الله من الكون وحسب ، وإن المعرفة
الدينية تختلف كل الاختلاف عن المعرفة العقلية والعلمية ، وإن معرفة
المسلمين الأولين إنما كانت في المجال الديني ، وينسب إلى الغزالي قوله :
إن المراد بالعلم في القرآن هو العلم الديني) .

وهذه الأقوال مرسله على عواهنها من نواح عديدة ، ونتيجة عن عدم
استيعاب العظم للقرآن وإغفاله أو غفلته عما كان من جولات المسلمين
الأولين في مختلف مجالات العلوم العقلية والمادية المذهلة التي لا يمكن أن
يكون العظم لم يقرأ عنها ، فقد يكون في القرآن آيات معنى العلم فيها
هو علم الدين ، ومدى الحث على استعمال العقل فيها هو لاستكشاف
آلاء الله ، غير أن فيه آيات عديدة لا يخفى كون العلم فيها ، والحث على
استعمال العقل فيها هما في صدد شؤون الحياة الدنيا على اختلاف أنواعها .

ففي سورة النساء هذه الآية :

(وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول

(١) ومثل هذا التوكيد والتوضيح في سياق آيتي فصلت والزخرف أيضاً فاقرا آيات
سورة فصلت ١٩ - ٢٩ وآيات سورة الزخرف ١٥ - ٤٥ وقد اكتفينا بما أوردناه لأن فيه
الكفاية للدلالة .

وإلى أولي الأمر منهم لعلهم الذين يستنبطونه منهم (٨٣)

وهذا الأمر هو في صدد الحرب وسياسة الحرب وظروفها ، والعلم به علم بشأن من شؤون الدنيا ، واستنباطه هو عمل عقلي وعلمي معاً ، وفي سورة الروم هذه الآية :

(ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم واللوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢٢))

والمتبادر أن العالمين (بكسر اللام) هم العالمون بسنن الخلق والاجتماع لأن هذا هو الذي يمكن أن يصح في مدى الآية ، فالعلماء في ذلك هم الذين يفهمون مدى هذه السنن في اختلاف الألوان والألسنة . ومعنى هذا أن القرآن يفرض وجود علماء من هذا النوع ويطلب منهم استكشاف آلاء الله بعلمهم هذا ، ولكنه لا يجعل هذا الاستكشاف هو عملهم وهدفهم وحسب ، ومعنى هذا كذلك أن القرآن يحث على مثل هذا العلم لذاته أيضاً ، والمسلمون مخاطبون بذلك بطبيعة الحال ، ومن هذا الباب آيات سورة فاطر هذه :

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور (٢٧) و ٢٨)

فالمتبادر أن العلماء في الآية هم العلماء في سنن الخلق والكون والطبيعة الأرضية والسماوية الذين يستطيعون لمح أسرار الإبداع الرباني فيها أكثر من غيرهم فيمثلون إيماناً وخشية ، وهذا ما يقع كل يوم من عظماء كثيرين في علوم الفلك والطب والكيمياء والحياة والحيوان والنبات والفسولوجيا والبيولوجيا والذرة الخ الخ .

ونقول ما قلناه قبل : إن القرآن يفرض وجود مثل هؤلاء العلماء ، ولا يجعل عملهم وهدفهم هو استكشاف آلاء الله وحسب ، وفي التنويه القرآني بهم حث للمسلمين على أن يكون فيهم مثل هؤلاء العلماء للعلم ذاته أيضاً . وفي سورة العنكبوت هذه الآيات :

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً)

**وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون
من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما
يعقلها إلا العالمون (٤١ - ٤٣**

والمثل المضروب هو من مشاهد الخلق الحيوانية فيكون المقصود
بالعلماء الذين يعقلون أمثال الله في القرآن هم علماء دنيويون ، وليسوا
علماء دينيين ، وفي التنويه القرآني حث على أن يكون بين المسلمين علماء من
هذا النوع . وفي سورة البقرة هذه الآية :

**(وما أنزل على الملّكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد
حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين
المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم
ولا ينفعهم (١٠٠) ١٠٢**

فالعلم والتعلم والتعليم في الآية في أمر دنيوي ، وليس في أمر ديني ،
وآيات سورة العلق هذه :

(اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم (٠٠)

عامة شاملة لشؤون الدين والدنيا معاً كما هو المتبادر ، فيكون فيها
حث للإنسان ، وبالتالي للمسلم على التحقق بذلك .

هذا في صدد العلم ومعناه في القرآن ، وفي صدد العقل ورد في القرآن
آيات عديدة منها آيات سورة الحج هذه :

**(فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر
معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون
بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي
في الصدور (٠٠) ٤٥ و ٤٦**

فالمراد أن يعقله المخاطبون المندد بهم ليس استكشاف آلاء الله ،
وإنما استكشاف أحوال الأمم وأخبارها ومصائرهما ، ومثل ذلك آية
سورة العنكبوت هذه :

(ولقد تركنا منها آية بيّنة لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٠٠) ٣٥

وآيات سورة الصافات هذه :

(وإن لوطاً لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً في
الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل
أفلا تعقلون) ١٣٣ - ١٣٨

وفي سورة البقرة هذه الآية :

(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا
تعقلون) ٤٤

وليست هذه الآية في صدد الحث على استكشاف آلاء الله ، وإنما
هي في صدد الحث على إدراك النقيصة الأخلاقية المندد بها ، ومثل ذلك
آية سورة آل عمران هذه :

يا أيها أهل الكتاب لم تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل
إلا من بعده أفلا تعقلون) ٦٥

وفي القرآن آيات عديدة من باب ما أوردناه في صدد العلم والعقل
من التطويل إيرادها جميعها ، وكفى ما أوردناه ، فانه يكفي لإثبات عدم
استيعاب صادق العظم ، وإرساله الكلام على عواهنه . ويحسن أن ننبه
على أمر هام في هذا الصدد ، فالقرآن أمر الناس والمسلمين بأمر كثيرة في
شؤون الدنيا من حرب وجهاد وإعداد واستعداد وزكاة ومعاهدات
واستخلاف في الأرض ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وكتابة الديون ،
والأعمال التجارية الخ الخ من مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية
والاقتصادية والمعاشية والفكرية . والله يعلم أن القيام بذلك وممارسته
لا يمكن أن يتما إلا بالعلم ، واستعمال العقل بطبيعة الحال ، فيكون القرآن
والحالة هذه قد حث عبر ذلك على العلم ، واستعمال العقل في شؤون
الحياة الدنيا .

وقد يكون قول صادق العظم : إن المعرفة الدينية تختلف عن المعرفة
الدنيوية صحيحاً موضوعياً . غير أن المسلمين الأولين لم تقتصر معرفتهم
على الناحية الدينية كما هو ثابت يقيناً حيث كان منهم العلماء في أمور
الدين والعلماء في أمور الدنيا ، ومنهم من جمع بين ذلك ، وكل منهم
جال في علمه جولات عظيمة آثارها مدونة في الكتب ، وقائمة في ممارسات
الإنسانية ، ولا يكابر في هذا إلا أحمق ، وهؤلاء إنما كان ذلك منهم ، لأنهم

فهموا من القرآن أنه حث على العلم والعقل في شؤون الدنيا ، وفي شؤون الدين معاً .

وما عزاه العظم إلى الغزالي لا يتحمل القرآن والحالة هذه مسؤوليته ، على أن للغزالي في (الإحياء) فصلاً طويلاً عن العلم ، قرر فيه أن طلب المسلمين لعلوم الدنيا من طب وهندسة وحساب وصناعة الخ فرض كفاية إذا لم يقيم به جماعة منهم أثم جميعهم ، ولا يمكن أن يكون ذلك من الغزالي إلا وهو يعلم أن القرآن حث على علوم الدنيا والدين معاً ، وهذا يسيغ القول : إن صادق العظم لم يستوعب كل أقوال الغزالي أيضاً .

٨ - إن كثيراً من المسلمين يوردون الجملة القرآنية :
(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) .

في آية سورة آل عمران (٧٢) على أنها أمر رباني للمسلمين ، مع أنها جزء من كلام فريق من أهل الكتاب يوصي به بعضهم بعضاً كما ترى فيما يلي :

(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وأكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (٧٢ - ٧٤)

وفي الآيات موقف تأمري يهودي ضد المسلمين والنبي صلى الله عليه وسلم حيث تواصلوا على أن يتظاهروا بالإيمان ، ثم يعودوا فيكفروا ليشككوا المسلمين بالرسالة النبوية ، وحيث تواصلوا أن لا يركنوا إلا لبعضهم ، وأن لا يطلعوا أحداً من المسلمين على ما عندهم من شواهد مصدقة لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يحاجوهم بها . وفي الجملتين : (قل إن الهدى هدى الله) و (قل إن الفضل بيد الله) أمر رباني للنبي صلى الله عليه وسلم فيه تعقيب على موقفهم التأمري وفضح لهم ...

أما المسلمون ، ففي القرآن آيات أخرى تنظم الحالة بينهم وبين غيرهم ، من أهمها وأحسمها ومحكمها آيات سورة الممتحنة هذه :

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم . لاینهاکم الله عن الذين لم یقاتلوکم فی الدین ولم یرجواکم من ديارکم أن تبروهم وتقسطوا إلیهم إن الله یحب المقسطین إنما ینهاکم الله عن الذين قاتلوکم فی الدین واکخرجوکم من ديارکم وظاہروا علی إخراجکم أن تولوهم ومن یتولهم فأولئک هم الظالمون .) (١) ٧ - ٩

٩ - إن كثيراً من الناس يأخذون جملة (وقاتلوا المشرکین كافة) فی آية سورة التوبة (٣٦) منفردة ، ویصفونها بأنها آية السیف ، ویقولون : إنها نسخت کل ما جاء فی القرآن من عدم قتال غیر المعتدین ، وغیر المقاتلین من المشرکین ، وبذلك ینسفون آیات محكمة فی هذا الصدد ، مع أن فی الآیة فقرة أخرى مرتبطة بها أشد الارتباط ، ومحتوية لتعلیل رائع معقول متسق مع طبيعة الأمر الذی تضمنته بقتال المشرکین كافة وهي : (كما یقاتلونکم كافة) فلو لوحظ ذلك ولم تجزأ الآیة لما کان محل لذلك التفسیر والوصف والقول حیث یدو واضحاً أنها فی معرض حث المسلمین علی قتال المشرکین المحاربین مجتمعین وإلباً واحداً كما یقاتلونهم كذلك ، ولزال الاشکال الذی نشأ عن هذا التفسیر ، ویؤدي الی نسخ أحكام وآیات محكمة متسقة مع مبادئ القرآن ومثله السامية ، ومع طبائع الامور ووقائع السیرة النبویة المؤیدة بالآیات من جهة ، وبالأحادیث من جهة أخرى ، ونعني حصر القتال فی الأعداء المقاتلین والمعتدین علی الاسلام والمسلمین بأي شکل دون المشرکین والکفار والمعاهدین الموفین بعهدهم والمحایدین والمسلمین والعاجزین والنساء والأطفال مما یقتضي قتالهم جميعاً حسب ذلك التفسیر .

وبعضهم یضيف آية أخرى من سورة التوبة الی هذه الجملة ،

(١) فی آیات سورة : ١٩١ و ١٩٤ و ٢٥٦ ، وآل عمران ٢٨ ، والنساء ٨٨ - ٩١ - ٩٤ ، والمائدة ٥١ - ٥٨ ، والتوبة ١ - ١٦ - ٢٩ ، والممتحنة ١ - ٣ ضوابط أخرى ، ونذكر بما ذکرناه قبل من أن القرآن قد جعل الدعوة الی الاسلام فی نطاق الحکمة والموعظة الحسنة والجدال بالنیة هی أحسن ، وترك غیر المسلمین وشأنهم فی أديانهم إذا ما کانوا مسلمین موادین للمسلمین کافین عنهم ألسنتهم وأیدیهم . وکل هذه ضوابط عامة أيضاً .

ويصفها بآية السيف ، ويذهب الى أنها مثل هذه نسخت كل ما عداها ، وأوجبت قتال المشركين بدون استثناء الى أن يسلموا . وهي هذه :
(فإذا انسلك الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصوهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ٥

ومنهم من يستند في رأيه هذا إلى آيات سورة براءة الأولى هذه :
(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) ١ - ٣

في حين أنه جاء بعد هذه آية تستثني الذين بينهم وبين المسلمين عهد لم ينقضوه بآية صورة وهي :

(إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) .

ثم جاءت بعدها بقليل آية فيها استثناء آخر غير محدد بمدة وهي :
(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) ٧

فلو لوحظ السياق جميعه من الآية الأولى إلى الآية الخامسة عشرة من السورة وهو مترابط منسجم لظهر القصد منه وهو أن البراءة هي من المشركين الناكثين لعهدهم ، وإيجاب القتال هو بالنسبة لهؤلاء وحسب ، ثم للمعتدين منهم بدءاً دون غيرهم إذا كانوا كافين ألسنتهم وأيديهم عن الاسلام والمسلمين ولظهر التساوق التام بين التقريرات والمبادئ القرآنية .

١٠ - إن بعض المبشرين والمستشرقين يستندون إلى بعض آيات القرآن التي فيها تقرير كون الله أنزل القرآن على النبي صلى الله عليه

وسلم لينذر أم القرى ومن حولها كما جاء في آية سورة الأنعام هذه :
(وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى
ومن حولها ٩٢)

وآية سورة الشورى هذه :

(وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا لتنذر أم القرى ومن حولها ٧٠٠)
أو التي فيها خطاب لقوم النبي صلى الله عليه وسلم مثل هذه الآيات :
١ - (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن
تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين .)
الأنعام : ١٥٥ و ١٥٦

٢ - (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم
بالمؤمنين رؤوف رحيم .) التوبة : ١٢٨

٣ - (فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وأنه
لذكر لك ولقومك وسوف تسألون .) الزخرف : ٤٣ و ٤٤

٥ - (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون .) الدخان : ٥٨
أو التي فيها تنبيه إلى أن الله أنزل القرآن بلغة عربية وإنه حكم عربي
مثل هذه الآيات :

١ - (إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون .) يوسف : ٢

٢ - (وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًا .) الرعد : ٣٧

٣ - (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .) إبراهيم : ٤

٤ - (ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقراه عليهم ما كانوا به
مؤمنين .) الشعراء : ١٩٩ و ٢٠٠

٥ - (ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فسلت آياته .)
فصلت : ٤٤

٦ - (إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون .) الزخرف : ٣

٧ - (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون .) الدخان : ٥٨

٨ - (ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانًا
عربيًا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين .) الأحقاف : ١٢

ويقولون : إن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم رسالة لأهل الحجاز أو للعرب وحسب .

والآيات التي يستندون إليها وردت في سياق حجاج وحوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وقومه الذين كانوا أول المخاطبين بالقرآن والدعوة ، ولو استوعب القائلون ما في القرآن من نصوص أخرى وربطوا بعضه ببعض كما هو الحق والواجب على الناظر في القرآن كما نبهنا قبل من حيث إنه كل متكامل لوجدوا في سور كثيرة أخرى آيات كثيرة تذكر بأسلوب لا يتحمل ريباً ولا تمحلاً ولا مكابرة أن هذه الرسالة عامة إنسانية للعالمين ، ولأهل الكتاب وغيرهم وللعرب وغيرهم كما ترى في هذه الآيات مثلاً :

١ - (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدي وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون .) البقرة : ٤٠ و ٤١

٢ - (يا هل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .) المائدة : ١٥ و ١٦

٣ - (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير .) المائدة : ١٩

٤ - (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون . قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذين يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون .) الأعراف : ١٥٧ و ١٥٨

هـ - (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزئّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .) النحل : ٦٣ و ٦٤

٦ - (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .) الأنبياء : ١٠٧

٧ - (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً .)
الفرقان : ١

٨ - (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون .) سبا : ٢٨

يضاف إلى هذا آيات سورة التوبة والفتح والصف التي تذكر أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله مما يعني أن الله قد اقتضت حكمته أن يظهر هذا الدين على سائر الأديان ليكون دين الإنسانية العام ، وهذا يعني الشمول والعمومية وهي هذه :

١ - (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .) التوبة : ٣٣

٢ - (وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً .) الفتح : ٢٨

٣ - (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .) الصف : ٦

١١ - إن بعض المسلمين يوردون جملة (ما فرطنا في الكتاب من شيء) الواردة في آية سورة الانعام هذه :

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون .) ٢٨

ويفسرون كلمة (الكتاب) بالقرآن ويقولون : إن الآية تعني والحالة هذه أن القرآن احتوى كل شيء من شؤون الخلق والكون ، ويوردون آية النحل هذه :

(ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء .) ٨٩

سنداً مؤيداً لقولهم . بل منهم من استند إلى الآيتين وحاول أن

يستخرج من آيات القرآن نظريات علمية وفلكية ، وهناك من غلا أكثر فحاول أن يستخرج من آيات القرآن وحروفه أسراراً مفية ، وتمسك الملحدون بأقوال هؤلاء فانبروا ينتقدون ويسخرون ويكذبون ، وفي كتاب صادق العظم (نقد الفكر الديني) نماذج من ذلك .

وقد يكون الانتقاد في محله موضوعياً ، ولكن القرآن لا يتحمل مسؤولية إساءة الفهم والتأويل ، والغلو في التخمين والتزيد ، وكلمة (الكتاب) في آية الأنعام تعني علم الله المحيط بكل شيء بدلالة آيات أخرى كما ترى فيما يلي :

١ - (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .) الأنعام : ٥٩

٢ - (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .) يونس : ٦١

٣ - (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين .) هود : ٦

٤ - (قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) طه : ٥١ و ٥٢

٥ - (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير .) الحج : ٧٠

٦ - (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير .) فاطر : ١١

٧ - (وكل شيء أحصياه كتاباً .) النبا : ٢٩

والكتاب في الآيات رمز لعلم الله على الأسلوب المألوف عند البشر من أن ما يكون مكتوباً في كتاب لا ينسى ولا يجهل ، ولو انتبه القائلون الى هذه الآيات وما فيها من مماثلة لآية الأنعام (٣٨) موضوع النبذة لما قالوا ما قالوه .

اما آية النحل (٨٩) فإنها بسبيل تقرير كون القرآن احتوى تبياناً لكل أمر ضروري من أمور الدين والدنيا وحسب بدليل حاسم هو أن القرآن سكت عن تفصيل كثير من هذه الأمور ، وسكت عن كيفية الصلاة والزكاة والحج والحكم والقضاء والمسائل المالية ، وعن كثير من جزئيات الموارث والأطعمة والأشربة والملابس مما تكفلت ببيانه السنة النبوية . وحتى لو سلمنا جدلاً أن كلمة (الكتاب) في آية الأنعام تعني (القرآن) فبأن يجعل تأويلها بكونها أريد بها تقرير كون الله ما فرط في الكتاب من شيء مما هو ضروري للدين والدنيا هو الأولى المتسق مع هذا الدليل الحاسم .

ولا نفرد بما نقول ، فإن اعلام المفسرين قديماً وحديثاً قرروه أيضاً مثل الطبري وابن كثير والقرطبي والزمخشري والبغوي والطبرسي والقاسمي ورشيد رضا وغيرهم ، وقد حمل الأخير بخاصة على من يزعم أن القرآن احتوى علوم الأكوان وقال : إن هذا لا يقبله عقل ، ولا يهدي إليه نقل ، ولم يقل به أحد من الصحابة ، ولا علماء التابعين ولا غيرهم من علماء السلف الصالحين .

١٢ - إن الملحدّين يسوقون ما في القرآن من آيات فيها نعي على الدنيا ومتاعها ، وتزهيد بها ، ويقولون : إن الإسلام يأمر بنفض اليد من الحياة الدنيا ، والاستغراق في أمور الآخرة ، وإن هذا مؤد إلى الاستكانة والاستسلام والتخلف ، ويشيرون الى واقع المسلمين المتخلف حقاً كدليل على ما يقولون .

وهذا من سوء الفهم والتأويل ، وعدم استيعاب المدى القرآني ، والأسباب الأخرى التي أدت إلى تخلف المسلمين مما لا يتحمل القرآن مسؤوليته .

وفي سياق كل آية في القرآن من ذلك الباب حضّ على الجهاد والتضحية والإقدام والتقوى والمكرّمات والأعمال الصالحة ، وبكلمة ثانية تدعيم للدعوة الإسلامية ، وعزة الاسلام والمسلمين وقوتهم وصلاحهم ، وتحذير من جعل حب الحياة والشهوات سبباً مانعاً للاقدام على بذل النفس والنفيس في سبيل ذلك . وفيما يلي أمثلة مؤيدة وموضحة :

١ - (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إنا آمنة فأغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار .) آل عمران : ١٤ - ١٧

٢ - (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً . .) النساء : ٧٧

٣ - (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين .) التوبة : ٢٤

٤ - (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أنافلتم إلى الأرض أراضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير .) التوبة : ٣٨ و ٣٩

٥ - (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقبلاً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً .) الكهف : ٤٥ و ٤٦

٦ - (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم . إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحلفكم (١) تبخلوا ويخرج

(١) لا يسألكم جميع أموالكم لانه يعلم أن ذلك صعب عليكم ولكنه يأمركم أن تنفقوا منها في سبيل الله .

اضفانكم . ها انتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وانتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (. محمد : ٣٥ - ٣٨ .

٧ - (إن المصدقين والمصدقات واقترضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم . والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم . إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد . (الحديد : ١٨ - ٢٤ .

ومدى التقوى التي حثت عليها بعض الآيات هو الحرص على التزام أوامر الله ، واجتناب نواهيه اتقاء لفضبه ، وأوامر الله ونواهيه شاملة لكل ما هو صالح وفيه صلاح للانسان من أمور الدنيا والدين .

وجملة (الباقيات الصالحات) في آية الكهف ذات مغزى عظيم حيث تنبه السامع إلى أن الذي يبقى أثره ونفعه للإنسان في الدنيا والآخرة هو الأعمال الصالحة ، وهذه تشمل كل ما هو خير ونافع من أمور الدنيا والدين .

والأمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ، يعني : الأمر بالحرص على التزام أوامر الله ونواهيه الشاملة لكل ما هو صالح وصلاح للانسان من أمور الدنيا والدين .

ويفعل الملحدون عما في القرآن من آيات كثيرة فيها إباحة للطيبات وزينة الحياة الدنيا والاستمتاع بها ، ومنها آية في سورة الأعراف ذات مغزى عظيم حيث تنكر تحريم ذلك وهي :

(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ٣٢٠)

وتفيد الآية والله أعلم أن الله أباح للمؤمنين الزينة وطيبات الحياة مع الناس وفي الآخرة لهم خالصة وقد جاء بعدها بيان لما حرم الله .

(قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ٣٣٠)

ومن ذلك آية سورة الأعراف هذه :

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ١٥٧)

ومن ذلك آية سورة النور هذه :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ٥٥)

وهذا منتهى ما يمكن من توثيق رابطة المسلمين بالحياة الدنيا ، وشغلهم بها ، ومن ذلك آية سورة لقمان هذه :

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ٢٠)

وفيهما حث على الانتفاع بكل ما سخر الله ، وأسبغه من مظاهر الطبيعة والنعم ، ويففلون إلى هذا عما في الآيات الواردة في صدد وجود الإنسان في الحياة ، وخلافته لله في الأرض ، وأعماله وأخلاقه الشخصية والاجتماعية ، وتكريمه وعلاقته بالمجتمع والافراد . تلك العلاقة المتتابعة المتعددة النواحي التي تقتضي منه سعياً وجهداً وتفكيراً وعملًا حيث لا يلبث الذين يمعنون فيها أن يمثلنوا بالحقيقة الكبرى ، وهي أن تعاليم القرآن تجعل هذه الخلافة والأعمال والأخلاق والعلاقة ، وبالتالي هذه الحياة موضوعاً جوهرياً من مواضيعها ، وتعتبر اصلاح الإنسان في أخلاقه الشخصية والاجتماعية وإصلاح المجتمع الإنساني ، وتوجيههما إلى الخير والكمال هدفاً رئيسياً من أهدافها ، وتتخذ الحياة الأخروية وما فيها من حساب واثواب وعقاب وازعاً للإنسان يزعه عن الشر والاثم ، وحافزاً يحفزه على الخير والبر والعدل والحق والاحسان والتعاون والاصلاح بالإضافة إلى حقيقتها الإيمانية ، وما في ذلك من حكمة ربانية في أن تكون هذه الحياة متممة للحياة الدنيا يوفى فيها الناس جزاء أعمالهم في الدنيا خيراً كانت أم شراً .

ولقد سمع نفر من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم ثناء القرآن على القسيسين والرهبان في آية في سورة المائدة جاء فيها (**ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون**) ٨٢ فعزموا على الحدوحدوهم ، وتحريم الطيبات على أنفسهم ، ومواصلة الصيام ، وقيام الليل ، فأنكر ذلك عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث صحيح . حيث روي أنه قال لهم : « إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وإني لأقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو من أمتي ، ومن رغب عن سنتي فليس مني . » ثم أنكر القرآن ذلك في هذه الآيات :

(يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) ٨٧ - ٨٨

١٣ - في كتب التفسير روايات كثيرة تورث كاسباب لنزول آيات

أو آية أو جزء من آية في سياق في حين أن السياق وفحواه لا يتفقان مع الرواية كسبب للنزول ، أو قد لا يتطابقان تطابقاً تاماً مع الرواية ، أو قد يلهمان أن الآيات أو الآية جزء الآية التي تروى الرواية كسبب لنزولها منسجمة انسجاماً تاماً في السياق الذي قبله أو الذي بعده ، وكل ما يمكن فرضه في أمر الرواية في حال وثوقها وتطابقها مع فحوى ما ذكر أنها نزلت بسببه أن تكون أوردت على سبيل الاستشهاد على حادث ما وقع بعد نزولها أو يكون الحادث قد وقع قبل نزولها بمدة ما ، فجاءت الإشارة إليه في السياق العام الذي أتت فيه الآيات أو الآية أو جزء الآية على سبيل التشريع أو التذكير أو التنديد أو التنبيه أو العظة الخ فالتبس الأمر على الراوي ، وظن أن الحادث هو سبب النزول .

فقد روي مثلاً عن أبي مسعود قوله : (كنا أمرنا بالصدقة ، فكنا نتحامل (١) ، فجاء أبو عقيل بنصف صاع ، وجاء إنسان بأكثر منه . فقال المنافقون : إن الله لفني عن صدقة أبي عقيل ، وإن ما فعله الآخر ليس الأرياء .) فنزلت آية التوبة هذه :

(الذين يلزمون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم .) ٧٩

فالرواية توهم أن الآية نزلت منفردة بسبب هذا الموقف ، مع أنها متصلة بسياق عام سابق ولاحق أشد الاتصال ، ومنسجمة فيه أقوى انسجام ، وهو سلسلة المواقف المنافقين ، وفيه قرائن تدل على أن الفصل الطويل الذي تقع فيه الآية والمؤلف من الآيات (٣٨ - ٩١) من سورة التوبة نزل كله أو جله في أثناء غزوة تبوك وظروفها وسببها وبعد ذلك المشهد الساخر للمنافقين بمدة ما ، فأشير إليه كمثل من موافقهم .

وروى البخاري عن ابن مسعود (أن رجلين من قريش وختناً لهما من ثقيف كانوا في بيت ، فقال بعضهم لبعض : اتروا أن الله يسمع حديثنا ؟ قال بعضهم : يسمع بعضه . وقال بعضهم : لئن كان يسمع بعضه لقد يسمعه كله . فنزلت هذه الآية :

(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون .) فصلت : ٢٢

(١) أي : يحمل بعضنا لبعض بالأجرة ، وفي رواية : نحامل ، أي : نؤاجر أنفسنا

مع أن الآية متصلة بسياق يحكي فيه محاوراة في الآخرة بين الكفار ، وبين أعضاء أبدانهم التي شهدت عليهم أشد الاتصال ، وليس هناك أي تطابق بين مفهوم الرواية ، وعبرة الآية وهذا هو السياق .

(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ماجأوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين .)

٢٣ - ١٩.

والفصول الأولى من سورة النساء من موارث وأنكحة مترابطة ومنسجمة ، والآية الأولى في السور بمثابة براعة استهلال لما تضمنته من هذه الفصول ، وروح آيات الفصول تلهم أنها وحدة تشريعية متسلسلة في حين أن هناك روايات تكاد تجعل لكل آية مناسبة نزول مستقلة ، وتوهم أنها نزلت منفردة بسببها . ويقال هذا كله في فصول سورة الحجرات أيضاً .

ولقد روى الشيخان والترمذي أن رجلاً من اليهود قال لعمر رضي الله عنه يا أمير المؤمنين لو علينا نزلت هذه الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) لاتخذنا ذلك اليوم عيداً فقال عمر : إني أعلم أي يوم أنزلت هذه الآية ، إنها أنزلت يوم عرفة ، في يوم الجمعة . . . والنبي صلى الله عليه وسلم لم يحج بعد الهجرة إلا حجة واحدة هي حجة الوداع في آخر سني حياته في حين أن هذه الجملة جزء من آية طويلة ، ثم جزء من سياق تكرر فيه كلمة اليوم كما ترى فيه !! .

(حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقودة والمتردة والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يسئ الذين كفروا دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف

بل إن التمعن ليرى أن السياق متصل ببعضه من أول السورة ، ثم بعد الآية الخامسة أيضاً ، وفي فحوى الآيتين الأوليين من السورة قرينة قوية على أنهما نزلتا بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة ، فيكون هذا وارداً بقوة بالنسبة لجميع السياق ، والمتبادر أن الجملة أسلوبية يراد بها والله أعلم إكمال الله عز وجل بالوحي القرآني مسألة محرمات الذبائح التي ذكرت في أول آيات المائدة (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) . . . لأن مجاء في الآية التي وردت فيها الجملة من تفصيل في أنواع الميتات التي لا يجوز أكلها ، وفي تحريم الاستقسام بالأزلام لم يرد قبل . لأن الذي ورد هو (تحريم الميتة إطلاقاً) والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، كما جاء في آيات البقرة (١٧٣) والأنعام (١٤٥) والنحل (١١٥) والدليل على ذلك الجملة الواردة بعد ذلك وهي : (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) وقد جاءت تنمة للآية .

وهناك أمثلة كثيرة جداً منها ما لا يتطابق مع فحوى الآيات ، ومنها ما يكون فيه قطع لسياق متصل منسجم ، وقد نبهنا عليها في تفسيرنا (التفسير الحدث) بقدر ما استطعنا .

١٤ - ويتناسب مع هذا مسألة أخرى ، وهي أن هناك آيات في سور يروى أنها مدنية ، وآيات في سور مدنية يروى أنها مكية في حين أن معظم هذه الروايات لا يثبت على تمحيص لا من حيث الفحوى ، ولا من حيث السياق ، ولا من حيث ظرف النزول ، وقد نبهنا على ذلك في التفسير الحديث أيضاً .

وعدد الآيات المدنية في السور المكية حسب ما جاء في رؤوس سور المصحف المخطوط بخط مصطفى نظيف قذوري أوغلي المطبوع من قبل عبد الحميد أحمد حنفي ، والمصدق عليه بتاريخ ربيع الثاني (١٣٥٣) من قبل اللجنة المعنية بأمر الملك فؤاد هو (١٤٧) وعدد الآيات المكية في السور المدنية سبع (١) . وفي كتب التفسير روايات كثيرة . منها ما يؤيد ما جاء في هذا المصحف ، ومنها ما ينقص منه ومنها ما يزيد عليه . ومعظم الروايات غير وثيقة ، وفحوى الآيات وسياقها يثيران الشك القوي في صحتها ، وكل ما يمكن حسب ترجيحنا أن يكون صحيحاً من الآيات المدنية في السور المكية هو آيات سورة الاعراف (١٦٣ - ١٧٠) في حق بني إسرائيل . فقد سبقها سياق في تاريخ بني إسرائيل ومواقفهم ، فلما اقتضت حكمة التنزيل نزولها في المدينة على سبيل التشديد بمواقف بني اسرائيل إزاء الدعوة النبوية والتذكير بما كان من مواقف أسلافهم صار من المناسب وضعها في السياق . ثم الآيتان الاخيرتان من سورتي الشعراء والمزمل . فالآيات السابقة للآية الاخيرة من سورة الشعراء فيها ذم للشعراء ، فلما اقتضت حكمة التنزيل استثناء شعراء المسلمين الذين طلب منهم مقابلة شعر المشركين الهجوي ضد المسلمين ، نزلت الآية في المدينة لاستثنائهم فوضعت بعد تلك الآيات . والآيات الأولى من سورة المزمل احتوت أوامر النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة التهجد في الليل ، واستمر يقوم بما أمر

(١) في سورة الحج آيات عديدة عليها طابع العهد المدني ، وآيات عديدة عليها طابع العهد المكي ، وبعض الروايات تسلك السورة في سلك السور المدنية ، وبعضها تسلكها في سلك السور المكية ، وقد شرحنا ذلك في التفسير ، والآيات المكية في السور المدنية ، والآيات المدنية في السور المكية التي ذكرنا عددها هي غير ما يحتمل ان يكون مكية أو مدنية في سورة الحج .

يه وتابعه في ذلك أصحابه الى العهد المدني . وقد اقتضت حكمة التنزيل التخفيف عن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين في هذا العهد ، فنزلت الآية الأخيرة ، فالحقت بالسورة للمناسبة .

أما عدا ذلك فلا يثبت على تمحيص سواء من ناحية الفحوى أم من ناحية السياق فضلاً عن سند الروايات ، ويلمح في بعضها رائحة الهوى الحزبي ، ومثالاً على ذلك آيات سورة الشورى هذه :

(ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور . أم يقولون افترى على الله كذباً فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور . وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون .)
٢٣ - ٢٥ .

فهناك رواية في مصادر عديدة بأن هذه الآيات الثلاث مدنيات . وروى الطبرسي وهو مفسر شيعي في « مجمع البيان » نقلاً عن تفسير أبي حمزة الثمالي عن ابن عباس (أن الأنصار جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعد أن استحكم الاسلام في المدينة ، فقالوا له : إن تعرك الأمور فهذه أموالنا تحكم فيها في غير حرج ولا محذور عليك . . فنزلت الآية الأولى فقرأها عليهم ، وقالوا : تودون قرابتي من بعدي ، فخرجوا من عنده مسلمين ، فقال المنافقون : إن هذا لشيء افتراه في مجلسه أراد أن يذلنا لقرابته من بعده ، فأنزل الله الآية الثانية ، فتلاها عليهم ، فبكوا واشتد عليهم ، فأنزل الله الآية الثالثة . . هذا في حين أن الآيات الثلاث متصلة أوثق اتصال بما قبلها مابعداً نظماً وموضوعاً ، والسياق جميعه في صدد مواقف المشركين من قوم النبي صلى الله عليه وسلم وجحودهم وإنذارهم والتنويه بالمؤمنين بالمقابلة ، وكل ذلك ظروف مكية ، ويدو هذا واضحاً لكل من يقرأ السياق ، من أول سورة الشورى . وجملة (لا أسألكم عليه أجراً) وجمل أخرى من بابها مما ورد في السور المكية ، وبسبيل إفحام المشركين والزاهمهم مثل آية سورة الأنعام هذه :

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرًا
إن هو ذكرى للعالمين) ٩٠

وآية سورة يوسف هذه :

(وماتسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين) ١٠٤

وآية سورة الفرقان هذه :

(قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) ٧٠
وآية سورة سبأ هذه :

(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن اجري إلا على الله وهو على كل
شيء شهيد) ٧٠

والرواية التي يروها الطبرسي تناقض هذه النصوص القرآنية من
جهة ولا تتسق مع علو شأن النبوة ، ومصدرها الرباني
من جهة أخرى . وهي في الوقت نفسه غريبة ومتهاففة ، ويلمح فيها
قصد التلفيق والتطبيق ، ولقد كان أكثر أقارب رسول الله صلى الله عليه
وسلم في العهد المكي ، ومنهم عمه العباس وأبو لهب كفاراً ، ولم يكن علي
وفاطمة رضي الله عنهما قد تزوجا ، وانجبا الحسن والحسين ، فلم يكن
صرف الآية الأولى إلى أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخاصة
أخصائه ممكناً إذا أخذت على حقيقة كونها مكية ، فلفقت رواية مدنيتهما
بالصيغة الغريبة المروية ، ولفقت رواية أخرى عن ابن عباس في صدد الآية
الأولى من الآيات الثلاث حيث روي أنها نزلت في المدينة ، وأنها حينما
نزلت قالوا يارسول الله من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودتهم فقال : هم علي
وفاطمة وولدهما . هذا في حين أن الطبري يروي عن ابن عباس أنه سئل
عن الآية في حضرة ابن جبير فقال هذا : « القربى فيها ، قربي آل محمد »
فقال ابن عباس : « عجلت . إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن
من قريش إلا كان له فيه قرابة ، فنزلت الآية تذكر ذلك ، وتقول لقريش :
إلا أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم » وقد روى هذه الرواية البخاري
والترمذي أيضاً . ومقتضاها أن الآية مكية وهو الحق . ولقد روى الطبري
أيضاً عن ابن عباس تأويلين آخرين جاء في أحدهما (كان لرسول الله قرابة
في جميع قريش ، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال يا قوم : إذا أبيتم أن

تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم ، لا يكن غيركم من العرب أولى بحفظي منكم) وجاء في ثانيهما (قل لا أسألكم إلا أن لا تؤذوني لقراءة ما بيني وبينكم فانكم قومي ، وأحق من أطاعني وأجابني) ومقتضى هذه الروايات أن الآية مكية كما هو واضح وهو الحق مع إضافة كونها جزءاً من سياق طويل مترابط في صدد مواقف المشركين في مكة من الدعوة النبوية .

ونذكر مثلاً آخر ، فقد روي أن آيتي سورة الزمر هاتين :

(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) (٥٣ - ٥٤)

مدنيتان . وروى المفسرون أن أولاهما نزلت في حق وحشي الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وعم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقعة أحد ، ومما رواه المفسرون أن وحشياً استعظم ذنبه ورأى أن إسلامه لن ينجيه من غضب الله ورسوله ، فأنزل الله آية الفرقان هذه :
(إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً) (٧٠)

فقال وحشي : هذا شرط شديد ، فأنزل الله آية سورة النساء هذه :
(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٤٨) فقال وحشي : أراني بعد في شبهة . فأنزل الله آية الزمر (٥٣) إحدى الآيتين اللتين هما موضوع الكلام فقال هذا نعم . ثم جاء وأسلم ، وروى المفسرون إلى هذه الروايات رواية أخرى تفيد أنها نزلت في حق أناس أسلموا فأوذوا فارتدوا وكبر عليهم ذنبهم فأنزلها الله لفتح لهم الباب ، ورواية ثالثة تفيد أنها نزلت في حق أناس اقترفوا آثاماً كبيرة ، وكانوا يتساءلون عن حالهم إذا أسلموا . . . والروايات الواردة في صدد وحشي غريبة وعجيبة في مناسبتها وظرفها ثم في تدرجها لأجل اقناعه وجعله يسلم ! هذا في حين أن الآيتين (٥٣ و ٥٤) منسجمتان انسجاماً تاماً نظماً وموضوعاً مع ما قبلهما ومع ما بعدهما ، والسياق جميعه في مواقف المشركين وإنذارهم ، والأسلوب أسلوب مكّي ، وكل هذا ملموح فيه إذا تمعن فيه القارئ .

ومثلاً آخر آيات سورة النحل الأخيرة هذه :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتأي
احسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . وإن
عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر
وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . إن الله
مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ١٢٤ - ١٢٨ .

فهناك رواية تذكر أن الآيات الثلاث الأخيرة مدنية ، ولم ترد الرواية
في الكتب المعتبرة . غير أن الترمذي روى عن أبي بن كعب حديثاً وصف بأنه
بسند حسن جاء فيه : (لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون
رجلاً ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة ، فمثلوا فيهم . فقالت الأنصار :
إن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل
الله (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به) فقال رجل : لا قرئ بعد
اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كفوا عن القوم إلا أربعة .)
وأورد ابن كثير حديثاً ، عن عطاء بن يسار جاء فيه : (إن الآيات الثلاث
نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة ومثل به . فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . فلما
سمع المسلمون ذلك ، قالوا والله : لئن أظهرنا الله لنمثلن بهم مثله لم يمثلها
أحد من العرب بأحد قط . فانزل الله الآيات الثلاث . . .) ، وأورد ابن
كثير حديثاً آخر عن أبي هريرة ، أخرجه الحافظ أبو بكر البزار جاء
فيه (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نظر إلى حمزة ومثله قال : رحمة
الله عليك إن كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، والله
لولا حزن من بعدك لاسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ،
أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك ، فنزل جبريل بالآيات . فكفّر
النبي صلى الله عليه وسلم عن يمينه ، وقال : نصبر ولا نعاقب ، والأحاديث
تذكر أن آية :

(وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير
للصابرين)

فقد أنزلت في حادث أحد ، مع ان الروايات تذكر أن الآيات الثلاث معاً مدنيات ، والآيات منسجمة مع بعضها ومع الآية السابقة لها في معنى واحد رائع ، وفيها خطة للنبي صلى عليه وسلم في دعوته إلى سبيل الله . فعليه أن يدعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن فإذا وقف أحد تجاهها موقفاً يستوجب المقابلة فيجب أن يكون ذلك في نطاق المماثلة . والآية قبل الأخيرة احتوت أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يضيق صدره بمكرهم ولا يحزنه ذلك ، وتسليته له بأن الله مع المتقين المحسنين ، وروح الآيات الأربع وفحواها من روح وفحوى الآيات المكية . وفي سورة العنكبوت آية مماثلة لم يقل أحد إنها مدنية :

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم) ٤٦

وفي سورة النمل آيات مماثلة أيضاً ولم يقل أحد إنها مدنية :

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون) ٦٩ و ٧٠

ومن المحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم في ظروف حزنه على حمزة خطر له ماذكرته الروايات أو أن يكون ذلك مما خطر لأصحابه في ظروف حزنهم على شهدائهم ، فتلا النبي صلى الله عليه وسلم الآية وتم التراجع والقول (نصبر ولا نعاقب) فالتبس الأمر على الرواة ، وننبه على أن الآيات الأربع منسجمة مع سياقها السابق انسجاماً قوياً ، وكأنها نتيجة له أو تعقيب عليه ، والطابع المكي قوي البروز على هذا السياق . وقد ورد ما احتواه من الأمر باتباع للنبي صلى الله عليه وسلم ملة إبراهيم ، وبما هو حلال وحرام من الذبائح في آيات أخرى في سورة الأنعام المكية ، وإقرأ مثلاً الآيات (١١٦ و ١٦١ و ١٦٢) من هذه السورة ، وقابلها مع آيات سورة النحل السابقة للآيات الأربع .

ولقد قلنا : إن عدد المروي من الآيات المكية في السور المدنية قليل ، ومن ذلك آيات سورة الأنفال هذه :

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون
ويمكر الله والله خير الماكرين . وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا
لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن
كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب
أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم
يستغفرون . وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما
كانوا أوليائه إن أوليائه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) ٣٠ - ٢٤

والرواية التي تروي مدينتها غير وثيقة . والآيات منسجمة مع
ما قبلها ومع ما بعدها ، وفيها تذكير بموقف المشركين من النبي صلى الله
عليه وسلم في أواخر العهد المكي ، والمقول أن يكون هذا التذكير بعد
ذلك الموقف الذي كانت الهجرة النبوية على أثره . وفحوى الآيات يفيد
بقوة أنها مدنية . ومن ذلك الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة . والرواية
التي تروي مكيتها غير وثيقة ، وفحواهما وفحوى سياقهما يفيدان أنهما
جاءتا كتعقيب على موقف للمنافقين ، وهذا من مشاهد العهد المدني .

ونكتفي بما تقدم لنقول في صدد الموضوع الذي عقدنا عليه النبذتين
(١٣ و ١٤) ونقول : إن ملاحظة السياق والتناسب والترابط بين الفصول
والمجموعات القرآنية ضرورية ومفيدة جداً في فهم القرآن ومواضعه
وأهدافه من جهة ، وفي لمس ناحية من نواحي الروعة والإعجاز والإتقان
فيه ، لأنهما تظهرا للناظر في القرآن على ما هو عليه من ترتيب وانسجام
وترابط نظاماً وموضوعاً من جهة ، وتزيلان ما هو عالق بالأذهان من خطأ
بأن الفصول القرآنية فوضى لا ترتيب ولا انسجام بينها ، وأنها كانت
توضع حذاء بعضها كيفما اتفق من جهة ، وتجعلان القارئ يلمح ضعف
روايات كثيرة وردت في سياق الآيات القرآنية كسبب لنزولها ، وفي
بعضها قلب لمعنى السياق القرآني وهدفه ، وفي بعضها ما يوهم التفكك
وعدم الترابط في هذا السياق من جهة .

وكتعقيب أخير على الفصل كله نقول : إنه لا يجوز للناظر في القرآن
أن تكون نظرتة فيه اعتباطية جزافية ، وأن عليه أن يستوعبه إذا أراد

أن يفهمه فهماً صحيحاً ، وأن يتكلم في شيء وارد فيه سواء أكان مسلماً أم غير مسلم ، وأن يتمتع في آياته وفصوله ، ويربط بعضها ببعض ، ويرجع بعضها إلى بعض ، ويفسر بعضها ببعض ، ولا يتر آية أو جزء آية من آية ، ويبنى حكمه عليها بقطع النظر عن سياقها أو ما في السور أو الفصول الأخرى من تتمات واستدراكات وتوضيحات ، وأن لا يأخذ الروايات والأقوال على علاتها وبخاصة إذا لم تكن متطابقة مع فحوى ومدى النص القرآني ، ويستند إليها في الحكم والفهم والتأويل ، وأن يظل يلاحظ صلة التنزيل القرآني بالسيرة النبوية والبيئة النبوية ، وصلة اللغة القرآنية والأساليب القرآنية بلغة وأساليب العرب الذين وجهت إليهم لأول مرة ، ونزلت بلغتهم وأساليبهم ، وأن يظل يلاحظ كذلك أن في الآيات آيات محكمات ، وآخر متشابهات ، وأن المحكمات هن أم الكتاب ، وأن عليه أن يلتزم الضابط القرآني في المتشابهات التي هي وسائل تدعيم للمحكمات والتي منها القصص والملائكة والجن والمشاهد الأخروية ومظاهر الكون وذات الله ، وأن يقف منها عند ما اقتضت حكمة التنزيل إيجاءه منها بالأسلوب الذي جاءته لتحقيق الهدف الذي استهدفته بدون تزييد ولا تخمين حتى لا يخرج عن ذلك الضابط الذي فيه بصراحة على أن من لا يتمسك به يكون ذا قلب زائع قاصداً الفتنة في التأويل الاعتباطي ، فإذا التزم بكل هذا وهو واجب لا يستطيع أن يتحلل منه إذا كان راغباً في الحق والمعرفة ، عصم نفسه من التورط والتمحل ، وسوء الفهم والتأويل والأدب .

ثاني عشر :

وهناك مسائل قرآنية أخرى يختلف فيها العلماء والباحثون المسلمون ، ويتناولها الأغيار وذوو النيات السيئة لإبراز ما ظنوه ثغرات ، ومآخذ فيها ضد القرآن . وقد رأينا أن نلم بها أيضاً على رجاء أن نضع الأمر في نصابه الحق فيها إن شاء الله . ولقد تناولنا هذه المسائل فيما تناولناه من شرح مسائل قرآنية عديدة أخرى في كتابنا (القرآن المجيد) الذي

طبع عام (١٣٨٠ هـ ١٩٥٢ م) في صيدا ، وقد رأينا أن نكتفي هنا بالإيجاز ،
وأن نطلب ممن يحب الاسناد والتفصيل أن يرجع إلى كتابنا المذكور .
أولاً : جمع القرآن وتدوينه وترتيبه

- ١ -

إن الناظر في كتب علماء القرآن والحديث والتفسير يجد أحاديث وروايات كثيرة في هذا الموضوع مختلفة اختلافاً غير يسير ومتعارضة أيضاً ، حيث يجد أولاً أن هناك أحاديث وروايات تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي ولم يكن القرآن قد جمع في شيء ، وأن جمعه وتدوينه إنما كان بعد وفاته . وإن ما كان يدون منه في حياته كان يدون على الأكثر على الوسائل البدائية مثل أضلاع النخيل ، ورقائق الحجارة وأكتاف العظم ، وقطع الأديم والنسيج ، وأن المدونات منه على هذه المواد لم تكن مضبوطة ولا مجموعة . وكانت على الأكثر متفرقة على المسلمين ، والمعمل في القرآن إنما كان على القراء وصدور الرجال وحفظهم ، وإن آيات القرآن في السور والسور في المصحف إنما تم ترتيبها كما هي في المصحف بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

وحيث يجد **ثانياً** : أن هناك أحاديث وروايات تذكر أنه كان خلاف في ترتيب مصاحف بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمات وآيات كانت تكتب في بعض المصاحف ، أو يحفظها الحفاظ ويقرؤونها لم تكتب في المصحف المتداول ، وسور زائدة أو ناقصة عما في هذا المصحف .

وحيث يجد **ثالثاً** : أحاديث وروايات تذكر أن القرآن كان حين نزوله يكتب على رقاع ، ثم ينقل منها إلى القراطيس والمصحف ، وترتب آياته في سور ، وسوره في تسلسل بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وأن أجسام كل السور المكية الصغيرة والكبيرة كانت تامة مرتبة قبل الهجرة ، وأنها كانت تنزل متلاحقة ، وكانت تبدأ السورة بالبسملة ، وتستمر متلاحقة حتى نهايتها ، ثم تبدأ سورة جديدة بالبسملة ، وأن ذلك استمر على هذا

الموال بعد الهجرة ، وأن السور الطويلة المدنية ذات المواضيع العديدة قد رتب في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبأمره ، وأن القرآن كان تام الترتيب آياته في السور وسوره في تسلسل في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ، وأن هذا الترتيب هو الذي كان عليه المصحف الذي حرر في زمن أبي بكر رضي الله عنه ليكون إماماً ، ثم المصاحف التي نسخت عنه بأمر عثمان رضي الله عنه ، والتي هي أصل المصاحف المتداولة ، وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم يكتبون مصاحف مثله ، ويحفظون القرآن ، ويقرؤونه ، ويختمونه مرتباً بنفس الترتيب المتداول .

وهناك تعليقات لعلماء المسلمين على الأحاديث والروايات الواردة في كل مجموعة من المجموعات الثلاث . منها المعلل ، ومنها المتحفظ ، ومنها الموضح ، ومنها المنكر المعترض . وقد أورد الإمام السيوطي في كتابه « الاتقان » كل الأحاديث والروايات والأقوال أو جلها ، وأوردنا طائفة كبيرة منها في كتابنا القرآن المجيد ، فلم نر ضرورة لإيرادها هنا .

- ٢ -

ومن الحق أن نقول : إن كثيراً من الأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المجموعات الثلاث غير واردة في كتب الأحاديث الصحيحة ، وإن كثيراً منها يتحمل النظر والتوقف موضوعياً ، غير أن من الحق أن نقول أيضاً : إن ما جاء في المجموعة الثالثة إجمالاً أكثر وثاقة من جهة ، وأنها مع الأقوال المؤيدة لها الصادرة عن كثير من علماء المسلمين وأئمتهم أكثر اتساقاً مع طبائع الأمور والظروف من جهة أخرى .

فالقرآن أعظم مظاهر النبوة ، ومعجزتها الخالدة ، وكان مدار الاحتجاج والدعوة مع العرب والكتابين الذين كانت لهم كتبهم المتداولة في أيديهم المكتوبة على قراطيس وورق ومواد لينة تنشر وتطوى بسهولة ، وقد تكرر في القرآن كثيراً الإشارة إلى كتب الكتابين من جهة وذكر (الكتاب) في القرآن بمعنى (القرآن) من جهة أخرى . فلا يعقل في حال أن يهمل النبي صلى الله عليه وسلم تدوين ما كان ينزل عليه من الوحي القرآني ،

وأن لا تكون عنايته بذلك فائقة ، وأن لا يحرص على تدوينه في وسائل لينة تطوى وتنشر كالصحف والقراطيس وورق الحرير ، ثم على حفظ مدوناته حرصاً شديداً مرتبة منسقة . بل والمعقول أن يكون ذلك من أهميات مشاغله المستمرة . وكل هذا مما تفيدته أحاديث وروايات المجموعة الثالثة ، ومما تفيدته قرائن قرآنية كثيرة أوردناها في كتابنا القرآن المجيد (١) ، ومما يؤيده تعليقات جم غفير من علماء المسلمين .

وما روي من أن القرآن كان يكتب على الوسائل البدائية الثقيلة الحجم والصعبة الحفظ ، والنقل كأضلاع النخيل ، وقطع الخشب والحجارة ، واكتاف العظام لا يصح أن يقبل على علاته بناء على ما تقدم وإن كان ورد في حديث يعد من الصحاح ، وكل ما يحتمل أن يكون أن النبي صلى الله عليه وسلم إذ استدعي أحد كتابه لإملاء ما يكون نزل عليه من وحي فور نزوله ، وهو ما كان يفعله دائماً على ما تفيدته الأحاديث والقرائن القرآنية أن لا يكون متيسراً إلا شيء من هذه الوسائل البدائية ، فيكتب الكاتب عليها ما يمليه النبي صلى الله عليه وسلم مؤقتاً ريثما ينقل إلى مكانه من سجلات القرآن مما عبر عنه زيد بن ثابت كاتب وحي رسول الله في قوله في حديث مأثور له (كنا نؤلف القرآن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرقاع) ومن المحتمل كذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل المدن أو البادية ، كانوا يكتبون بعض الآيات التي كانوا يتلقونها من النبي صلى الله عليه وسلم على قطع من تلك الوسائل للتبرك والحفظ والنقل على اعتبار أنها أبقى على الزمن ، وأقل تعرضاً للفناء والتمزيق على نحو ما اعتاد المسلمون أن يفعلوا في مختلف أدوارهم في كتابة اللوحات القرآنية مع بعض التعديل . فلما دعي المسلمون إلى الإتيان بما عندهم من قرآن حينما عزم أبو بكر ، وكبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تحرير المصحف الإمام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بقصد زيادة الاستيثاق والضبط والتحري أتوا فيما أتوا به بهذه القطع ، فحفظت الروايات هذه الصورة .

(١) انظر ص ٥٢ - ١١٥ وبنوع كاس ص ٩١ وما بعدها .

ولقد كان في مكة والمدينة جاليات نصرانية ويهودية تتداول كتباً مكتوبة على قراطيس تطوى وتنشر كما قلنا قبل . ولقد كانت مكة والمدينة مدينة تجارية متصلة بالبلاد المجاورة المتحضرة التي يكثر فيها وسائل الكتابة اللينة مما لا يعقل إلا أن يكون أهل هذه البيئة قد اقتبسوا ذلك .

ولقد احتوى القرآن أوامر بتدوين المعاملات التجارية النقدية وغير النقدية صغيرة كانت أم كبيرة ، ولقد تعددت الآيات القرآنية التي تذكر (الصحف) في صدد القرآن والكتب الأخرى ، ولم يقل أحد أنها كانت تعني تلك الوسائل البدائية ، بل إن المفهوم القرآني هو في جانب كونها وسائل تطوى تنشر ، ولقد سميت مجموعة القرآن التي حررت في عهد أبي بكر بعد وفاة النبي لتكون الإمام والمرجع باسم الصحف والمصحف لأنها كتبت على صحف من ورق على الأرجح أو من رقوق ناعمة مسواة . ولقد كان في أيدي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من المصاحف والصحف القرآنية المكتوبة بخطوط متنوعة وهي التي أمر عثمان بإحراقها حينما نسخ مصاحفه عن مصحف أبي بكر لتكون موحدة الرسم ، وأمر الناس بكتابة مصاحف جديدة عنها . وهذا العهد متصل بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يفيد كل هذا أن وسائل الكتابة اللينة السهلة الطي والنشر والحفظ متيسرة في هذا العهد .

وهناك ما يمكن أن يعتبر حقائق لاخلاف فيها تؤيد كون المصحف المتداول هو مرتب وفق ترتيب النبي صلى الله عليه وسلم ، واحتوى كل ما كان ثابتاً قرآنًا غير مرفوع وغير منسوخ حين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، منها أن المصاحف المتداولة اليوم بين المسلمين هي نسخ متطابقة نصاً وترتيباً ورسم كتابة ، وإن اختلفت خطوطها ، وليس هناك مصحف متداول بين المسلمين متباين معها في الألفاظ والترتيب ، ومنها أن التواتر الذي لم ينقطع هو أن هذه المصاحف نسخة طبق الأصل في نصها وترتيبها ورسمها للمصاحف التي نسخت بأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأريد بها أن تكون جميع المصاحف موحدة الرسم حتى يمتنع الخلاف في القراءة ، ومنها أن المصاحف العثمانية منسوخة نصاً وترتيباً عن المصحف الذي حرر في زمن أبي بكر رضي الله عنه على ملا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتوى كل ما ثبت أنه قرآن لم يرفع ولم ينسخ

حين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ومنها انه ليس هناك رواية او حديث ما وثيق او غير وثيق منسوب إلى أحد أصحاب رسول الله الذين أشرفوا او باثروا كتابة المصحف الأول في زمن أبي بكر او المصاحف العثمانية فيه أي اشارة، إلى أن ترتيباً جديداً طرأ على القرآن آيات في سور وسور في تسلسل او أريد به ذلك ، حيث يصح القول بجزم : أن المصحف الأول الذي نسخت عنه المصاحف العثمانية ، قد حرر حسب ما كان مرتباً مدوناً في القراطيس والمصاحف ، ومحفوظاً في الصدور في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كبار وعلماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرصوا كل الحرص ، واهتموا أشد الاهتمام لتحرير القرآن وضبطه على أحسن وجه وأقومه ، وأنهم تضامنوا في ذلك كل التضامن حتى كان مصحف أبي بكر الإمام الذي لا يتحمل أي شك في أنه كان مطابقاً لما مات عنه النبي صلى الله عليه وسلم نصاً وترتيباً والذي كان مصحف عثمان نسخة مطابقة له نصاً وترتيباً كذلك ، وأنهم كانوا مسوقين في حرصهم واهتمامهم بسائق ديني إيماني ملك عليهم مشاعرهم رهبة وهيبة وتقديساً وتعظيماً ولم يكن عملهم هذا شخصياً أو سياسياً بل هو متصل بأقوى عمد الدين والإيمان وأعظم مظاهر النبوة وأكبر تراث خلفه النبي صلى الله عليه وسلم ، وبحيث يمكن القول بجزم بناء على ذلك إن ما ورد في الروايات التي جلها أو كلها غير وثيق السند مع ذلك من زيادات أو نقص في الكلمات والآيات والسور ، ومن مخالفة للترتيب لم يثبت عند المأ من أصحاب رسول الله وناتج عن وهم وخطأ ، وليس وعدم تثبيت فاهمل ، ومنه ما يصح القول بقوة : إنه مخترع ومدسوس بنية سيئة وقصد مغرض . وجمهور العلماء والمؤلفين مجمعون على هذه الحقائق بدون خلاف ، ومن جملة ذلك علماء ومؤلفوا الشيعة الإمامية (١) .

وهناك الحقيقة الكبرى ، وهي كون القرآن المتداول سورة وفصوله ومجموعاته وآياته وكلماته ونظمه كل ذلك متصل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وصادر عنه مباشرة بوحي رباني نزل على قلبه ، وكون هذا لم

(١) ذكرنا هذا لأن هناك روايات يسوقها غلاة من الشيعة يزعمون بها وقوع تحريفات واختلالات في القرآن مما يتصل بوصاية وولاية علي بن أبي طالب وأولاده رضي الله عنهم يبرز عليها طابع الافتعال والاختراع قوياً .

يكن في وقت من الأوقات محل أخذ ورد وشك وتوقف من قبل المسلمين على اختلاف نحلهم وفرقهم وأهوائهم . ومن لدن شاهدي العيان لأعلام النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآن ، كما أن صدوره مباشرة عنه لم يكن محل ريب من قبل غير المسلمين أيضاً ، وكون القرآن ، وظل ولن يزال معجزة النبي العظمى الخالدة ، وكونه أصفى منبع إسلامي للأحكام والعقائد والتشريع والإلهام والفيض والتوجيه والتلقين فيه الحق والهدى والصدق والرشد ، وفيه المبادئ السامية والشفاء للصدور ، والعلاج للنفوس والحلول لمتنوع المشاكل الإيمانية والروحية والسلوكية للناس كافة ، وخلفه النبي صلى الله عليه وسلم في المسلمين بل وللإنسانية فلا يضلون أبداً إذا ما اتبعوه وتمسكوا به ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . ولقد وعد الله بحفظه في آية سورة الحجر هذه :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .) ٩

فحقق الله وعده في حفظه من أي تبديل وتغيير وتحريف وزيادة ونقص ، مجمعاً عليه في رسم واحد ، ونص واحد ، ومصحف واحد ، وترتيب واحد في مشارق الأرض ومغاربها ، محتفظاً بكل إشراقه وسمائه وروحانيته ، وألفاظه وحروفه وأسلوب تلاوته وترتيبه كما تلاه ورتله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبترتيبه الذي رتبته مما لم يتيسر لأي كتاب سماوي (١) ليظل مرجع كل خلاف ، وحكماً في كل نزاع ، والقول الفصل في كل مذهب ، وعند كل نحلة ، منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليوم وإلى ما شاء الله لهذه الدنيا أن تدوم ، ويكفي لتبين

(١) ليس في أيدي اليهود والنصارى ما يجوز تسميته تورا موسى وانجيل عيسى عليهما السلام ، فقد كان فعلاً تورا لموسى ، وانجيل لعيسى على ما ذكر بصراحة في أسفار العهد القديم والجديد ، ولكنهما فقدتا ، وهذه الأسفار مكتوبة بأقلام مختلفة بعد موت موسى وعيسى عليهما السلام وما جاء فيها من تبليغات معزوة إلى الله بلسان موسى وعيسى قد جاء رواية وحكاية ، وليس منها شيء باملانها (إقرأ كتابنا) القرآن والمبشرون) فان فيه فصلاً في التوراة والانجيل في القرآن والواقع فيه وضع الأمر في نصابه الحق) .

خطورة المعجزة الربانية العظمى في حفظه أن يذكر المرء ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب ، وتنافس في سبيل الحكم والسلطات منذ صدر الإسلام الأول ، وما كان من اجتراء أصحاب الأهواء في ذلك العهد وبعده على رسول الله صلى الله عليه وسلم والكذب عليه في وضع الأحاديث المتضمنة تأييد فئة على فئة ، وراي على راي ودعوة على دعوة ، وما كان من وضع الأحاديث والروايات لصرف آيات القرآن إلى غير وجهها الحق ، وتأويلها بغير وجهها الحق بسبيل ذلك ، وما كان من استعلاء قوم على قوم وشيعة على شيعة استعلاء القوة والسلطان مع اشتداد العداء والتجريح ، واشتداد تيار الأحاديث المفتراة ، وكان ممن صار له السلطان القوي الواسع المديد فئات كانت تقيم دعوتها على صرف الآيات الى هواها ، وتأويلها على غير وجهها الحق والاجتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بسبيل ذلك ، وأن يذكر أن هذا كان في وقت لم يكن القرآن فيه مطبوعاً ولا مصوراً ، ولم يكن من المستحيل فيه أن يجرأ الذين اجتروا على رسول الله وأصحابه ، وكذبوا عليهم ، وصرفوا الآيات على غير وجهها الحق على كتاب الله فيغيروا ويبدلوا ويزيدوا وينقصوا تبديلاً جوهرياً سائفاً على المسلمين مؤيداً لأهوائهم ، وينشروا به مصاحف عديدة ، وبخاصة في الآيات التي حاولوا صرفها عن وجهها الحق إلى تأييد أهوائهم ودعوتهم ، أو إضعافها لتكون أكثر مطابقة مع الوجوه التي أريد صرفها إليها سلباً وإيجاباً ونفيّاً وإثباتاً ، وفي وقت كانت الكتابة العربية فيها سقيمة ، وكان التشابه بين الحروف كثيراً ، واحتمال اللبس قوياً . وما كان من محاولات قليلة في صدد ذلك كان غثاً وتافهاً ومرفوضاً كل الرفض ، ومنكراً أشد الإنكار فلم يكتب له حياة ولا دوام .

وتحقق هذه المعجزة القرآنية الربانية الحاسم المذهل دليل مقنع في حد ذاته لا يتحمل أي مكابرة ولا توقف لكل ذي نية حسنة من غير المتدينين والمسلمين ، ومخرس مفحم لكل ذي نية سيئة في الوقت نفسه على صحة وصدق الوحي الرباني القرآني ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد حفظت بركة هذه المعجزة الربانية اللغة العربية التي نزل بها القرآن قوية مشرقة لكل ما كانت بلغت إليه من شأو عظيم فريد قصرت وما تزال تقصر عنه معظم لغات الأرض من سعة وبلاغة ودقة نفوذ وعمق ونصاعة وقواعد وضوابط لتظل لغة الأمة العربية الفصحى في كل صقع

وفي كل دور وزمان وهو مالم يتيسر للغة أمة من أمم الأرض ، ولتكون إلى ذلك لغة عبادة الله لجميع الأمم الإسلامية المنتشرة في أنحاء الأرض خلال الأربعة عشر قرناً ، ثم خلال القرون الآتية إلى ما شاء الله بل لترشح لتكون لغة العالم الإسلامي ، بل لغة الإنسانية حينما يأذن الله بتحقيق وعده ، وإظهار الإسلام على الدين كله ، ولن يخلف الله وعده ، وذلك رغم ما يبذله الملحدون والمبشرون والمستعمرون من ورائهم ضدها من جهود مستميتة يأسفة تظهر حيناً وتخبو حيناً سواء فيما يقترحونه ، ويسعون فيه من اصطناع العمامية في الكتابة والتأليف أم في استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتشويه محاسن الأداء فيها وتبديد ما تمثله من تراث عربي إسلامي عريق مجيد .

ولقد حفظت الأمة العربية ببركتها موحدة قوية الحيوية صامدة أمام ما وقع عليها من نكبات ، وتسلسل إليها من عناصر غريبة محتفظة بمواهبها العظيمة وخصائصها القومية التي كان من مظاهرها اصطفاء الله لخاتم أنبيائه ورسله منها ، وإنزاله آخر كتبه بلفتها ، وإن غدت ذات رسالة عالمية خالدة بما حملها القرآن من عبء الدعوة إلى الله ، ونشر رسالته السامية المتممة لما سبقها والتي بقيت نقية صافية كما هي في منبعها الأول الذي حفظه الله ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وأن ترشحت بذلك لتكون خير أمة أخرجت للناس إن هي قامت بما حملها إياه القرآن من ذلك العبء ودعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وتحققت بالأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها .

والروايات تذكر أن عثمان أرسل نسخاً من المصحف المنسوخ بالإملاء القرشي إلى الأقطار ، وأمر بالنسخ عنه ، وإحراق ماعداه ، وتم ذلك في هذه الأقطار وفي المدينة العاصمة ، ولو كان في أيدي المسلمين في المدينة ، وفي ما انتشروا فيها من المشارق والمغرب مصاحف مبانة في الآيات والترتيب والكلمات لمصحف عثمان المذكور ، لظهرت . فعمال عثمان لا يمكن أن يكونوا قد مشطوا كل بيت في كل بادية وقرية ومدينة ، فأحرقوا ما كان

فيه من مصاحف ، وما دام لم يظهر مصاحف مبينة فيكون المسلمون قد اطاعوا أمر الخليفة طوعاً وربة وتديناً ، ولا يمكن أن يكون هذا إلا إذا لم يكن في أمره خلاف ، أي : لم يكن بين مصحف عثمان والمصاحف التي كانت متداولة في أيديهم مبيانات في غير الإملاء والكتابة ، لأن الاحتفاظ بذلك يكون منهم تديناً أيضاً ، ولا سيما أن فريقاً غير يسير من أهل الأمصار بل ومن المدينة ، قد نعموا على عثمان ، وثاروا عليه وقتلوه ، وصارت بسبب ذلك حروب دامية امتدت آثارها إلى أمد بعيد بعد قتله . وهذا الشرح يظهر تفاهة ما يقوله بعض المستشرقين والمبشرين من وجود مبيانات بين مصحف عثمان والمصاحف المتداولة قبله ، ومن أنه لو لم يأمر عثمان بإحراق هذه المصاحف لتسنى للناس الوقوف على هذه المبيانات . . .

وهناك رواية تذكر أن المصحف المتداول هو مصحف الحجاج ، وأنه مبين لمصحف عثمان ، والرواية من جهة غير وثيقة ، ومن جهة أن كل ما تفيد أنه الحجاج أمر أو وافق على وضع نقاط للحروف وتصحيح كتابة بعض الألفاظ دون أي تبديل وتغيير في مصحف عثمان ، ومن جهة أن جمهرة علماء القرآن قد كذبوها وفندوها من جهة النقل ومن جهة العقل (١) ويمكن أن يقال إضافة إلى ماذكروه : إنه كان ناقمون ومحاربون كثيرون منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها للحجاج والدولة الأموية ، ولا يمكن قطعاً أن يكون الحجاج وعماله وعمال الدولة الأموية قد تتبعوا كل ما في أيدي المسلمين بما فيهم هؤلاء الناقمون المحاربون من مصاحف وأبادوها وحملوهم على مصحف جديد ، فلو كان للرواية أصل ما لكان بقي مصاحف كثيرة جداً في أيدي الخصوم والناقمين والمحاربين مبينة للمصحف المتداول المزعوم إنه مصحف الحجاج ، ولقد قامت بعد دولة الأمويين الشامية الدولتان العباسية والفاطمية ، وشمل سلطانهما القسم الأعظم مما كان تحت حكم الأمويين في المشرق والمغرب ، وكانت كلتاها ناقمتين حاققتين على الدولة الأموية والحجاج ومجتهدتين في تشويه سيرتهما وهدم ما أسسوه ، وكان من أهم ما يقتضي أن يفعلوه نفس ما زعم

(١) انظر الاتقان للسيوطي والبرهان في علوم القرآن . وقرأ كتابنا القرآن والمبشرون فان فيه بحثاً وافياً في ذلك فندنا فيه قول المبشرين .

أن الحجاج فعله ، وإعادة الأمر إلى نصابه ، ولم ترو الروايات شيئاً ما في هذا الصدد ، وفي هذا تكذيب حاسم لذلك الزعم .

ثانياً : أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف

- ١ -

لقد ائترت أحاديث نبوية عديدة مختلفة الرتب في صدد نزول القرآن على سبعة أحرف ، وقد اختلف علماء المسلمين وباحثوهم في مدى هذه الأحاديث ، ورويت في صدد ذلك أقوال كثيرة عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم فيها بعض الخلاف ، واستغل ذلك المبشرون والملحدون ، فحاولوا أن يجدوا المآخذ والثغرات في القرآن عبره ، ووصل الأمر في بعضهم إلى زعم أنه كان للقرآن صيغ عديدة أسقطت عدا واحدة هي التي كتب بها مصحف عثمان رضي الله عنه ، بل ووصل التخريف في بعضهم إلى القول : إن المسلمين أضاعوا على الناس معرفة ما كان في الحروف والصيغ الأخرى من مبانى ومناقضات واختلاف بالنسبة للحرف الذي أثبتوه ، واقتصروا عليه في حين أن الإنجيل نزل على أربعة أحرف تمثلت في أناجيل : متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا ، ولم يكن فيها ما يخشاه النصارى من تناقض وتباين فاحتفظوا بها كما نزلت كشهادات متعددة على صحة الإنجيل ووحدة جوهره واتفاق معانيه مع اختلاف ألفاظه . والشرع العالمي الديني والمدني لا تقوم صحته على شهادة واحدة ، وهكذا يكون لصحة الإنجيل أربع شهادات بينما ليس للقرآن إلا شهادة واحدة (١) ، وهكذا تبلغ الصفاقة والمفارقة في الزاعم إلى الزعم صراحة أنه كان للقرآن سبع نسخ مختلفة في العبارات

(١) جاء هذا في ملحق لجريدة النهار البيروتية المؤرخ في ١٩٦٥/١/١ بامضاء الأب يوسف دره ، وجاء شيء من ذلك بتفصيل أوسع في الكتاب رقم (٢) المعنون بعنوان (الكتاب والقرآن) لمؤلف سمي نفسه (الاستاذ حداد) ، وعلمنا أن اسمه يوسف . ولعله هو نفسه كاتب ذلك الملحق .

والترتيب والسياق والسور والالفاظ مثل الاناجيل الاربعة . وينسى الهوى قائل ذلك ان الاناجيل ليست إلا ترجمة لحياة عيسى عليه السلام كتبها أناس بعده سماعاً ورواية وليس فيها ما يدل على أن فيها شيئاً من إملائه مثل القرآن الذي هو إملاء النبي مباشرة بوحى الله ، وأنها ليست أربعة بل أضعاف هذا العدد بحيث يكون في هذا الزعم سخريّة بالعقل والحقيقة وجراة عليهما وعلى الحق والمنطق . وهذا فضلاً عن أنه لم يقل أحد من المسلمين أن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف اختلاف وتعدد في النصوص ، وأن الذي أجمع عليه أئمتهم أن ذلك إنما كان لتيسير قراءة القرآن بأداء ولهجة مختلفة حسب استطاعة وأداء ولهجة القراء المختلفين منازل وقبائل وثقافات ولهجات ، وأن ما كان من كتابة مصحف عثمان هو قصد كتابته بهجاء موحد لمنع اختلاف المسلمين في القراءة بسبب اختلاف طرق الكتابة والإملاء التي كتبوا بها مصاحفهم .

ولقد شرحنا هذا الأمر في كتابنا (الرد على المبشرين) فرائنا أن نشرحه هنا أيضاً لأن من المحتمل أن لا يقرأ جميع الناس ، ذلك الكتاب أو أن يكون هذا الموضوع تكأة للملحدين فيكون شرحه هنا مناسباً .

ولقد شرحنا هذا الأمر في كتابنا (القرآن والمبشرون) فرائنا أن نشرحه هنا أيضاً لأن من المحتمل أن لا يقرأ جميع الناس ذلك الكتاب أو أن يكون هذا الموضوع تكأة للملحدين فيكون شرحه هنا مناسباً .

- ٢ -

والاحاديث الواردة كلها تدعم ذلك ، فمما ورد منها في كتب الحديث الصحيح هذا الحديث الذي رواه مسلم وأبو داود ، عن أبي بن كعب قال : « إن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال له : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك .

ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف . فأیما حرف قرؤوا علیه فقد أصابوا » . ومنها حدیث رواه البخاری ، عن عبد الله بن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقراني جبریل علیه السلام على حرف فراجعته فلم أزل استزید ویزیدني حتى انتهى الى سبعة أحرف » ومنها حدیث رواه الترمذی عن أبي جاء فيه « ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يا جبریل : إني بعثت إلى أمة أمیین فهم المعجوز والشیخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم یقرأ كتاباً قط . قال یا محمد : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف »

وهناك أحادیث وردت في كتب الحديث الصحيح فيها أحداث تطبيقية ، منها حدیث رواه مسلم عن أبي قال « كنت في المسجد فدخل رجل یصلي فقرأ قراءة أنكرتها علیه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها علیه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ، فحسن النبي شأنهما فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذا كنت في الجاهلية ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد غشيني ضرب في صدري ، ففضت عوقاً ، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقاً ، فقال لي یا أبي : أرسل الله إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه أن هون على أمتي ، فرد إلى الثانية : إقرأه على حرفین فرددت علیه أن هون على أمتي ، فرد عليّ الثالثة : إقرأه على سبعة أحرف » ومنها حدیث رواه الاربعة عن عمر بن الخطاب قال : « سمعت هشام بن حكيم بن حزام یقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله أقرانيها . فأردت أن أعجل علیه ثم أمهلت حتى انصرف - أي انتهى من صلاته - ثم لبسته بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : یا رسول الله : سمعت هذا یقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرتنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله . ثم قال : أقرأ یا هشام ، فقرأ القراءة التي سمعته یقرأ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا نزلت ، ثم قال لي اقرأ فقرات فقال : هكذا أنزلت ثم قال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه » .

وهناك احاديث اقل رتبة من الاحاديث الواردة في كتب الصحاح فيها اصل وتطبيق ، وفيها بعض الخلاف ، وليس فيها أي معنى يؤيد ذلك الزعم . من ذلك حديث رواه ابو عبيد القاسم بن سلام عن أبي بن كعب قال « ما حك في صدري شيء منذ اسلمت إلا أنني قرأت آية ، وقراها آخر غير قراءتي فقلت أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتينا رسول الله فقلت : يا رسول الله : أقرأني آية كذا وكذا قال نعم ، وقال الآخر : اليس تقرؤني آية كذا وكذا ؟ قال : نعم ، فقال : إن جبريل وميكائيل أتياي ، فقعد جبريل عن يميني ، وميكائيل عن يساري ، فقال جبريل : أقرأ القرآن على حرف فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ سبعة أحرف ، وكل حرف كاف شاف » ، وقد قال ابن كثير الذي أورد هذا الحديث في كتابه « فضائل القرآن » : إن هذا الحديث رواه النسائي أيضاً ، ومن ذلك حديث ابن جرير ، عن أبي بن كعب قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : خفف عن أمتي ، فقال : أقرأه على حرفين ، فقلت : خفف عن أمتي ، فأمرني أن أقرأ على سبعة أحرف كلها شاف كاف » ومن ذلك حديث رواه الامام أحمد عن حذيفة قال « لقي النبي جبريل عند أحجار المراء فقال : إن أمتك يقرؤون القرآن على سبعة أحرف فمن قرأ على حرف فلا يتحول عنه إلى غيره رغبة عنه » وحديث رواه الامام أحمد عن عمرو بن العاص « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، على أي حرف قرأتم أصبتم ، فلا تماروا : إن المراء فيه كفر (١) » وحديث رواه الامام نفسه عن طلحة قال : « قرأ رجل عند عمر ، فغير عليه فقال : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يغير عليّ . قال : فاجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ الرجل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أحسنت . قال : فكان عمر قد وجد في نفسه من ذلك ، فقال له

(١) المتبادر أن كلمة المراء والنهي عنه تعني عدم المجادلة والقول قراءتي أحسن أو أصوب من قراءتك إذا ما كانت القراءتان لا تغييران نصاً أو معنى .

النبي صلى الله عليه وسلم : إن القرآن كله صواب ، ما لم تجعل مغفرة عذاباً ، وعذاباً مغفرة » وحديث رواه أبو يعلى ، عن المنهال ، قال : « بلغنا أن عثمان قال يوماً وهو على المنبر : اذكر الله رجلاً سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف أن قام فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك ، فقال : عثمان : وأنا أشهد معهم » وحديث رواه الامام أحمد عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، المرء في القرآن كفر ثلاث مرات ، فما علمتم فافعلوا به ، وما جهلتم فردوه الى عالمه » وفي رواية « أنزل القرآن على سبعة أحرف عليمًا حليمًا غفورًا رحيمًا » وحديث أورده ابن كثير في فضائل القرآن لفظ أبي داود ، عن أبي قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أقرئت القرآن فقيل لي على حرف أو حرفين ؟ فقال الملك الذي معي : قل على حرفين ، فقيل : لي على حرفين أو ثلاثة؟ فقال الملك الذي معي : قل على ثلاثة ، حتى بلغ سبعة أحرف ، قال : ليس منها إلا شاف كاف ، إن قلت سميعاً عليمًا ، أو عزيزاً حكيمًا ، ما لم تخط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب » وحديث رواه الامام أحمد ، عن أم أيوب الانصارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف أيها قرأت أجزاءك » .

وواضح من هذه الأحاديث أن الكلام يدور على كيفية أداء القراءة ولهجتها كما هو شأن الأحاديث الصحيحة التي سبق إيرادها ، وأوسع ما فيها من ترخيص هو التساهل في أن يخطئ القارئ ، فيقول عليمًا بدل حليمًا وغفورًا بدل رحيمًا .

ولقد تعددت تخريجات العلماء لمعنى الأحرف السبعة ، حتى قال السيوطي : إنها بلغت خمسة وثلاثين ، وأورد في كتابه « الاتقان » منها

أثنين وعشرين ، منها ما لا يبدو صلة بينه وبين قراءة النص القرآني (١) ، ومما له صلة بقراءة النص القرآني « أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بل التيسير والتسهيل والسعة ، ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة في الأحاد كما يطلق لفظ السبعين في العشرات والسبعمئة في المئات وهو المقصود بما جاء في القرآن من ذلك » ومنه « أن المراد وجوه قراءات الكلمة التي تحتل كتابتها قراءات عديدة مثل جملة (أو عبد الطاغوت) التي يمكن ويصح قراءتها (عابد الطاغوت) ومثل جملة (مالك يوم الدين) التي يمكن ويصح قراءتها (ملك يوم الدين) ومنه « المراد بذلك إجازة تقديم وتأخير في الجملة مثل (وجاءت سكرة الموت بالحق) التي يصح أن تقرأ ، (وجاء سكرة الحق بالموت) و (إن الله لا يهدي من هو كافر كذاب) التي يصح أن تقرأ (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) ومنه (أن الرخصة قد كانت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأن أكثر الناس لم يكونوا يقرؤون ويكتبون أو يحسنون ذلك ، ولم يكونوا يعرفون رسم الحروف ومخارجها معرفة جيدة) ومنه (ما يقع من اختلاف القراءة للأفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث ، وتصريف الأفعال من ماض وحاضر وأمر ومخاطب وغائب واختلاف الإعراب باختلاف المواقع) ومنه (إن المقصود هو الأداء الصوتي من إمالة وترقيق وتشديد وتخفيف وتمكين دون تغيير في المعنى والصورة واللفظ) ومنه (إن المقصود هو الترخيص بقراءة الكلمة على وجهين أو ثلاثة أو سبعة تيسيراً وتهويناً) .

(١) من هذا النوع مثلاً أن المراد بها سبعة علوم علم الإنشاء والإيجاد ، وعلم التوحيد ، وعلم صفات الذات والأفعال وعلم صفات العفو والعذاب ، وعلم الحشر والحساب ، وعلم النبوات ، ومن ذلك ما احتواه القرآن من زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، أو من حلال وحرام وأمر ونهي وزجر وخبر ما هو كائن بعد وأمثال ، أو أمر ونهي وحد وعلم وسر وظهر وبطن ، أو من أمر حتم وأمر ندب ونهي حتم ونهي ندب وأخبار وأبحاث ، أو سبع معاملات من زهد وقناعة مع اليقين وجزم وخدمة مع الحياء ، وكرم وفتوة مع الفقر ومجاهدة مع الخوف ، ورجاء مع الشكر ، وصبر مع المحاسبة ، ومحبة وشوق مع المشاهدة ، وهذا تخريج من الصوفيين ، ومنها أمر ونهي وبشارة ونذارة وأخبار وأمثال ، ومنها محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص ، ومنها مقدم ومؤخر وفرائض وحدود ومواعظ ومتشابه وأمثال ..

وقد اورد السيوطي الى هذا تقريرات عديدة لبعض العلماء في صدد ذلك . منها (إن المسلمين اجمعوا على تحريم إبدال آية بآية) و (إن جماهير العلماء من السلف والخلف ، وأئمة المسلمين قالوا : إن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من القرآت السبع ، وإنها جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل متضمنة لها لم تترك حرفاً منها) و (إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأوا الناس يختلفون في قراءة الكلمات اجمعوا على كتابتها على ما جاء في المصحف العثماني ، وعلى ما تحققوا أنه القرآن المستقر في العرضة الأخيرة ، وتركوا سوى ذلك ، وإن ما يقرؤه المسلمون فيه هو الذي كان يقرأ في العام الذي قبض النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، وإن زيد بن ثابت الذي كتب مصحف أبي بكر كان كاتب وحي رسول الله وشهد العرضة الأخيرة ، وكتبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرأها عليه ، وكان يقرئ الناس عليها ، ولذلك اعتمده ابو بكر وعمر في كتب المصحف ، وولاه عثمان نسخة ثانية فنسخه عن نسخة أبي بكر) .

وواضح من هذه الأقوال التي هي التي يصح سوقها في معرض شرح مدى احاديث الأحرف السبعة ، ومن الأحاديث السبعة نفسها على اختلاف رتبها انها ليس فيها ما يفيد انه كان للألفاظ القرآنية صيغ متعددة أو انه كان يقرأ قرآت مختلفة في الألفاظ ، وكل ما تفيده أن بعض كلماته كانت تكتب وتقرأ بشيء من الاختلاف الادائي ، وكل زعم أو وهم خلاف ذلك مردود بفحوى وروح الأحاديث على اختلاف رتبها ، وبفحوى تقريرات العلماء لمداهها من جهة ، وبناء على ما شرحناه شرحاً وافياً مقنعاً فيما نعتقد من ظروف ووقائع تدوين القرآن وترتيبه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتداوله بعده على نفس الترتيب من جهة أخرى .

ومن الجدير بالتنبيه أن الأحاديث المروية ، وتقريرات العلماء المتصلة بقراءة النص القرآني والمفسرة لمدى الأحاديث هي على المتبادر القوي في صدد تلاوة القرآن غيباً ، وليست في صدد كتابته أو تلاوته من الصحف

حاضراً من حيث الأصل والمدى في الحديث الذي يرويه الترمذي مايدعم ذلك ، فقد جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : إنه بعث إلى أمة أميين ، أي : لا يقرؤون ، وإنما يسمعون فيحفظون فيقرؤون من حفظهم حيث يبدو بارزاً أن التيسير الرباني النبوي إنما كان لمن يتلو القرآن غيباً من حفظه لأن احتمال التقديم والتأخير ، وإبدال كلمة بكلمة هو الوارد في مثل ذلك .

وليس هناك أي قول بتجوير كتابة كلمة ما في مصحف بدل كلمة في المصحف العثماني المنسوخ يقيناً عن مصحف أبي بكر المأثور يقيناً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بتجوير قراءة كلمة ما حاضراً من المصحف مغايرة لما في ذلك المصحف ولو كانت الكلمتان مترادفتين ، أو في معنى واحد ، ولا قراءة من مصحف مع تقديم أو تأخير في كلمة أو إغفال حرف ما حتى ولو لم يختل المعنى .

وننبه على أمر مهم آخر وهو أن ما هنالك من تعدد القرآت مما يسمى بالقرآت السبع أو العشر ليس هو في صدد اختلاف في الألفاظ أو نقص أو زيادة فيها ، وإنما هو في صدد اختلاف الأداء في القراءة بسبب طريقة كتابتها وإملائها ونطقها وحسب مما سوف نزيده شرحاً في نبذة آتية .

ثالثاً : القرآت القرآنية

إن بعض المتحليين يلتمسون فيما يسمى بالقرآت السبع أو العشر أو الأربع عشر ثغرات في القرآن ، فصار من المناسب إيراد نبذة وجيزة في ذلك لوضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله

وأئمة القرآت المشهورة سبعة وهم : ابن عامر عبد الله اليحصبي وكان مقامه في دمشق وهو تابعي توفي سنة (١١٨) ، وأبو سعيد عبد الله بن كثير الدارمي وهو تابعي ، وكان مقامه في مكة وتوفي سنة (١٢٠) وأبو بكر عاصم بن أبي النجود وهو تابعي مقامه في الكوفة وتوفي سنة (١٢٧)

وحمزة أبو عمار بن حبيب الزيات وكان مقامه الكوفة وتوفي سنة (١٥٦)
وأبو رويم نافع بن عبد الرحمن وكان مقامه المدينة وتوفي سنة (١٦٩)
وأبو الحسن الكسائي ، وكان مقامه الكوفة وتوفي سنة (١٨٩) وأبو عمرو
زبان بن العلاء وكان مقامه في البصرة وتوفي سنة (١٥٤) .

ويضيف بعضهم إلى هؤلاء ثلاثة أئمة للقراءة هم أبو جعفر بن زيد في
المدينة وتوفي سنة (١٦٠) ويعقوب بن الحصري في البصرة وتوفي سنة (٢٠٦)
وخلف البزار في الكوفة وتوفي سنة (٢٢٩) فتصبح القرآت عشرة .

ويضيف بعضهم أربعة أئمة آخرين هم الحسن البصري المتوفى سنة
(١١٠) وابن محيصن المكي المتوفى سنة (١٢٣) ويحيى اليزيدي البصري
المتوفى سنة (٢٠٢) ومحمد بن إبراهيم الشنبوذي البغدادي المتوفى سنة
(٣٨٨) فتصبح القرآت أربع عشرة .

مع التنبيه على أن بين علماء القرآن خلافاً في صدد إمامة المضافين
على السبعة الأولين والأخذ بقرآتهم حيث يجيزها بعضهم ويقصر بعضهم
وجوب الأخذ بقرآت الأئمة السبعة الأولين .

وتدور خلافات القراءة في النطاق التالي :

- ١ - مخارج الحروف كالترقيق والتفخيم .
- ٢ - الإمالة أي : الميل إلى المخارج المجاورة كنطق الالف المقصورة
أقرب إلى الياء .
- ٣ - الإشمام وهو جعل الشفتين على صورة الحركة أو الإشارة
إليها من غير تصويت .
- ٤ - الأداء كالمد والقصر والوقف والوصل والتسكين والنقل
ومواضعها وما يجوز وما لايجوز منها .
- ٥ - الرسم كالتشديد والتخفيف .
- ٦ - الإدغام والإظهار .
- ٧ - الإبدال .

- ٨ - قراءة الميموز والهمزات .
- ٩ - اجسام الكلمات مثل ملك ومالك ، ومسجد ومساجد ،
ويخدعون ويخدعون .
- ١٠ - التنقيط والحركات الإعرابية مثل يفعلون وتفعلون ، ونشرها
ونشزها .
- ولقد وضع علماء القراء شروطاً أربعة لصحة القراءة الخلفية وهي :
- ١ - التواتر بحيث لاتصح قراءة غير القراءة المتواترة المشهورة .
- ٢ - موافقة العربية بوجه ما بحيث لاتصح قراءة لاتتفق مع
قواعد اللغة .
- ٣ - رسم المصحف العثماني بحيث لاتصح قراءة مغايرة للرسم
المذكور .
- ٤ - صحة سند القراءة بحيث لاتصح قراءة خلفية لاتستند إلى
سند وثيق يتصل بأحد قراء أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم .
- وإجتمع الشروط الأربعة شرط لازم بحيث لاتصح قراءة لاتجتمع فيها
- وواضح من كل ما تقدم ان القراءات الخلفية هي اختلاف في قراءة
كلمات المصحف العثماني في نطاق اللفظ والأداء والحركات والتنقيط ورسم
الكتابة مما يتحملة كتابة مصحف عثمان ، ومما هو مسموع من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم المفروض أنهم تلقوا عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أو رخص لهم رسول الله وفيه تسهيل وتيسير وحسب ،
وليس على كل حال في الفاظ وكلمات وآيات ...

(٤) النسخ والتبديل والتعديل في القرآن .

- ١ -

وهذه مسألة أخرى يحاول المتمحلون أن يجدوا فيها ثغرة ضد الوحي الرباني القرآني ، فصار من المناسب إيراد نبذة وجيزة يوضع بها الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .

والثغرة التي يثير المتمحلون الكلام حولها هي في صدد ما تفيد به بعض نصوص القرآن من وقوع نسخ وتبديل وتعديل في القرآن حيث يتساءلون تسأول المنكر عما إذا كان يصح أن يكون القرآن وحياً من الله تعالى المحيط علمه وقدرته بكل ما كان ويكون عند المؤمنين ، ثم يكون منه بداء وتراجع عن موقف أو حكم أو أمر أوحى به أو تعديله أو إلغاؤه أو تبديله بغيره (١) .

- ٢ -

ولعلماء المسلمين بحوث سديدة قوية في دفع وتفنيد اعتراضات المعارضين وشبهاتهم ، وإثبات كون النسخ والتبديل في القرآن جائزاً عقلاً ، وليس من شأنه أن يخل بكمال صفات الله وقدرته وعلمه وحكمته . ونقول على طريقتنا بالإضافة إلى ذلك : إن القرآن قد أجاب على الاعتراض من ناحية المعنى والمدى إجابة قوية حيث قرر أن الله إذا شاءت حكمته شيئاً مامن ذلك ، فإنه لا حرج عليه لأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ولأنه إذا نسخ آية أو أنساها يأت بخير منها أو مثلاً في نطاق حكمته وقدرته ، ولأنه إذا بدل آية بآية فإن ذلك يكون لتثبيت الذين آمنوا وهدى وبشرى لهم كما جاء في هذه الآيات :

١ - (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير . ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما

(١) يقصد بالبداء ظهور أمر في موقف ما كان خافياً على صاحب الموقف ، فيجئ إلى تعديل موقفه أو العدول عنه نتيجة لذلك ، وفي القرآن آيات فيها هذا الفعل بهذا المعنى مثل آية سورة يوسف هذه : (ثم بدالهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . .)

سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل . ودد كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم من بعد ماتين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير (. البقرة : ١٠٦ - ١٠٩

٢ - (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .) الرعد : ٣٩

٣ - (وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين .) النحل : ١٠١ و ١٠٢

ومن الجدير بالتنبيه أن كلا من آيات السور الثلاث نزلت في مواقف اعتراضية على ما شاءت حكمة الله أن يكون من تبديل ونسخ لتجيب على الاعتراض ، وتضع الأمر في نصابه الحق حسب ما شرحناه . فآيات البقرة من سلسلة في مواقف اليهود ، وتفيد أن اليهود حاولوا تشكيك المسلمين فيما كان من حكمة الله من نسخ أو إنساء لبعض الآيات ، وآيات النحل في صدد موقف اعتراض وتهوئش من ناحية المشركين في ذلك أيضاً .

وهناك ما يصح أن يقال بالإضافة إلى ما في الآيات من أجوبة قوية تضع الأمر في نصابه الحق ، وتوجب على من يريد أن يتكلم في صدد ما قد تفيدته نصوص القرآن من نسخ وتبديل وتعديل أن يلتزم بما يقرره القرآن ، ويعتبره ضابطاً في هذه المسألة كما هو الشأن في المسائل الأخرى دون تيهان في متاهات الجدل والمحاكة .

فالقرآن دار ويدور على دعوة الناس وإنذارهم وتبشيرهم وحكاية مواقفهم وتصرفاتهم وما يجب وما يصلح لهم وما لا يجوز ولا يصلح لهم ، وكل هذا بطبيعته عرضة للتطور والتبدل والتفاوت بين حال وحال وظرف وظرف وفئة وفئة فلا غرو أن يتسق القرآن مع ذلك . ولقد نبهنا في النبتين (أولاً) و (ثانياً) من الفصل الثالث على الصلة الوثيقة بين التنزيل القرآني والبيئة النبوية والسيرة النبوية ، وما كان فيهما من صور ومواقف متنوعة ومتبدلة ومتفاوتة فعلاً ، وما كان من تساوق هذا التنزيل معها ، وأوردنا شواهد عديدة عليه من القرآن .

والنسخ والتبديل والتعديل مما يمثل هذا التساوق ، أو يعبر عنه كما هو المتبادر . ونعتقد أن فيما تقدم سداً لباب أي تمحل من غير المسلم

إذا لم يرد المكابرة والمحاكمة . وليس في اعتقاد المؤمن بالنسخ والتعديل والتبديل في القرآن على هذا المدى ما يصح أن ينقض إيمانه بقدرته الله وعلمه المحيطين بكل ما كان ويكون . ويستطيع المؤمن أن يلمح هذا الاتساق في سنن الله الكونية والاجتماعية فيزداد إيماناً على إيمان . ففي مشاهد الكون والاجتماع البشري وأدواره التي تجري وفق النواميس الربانية تطور وتفاوت وتكيف وتبدل ونمو وتكاثر وتوقف وتراجع ، وتقلب من حال إلى حال ، مع أن الله تعالى قادر على خلق كل شيء دفعة واحدة في صورته النهائية .

- ٣ -

ومن الحق أن نذكر أن فريقاً من علماء المسلمين ينكرون النسخ في القرآن انطلاقاً من استحالة البداء على الله ويسوقون فيما يسوقون آية سورة فصلت هذه :

(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ٤٢)

وليس في هذه الآية الحجة التي يريدون ، فليس النسخ باطلاً ، وكل أمره هو تبديل أمر رباني بأمر رباني آخر كلاهما حق في ظرفيهما ، وكلاهما في علم الله ، ونطاق قدرته وحكمته . والنصوص التي تقرّر وقوع النسخ والتبديل أقوى من أن تؤول تأويلاً يؤول إلى إنكار ذلك .

ولقد جرت عادة الله على إرسال رسله فترة بعد أخرى ، وفي رسالات بعضهم تبديل وتغيير ونسخ مما نص عليه القرآن ، ومما يمثله هذه الآيات :

١ - ومصدقاً لما بين يديّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعوا . إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . آل عمران : ٥٠ و ٥١

٢ - (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين .

يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى
النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . (المائدة : ١٥ و ١٦)

٣ - (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من
الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة
ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً
فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . (المائدة : ٤٨)

٤ - (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً
عندهم في التوراة والإنجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم
الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت
عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه
اولئك هم المفلحون . (الأعراف : ١٥٧)

- ٤ -

وعلماء القرآن يقسمون النسخ في القرآن إلى ثلاثة أنواع : نسخ تلاوة
وحكم ، ونسخ تلاوة مع بقاء حكم ، ونسخ حكم مع بقاء تلاوة .

وفي آيات البقرة والنحل التي أوردناها آتفاً دليل قرآني على صحة
وقوع النوع الأول فيما هو المتبادر وإن لم يكن في القرآن ما يوضح
كنه ما وقع .

وهناك روايات عديدة مختلفة الرتب تفيد أن نصوصاً قرآنية عديدة
نزلت ثم رفعت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس في وقوع هذا
النوع من النسخ خلاف ، وقد انقضى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم
والخلاف هو في صحة ورتب الروايات .

أما النوع الثاني ، أي : المنسوخ تلاوة ، والباقي حكماً فلا يورد
الذين يقولون به إلا الآية المسماة بآية الرجم ، وقد روي لها نصان ،
وهما هذان :

- ٣٤٠ -

١ - (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزير حكيم .)

٢ - (الشيخ والشيخة فارجموهما إذا زنيا البتة بما قضيا من اللذة .)
ونحن نتوقف في التسليم بهذا النوع ونعتقد أن الأولى ، والله اعلم ، أن تكون هذه الآية نسخت حكماً وتلاوة إذا كانت حقاً مما نزل ورفع ، وأن الرجم في الإسلام للزاني المحصن هو حكم نبوي غير مستند إلى هذه الآية ، بدليل ما بين مدى الآية ، ومدى التشريع النبوي من فرق واضح ، فليس في الآية تفريق بين محصن وغير محصن ، وقد اختصت بالشيخ والشيخة دون سائر الزناة ...

بقي النوع الثالث ، وهو النسخ حكماً ، والباقي تلاوة ، ونحن وإن كنا نذكر النسخ فقط ، فإن الكلام يشمل التبديل والتعديل أيضاً لأنه نوع من النسخ .

وبعض العلماء ينكرون هذا النوع ، ويحاولون أن يجدوا لكل ما يبدو أنه ناسخ أو منسوخ أو مبدل أو معدل تعليلاً يخرجهم من هذا النطاق ، وهناك من ألف كتباً في الناسخ والمنسوخ ، وأورد شواهد كثيرة عليه ، وبعضهم يقتصد ويقتصر على ما هو بارز مشهور من نصوص فيها نسخ أو تعديل أو تبديل مع خلاف بينهم فيما يساق من شواهد أيضاً ، وبعضهم يورد أمثلة كثيرة .

وإذا كان كثير من الشواهد التي تساق مما يتحمل توقفاً ، فإن في القرآن شواهد تجعل القول بواقع هذا النوع صواباً مع بروزكون ذلك قد جرى في نطاق ما كان من تطور ، وتبدل في المواقف والظروف .

ويبرز هذا بصورة عامة من المقارنة بين مدى وأسلوب القرآن المكي ، والقرآن المدني ، وفيما يلي أمثلة موضحة :

(١) إن القرآن المكي أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين مراراً بالصبر ، وعدم الاستجابة لاستفزاز الكفار وأذاهم مما يمثله هذه الآيات :
١ - (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يوقنون .)
الروم : ٦٠

٢ - (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون .) الجاثية : ١٤

وآية الجاثية نزلت في موقف شتم فيها مشرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أو غيره من المسلمين ، فاستأذن النبي بالمقابلة ، فاقضت حكمة الله بنصحهم بالصبر والغفران .

وظل هذا الى أوائل العهد المدني أيضاً ، ويمثل ذلك آية البقرة هذه :
(ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير .) ١٠٩

وآية النساء التذكيرية بذلك هذه :

(ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً .) ٧٧

ثم أخذت تنزل آيات الإذن بالقتال مما يمثله هذه الآيات :

١ - (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز .) الحج : ٣٩ و ٤٠

٢ - (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .) البقرة : ١٩٠

٣ - (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون .) البقرة : ٢١٦

٤ - (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فإما تتقنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة

فانبد إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . (الأنفال (١) : ٥٥ - ٥٨
٥ - (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم
الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا
الجزية عن يد وهم صاغرون . (٢)) التوبة : ٢٩

والمتبادر أن في هذه النصوص شواهد على تعديل وتبديل في الموقف
حسب تبدل الظروف .

(٢) والقرآن المكي نهى عن الزنا ، وانذر فاعليه بالعذاب الأخروي كما
جاء في هاتين الآيتين :

١ - (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً .) الإسراء : ٣٢
٢ - (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم
الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم
القيامة ويخلد فيه مهاناً .) الفرقان : ٦٨ - ٦٩

فلما كان العهد المدني نزل أولاً هذه الآيات :

(واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم
فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن
سبيلاً . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما
إن الله كان تواباً رحيماً .) النساء : ١٥ و ١٦

ثم نزلت آية النور الثانية هذه :

(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما
رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة
من المؤمنين .) ٢

والتعديل والتبديل واضحان في هذه الآيات أيضاً .
(٣) ومثل هذا يقال في الربا ، فقد قرر القرآن المكي كراهية الله للربا
في هذه الآية :

(١) هذه الآيات في حق يهود بني قينقاع في المدينة على ما ذكرته الروايات .

(٢) هذه الآية نزلت بين يدي غزوة تبوك التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم ضد
قبائل مشارف الشام النصرانية .

(وما آتيتم من رباً ليربو: في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون .) الروم : ٣٩
فلما كان العهد المدني نزل أولاً نهى عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة في آية سورة آل عمران هذه :

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلمكم تفلحون .) البقرة : ٢٧٨ و ٢٧٧

ثم نزلت هذه الآيات في النهي الحازم عن الربا مطلقاً :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .) البقرة : ٢٧٧ و ٢٧٨
وهذه أمثلة للنسخ والتعديل في نصوص وظروف مدنية .

(١) لقد نبه القرآن في أول العهد المدني على ما في الخمر والميسر من الإثم في هذه الآية :

(يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإنهما أكبر من نفعهما .) البقرة : ٢١٨

ثم نزلت هذه الآية لتنهى عن الصلاة في حالة السكر فقط :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون .) النساء : ٤٣

ثم نزلت هذه الآيات بالنهي الحازم عنهما :

(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلمكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون .) المائدة : ٩٠ و ٩١

وفي سورة البقرة إيجاب بالوصية للوالدين والأقربين .

(كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين .) البقرة : ١٨٠

ثم نزلت آية النساء هذه التي تعين للوالدين والأقربين أنصبه في التركات .

(يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين) (١٠)

وبعد هذه الآية وما بعدها تتمه لها قال النبي صلى الله عليه وسلم :
(إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث (١)) .

والجمهور على أن آية النساء قد نسخت آية البقرة في صدد الوصية لمن له نصيب مفروض .

(٣) وفي سورة المجادلة هاتان الآيتان :

(يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم . اشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقبضوا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون)

والتبادر أن الآية الثانية قد نزلت بعد مدة ما من الآية السابقة لها واحتوت نسخاً لما في هذه الآية من إيجاب اقتضته حكمة الله وظروف المؤمنين فوضعت بعدها .

(٤) وفي سورة الأنفال هاتان الآيتان :

(يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) (الأنفال : ٦٥ و ٦٦)

(١) رواه الترمذي والحديث من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع .

والمتبادر ان الآية الثانية نزلت كذلك بعد الآية الاولى بمدة ما ، واحتوت تعديلا لها اقتضته حكمة الله ، وحالة مجموع المؤمنين ، فوضعت بعدها للمناسبة .

(٥) في سورة البقرة هذه الآية :

(أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبيّن الله آياته للناس لعلهم يتقون (١٨٧)

وقد روي أن الصيام كان عند أول فرضه يبدأ عند النوم بحيث لا يجوز لمن يستيقظ من نومه قبل الفجر أن يأكل أو يجامع ، وأن الآية قد احتوت نسخاً أو تعديلا لذلك ، ونص الآية قد يفيد هذا حقاً ، ومن المحتمل أن يكون الترتيب الأول ترتيباً من النبي صلى الله عليه وسلم بوحي غير قرآني ، ثم اقتضت حكمة الله وحالة المسلمين تعديل ذلك ، فنزلت الآية بالتعديل .

(٦) — في سورة البقرة هاتان الآيتان :

١ — (والذين يتوفون منكم وينرون أزواجاً يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير (٢٣٤))

٢ — (والذين يتوفون منكم وينرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم (٢٤٠))

ولقد كانت عدة حداد المتوفى زوجها سنة كاملة ، وهذا ما قد تفيدته الآية الثانية أيضاً ، فاحتوت الآية الأولى تعديلا للمدة ، واعتبرها الجمهور ناسخة أو معدلة ، واستند القائلون إلى حديث رواه البخاري ، عن عبد الله بن الزبير يفيد أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعتبرونها كذلك . ونص الحديث هو : « عن عبد الله بن الزبير

قلت لعثمان : (والذين يثوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير اخراج) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا ابن أخي : لا أغير شيئاً من مكانه .

وهناك أمثلة وشواهد عديدة أخرى ، فنكتفي بما تقدم حيث يتضح منه ما نهنا عليه من مقتضى حكمة الله من نسخ وتبديل تساوقاً مع الظروف ، ومن كون ذلك غير متناقض مع وحي القرآن الرباني ، وفيه سد الباب التمحل لمن يريد التماس الشفرات مكابرة ومماحكة .



الفصل الرابع

وجهاً لوجه مع محكمات القرآن

- ١ -

بعدما تقدم في الفصل السابق من شروح وبيانات وعواصم من النظرة الاعتبارية الجزافية في القرآن التي ينسد بها باب التحمل والمحاكمة والتحريف والافتراء وسوء التأويل والفهم والأدب ، نصبح وجهاً لوجه امام المحكمات القرآنية التي وصفها القرآن بأنها (أم الكتاب) والتي انطوى فيها مبادئ وأسس الدعوة الاسلامية واحكامها وقواعدها وتشريعاتها وتلقيناتها في مختلف الشؤون على مانبها عليه في النبذة الرابعة من الفصل السابق المعقود على موضوع الأسس والوسائل ، أو المحكمات والمتشابهات في القرآن . وتقول بكل جزم وبأقوى صوت وأعمق إيمان : إن في هذه المحكمات كل ما هو متوافق مع الحق والعقل والعدل والمنطق والعلم ، ومصلحة الانسانية في مختلف نواحي الحياة الروحية والعقلية والمعاشية والسياسية والحضارية والثقافية ، وأنها ليس فيها أي شيء يمكن أن يتناقض ، أو لايتفق ويتسق مع كل ذلك ، وأنها ليس في تشريعاتها وتلقيناتها ومبادئها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والشخصية ما لايمكن تطبيقه مع كل ظرف ، وما يمكن أن يؤدي تطبيقه الى غير صالح المجتمع الاسلامي وخيره ، وأن فيها من المرونة ما يجعلها قابلة للانطباق والتطبيق على كل ظرف ، وفي ظل أي تطور مما فيه الدليل القوي على كونها وحياً من الله الحكيم الخبير المدبر المحيط ، وبكلمة أخرى نقول : إن من مقتضى هذه المحكمات أن الدين الاسلامي دين متكامل ، أي : دين عقيدة ونظام ودنيا وآخرة وسياسة

وقضاء واجتماع وسلوك ، وأنه دين إنساني عالمي رشح ليكون دين الإنسانية جميعها أبيضها واحمرها واسودها وأصفرها وعربها وعجمها ، وليظهره على الدين كله كما جاء في آيات قرآنية عديدة منها آية سورة الفتح هذه :

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) ٢٨

ورشح معتنقيه إذا عملوا الصالحات التي تعني كل ما فيه خير ومصلحة وحق وعدل وعزة وكرامة للاستخلاف في الأرض ، وتمكين دينهم فيها كما جاء في آية سورة النور هذه :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) ٥٥

وقرر أنهم بذلك يكونون خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأن ذلك يتحقق منهم حينما يمكنهم الله بالإيمان والأعمال الصالحة في الأرض .

وقد قام على الدعوة إلى الله وحده المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن كل نقص ومماثلة ، وعلى تقرير ربوبيته للعالمين جميعاً دون اختصاص ، واستغنائه وتنزهه عن الشريك والمساعد والولد بأي معنى كان ، وسواء أكان ذلك تأويلاً أم وسيلة أم شفاعة ، وقد حارب القرآن بكل قوة ودونما هوادة كل أنواع ومظاهر الشرك التي تمثل انحطاط الإنسانية وتسخيرها لقوى وافكار وعقائد سخيفة مغايرة للعقل والمنطق والحق ، كما تمثل نظاماً جاهلياً فيه التقاليد الجائرة ، والعادات المنكرة ، والعصبية المقوتة ، وهدف إلى القضاء على ما طرا على الديانات السماوية ، وبخاصة الديانتين المعروف يقيناً مصدريتهما من الله الممارستين أي : اليهودية والنصرانية من سوء تأويل وانحراف وانقسام واختلاف وتهاتر ، وإلى تحرير الإنسانية من الخضوع لأية قوة خفية وظاهرة غير الله ، وفتح آفاق الحياة للمؤمنين بهذا الدين على مصراعها في نطاق أسمى المبادئ ، وأكرم الأخلاق ، وأفضل المناهج ، والخطط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفردية والإنسانية ، وأشدّها مرونة للنهوض

الى ذرى الكمال في كل مجال من مجالات الحياة ، وتوجيهها نحو احسن السبل وأشرفها وأنزهها واعدلها وأتمها صفاء وسناء ، شاملة للناس جميعهم على اختلاف اجناسهم والوانهم ، ليكونوا تحت رايته اخوة متساوين في الحقوق والواجبات على اختلاف مناحيها ، وليقوم في ظله عالم واحد ، ونظام واحد ، ودين واحد ، ولغة واحدة وبكلمة واحدة مجتمع انساني واحد ، يتولى الامر فيه الصالحون خلقاً وديناً الأكفيا ، الحريصون على المصلحة العامة ، لاطاعة فيه لسلطان بمعضية وضرر ، ولا سند لحاكم فيه إلا كتاب الله وسنة رسوله ومصلحة العباد والبلاد المتسقة معهما ، ولا مكان فيه لظالم جبار ، وطاغية مسيطر ، والشورى فيه صفة اساسية لاهله ، وواجب ملزم لحكامه ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر - اي : الامر بكل ما فيه خير وصلاح ونفع ، والنهي عن كل ما فيه شر وفساد وضرر - والدعوة الى الخير والسلام، والتواد والتراحم والتواصي بالصبر والحق والرحمة من واجبات كل فئة فيه حاکمة ومحكومة وصفة اساسية ، وخصائص ذاتية لاهله نتيجة لاسلامهم وإيمانهم ، لايسمح فيه باستقطاب الثروة في جانب ، والفقر في جانب ، ويؤخذ فيه من الفني للفقير ، ويمنع فيه القوي من ظلم الضعيف ، ويساعد فيه القادر العاجز ، ويتواصون جميعاً بالصبر والرحمة والتعاون والتعاطف ، ويستمتعون جميعاً بكل طيب حلال من طيبات الحياة وزينتها بدون تفريط ولا إفراط ولا إسراف ولا اعتداء ، وتمنع فيه الفواحش والمنكرات والمضرات والموبقات والإثم والبغي ، في ظل سلام شامل يعرف الناس عبره أنهم إنما وجدوا ليتعارفوا ويتفاهموا ويتعايشوا ويتعاونوا على البر والتقوى دون الإثم والعدوان ، ويتسابقوا في الخيرات ، وفي ظل شرائع وتعاليم وخطوط ومبادئ قابلة للانطباق في كل زمن ومكان ، ومستجيبة لمختلف مطالب البشر المادية والروحية ، ومخاطبة للعقل والقلب معاً وموفقة في ذلك كله بين سعادة الدنيا والآخرة بأسلوب لاتعقيد فيه ولا التواء ولا آصار ولا اغلال وتكاليف شاقة ، ونافذ إلى اعماق النفس ، مع الامر بالدعوة الى سبيل الله أي : الدعوة الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن ، وعدم الإكراه والإجبار في الدين ، وسعة الصدر لمن اراد الاحتفاظ بدينه وعقيدته إذا

وإدّ المسلمون وسالمهم ولم يتأمر عليهم وعلى دينهم مع الأمر بمعاملة هؤلاء بالقسط والبر وحسن التعايش والتعامل ، وبعدم القتال إلا للدفاع ودفع العدوان والمقابلة بالمثل ، وتأمين حرية الدعوة ، وإرغام الظالمين ، وقد وصف معتنقوا هذا الدين في القرآن بصفة (الوسط) التي تعني الخيرية والاعتدال في كل شيء ، وعدم الإفراط والتفريط ، وعدم الغلو والتقصير ، وعدم الاقتصار على ناحية والتقصير في ناحية مما فيه خير دنيا ودين ، والتمسك بكل ما هو الأفضل والأصلح والأنفع والأحسن من كل أمر وصفة وخلق وعمل وموقف ، ووصف هذا الدين بأنه مصدق لما بين يديه من الرسالات التوحيدية التي جاء بها أنبياء الله ، ومتمم لها ، وقد جاء كتابه مصدقاً كذلك لما بين يديه من كتب الله ومهيماً عليها ، لأنه آخر كتب الله وليبين لأهل الكتاب السابقين كثيراً مما كانوا يخفون ويعفو عن كثير ، ويحل لهم كثيراً مما كانوا يختلفون فيه ، ويضع الأمور في كل ذلك في نصابها الحق .

ولقد اختص الدين الإسلامي الإنشئ بعناية خاصة ، فجعلها صنواً للذكر وقسيماً له في الإنسانية والحقوق والواجبات والتكاليف والحياة العامة ، وبنیان الدولة والمجتمع سواء بسواء ، كما أسغ على الحياة الزوجية رعاية عظيمة ، كفل فيها حق المرأة من مختلف النواحي مما لم يكن له مثيل في سابق الإسلام ، ومما لم يلحق به إلى الآن .

ولتقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها معنى عظيم آخر هو أن ما احتوته من ذلك أمراً كان أم نهياً ، وإيجابياً كان أم سلبياً ، وفي مختلف المواقف والظروف والاعتبارات مما يجب على المسلم الالتزام به عبادة وتديناً وعقيدة وإيماناً ، وليس من قبيل التنظيم القانوني والاجتماعي البشري الذي يمكن أن يستبيح المرء التحلل منه وعدم الالتزام به ، بل ومخالفته إذا شئت له المنفعة والهوى .

- ٢ -

ونرى قبل البدء في التفصيل أن ننبه على أن الملحدین واعداء الإسلام من النحل الأخرى يوردون مفاخر وشبهات وانتقادات متنوعة ضد المبادئ والبيادر الإسلامية الأساسية التي تنبثق عن المحكمات أيضاً

- ٣٥١ -

مما يتصل بالجوانب العقائدية والسياسية والجهادية والاجتماعية والاقتصادية والحياة الزوجية والسلوكية الخ . . . كما فعلوا بالنسبة للجوانب الثانوية وأوردنا كثيراً منه وفندناه في الفصول السابقة . وكما أن ما أوردوه بالنسبة للجوانب الثانوية ناتج عن غباء وجهل وقصد مباحكة ومماراة وعدم استيعاب نصوص مع سوء قصد وحقد وروح عدوانية فان ما يوردونه بالنسبة للجوانب الأساسية ناتج عن ذلك كله من جهة وعن بعض وقائع تاريخ الاسلام في بعض الظروف وواقع المسلمين من جهة وعن اتكاء على بعض اقوال واجتهادات غير سليمة من جهة . ولا تتحمل منابع الاسلام الصافية (القرآن والسنة النبوية) مسؤوليته وهما المنبعان الاصيلان اللذان وصلا اليها سليمين من عهد النبوة واللذان هما في متناول كل الناس اطلاعاً وفهماً . ونعتقد ان فيما سوف نورده من تفصيل لمقتضيات المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتها الرد الكافي لسد كل تمحل واسقاط كل شبهة وتفنيد كل مغمز وقد اكتفينا بذلك دون ذكر شبهات ومغامز معينة لأن ما أوردناه في التفصيل الآتي جامع شامل لكل شيء ولا سيما أننا أوردنا كثيراً من ذلك في كتابنا (القرآن والمبشرون) وفندناه وان علماء وباحثين اسلاميين كثيرين انبروا قديماً وحديثاً إلى تفنيد ذلك ورده في كتب كتبوها وبخاصة في هذا القرن واواخر القرن الفائت .

ولقد اشتد انتباه كثير من رجال العلم والعقل في بلاد الغرب الى الاسلام في هذا القرن والقرن الفائت ، فدرسوه في منابعه الصافية ومحصوه وتبينوا ما في كتب المبشرين والمستعمرين والحاقدين من سوء فهم وجهل وقصد وتخريف وتشويه وحقد وفندوه وعقدوا المقارنات بين الاسلام وبين غيره وكتبوا كتباً كثيرة نوهوا فيها بكل ذلك وبما ينطوي في الاسلام من عقائد ومبادئ وتشريعات وخطوط وتلقينات بلغت الذروة في السمو والحكمة والحق والصدق والاستجابة لكل مطلب والحل لكل مشكلة ايماناً وانسانياً واجتماعياً وسياسياً وسلوكياً واخلاقياً

واقتصادياً وكان من نتيجة ذلك أن صاروا وصار كثيرون آخرون من بلادهم يقبلون على اعتناق الاسلام والانضواء اليه وما يزال هذا واقعاً مستمراً في كل بلد من بلاد الغرب الاوربية والامريكية . وهكذا فضلاً عن ما كان من أهل العلم والكتاب والعقل من مثل ذلك من عهد النبوة والقرون العديدة التي تلتها وكان من نتيجته اقبال الآلاف المؤلفه على اعتناقه والانضواء اليه . وكل هذا بسبب قوة عناصر الاستجابة التي انطوت في الدعوة الاسلامية واهدافها عقائدياً واجتماعياً واقتصادياً وانسانياً وسلوكياً وعجز كل المحاولات الحاقدة العدائية عن اطفاء نورها . ولقد كانت هذه العناصر كفيلة باستمرار ذلك ليس فقط في عهود قوة السلطان الاسلامي بل في عهود ضعفه بل ولقد كان معتنقوا الاسلام والمنضوون اليه في هذه العهود أكثر منهم في عهود قوة السلطان الاسلامي . ويتمثل ذلك فيما هو جار الى اليوم في القارتين الاخيرين (آسيا وافريقية) وفي الملونين وفي الامريكيتين يكاد يكون سيلاً متدفقاً حيث يجد هؤلاء في الاسلام الذي لايفرق بين ابيض وأسود وأحمر وأصفر وعظيم وصعولك وغني وفقير وفي الاخوة والمساواة والكرامة الطمأنينة التي لم تمنحهم اياها المسيحية حيث ظلوا في ظلها يقاسون الاضطهاد والحيث والتمايز العنصري والطبقي . وكل هذا على ضعف وسائل التبشير في الاسلام وعدم تنظيمه . ولسوف يظل مستمراً كذلك حتى يعم نوره ويتحقق وعد الله عز وجل باظهاره على الدين كله (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) . صدق الله العظيم .

ونأتي الآن الى التفصيل :

١ - إن أولى المحكمات القرآنية تقرر وجوب الإيمان بوجوب وجود الله تعالى الأزلي الأبدي العليم الحكيم القادر المبدع الخالق الرازق ،

المتصف بصفات الكمال ، المنزه عن المماثلة والشريك والولد والمساعد بأي اعتبار وتأويل ، وعبادته وحده ، والاتجاه إليه وحده .

وهذا الإيمان اول اركان الايمان في العقيدة الاسلامية ، وعقيدة الاسلام بالله عز وجل بهذه الصفات مع ربوبيته الشاملة للعالمين التي قررها القرآن ، تمتاز عن اي عقيدة بالله في أي نحلة أخرى كتابية أم غير كتابية ، من حيث التنزيه والشمول والبساطة والصفاء والنقاء .

ونقول من باب المساجلة : إن الملحدین مهما تمحلوا فلن يستطيعوا أن يقدموا بديلا لهذا الركن يبعث للنفس الرضى والامن والطمانينة ، وقد شرحنا هذه النقطة ، وسقنا عليها من الدلائل والشواهد والشهادات في الفقرة (٩) من الفصل الاول ما يفني عن التكرار .

٢ - والإيمان بأنبياء الله ركن من اركان الإسلام المحكمة ، والمؤمن بالله وحكمته لا يمكن أن يرى أن من غير المعقول أن يصطفي الله من يعلم أهليته من بني آدم ، ليوحى اليه بدعوة الناس إليه وعبادته وحده ، وبيان ما يصلح لهم ويصلحهم من مختلف النواحي ، والحث على السير فيه ، وبيان ما يضرهم من مختلف النواحي والتحذير منه ، ورسم ما يقتضي من حدود مما لا يستطيع العقل البشري وحده الاهتداء إليه على الوجه الأفضل ، ومما يكون فيه تأييد يجعل المؤمن يلتزم به إيمانا واحتسابا أكثر مما يمكن أن يلتزم به لو كان وضعاً بشرياً ، وقد شرحنا ذلك ، وسقنا عليه من الدلائل كذلك في الفصل الأول في الفقرة التاسعة منه مما يفني عن الإسهاب مرة أخرى .

٣ - والصلاة ركن من اركان الاسلام المحكمة ، وبالإضافة الى ما في الصلاة في حد ذاتها من معنى واجب الشكر لله ، والاعتراف بعظمته والخضوع له ، وما في ذلك من رياضة روحية ، تمنح القائم بها قوة ونشاطاً وأملاً ، وليست مما يتعارض مع عقل ، فإن من شأنها أن تعصم المسلم عن الفحشاء والمنكر ، وتحفزه على القيام بواجباته نحو الله والناس ، وتساعده على تحمل التضحيات ، وتهذب نفسه ، وتركز أخلاقه مما لا يستطيع عاقل أن يكابر فيه ، ومما احتوت آيات عديدة تقريره والتنبيه عليه .

ومما لا ريب فيه أن الصلاة بإيمان وقلب وذكر تحمل المصلي على التفكير في الله ، وتقواه بالتزام ما أمر به ونهي عنه ، وعلى الاستحياء من التلبس بالنفاق والكذب إذا ما خالف بين باطنه وظاهره ، وقوله وعمله ، واقترب إثمًا أو عزم عليه بينما هو يتهاى من وقت لآخر للوقوف بين يدي الله ، وفي ذلك من قوة الزجر والإنسلاخ ما يكفي لتهديب أخلاقه وتطهيرها . ومجتمع يفرض على جميع أفرادهِ من رجال ونساء ، ومنذ البلوغ بل وقبيل البلوغ أن تكون لهم هذه الوسيلة الروحية خمس مرات كل يوم جدير بأن تسود فيه الأخلاق الفاضلة ، وتنتفي أو تقل فيه الفواحش والمنكرات إذا مورست بقلب وجد وإخلاص ، وفي هذا تبرز غاية صلاح الأفراد والمجتمع وطهارتهم وإبعادهم عن مواطن الزلل والخبائث والمنكرات في الصلاة . والصلاة فوق أنها واجب لا يجوز أن يعطل القيام به أي اعتبار آخر ، فإنها لا تأخذ من وقت المسلم أكثر من ساعة في جميع اليوم ، وممارستها تقع في وقت توقفه عن عمله اليومي ، فليس فيها ما يتوهمه بعضهم من مصاعب وأشغال ، وإذا كانت هذه الوسيلة ضعيفة الأثر في كثير من المسلمين اليوم ، فلا يتحمل القرآن والاسلام مسؤولية ذلك ، ولا يضعف ذلك قوة هذه الوسيلة وصلاحها في الوقت نفسه ، ولقد أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثان عظيمَا المفزى جاء أحدهما « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » وفي ثانيهما « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يردد من الله إلا بعداً » ووسيلة الصلاة الأولى طهارة البدن والثياب ، وحسن الزي والمنظر ، وقد أوجب القرآن ذلك على المسلمين كلما قاموا إلى الصلاة ، ووقفوا أمام الله في آيات عديدة .

وهكذا تبرز غاية الصلاح الديني في ذلك بروزاً قوياً أيضاً ، حيث يفرض على المجتمع الاسلامي الطهارة والنظافة وحسن المنظر والمظهر ، والعيوف عن القدارة والمستكرهات ، ويصبح هذا خلقاً من أخلاق أفرادهِ رجالاً ونساءً بالممارسة اليومية المتكررة ، والتيمم رمز للطهارة ، وتنبيه على وجوب الاهتمام بها ، وهناك مآثورات نبوية توجب على المسلم أن يفتسل في الاسبوع مرة ، أو كل يوم جمعة ، ولو لم يكن جنباً مع لبس ثوب نظيف غير ثوب المهنة في هذا اليوم للصلاة الجامعة ، وفي هذا إتمام ودعم للهدف .

ومن أركان الصلاة الاتجاه فيها نحو المسجد الحرام في مكة ، وفي هذا معنى رمزي عظيم حيث يكون المسلمون في جميع أقطار الأرض منتظمين في صلاتهم المحددة الأوقات نحو وجهة واحدة فضلاً عما فيها من وسيلة تعلق المسلم بمهبط وحي الله على رسوله ، ونشأة هذا الرسول وجهاده في سبيل نشر دين الله في تلك البلدة المكرمة .

٤ - والزكاة من أركان الإسلام المحكمة ، وهي واجبة كل سنة على كل من يملك قدراً من المال حال عليه الحول وزاد عن حاجته المعاشية الراهنة ، يقدر اليوم بنحو خمسمائة ليرة سورية أو سبعين جنيهاً مصرياً ، وهو قدر زهيد ونطاق حيازته واسع جداً ، وللسلطان أن يجبيها من المستحقة عليهم لإنفاق حصيلتها على شؤون الدولة المتنوعة ، ثم لسد عوز الفئات العاجزة ، كما جاء ذلك نصاً في آية سورة التوبة هذه :

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم (١) .)

أي : إن الزكاة جزء من نظام الدولة الاقتصادي في الإسلام لهذا وذلك ، ومساعدة الفئات المعوزة العاجزة من صلب هذا النظام مما لا يكاد يكون له مثيل ، ومما لو طبق تطبيقاً صالحاً لما كان في المسلمين فقر ولا عوز .

والزكاة ليست على النقد فقط ، بل هي على عروض التجارة ، وغلات الأرض وكنوزها والمواشي بحيث يتسع بذلك نطاق حيازة النصاب حتى يعم أهل المدن والريف معاً .

(١) الفقراء : هم المحتاجون السائلون ، والمساكين : هم المحتاجون المتعففون عن السؤال ، والعاملين : هم الموظفون الذين يتولون جباية الزكاة وتوزيعها ، والمؤلفة قلوبهم : هم الفئات التي في تقوية روابطها بالإسلام ، وترسيخ الإسلام فيها تقوية للبناء الإسلامي ، والرقاب : تعني شراء العبيد وعتقهم ، والغارمين : هم الذين تلم بهم جوائح اقتصادية مدمرة أو يفرقون في ديون كبيرة من غير تقصير أو يتحملون عبئاً مالياً فادحاً في سبيل الغير إصلاحاً أو مساعدة أو غرامة ، وينوون بحمله وحدهم وابن السبيل : من انقطعت به الطريق ولم يبق معه ما يقوم بأوده ولو كان في بلاده غنياً ، وسبيل الله : هو الدعوة الإسلامية ونشرها والدفاع عنها وعن المسلمين .

وفي جعل الزكاة ركناً من أركان الإيمان الاسلامي ، وعلامة من علاماته اللازمة له التي لا يصدق مدعيه إلا بها مع الصلاة على ما جاء في آيات قرآنية كثيرة فيها مغزى عظيم من حيث اعتبار أدائها عبادة ، وليس بمعنى الضريبة التي كثيراً ما تشق على النفس ، ويتهرب منها المفروضة عليهم ، وهي بهذا الاعتبار من أعظم مظاهر ودعائم التكافل الاجتماعي في الاسلام .

وننبه على أن الزكاة ليست وحدها مورد المال في الدولة ، ففي القرآن موارد أخرى ومسوغات لفرض ضرائب ، وأخذ أموال من القادرين إذا ما اقتضت المصلحة ذلك ، وكل الموارد المذكورة في القرآن قد نص فيها على أن تكون لشؤون الدولة والفئات العاجزة المحتاجة معاً ، وبذلك يتأكد التزام الدولة في الاسلام بمساعدة هذه الفئات بمقياس واسع جداً ، وهذا ما يجعل نظام الاسلام المالي في هذا الصدد فريداً رائعاً .

وننبه على أن القرآن بالإضافة إلى ما أوجبه وحدده من التزام الدولة بمساعدة هذه الفئات ، قد حث المسلمين على التبرع والتصدق لمساعدة هذه الفئات حثاً متلاحقاً ، حتى ليصح القول : إن الزكاة المفروضة على سعة متناولها على مانبها عليه هي الحد الأدنى لما يجب أدائه على جميع المسلمين الحائزين لذلك النصاب الزهيد .

وفي القرآن والسنة ما يلهم أن الذين تستحق عليهم الزكاة يستطيعون أن يوزعوا زكاتهم بالإضافة إلى تبرعاتهم الأخرى الزائدة عنها على مصارفها ، فيكون في ذلك ما يؤكد معنى التكافل الحميم بين المسلمين مباشرة بعيداً عن الشكليات الرسمية وصعوباتها وحساسيتها .

ومن الجدير بالذكر والتنبيه أن القرآن في صدد أوامره بالانفاق زكاة وغير زكاة ينبه في مواضع كثيرة على أن المال الذي في أيدي الناس هو مال الله ومما رزقهم الله وأن الناس هم وكلاء الله مستخلفين منه فيه ، ويندد تنديداً شديداً بالممسكين الباخلين ، وبالمانيين بصدقاتهم على المحتاجين حيث يبلغ ذلك الدروة السامية .

ولقد نهت السنة على أن المساعدات يجب أن تكون لمستحقها والمحتاج إليها حقاً ، ولمن لا تسفقه قوته وظروفه وحالته على الاستغناء عنها

وحسب ، وتددت بالذين يسألون الناس وهم اقوياء ، وأمرت فقراء المسلمين بالتكسب والاستغناء عن السؤال ما قدروا ، وأن نظام الدولة في مساعدة الفقراء المحتاجين العاجزين أو الغارمين والحالة هذه في نطاق هذا التوجه النبوي لا يؤدي الى تواكل وكسل .

٥ - والصيام من اركان الاسلام المحكمة ، وقد فرضه الله على المسلمين ليكون وسيلة لتقواهم الله ، أي وسيلة تساعدكم على التزام ما أمرهم به من أمور الخير والصلاح والعزة ، واجتناب ما نهاهم عنه من المنكرات والآثام والبغي والفواحش ، وفي الصيام ترويض للنفس على الصبر عن المباحات البدنية ، والمرء الذي يروض نفسه على ذلك يكون مروءاً من باب أولى على الامتناع عن المحرمات والفواحش والآثام ، وفي الصيام تضحية للذات ، والمرء الذي يروض نفسه على ذلك يكون من باب أولى قادراً على التضحية بشيء من أنانيته وعلى التفكير بغيره ، والصيام يشعر الانسان بألم الجوع والحرمان ، ويجعله يفكر بالجائعين والمحرومين ، ويعمل على تخفيض الآلام عنهم ، ومجتمع تكون له هذه الرياضة الروحية شهراً كاملاً في كل سنة يكون له فضلى الوسائل الى الاصلاح والصلاح والتهذيب النفسي والخلقي والاجتماعي ، وهكذا تبرز غاية من غايات الصيام في الحياة فضلاً عما فيها من تعبد لله وشكر له . وهناك مآثورات عن النبي ذات مغزى عظيم منها قوله صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » وقوله « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني امرؤ صائم » وقوله « من فطر مسلماً كان له مثل أجره » وقد روى ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين » وهي واجبة على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير ، وليست متوقفة على نصاب ، وهي زهيدة يستطيع معظم الناس أن يؤدوها ، فتكون نعم الوسيلة العاجلة في آخر رمضان لمساعدة المعوز العاجز .

٦ - والحج على المستطيع من اركان الاسلام المحكمة ، وقد كان قبل الاسلام لمقاصد اجتماعية عديدة مفيدة فيها منافع للناس ، فاقتضت

حكمة الله الإبقاء عليه بعد تجريده مما علق به من شوائب الشرك والقبح ، لأن تلك المقاصد مستمرة ، ومن منافع جهود الحج تيسير اجتماع المسلمين من كل صوب وحذب على اختلاف الانحاء والأجناس ، وتعارفهم وتوائمهم ، وتناجيهم بالبر والتقوى ومصلحة المسلمين ، وفي هذا من الغايات الاجتماعية النافعة الجليلة ما لا يخفى ، وبالإضافة الى ذلك ، فإن في فرض الحج على المستطيعين من المسلمين من رجال ونساء ، وفي جعل الكعبة قبله ومطافاً غايات جليلة متصلة بصلاح المسلمين في الدنيا بالإضافة الى الفكرة التعبدية ونعني ربط قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بالبقعة المقدسة من بلاد العرب مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومهبط وحي الله لتكون لهم مهوى أفئدة باستمرار ، فتبث فيهم روح القوة والاتحاد والأخوة ، ووحدرة الاتجاه والهدف ، وما لوقوف حجاج المسلمين جميعاً في عرفات في زي واحد لا يمتاز به ملك عن صعلوك ، ولا أمير عن خادم ، ولا غني عن فقير ، ولا أبيض عن أسود ، متجهين جميعهم إلى الله وحده ، لا يخشون غيره ، ولا يعترفون بالربوبية والقوة والعظمة لسواه ، ولا يطلبون ما يتمنون إلا منه ، ولا يستعيذون مما يخافون إلا به . وجميعهم يشعرون بفقرهم إليه من المعاني السامية ما هو جدير بأن يرتفع بالمسلم الى أعلى ذرى الشعور بالقوة والشجاعة والكرامة ، وطهارة النفس والضمير .

٧ - ومن أركان الاسلام المحكمة الايمان باليوم الآخر ، وقد شرحنا هذا الركن في الفقرة الثامنة من الفصل السابق شرحاً وافياً نبهنا فيها الى ما في هذا الركن من مقاصد إصلاحية وأخلاقية وروحية ونفسية دنيوية بالإضافة الى حقيقته الإيمانية ، وكونه غير خارج عن نطاق قدرة الله . ومما لا بد من أنه من مقتضى حكمته السامية التي لا يصح أن تخفى على عاقل منصف ، وفندنا ما يقوله الملحدون بأن فيه تعطيلاً لقوى المسلمين ، وصرفاً لهم عن الحياة الدنيا ، بل وأثبتنا أن فيه حفزاً لهذه القوى ، ولإقدام المسلم على التضحية كما أن فيه بثاً للطمأنينة والأمن في نفسه فنكتفي بهذا التنبيه .

٨ - وبالإضافة الى ما انطوى في الأمور السابقة الذكر من مقاصد سامية متصلة بوجود الانسان في الحياة الدنيا ، فإن من مقتضى تقارير القرآن وتلقياته المحكمة بالنسبة للانسان وحياته في الدنيا :

أ - إن القرآن قد أعار الإنسان اهتماماً عظيماً سواء في تمييزه عن سائر مخلوقاته ، وبخاصة الحيوانية التي يتماثل معها في أطوار الخلق يجعله خلقاً آخر ، وخلقته في أحسن تقويم أم في تفضيله على كثير مما خلق ، أم في التنويه بكون الله قد سخر له ما في السموات والأرض وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة أم بكونه حملاً للأمانة والتكليف ومسؤوليتهما دون سائر خلقه ، أو بكون الله اصطفاه ليكون خليفة في الأرض ، وجعله مدار اختياره في الدنيا ليتسابق أفراده في الخيرات ، وليبلوهم أيهم أحسن عملاً أو بكون ذكره في مجال التشريف أنه سواه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه البيان ، وعلمه القلم ، وعلمهما لم يعلم ، وميزجده الأعلى بذلك على ملائكته ، واختصه بالحياة الأخروية وحسابها ونعيمها وعذابها نتيجة لذلك بحيث يمكن القول : إن الإنسان هو الموضوع الرئيسي الذي دار عليه القرآن .

ب - إن صلاح الإنسان في أخلاقه الشخصية والاجتماعية ، وصلاح المجتمع البشري ، وتوجيه الفرد والمجتمع إلى الخير والحق والكمال في الحياة الدنيا هدف رئيسي من أهداف القرآن .

ت - إن ما احتواه القرآن من آيات وفصول كثيرة ومتنوعة في صدد حياة الإنسان الدنيوية من شتى نواحيها الشخصية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية ينطوي على دلالة حاسمة على اهتمام القرآن بشؤون حياة الإنسان الدنيوية اهتماماً بالغا ، واعتباره إياها موضوعاً جوهرياً .

ث - إن القرآن لم يهدف إلى منع المسلمين من الاستمتاع بطيب الحياة وخيراتها وزينتها والانتفاع بما فيها ولا إلى حملهم على نفض أيديهم مما خلق الله فيها ، ولا إلى تعطيل مواهبهم عن الاستفادة من سننه فيها ، بل إنه حث على ذلك كله ، واستنكر تحريمه والانكماش عنه ، ونهى عن ذلك بصراحة وقوة ، وكل ما هنالك أنه أوجب أن يكون في نطاق الحلال والحق والقصد والاعتدال والإيمان بالله وحده ورسالة رسوله واليوم الآخر .

ج - إن الله قد وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات في القرآن بتبوءهم في الدنيا المبوأ الحسن ، وتمكينهم في الأرض واستخلافهم فيها ، وثوريتهم إياها .

ح - إن ما جاء في القرآن من آيات احتوت تهويناً بشأن الحياة الدنيا ومتاعها إنما جاء في سياق أو بنصوص تدل على أنها استهدفت مقاصد سامية أخرى لا تمت إلى قصد منع المسلمين من أخذهم بنصيبتهم من الدنيا واستمتاعهم بطيباتها وانتفاعهم بقوى الله ، وسننه في أنفسهم وفيها أو عدم الاشتغال بها وهي حفزهم على التضحية بالنفس والنفس في سبيل الدفاع عن الاسلام والمسلمين ، والحيلولة دون استغراقهم في شهوات النفس وأهوائها التي تعطل تلك المقاصد السامية .

خ - إن المسلمين مدعوون للاهتمام بالحياة الدنيا والانتفاع بخيراتها وطيباتها وقواها وسننها وإعمال مواهبهم وعقولهم بسبب ذلك ، مع الملازمة بين الايمان والعمل الصالح الذي من أعظمه خطورة العمل على إعلاء كلمة الله وشريعته ، والتزام العدل والحق والبر والخير ، واجتناب الاثم والشر والمنكر والبغي ، والتعاون على البر والتقوى ، فيحققوا معنى الانسانية الفاضلة والمجتمع الفاضل في أنفسهم وفي كيانهم .

د - إن من واجب المخلصين من نبهاء المسلمين وصالحهم أن يتعاونوا على إشاعة تعاليم القرآن في صدد الحياة الدنيا على وجهها الحق ، ومكافحة ما تركته عصور التردى والجمود والجهل والظلم والتقلب في سواد المسلمين من آثار ، أو ما بثه أعداء المسلمين في عقول الناشئة من أكاذيب وأوهام جعلتهم يسيئون هدى القرآن .

ذ - ليس في القرآن ما يوحى بالتعصب المذموم والجمود الضار تجاه أي أحد ، وتجاه أي شيء ، أو يقف عثرة في سبيل أي أمر نافع وخير ومفيد من الإصلاح والصلاح والتجديد والتجديد والاعتباس ، وليس فيه تحديد لجزئيات حياة الناس وأشكالها وكيفياتها سياسية كانت أم اجتماعية ، أم سلوكية ، بل فيها ما يوحى بالمرونة ، وسعة الأفق والتجديد ، والثورة ضد كل قديم ضار ، مما فيه ضمان لكل تقدم ، ونهوض في مختلف المجالات ، وكل ما هنالك أنه أوجب أن يكون ذلك في

نطاق الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والتزام الحق والعدل والمصلحة والمعروف ، واجتناب الاثم والبغي والعدوان ، والموبقات والميوعة في الاخلاق ، والسلوك العام والخاص ، وبعضهم يصف هذا تعصباً مذموماً ، وهذا افتراء على الحق والحقيقة والفضائل الاخلاقية .

ر - وختاماً لهذه النبذة نقول : إن القرآن قد قرن بين الايمان والعمل الصالح في معظم الآيات حيث يلهم هذا أن العمل الصالح الذي يشمل كل ما فيه بر وعدل وخير وطاعة وحق ومعروف هو المسجد لايمان المؤمن الذي يظل في حيز الخفاء والغيب ، فيكون العمل الصالح دليلاً حسيّاً عليه ، وبكلمة أخرى : إن العمل الصالح مظهر ممارسة لايمان المؤمن ومصدق له . وفي هذا ما فيه من مغزى خطير بعيد المدى .

وفي القرآن تقريرات في صدد كون الانسان إلى خسران وشؤم وضياح ، وارتداد إلى أسفل السافلين أخلاقاً وسلوكاً ، إذا لم يكن مؤمناً عاملاً للصالحات متواصياً بالصبر والحق والرحمة حيث تتضمن ذلك تقرير ما للايمان من قوة الوازع الآثم والمنكر الحافز على الخير والحق .

٩ - ومن مقتضى تلقينات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد نظام الدولة الأساسي :

١ - إقرار فكرة الدولة والسلطان على أساس الايمان بالله وحده ، وعبادته وحده ، ونشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقامة القسط بين الناس ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدفاع عن الاسلام والمسلمين .

ب - إن القرآن يلهم أن يتولى الدولة والسلطان الصالحون من المسلمين برضاء وموافقة أهل الحل والعقد والشأن ، وأوجب على المسلمين طاعتهم والنصيحة لهم ، والتضامن معهم في الخطط والأعمال التي تستهدف خير الاسلام والمسلمين ومصلحتهم .

ت - إنه يقيد الطاعة على المسلمين لأولي الأمر بأن يكون هؤلاء

منهم ، ومعنى هذا أن من الواجب أن يكون الذين يتولون السلطان من المسلمين ، وأنه ليس على المسلمين واجب الطاعة والرضوخ والخضوع لسلطان غير مسلم .

ث - إنه يلهم وجوب توفر الصفات الصالحة في أولي الأمر كالرفق واللين والتسامح والبعد عن الغلظة والفظاظة والإعنات ، والحرص على صالح المسلمين ، والشعور معهم في سرائهم وضرائهم ، والإغضاء عن هفواتهم والعفو عن جاهليهم ، والسعة لتأنيهم ونادميهم ، والقدرة على النهوض بواجباتهم ، ومشاورة أولي الحل والعقد والعلم في شؤون الدولة .

ج - إنه يقيد واجب طاعة المسلمين لأولي أمرهم بالمعروف ، أي : فيما هو صالح نافع ، وفيه خير وبر ومصلحة وحق وعدل ، وما هو متعارف بين العارفين أنه كذلك ، وفي نطاق أوامر القرآن والسنة النبوية ونواهيها ، فلا تجب عليهم الطاعة لهم في إثم ومعصية ومنكر .

ح - إنه يقيد ما لأولي الأمر أن يدعوا المسلمين إليه ، ويطلبوا طاعتهم فيه ، والتضامن معهم عليه بما فيه للمسلمين مصلحة وفائدة وخير وحياة ، فليس لأولي الأمر أن ينحرفوا عن ذلك ، وليس على المسلمين الاستجابة إليهم إذا انحرفوا عنه .

خ - إنه يوجب على أولي الأمر مشاورة أهل الرأي والشأن والحل والعقد والعلم في شؤون الدولة ومهامها وعزائمها ، وليس فيه ولا في السنة تحديد لكيفية المشاورة وظروفها مما يلهم أن هذا متروك للمسلمين ليتدبر أولوا العلم والحل والعقد والأمر فيه ، ويضعوا قواعد له حسب ما تقتضيه المصلحة والظروف مع إمكان تطور ذلك حسب المصلحة والظروف كذلك .

د - إنه يوجب توسيد أعمال الحكومة إلى الأمناء الأكفاء ، ويعتبر غير ذلك خيانة للأمانة .

ذ - إن القرآن والسنة النبوية هما مرجع المسلمين في أمورهم ،

سواء في ذلك أفرادهم ، والقائمون بالأمر فيهم ، فما كان فيه نص وحكم صريحان قطعيان يعمل به دون أي اجتهاد وتبديل ، وما لم يكن فيه ذلك يجتهد فيه من أولي الأمر ، وبالتشاور مع أهل العقد والعلم والخبرة ، وفي نطاق توجيهات القرآن والسنة وخطوطهما ومبادئهما العامة ، ومصلحة المسلمين ، وليس ما يمنع أن يؤخذ ما سار عليه المسلمون السابقون ، وغيرهم ، أو يقاس عليه ، أو يقتبس منه في ذلك النطاق .

ر - إن شرط طاعة المسلمين لأولي الأمر أن تكون في معروف لا يعني أن يكون لكل فرد حق الاجتهاد فيما هو المعروف والمنكر ، والنافع والضار ، أو حق التمرد على كل أمر لا يظنه أو لا يراه نافعا معروفاً ، إذا لم يكن هناك وقائع وشواهد ونصوص صريحة وصحيحة ، وما ليس فيه هذا يكون التقدير فيه إلى أولي الأمر بمشورة أهل الحل والعقد والعلم والبصيرة ، وعلى الأفراد رد الأمور إلى هؤلاء ، والاستجابة والطاعة لما يقدرونه ويقررونه ، وخلاف ذلك هو خروج عن سبيل المسلمين ، ومستحق للعقاب والتنكيل .

ز - إن السلطة في الدولة الإسلامية واحدة ، ومرجعها الأعلى رئيسها ، ولا فصل فيها بين الدين والدنيا ، وفكرة العلمانية وفصل الدين عن الدولة غير واردة بالنسبة للإسلام ، لأنه دين ونظام معاً ، وقياس ذلك مع ماتم في الحكومات الأجنبية قياس مع الفارق ، فالمسيحية التي كان يدين بها معظم هذه الحكومات ليست دين نظام وعقيدة حقاً أولاً . ولقد تكون فيها كهنوت وتحالف مع الحكام ، واضطهدت الحريات المتنوعة للأفراد والجماعات في ظل ذلك ، فأدى هذا فيما يسمى عصر النهضة إلى التمرد حتى وصل إلى فصل الدولة عن الدين . ومع ذلك فإن هذا الفصل لم يمنع كثيراً ممن تسلطوا على الحكم بعده ، وإلى اليوم من الطغيان والظلم والاستبداد والإرهاب ، فليس في الجنوح إليه والحالة هذه ضمان . هذا في حين أن قرارات المحكمات القرآنية وتلقيقاتها التي لا تفصل مبدئياً بين الدولة والدين ، تتضمن كل الضمانات لحرية الأفراد والجماعات من مختلف نواحيها في نطاق المبادئ والأركان الإسلامية السامية ، ولنع الطغيان والعدوان والاستبداد ، ولتحقيق كل عدل وحق وبر ورحمة وتعاون وتكافل ونهضة وعلم وتقدم استعداد في كل المجالات ، ولنح المسلمين حق الرقابة والشورى ، ومخالفة ذلك تفقد الحكم المستبد

شرعيته ، وتسقط عن المسلمين واجب الطاعة له على ما مر ويأتي شرحه ، وفي هذا ما يجعل أي تفكير لفصل الدولة عن الدين بلا أي معنى ولا مسوغ ، وإذا كان حكام مسلمون تسلطوا واستبدوا في ظل ذلك ، فإن هذا وقع أيضاً من حكام بلاد علمانية ولا دينية ، ومع ذلك فإن الوازع الاسلامي يظل أقوى إلهاً وإلزاماً وضماناً .

س - إن رئيس الدولة هو صاحب العزيمة والأمر المنفذ لما يتم عليه رأي أهل الحل والعقد والعلم والشأن نتيجة لتشااورهم ، هذا ما يسمى اليوم بالنظام الرئاسي .

ش - إن الدولة الاسلامية هي كيان المسلمين جميعهم ، ومصالحتها هي مصالحتهم ، وعليهم واجب التضامن فيما يعتزمه القائمون عليها من عزائم ، ويقررونه من خطط كما عليهم واجب التضامن معهم في رد العدوان ، وقمع الفتن واتقائها ، وواجب التعاون على البر والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة الى الخير في نطاق الدولة ، والقيام بواجبهم نحوها من الطاعة فيما فيه معروف ومصلحة ، وأداء الزكاة والنفرة الى الجهاد ، واعتبار أنفسهم جزءاً لا يتجزأ منها .

ص - إن بنيان الدولة في الاسلام يقوم على الرجل والمرأة معاً على قدم المساواة ، ودليل ذلك اتصافهما بصفة (الانسان) الذي هو ذكر وانثى ، وتكليفهما معاً بالأمانة وحملهما (١) إياها ، وكون ماكلف به الرجل من تكاليف دينية وأخرية وسياسية واجتماعية وبدنية ومالية وفكرية قد كلفت به المرأة ، وجميع ما منحه الرجل من حقوق سياسية واجتماعية ومدنية وفكرية قد منحت للمرأة بدون تمييز ونقص وزيادة ، وقد رتب عليها تبعات كل موقف في الدنيا والآخرة نفس التبعات المترتبة على الرجل بدون نقص وزيادة ، وقد اعترف القرآن بشخصيتها المستقلة حينما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ البيعة منها استقلالاً عن الرجل (٢) .

وقد قرر أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف

(١) آيات سورة الاحزاب الاخيرة .

(٢) آية سورة الممتحنة (١٢) .

وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله .

وقد اعترف بمواقف المؤمنات المماثلة في كل ذلك لمواقف المؤمنين في قوله :

(فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار .) آل عمران : ١٩٥

ونتيجة لذلك يكون لها من حيث المبدأ الحق والمجال في مشاركة الرجل في مختلف المسائل العامة وشؤون الدولة والحكم بما في ذلك المؤسسات والمجالس باستثناء رئاسة الدولة ، لأن هناك حديثاً يشجب ذلك ، وما في القرآن من نصوص يتميز فيها الرجل عنها ، إنما هو في شؤون خاصة ، ومحدودة متصلة بالحياة الزوجية وبطبيعة كل منهما ، وليس من شأنه نقض ذلك (١) وما يورده بعضهم من حجج وأقوال لا تركز

(١) ومع ذلك فالقرآن قرر أن للزوجة في هذه الحياة من الحقوق على زوجها مثل التي له عليها مما سوف نزيده شرحاً بعد ، ويذكر بعضهم آية سورة البقرة (فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تفضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى) البقرة : ٢٨٢ ، التي تفيد أن شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين ، ويذكر بعضهم ما تفيد آيات المواريث (للذكر مثل حظ الانثيين آل عمران : ١١) ، كناقض للمساواة التامة بين الرجل والمرأة ، والنصوص التي تسوي بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات والمركز والمواقف والتبعات والتكاليف أشمل وأقوى من أن ينقضها هذان الامران الثانويان جداً بالنسبة الى ذلك من جهة ، وهناك ما يصح أن يورد في صددهما من جهة أخرى . ففي آيات سورة النساء (١٥) والمائدة (١٠٦) والنور (٣) والطلاق (٢) ذكر للشهادات والشهود في معرض اثبات الفاحشة والزنا والوصية وعدة الطلاق ، ولا تذكر صفة الشاهد ، والمتعارف المسلم به هو أن كل ما ذكر المؤمنون اطلاقاً في القرآن بدون قرينة يشمل المؤمنات أيضاً . بحيث يمكن ان يكون في ذلك تعديل ، وآية البقرة الى هذا في صدد إحضار شهود للشهادة وليس في صدد شهادة شهود واقعة حادثة ، وقد احتوت تعليلاً

وفي الآية قصد التسليّة واضح أيضاً أكثر من قصد التقرير ، مع تقرير كون ما يصيب الناس هو بإذن الله وعلمه ... ومنها آية سورة الشورى هذه :

(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير (٣٠))
والآية تعزو ما يصيب الناس من مصائب إلى أخطائهم ، وتربط المصائب بأسباب تقع من الناس ، وتقرر أن هذه الأخطاء تستدعي أكثر مما يقع عليهم ، ولكن الله يتسامح ويعفو عن كثير مما يقع منهم .
وفي الآية التي تلي هذه الآية تنمة وهي :

(وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (٣١))

حيث توضح أن المقصود بالخطاب هم الكافرون ، ولعل الآيتين نزلتا في موقف حجاج بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار في صدد ما يصيبهم من مصائب . ومنها آيات سورة النساء هذه :

(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً . أين ما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً . من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً (٧٧ - ٨٠))

والآيات بسبيل التنديد في موقف لفريق من المسلمين هم على الأرجح منافقون ، حيث كانوا يعزّون ما يصيبهم من مصائب للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وما ينالهم من خير إلى الله وحده لئلا يبدو أن الدعوة النبوية قد عادت عليهم بالخير والبركة . وقد أظهروا الجزع ، لأنهم كتب عليهم القتال بعد فترة من الزمن اكتفى فيها منهم بالإيمان بالله ورسوله وإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة ، فنددت الآيات بهم ، وردت عليهم بالأسلوب والفحوى اللذين اقتضتهما حكمة التنزيل ، والآيات هي بسبيل موقف جدلي للمنافقين ، ومع ذلك فقد تضمنت فيما تضمنته تقرير كون ما قد يقع على الناس من مصائب واططار هو بسبب أخطائهم وتصرفاتهم ... ومن ذلك آيات سورة التوبة هذه :

(إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون . قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . ٥٠ و ٥١

والآيات بسبيل موقف جدلي للمنافقين أيضاً . وقد تضمنت الرد عليهم والتنديد بهم مع تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتطمينه ، وقد تكون جملة (إلا ما كتب الله لنا) أقوى ما تضمنته آيات القرآن في تقرير كون ما يصيب الناس بغير كسبهم هو مكتوب عليهم ، غير أن قصد التطمين والتثبيت والتسليّة هو الأبرز الأقوى .

ومهما يكن من أمر فمسألة (القضاء والقدر) هي كالمسألة السابقة عقيدية نظرية ، وهي ليست إسلامية فقط ، بل قدر مشترك عند جميع الملل والنحل ، ومثقفين وغير مثقفين ، بل وملحدين أيضاً من حيث إن هناك كلاماً يساق في صدد مسألة كون الناس مسيرين أو مخيرين ، وتأثرهم فيما يفعلون ، ويقع عليهم بظروفهم وبيئاتهم ونشأتهم وتربيتهم وورائاتهم وظروف غيرهم ونشاطاتهم المعاكسة الخ ، وأنهم ليسوا مخيرين في الحقيقة في كثير مما يفعلون أو يقع عليهم . . ولكن ليس من شأن ذلك مع ذلك أن يمنع أحداً من العمل والنشاط في مختلف المجالات مهما كانت عقيدته فيها ، لأن نتائج ذلك العمل والنشاط مغيبة لا تعرف إلا بعد ظهورها ، ثم يستمر الإنسان في العمل والنشاط ، لأن ذلك من طبيعة الحياة .

والقدر إلى هذا وفي نطاق مداه النظري هو الذي وقع وتم بقطع النظر عما كان قبله وما يكون بعده ، وهو عرضة للتبدل دائماً ، فقد يصيب الإنسان مالا ، أو يقع في إفلاس ، وقد تقع منه جريمة ، أو يكون صالحاً

مستقيماً في وقت ما . وكل هذا عرضة للتبدل نتيجة لاستمرار الانسان على النشاط ما دام حياً ، وهكذا تتسلسل المسألة فلا يبقى للقدر ذلك المعنى المحتم الجامد الراسخ في الأذهان من الوجهة النظرية أيضاً .

والقول والحالة هذه : إن عقيدة (القضاء والقدر) تشل قوى الإنسان ، وتجعله يستسلم للواقع مجاف للحقيقة والواقع ، فليس من إنسان وقع عليه شيء أو وقع منه فعل إلا استمر بعده في العمل والنشاط دون توقف .

وبالنسبة للمسلم فإن فيما تقدم ما يضع الأمر في نصابه . ومع ذلك حتى لو كانت هذه العقيدة مستحكمة عند المسلم بالنسبة لما يقع عليه من مصائب ، أو يقع منه من أفعال بقطع النظر عما كان قبل ذلك ويكون بعده ، فإن المسلم الذي يعتقد ذلك ، يقدم على جسيم الأمور غير هيب ولا وجل ، لأنه معتقد أنه لن يصيبه إلا ما كتب له ، ولن يفني عنه حذر من قدر كما يقول المثل ، وهذا هو التحليل المبني لأثر هذه العقيدة في المسلمين ، والذي كان يحركهم في الصدر الإسلامي ، ويجعلهم يقدمون على المخاطر والمصاعب ، وينجزون ما يكاد يكون من المعجزات في مختلف شؤون الحياة ومجالاتها .

ولقد اقتضت حكمة الله أن يزودهم بتطمين وتثبيت قرآنيين ، فجاء بعد آيات التوبة المذكورة هذه الآية :

(قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ٥٢(٠٠) وجاء في سورة البقرة هذه الآيات :

(يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .) ١٥٣-١٥٧

وفي هذا ردّ مبديّ وعملي على من يتمحل من الملحدين في صدد
اثر هذه العقيدة في المسلمين ، ويريد هدم الإسلام من أجلها ، ساء فالهم ،
وخاب أملهم ، وردّ الله كيدهم إلى نحورهم .

وقد يكون واقع المسلمين يوحى ذلك ، ولكنه واقع له أسباب أخرى
غير الاسلام وعقائده السليمة الصافية مما لا يمكن أن يكابر فيه إلا أحمق .
هـ - ولصادق العظم مواقف تعسفية في صدد آيات قرآنية عديدة
إساء تأويلها وفهمها ومداها ، وإظهار نقائص القرآن وانتقاد الفكر الديني الإسلامي
عبر ذلك كما كان شأنه وقصده فيما سماه مأساة إبليس . وقد رأينا أن
نلم بها لأنها قد تمثل رأي غيره من أمثاله الملحدين أيضاً ، وقد يكون في
بعضها إشكال لذوي النيات الحسنة من مسلمين وغير مسلمين ، فيكون
الإلام بها ، ووضع الأمر في نصابه الحق في صدها إن شاء الله مفيداً لهم
مع ما يكون في ذلك من رد على الملحدين ، وإظهار ما في تمحلاتهم ومما حكاهم
من ضعف وغشاة وقصد سيء .

(أ) من ذلك آية سورة الإسراء هذه :

**(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها
القول فدمرناها تدميراً) (١٦)**

وقد أورد العظم هذه الآية في البحث الذي سماه مأساة إبليس في
كتابه (نقد الفكر الديني) وقال بالحرف في تفسيرها : (إن الله قد شاء
تدمير القرية . . بمحض مشيئته ، ولكن لئلا يكون للعباد عليه حجة
فيما شاء لجأ إلى المكر ، فأمر مترفيها أن يفسقوا فيها حتى يبدو للجميع
وكان القرية استحققت ذلك التدمير ، بينما الحقيقة غير ذلك . وهذا
من مكر الله) !!

كبرت كلمة تخرج من فيه ، لايقولها إلا شخص فقد المنطق والدوق .
والعقل والأدب معاً .

ولو أوتي شيئاً من ذلك حقاً ، لكان قبل كل شيء لاحظ أن الله يقتضي أن يكون في غنى عن إقامة حجة كاذبة لعباده فيها مكر وخداع مما هو محض هراء ، ثم كان انتبه إلى الآيات التي قبل هذه الآية وبعدها فرأى فيها ما يمنعه من هذا الهراء أيضاً ، فقد جاء قبلها هذه الآيات :

(وكلّ إنسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ولا تزرّ وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) ١٣ - ١٥

وجاء بعدها هذه الآيات :

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) ١٧ - ١٩

فهل يقول ذلك الهراء عاقل ولو كان ملحدّاً في تأويل آية جاء قبلها وبعدها هذه الآيات التي تقول بلسان الله : إن الله لا يعذب أحداً حتى يبعث إليهم رسولاً ينذرهم ويبشرهم ، ويبين لهم الطريق ، فإذا ما جحدوا وانحرفوا حق عليهم العذاب ، وأنه لا يحمل ذنب أحد على غيره ، وأن الله لا يهلك الناس إلا بذنوبهم ، وأن من آمن واتفق شكر الله سعيه ... وشيء من التروي وحسن الفهم والدوق يظهر أن عبارة الآية على ضوء ما قبلها وبعدها أسلوبية أريد بها تقرير ناموس اجتماعي عام ، وهو أن الأمم والمدن إذا ما ساد عليهم الفساد وحكموهم ، ورضوا هم بذلك كان في ذلك دمارهم . وجملة (فحق عليها القول) في الآية مؤيدة لهذا التأويل ، فلا يصح أن يفرض أنه حق عليها القول بالتدمير إلا مع القول إنها وقعت موقفاً منحرفاً مع أمرائها الفساد متجاوبة معهم راضية بفسقهم ، ولقد فسرها المفسرون بتفسيرات أخرى ولكنها في معنى كون التدمير جزاء عادلاً من الله بسبب سيرة الأمراء الفاسقة ، ومن هذه التفاسير : (إن

الله يأمر الامراء بأوامره ونواهيه ، فلا يعملون بها وينحرفون ، ويرضى أهل بلدهم بذلك فيستحقون التدمير) وفي هذا أيضاً صواب وسداد . والآية من ناحية أخرى تتضمن تقرير مسؤولية الزعماء ، لأنهم عادة يطاعون ، فإذا كانوا فاسقاً أثروا في قومهم ، وأوردوهم موارد الهلاك . . . ولقد جاء في سورة هود هذه الآية :

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١١٧))

حيث تقرر تنزه الله تعالى عن إهلاك قرية إذا كان أهلها صالحين ومصلحين ظالماً واعتباطاً ، وجاء في سورة القصص هذه الآية :

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون (٥٩))

وجاء في سورة الأنعام هذه الآية :

(ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون (١٣١))

أي إن الله لا يهلك قرية غافلة لا يكون قد جاءها منه رسول يبين لها طريق الحق ، وبعبارة أخرى لا يهلكها عن غفلة وجهل وحسب ، بل إذا انحرفت عن طريق الحق بعد أن يكون بينها لها رسوله . وهذه الآية جاءت حجة على المنحرفين حيث جاء قبلها هذه الآيات :

(يا معشر الجن والإنس ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (١٣٠) الأنعام : ١٣٠)

وفي القرآن آيات عديدة أخرى تقرر كون الله عز وجل لا يظلم أحداً ، وأن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بما يفعلونه من سيئات ، ويقفونه من مواقف الكفر والانحراف كما جاء في هذه الآيات التي لها أمثال أخرى :
١ - (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً (النساء : ٤٠))

الرابعة : حالة الخضوع ، وهي حالة الفريق الذي خضع للمسلمين ،

وأدى إليهم الجزية بدءاً أو بعد حرب فواجب المسلمين أن يوفوا له بما اشترطوا له من حماية وذمة ما دام محافظاً على حالته وشروطه .

ت - من تلقينات القرآن أن كل غير مسلم يعتنق الاسلام يصبح اخاً لسائر المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وإسلامه يجب كل ما صدر عنه قبله .

ث - من تلقينات القرآن وتقريراته أنه لا يجوز للمسلمين ودولتهم أن يتبادلوا الولاء والنصر والموادة مع أعدائهم الموصوفين في الفقرة الاولى بأي عذر كان ، ومهما تكن الظروف ، كما أنه لا يجوز لهم أن يخلطوا فيهم من ظهرت بوادر المكر والكيد والبغض منه لهم ، ولا يتخذوه بطانة لهم ، وعليهم أن يكونوا منه على حذر ، ومن يخالف ذلك فليس من الله في شيء ، ويعتبر كالمرتد عن دين الله .

ج - من تلقينات القرآن أنه يجوز للمسلمين ودولتهم أن يسايروا ظروفهم بحيث يسوغ لهم أن يتقوا عدواً ويدافعوه بالتتي هي أحسن إذا كان ذلك في مصلحة المسلمين أو فيه دفع ضرر عنهم ، على أن لا يكون خضوعاً ولا ولاءً وتحالفاً وتناصرأ ولا ذلاً ، ولا يكون فيه تواطؤ وغش عن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم .

ح - أن القرآن قد أولى المواثيق والعهود عناية عظيمة ، فيجب على المسلمين ودولتهم أن يلتزموا ما يبرمونه من عهود ومواثيق ما دام الطرف الآخر ملتزماً بها ، وعليهم إذا شعروا منه خيانة وغدراً أن يعلنوه بشعورهم وأن لا يأخذوه على غرة .

خ - إن القرآن كرر أوامره ببذل النصيح للأعداء ودعوتهم إلى الحق ، وإشعارهم بأن باب السلم والتوبة مفتوح لهم دوماً ، وبالجنوح إلى السلم

حال ما يجنحون إليها . فعلى المسلمين ودولتهم التزام هذه الأوامر (١) .

د - إن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ومآثوراتهم تنطوي على التلقين بأن لغير المسلمين من رعايا الدولة والعرب والمستعربون ، منهم من باب أولى - ما للمسلمين فيها من الحقوق والحريات المتنوعة المشروعة ، وعليهم ما عليهم من الطاعة والإخلاص والأمانة والتضامن والتكليف .

ذ - إن القرآن استهدف التأسيس بين أهل الكتاب والمسلمين بخاصة ، وحسن التواصل والتعايش والتفاهم لما يجمع بينهم من وحدة المصدر ، وإن على المسلمين ودولتهم أن يستلهموا ذلك إذا كان أهل الكتاب مسلمين غير معتدين مباشرة أو مظاهرة .

وفي القرآن ملهفات بأن تعبير أهل الكتاب هو أوسع شمولاً من اليهود والنصارى ، فإذا كان عند ملة كتاب تقول تقاليداً : إنه أوحى به من خالق الأكوان ومبدعها ومدبرها إلى بعض رجالها أو أنبيائها القدماء ، وفيه شرائع ووصايا ومبادئ وعليها سمة كتب الله المعروفة فيصح أن تعتبر كتابية .

ر - إن القرآن يقرر أن اليهود من أشد الناس عداوة للمسلمين ، وإن النصارى أقربهم مودة إليهم ، وعلى المسلمين ودولتهم أن يستلهموا هذا في نطاق مصالحهم وأمنهم وطمانينتهم وكرامتهم .

١٠ - ومن مقتضى قرارات محكمات القرآن وتلقيناته في صدد العدل والقضاء :

(١) من الواجب أن ننبه على أن هذا لا يشمل الدولة اليهودية في فلسطين ، لأنها قامت على أرض العرب التي اغتصبتها بالحديد والنار والبقي والعدوان ، ونكلت بأهلها أقصى تنكيل وطردهم ونهبت أموالهم وأملأهم ، ومن واجب المسلمين ودولهم أن يبقوا معها في حالة حرب وكفاح إلى أن تزول وتعود فلسطين جميعها إلى راية الإسلام والعروبة .

أ - إن فكرة العدل والحق والإنصاف هي التي يجب أن تكون ضابطاً للمسلمين ورائدهم في تعاملهم مع الناس مسلمين كانوا أو غير مسلمين .

ب - إن التزام العدل والحق والإنصاف واجب لا يجوز أن يتأثر بكراهية وبغضاء ، ولا بعاطفة غضب ، أو لومة قريى ونسب ، وعصبية دين ومذهب وجنس .

ت - إن الواجبين المذكورين يترتبان على المسلمين عامة ، وعلى من يتولى القضاء منهم خاصة .

ث - إن على قضاة المسلمين بنوع خاص الحذر والتنبه تجاه ما يعتمد إليه المتقاضون أحياناً من كيد ومكر وتدليس وإغراء وذلاقة لسان ، كما أن عليهم أن لا يتأثروا بالمظاهر الزائفة والإيمان الكاذبة ، وأن يكون همهم تحري الحق والعدل والإنصاف والحكم به مجرداً عن كل شائبة واعتبار .

ج - إن على المسلم أن يعتقد أن مخالفته لمقتضى الحق والعدل والإنصاف ، ومحاولته أكل مال غيره بأي أسلوب ولو عن طريق المحاكمات والقوانين مع علمه ذلك إثم ديني يعاقب عليه من الله ، ولا يكون له حلالاً ، وإن الله رقيب عليه ولو استطاع إخفاء إثمه عن الناس ، وإن عليه أن يتجنب البغي والعدوان والاحتيال والإثم على مال أي إنسان وعرضه وسائر حقوقه بأي أسلوب ، ومن جملة ذلك الغش والتفريب وأن لا يظهره غيره على ذلك مهما كانت الرابطة التي تربطه به ، ومهما كان بينه وبين ذلك الإنسان من بغضاء وكراهية ، وأن يسرع إلى التوبة والإصلاح إذا بدا منه شيء من ذلك ورد الحق إلى صاحبه .

ح - إن قلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وإلصاق الإثم والتهم بالأبرياء من الجرائم الدينية الكبرى التي يستحق مقتربها سخط الله وغضبه وعذابه .

ج - لا يجوز لمسلم أن يتهرب من التقاضي امام القضاء الإسلامي ،
أو يفضل عليه غيره ، وعليه أن يدعن له سواء اكان الحكم له أم عليه .

د - إن القضاء الإسلامي يستمد احكامه واساليبه من القرآن والسنة
وتلقينا تهما وملهماتهما وخطوطهما العامة ، وليس ما يمنع من الاقتباس
والسير على السوابق الصالحة فيما ليس فيه نصوص صريحة في نطاق
تلقينات القرآن والسنة ، وخطوطهما العامة .

ذ - يجب على المسلمين أن يوثقوا معاملاتهم المالية والتجارية وخاصة
ديونهم بوثائق وسندات ، منعاً للشك والنزاع ، وعلى الكتاب أن يؤدوا
مهمتهم بكل امانة وصدق وعدل .

ر - يجب على الذي عليه الحق أن يتقي الله فيعترب بما عليه بتمامه ،
ويسجله ويوقع عليه ، ويجب على الذين يتولون مقام غيرهم وكالة أو
وصاية أو ولاية أن يفعلوا ذلك أيضاً .

ز - يجب توثيق المعاملات والوقائع والقضايا بالشهود العدول ،
ويجب على الشهود أن يلبوا الدعوة للشهادة ، وأن يؤدوا شهاداتهم بكل
امانة وصدق .

س - إن للكتاب والشاهد حق الحماية والصيانة والحرمة ، فلا
يجوز مضارتهما في أي حال وعلى القضاء ردع من يضارهما ، أو يخل
بواجب الامانة والصدق منهما .

ش - إن القضاء الإسلامي مرجع لحل وتنظيم الشؤون والمشاكل
والخلافات المدنية والأحوال الشخصية ، كالديون والوصايا والهبات ،
وإثبات الرشد والنكاح والطلاق والإرث وما شاكلها بالإضافة إلى الجرائم
الدموية والبدنية والمالية العدوانية .

ص - في القرآن أمر بالاشهاد والاستشهاد ، وتوثيق المعاملات

بالكتابة حيث يكون كل هذا من وسائل إثبات الحقوق وحل الخلافات أمام القضاء ، وليس فيه ما يمنع إثبات الحقوق ، وحل الخلافات بأي وسيلة معقولة وشرعية أخرى .

ض - في القرآن ما يفيد أن العدالة في المخبر والراوي والشاهد شرط ، وأن من حق القضاء أن يرد شهادة الفاسق ، وهو الذي عرف بالانحراف عن أوامر الله ونواهيه ومن ذلك الكذب والفش والخيانة والرشوة .

ط - ليس للقضاء الإسلامي أن يجبر الكتابيين الذين يعيشون في كنف السلطان الإسلامي على التقاضي أمامه في أمورهم الخاصة ، وإذا رغبوا في التقاضي أمامه ، فالقضاء يكون وفقاً للشرع الإسلامي . ولهم أن يتقاضوا في أمورهم الخاصة أمام قضاتهم على شرط أن يكون قضاؤهم مستمداً من كتبهم الدينية .

ظ - ليس في القرآن عقوبات محددة إلا لجرائم القتل العمد والقتل الخطأ والزنا والقتل (١) والسرقه ، وحكمة ذلك كما هو المتبادر أنها جرائم تهدد أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم في كل ظرف ومكان .

وعقوبات الجرائم الخمس المذكورة رادعة ، وليس فيها ما يتحمل تمحلاً جاداً ، وتمحل بعض الناس بعقوبة قطع اليد للسارقواه ، والتجارب تثبت أن البلاد التي تطبق فيها هذه العقوبة تقل فيها هذه الجريمة عن غيرها ، وهناك اجتهادات تستند إلى قرآن قرآنية أن السارق إذا تاب وأصلح قبل الحكم عليه يعفى من القطع ، وهناك آثار راشدية تسيغ إعفاء السارق إذا سرق لسد رمقه ، ولم تكن السرقة مهنة له .

ع - أما غير الجرائم الخمس المحدودة عقوباتها في القرآن ، فالمتبادر أن حكمة الله اقتضت ترك التدبر فيها للمسلمين بما يتناسب ويتلاءم مع الظروف والمصلحة ، ويمكن استلهاهم القرآن في ذلك . ففي القرآن نهي عن

(١) القذف : هو اتهام رجل وامرأة بالزنى دون أن يقدم المتهم أربعة شهود عيان على صحة التهمة .

كثير من الأفعال الشخصية والاجتماعية والسلوكية ، وتنديد بفاعليها ، وإنذارهم بعذاب الله وغضبه ونقمته ، مثل الكذب ، وشهادة الزور ، والاحتيال لأكل أموال الناس بالباطل ، وخداع الناس والحكام ، والأخبار والإشاعات الكاذبة ، ونقض العهد ، وخيانة الأمانة ، ونيز الناس ولزهم والسخرية بهم وغيبتهم ، والتجسس عليهم ، وإخلاف الوعد الخ الخ ...

فليس ما يمنع الدولة أن تضع عقوبات على هذه الأفعال بمشورة أهل الحل والعقد بما يتناسب مع أثر كل فعل وخطورته ومداه ، ويكون فيها صيانة للأفراد والمجتمع ، وهناك مآثورات نبوية وراشدية بترتيب عقوبات على مثل هذه الأفعال فيكون ذلك ملهماً مسوغاً .

ع - لقد حرم القرآن الخمر والميسر ، ونبه على ما فيهما من إثم وفساد ، مما صار أمراً مسلماً به في جميع أنحاء الأرض والمجتمعات ، فعلى الدولة منعهما ، وترتيب العقوبات الرادعة على فاعليهما ، وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه حداً على شارب الخمر ، وفي ذلك قدوة وأسوة .

غ - لقد حرم القرآن الربا ، ونبه على ما فيه من ظلم وإثم ، والاشتغال بالربا مما يشل النشاط الاقتصادي ويعقد نفسية الناس إزاء بعضهم . فعلى الدولة أن تمنع تعاويه وتجدد مع أهل الرأي والعلم أساليب مشروعة أخرى بديلة عنه .

ف - والتأمر مع الأعداء وموالاتهم والتجسس لهم ، وخيانة الدولة ، والمجتمع الإسلامي وإفلاق أمنه وطمانينته وإشاعة الفاحشة فيه ، والعبث في الأرض فساداً من أفضع الجرائم المستنكرة في القرآن التي ندد بمقتريها ، وإنذر بعذاب الله وسخطه ، وليس ما يمنع الدولة كذلك من ترتيب عقوبات زاجرة عليهم بمشورة أهل الحل والعقد .

ق - إن استغلال الفرص لتأمين المنافع الخاصة على حساب المجتمع والأفراد وضررهم ، والاحتيال عليهم وغشهم والتفريير بهم ، وعدم التضامن مع المسلمين في الأزمات والنضال ، واللعب على الحبلين مع الدولة وأعدائها والإمساك عن البذل وبخاصة في سبيل الله ، والتثبيط عنه ، والتهرب من القتال والتبطيء عنه ، وبث الدعايات والإشاعات الضارة

والتهوئش على القائمين بالمصالح العامة بسائق الغرض والحق من الجرائم التي استنكرها القرآن ، وأنذر مقترفيها ، وليس ما يمنع الدولة من ترتيب عقوبات رادعة عليها .

ك - لا يجوز التسرع في توجيه تهمة الكفر والفسق والظلم والخيانة والانحراف عن أحكام الله وسنة رسوله للناس والحكام إذا كانوا يظهرون الإسلام ، ويقومون بأركانه فضلا عن استحلال دماءهم أو العدوان عليهم فهذا من الفساد المؤدي إلى الفتنة والمستحق للعقوبة (١) .

١١ - ومن قرارات **الحكمات** القرآنية وتلقيناتها في صدد أسباب القتال والجهاد مما يتصل بالأمور الاجرائية فيهما .

آ - ليس الجهاد هو الحرب والقتال وحسب ، بل هو أوسع ، فكل خدمة للإسلام والمسلمين تعد جهاداً في سبيل الله ، سواء أكانت بالحرب أو بالمال أو بجهد آخر غيرهما .

(١) من الجدير بالذكر وله مغزى عظيم في هذا الصدد أن القرآن احتوى آيات عديدة فيها تنديد شديد ببعض المسلمين ومواقفهم التي كان بعضها خطيراً جداً ، وفي بعض الآيات صراحة بأن منهم من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ومع ذلك فإنه لم ينف عنهم صفة الإيمان وخاطبهم بها . اقرأ مثلاً آيات آل عمران (١٥١) - (١٥٦) والنساء (٧٢) - (٨٣) و (١٤٠ - ١٤٤) والمائدة (٥٧) والانفال (٢٠ - ٢٨) والتوبة (٢٣ و ٢٨ - ٣٠ و ١٠١ - ١٠٦ و ١١٩ و ١٢٠) والنور (١١-١٨) والحديد (٨-١٠ و ١٦) والممتحنة (٣-١) والصف (٢ و ٣) ، والذين هم موضوع هذه الآيات ليسوا منافقين على ما يفيدته فحواها بكل قوة ، ومع ذلك فإن من الجدير بالذكر وله مغزى عظيم في هذا الصدد أنه لم يروا النبي أمر بقتل منافق رغم ما احتواه القرآن من آيات كثيرة تقرر بأن المنافقين كفروا بعد إيمانهم وتذكر مواقف خطيرة لهم ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاسلام وفي حالات الحرب فضلاً عن حالات السلم ، وتأمر النبي بأنذارهم ومجاهدتهم والاغلاظ عليهم كالكفار وتحمل عليهم حملات قارعة قاصمة . وذلك على أمل أن يرجعوا ويستجيبوا لهتاف التوبة التي دعوا إليها ولأنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام دعوى ويقومون بأركانه ولو كرها ورياء .. اقرأ آيات البقرة (٨-١٦ و ٢٠٣ - ٢٠٦) والنساء (٨٨ و ٨٩ و ١٣٧ - ١٤٦) والمائدة (٥٢ و ٥٣) والتوبة (٤٣-٨٧ و ١٠١ و ١٠٧ - ١١٠ و ١٢٣ - ١٢٧) والاحزاب (١٢ - ٢٤ و ٥٧ - ٦٢) والحشر (١١ - ١٧) والمنافقون (١-٨) والتحريم (٩) .

ب - القتال في الاسلام فرض على القادرين كلما دعت إليه الحاجة، وفرضيته تشمل الجهاد بالمال والنفس معاً ، وإذا كفى أن يقوم به بعضهم فلا بأس ، وإذا دعت الحاجة إليه فتعاس عنه المسلمون ، أو لم يكف أن يقوم به من قام به منهم أثم القاعدون ، ولا يؤأخذ الله العاجزين عنه ، ويسخف التسامح لمن لهم أعذار معقولة مع إيجابه عليهم القيام بأي عمل مفيد لمصلحة الإسلام والمسلمين في ظروف القتال بخاصة .

ت - إن القتال قد استهدف غايتين ، الأولى : دفع الظلم والعدوان والبغي والاضطهاد عن المسلمين ، ومقابلة من باداهم بالعدوان والأذى .
والثانية : تأمين حرية الدعوة إلى دين الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

ث - إن الخيانة والفدر ونكث العهد وفتنة المسلمين عن دينهم أي : إجبارهم بالقهر على الارتداد ، والصد عن سبيل الله ، والحيلولة دون حرية الدعوة إليه والظعن في الدين ، ومظاهرة أعداء المسلمين عليهم وخيانتهم والكيد لهم من موجبات القتال ، ولا قتال ضد المسلمين والحيادين والمؤآدين ، والكافرين أيديهم والسنتهم عن المسلمين .

ج - ليس القتال لإجبار الناس على الإسلام ، لأن الدعوة إلى الاسلام تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وقد قرر القرآن أن لا إكراه في الدين ، فمن استجاب برضاه صار مسلماً ، ومن أبى وكف يده ولسانه عن الإسلام والمسلمين ، يترك وشأنه ولا سبيل للمسلمين عليه .

ح - في البلاد التي استقر كيانها ، وتوطد السلطان الإسلامي فيها يكون القتال بدعوة أولي الأمر حينما يرون ذلك ضرورياً وملائماً ، أما البلاد التي لا سلطان للمسلمين عليها ، ولا كياناً مستقراً لها والتي تسلط عليها الغير ، وسيم فيها المسلمون الخسف والظلم ، فالجهاد بالمال والنفس واجب على الجميع دون حاجة إلى دعوة من سلطان . حيث يتقدم أولوا العزم والشأن ، ويدعون المسلمين إليه ، فينفروا أفراداً وجماعات إلى الجهاد بالنفس والمال ، ويتوسلون إلى إرغام الظالمين ، وتقويض سلطانهم بكل وسيلة ، فإن تعاسوا مع استطاعتهم أثموا .

خ - على المتمتعين بالأمن والسلطان من المسلمين أن لا يتوانوا في الجهاد في سبيل نصرته وإنقاذ من يقع من إخوانهم تحت تسلط الأعداء وبغيهم وظلمهم ، وأن يتوسلوا إلى ذلك بكل وسيلة ، فإذا قصروا أثموا .

د - يجب بذل الجهد قبل القتال في النصيحة والدعوة إلى الكف عن البغي والظلم والأذى والفدر والانحراف عن طريق الله والتوبة إلى الله ، فإن لم تفد النصيحة ، وجب الجهاد بالمال والنفس .

ذ - ليس القتال للابادة ، وإنما هو لدفع العدوان والبغي والأذى ، وتأمين حرية الدعوة إلى الله وحقوق المسلمين وأمنهم ، وخضد شوكة العدو ، ولا يجوز أن يتجاوز الانتقام والمقابلة بالمثل الحد المعقول والمائل ، ويجب ترك الباب مفتوحاً دائماً لمن ينتهي عن موقفه الباغي ، ويخرج إلى السلام أو يلقي السلاح ، ويعلن خضوعه ، فإذا وقع هذا وجب الكف عن القتال إذا أمنت الخيانة والفدر وسوء النية ، ومقابلة الجنوح إلى السلم بالمثل وقبول ما يظهره العدو من أمارات الاستسلام والسلام والإسلام .

ر - إذا انعقد بين المسلمين والأعداء صلح ، فعلى المسلمين أن يوفوا للموفين منهم ما استقاموا على عهدهم ، وليس لهم أن يقاتلوا إلا الناكثين منهم ، وإذا استشعروا بنية نكث أو خيانة من معاهديهم ، فعليهم أن يعلنوهم بما شعروا حتى يكونوا على بينة ، ويكونوا وإياهم في موقف متساو ، ولا يباغتوهم مباغته بينما يكونون يظنون أنهم على عهد معهم .

ز - ليست الفنائم هدفاً من أهداف القتال ، ولا يجوز أن تجعل كذلك ، كما لا يجوز التشدد مع الناس لهذا القصد ، ويجب قبول ظواهرهم إذا ما جنحوا إلى الخضوع والسلم ، وأظهروا الإسلام وتابوا ، وأمنت الخيانة والفدر وسوء النية .

س - من واجب المسلمين إعداد ما استطاعوا من قوة بكل أنواعها لإرهاب العدو ، وعمل كل ما يمكن في سبيل دفع أذاه ، وإحباط كيده ، وتوطيد هيبة المسلمين وحرثهم ، وبذل المال خاصة بدون يخل في سبيل ذلك ، فإذا تقاعس المسلمون عن ذلك أو قصروا أثموا فضلاً عن تعريضهم أنفسهم للهلاك والدمار .

ش - إن أمر الأسرى الذين يقعون في يد المسلمين في حروبهم مع أعدائهم بعد خضد شوكتهم منوط بما يراه أولوا الأمر ، والتشريع القرآني الصريح هو المنّ أي : التسريح بدون مقابل أو الفداء أي : التسريح بمقابل فدية ، والقتل والاسترقاق للأعداء مما فعله النبي صلى الله عليه وسلم وأقره القرآن ، وقد جرى في نطاق ضيق ، فيكون ذلك كذلك حسب مصلحة المسلمين وأمنهم وسلامتهم .

ص - ليس للأفراد أن يتدخلوا في سياسة الحرب العليا ، أو يتناولوها بالجدل والإذاعة ، وإنما عليهم رفع ما يتصل بهم منها لأولي الأمر ، والطاعة لهؤلاء فيما يصدر عنه من أوامر ، ويرويه من تدابير ، ويشترط واجبهم في ظروف الحرب خاصة باجتناب النزاع والخلاف والتمرد والتهويز والتشويش .

ض - للمسلمين أن يتوسلوا بكل وسيلة ، وأن يفتنموا كل فرصة لقهر أعدائهم وقتالهم وأن يقاتلوهم في كل ظرف ، وأن لا يترجوا من مقابلتهم بالمثل عملاً وظرفاً ، وعليهم أن لا يهنوا في تعقيبهم وإرهابهم ومقاتلتهم ، والاستعداد لهم والحذر منهم ، والاحتفاظ بنظامهم وقواهم المعنوية مهما طرأ عليهم من الطوارئ حتى ولو دارت عليهم الدائرة في موقف ما ، وقتل قائدهم الأعلى .

ط - إذا أبدى العدو رغبة في مفاوضة المسلمين ، أو معرفة شروطهم ، فيجب على أولي الأمر قبول ذلك ومنح رسله الأمان والحماية .

ظ - إن التقصير في واجب الجهاد بالمسال والنفس والاستعداد والمراعاة ، وإرهاب العدو عدا أنه إخلال بواجب ديني مستوجب لغضب الله ، فهو مؤد إلى التهلكة والفساد والذل ، واختلال نظام الإسلام والمسلمين . ومسوغ لوقوف أولي الأمر تجاه من يبدو منهم ذلك موقف التأديب والتنكيل .

ع - إن التشبيط والتعويق والتخلف والتقاعس عن الجهاد بالمال والنفس ، والسعي في الفتنة والفساد والتمرد في ظروف الحرب بنوع خاص عدا أنه من الجرائم الدينية التي تستوجب غضب الله وسخطه

وعقوبته ، فإنه من الجرائم السياسية التي تسوغ لأولي الأمر أن يقفوا من أصحابها كذلك موقف التأديب والتنكيل .

غ - إن لأولي الأمر أن ينظموا طريقة النفرة إلى الجهاد بالنفس والمال ومباشرته وإعداد العدة له ، والاستعداد له على الوجه الذي يروونه صالحاً وكفيلًا بالقصد . ولهم أن يأخذوا من القادرين من المال ما يسد الحاجة ويندبوا القادرين على القتال ، والنافعين في مختلف مجالات الحرب بالقدر الذي يسد الحاجة أيضاً .

ف - إن لأولي الأمر أن يفرغوا فريقاً للجهاد والمرابطة بصورة دائمة كما أن لجماعات المسلمين أن يفعلوا ذلك حينما تمس الحاجة وتقضي المصلحة ، وعليهم أن يكفلوا لهم نفقاتهم ويكفوهم وأسرهم .

ق - ليس بين المسلمين قتال ، فإذا وقع فهو شاذ ، ويجب على الفرقاء الذين ليسوا طرفاً في النزاع أن يتدخلوا في وقفه وحل النزاع على أساس الحق والعدل والأخوة ، فإذا لم يقبل أحد الطرفين ، واستمر فيكون باغياً ، وعلى الفرقاء الذين ليسوا طرفاً في النزاع أن ينصروا الفريق المبغي عليه بالسلاح إلى أن يدعن الباغي للحق ، وتبعاً لهذا فليس بين المسلمين أسرى حرب واسترقاق أسرى وقتلهم ومنّ وفداء في صددهم .

وهذه تلقينات وتقريرات المحكمات القرآنية في صدد ما يمكن أن يوصف بالمبادئ الإيمانية :

أ - إن المسلم بإسلامه يكون قد عقد عقداً مع الله بأنه باع نفسه للجهاد بالمال والنفس في سبيله ، واشترى الله منه ذلك بالجنة ، فيجب عليه كعقيدة إيمانية أن يوفي بما عاهد الله عليه ، وينفر إلى الجهاد كلما دعا الداعي إليه ، وأن يعتقد بأن الله تعالى موف له بوعده الحق .

ب - يجب على المسلم أن يعتقد أن الله قد كتب على نفسه نصر المؤمنين ، وأنه ناصر من ينصره حقاً فيما يباشره من جهاد في سبيله بماله ونفسه من أجل الدفاع عن الحق ومكافحة الظلم ، وضمان الحرية للدعوة

إلى سبيل الله مع واجب الاستعداد بكل وسيلة، وإعداد كل قوة مستطاعة لذلك .

ت - يجب على المسلم أن يعتقد أنه فائز ورابح في جهاده على كل حال ، فإن بقي حياً فتكون له حسنى الجهاد وثوابه وكرامته ، وإن قتل فتكون له حسنى الشهادة ، وإن كتب للمسلمين النصر ، فيكون الفتح والعزة بالإضافة إلى إحدى الحسنين المذكورتين للأفراد الذين ينالون إحداهما . وإن لم يكن النصر فيكون ابتلاء واختباراً ربانيين يثاب الصابرون عليهما ، ولا يجوز أن يهنوا ويحزنوا ويقنطوا وينفضوا أيديهم من عدوهم ، أو يأسوا من نصر الله .

ث - يجب على المسلم أن يعتقد أن إيمانه وصدقه وصبره تحت الاختبار ، وأن الله قد يتلييه بالخوف والجوع والنقص في الأموال والآنفس والثمرات في سبيل الجهاد، وعليه أن يقابل ذلك بالصبر والتسليم، وأن لا يضعف في طلب العدو وإرغامه ، ولا أن يتهاون في جهاده ، وعليه أن يعتقد أنه لا يصيبه ظمأ ولا نصب ولا جوع ، ولا يظأ موطئاً جهادياً يفيظ به عدواً ، ولا ينفق نفقة صغيرة ولا كبيرة ، إلا كتبها الله له وأثابه عليها بأحسن الثواب .

ج - يجب على المسلم أن يعتقد أن شهداء الجهاد هم أحياء عند ربهم مكرمون بكل مجالي التكريم ، ومتمتعون بكل أسباب النعيم .

ج - يجب على المسلم أن يعتقد أن الأجل لا يتقدم لحظة ولا يتأخر لحظة مما هو مقرر في علم الله ، وأنه حينما يدركه أجله يموت ، سواء أكان في بيته أم في عمله، أم في ساحة القتال ، أم في برج مشيد ، وأن الجهاد لا يقدم من أجله ، وأن تجنب الجهاد لا يؤخر هذا الأجل .

خ - إن المسلم لا يكون مسلماً حقاً صادق الإيمان إلا إذا كان الله ورسوله والجهاد بالمال والآنفس في سبيل الله أحب إليه من كل شيء حتى من أبيه وابنه وأخيه وزوجته وعشيرته وماله وتجارته ومسكنه ، وإلا إذا جاهد بماله وآنفسه برضا وطيب نفس وإقدام .

د - إن الذي يسارع إلى تلبية داعي الجهاد بالمال والآنفس في أوقات الشدة والحرج والخطر أعظم درجة ممن يجاهد في أوقات السعة وتبشير

النصر ، وأن المجاهد بنفسه على كل حال أفضل من القاعد ولو كان قعوده بسبب كون دوره لم يأت ولم تكن إليه حاجة .

ذ - إن الذي يفر من أمام العدو لغير غاية حربية يكون قد ارتكب جريمة دينية عظمى .

ر - إن المسلم حينما ينزل الى ميدان القتال يكون أمام الله وأمام عدوه وعدو الله ، ويكون قد وضع نفسه في ميزان الاختبار بالخشية من الله أو من عدوه ، ومن الواجب عليه ديناً أن يختار الخشية من الله والاستماتة في سبيله .

ز - يجب على المسلم أن يعتقد أن جهاده في سبيل الله والحق ، وأن الله وليه وناصره ، وأن عدوه باغ مبطل ، وأن الله خاذله ومنكسه ، وأن له التفوق على عدوه بالمدد الرباني ، وأنه يستطيع بهذا أن يقاتل ويغلب عدداً أكثر من عدده إذا صدق في جهاده ، وأخلص في نيته .

س - إن التثبيط عن الجهاد بالمال والنفس ، والتخلف عنه عند الدعوة إليه والتقصير فيه ، وعرقلة سيره ووسائله ، وإبتغاء الفتنة ، وإشاعة الوسائس والدسائس والإشاعات الموهنة في ظروفه ووضع العقبات في طريقه وعدم التضامن التام فيه ، والاكتفاء بالتبجح وعدم قرن القول بالعمل فيه جرائم دينية عظمى يستحق مقترفوها والمندمجون فيها عقوبة الله وغضبه بالإضافة إلى كونها جرائم سياسية يستحق مقترفوها عقوبات زاجرة عليها .

ش - وهناك أحاديث نبوية في مبادئ الجهاد من المفيد التنويه بها بخاصة في هذا البحث الخطير :

(١) منها حديث جاء فيه «الجهاد واجب مع كل أمير برّاً كان أو فاجراً» حيث يفيد أنه ليس لأحد من المسلمين أن يتعلل عن الاستجابة إلى دعوة أولي الأمر إلى الجهاد بالمال والنفس بحجة كرهه لهم ، أو ظنه أنهم منحرفون ، وعليه أن يلبي دعوتهم إلى الجهاد على كل حال ، لأن الأمر يتعلق بمصالح الإسلام والمسلمين وحياتهم وكرامتهم .

(٢) ومنها ما يسوغ قتل الجاسوس ، ومنها ما يحض على بث العيون لاستطلاع أخبار العدو ، ومنها ما ينهى عن المثلة - أي تشويه الأجسام -

في قتلى الأعداء ، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ والعاجزين عن القتال ، ومنها ما يأمر بحرق دماء رسل الأعداء ، وإجازة جوار أي مسلم لأحد الأعداء إذا كان مستسلماً مأمون القدر ، ومنها ما يحرم القلول أي : سرقة شيء من الفنائم وإخفائه ، ويقضي بمعاقة الغالين ، ومنها ما يسوغ اغتيال من يكون شديداً الأذى للإسلام والمسلمين .

١٢ - ومن قرارات القرآن المحكمة وتلقيناتها في صدد الدعوة إلى سبيل الله أي : الإسلام والتبشير به :

أ - إن سبيل الله هي تعاليم الله ورسوله وبعبارة ثانية هي الدعوة الإسلامية .

ب - إن الدعوة إلى الإسلام ، ونشر تعاليمه الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية والسلوكية والانسانية بين المسلمين وغيرهم مما يجب على الدولة والمسلمين عامة ، والتقصير في ذلك هو تقصير في واجب ديني خطير .

ت - إن خطة الدعوة إلى سبيل الله هي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن دون إكراه ولا عنف .
ث - إن من حق الدولة والمسلمين أن يقفوا من الذين يشذون في الجدل ، ويتجاوزون الحسنى فيه من غيرهم إلى البغي والظلم موقف المثل .

ج - إن الوقوف في وجه الدعوة إلى الله وسبيله ، وصد الناس عنها وتعطيلها ، والحيلولة دون حريتها والطعن فيها ، والعدوان على دعائها والمستجيبين إليها مما يسوغ للدولة والمسلمين عامة الجهاد ، والنضال حتى ينتهي الباغون عن موقفهم ، وتضمن الدعوة ودعائها والمستجيبين إليها الحرية والصيانة والأمن والإنطلاق .

ح - إن على الدولة واجب الانفاق على نشر الدعوة الإسلامية ومبادئها ، وإعلاء شأنها وضمان الصيانة والحرية لها وردّ البغاة عليها ، والطاعنين فيها ، والصادقين عنها مما يدخل في بيت المال من موارد .

خ - إن على الدولة تنظيم الدعوة واساليبها ونشر مبادئها تنظيمًا يضمن لها النجاح .

د - إن على المسلمين أيضاً بالإضافة إلى الدولة أن يبذلوا جهدهم في نشر الدعوة وتنظيمها وحمايتها وكفالة حريتها ، والإنفاق على ذلك من أموالهم بالإضافة إلى ما يؤدونه إلى بيت المال ، وتقصيرهم في ذلك هو تقصير في واجب ديني خطير .

ذ - إن القرآن بوصفه المسلمين أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس كما جاء في آية سورة البقرة (١٤٢) قد أمرهم بأن يحققوا مدى هذا الوصف في أنفسهم وهو أن يكونوا عدولاً خيبرين دائماً بعيدين عن التفریط والإفراط والقلو والتقصير ، متمسكين بالأحسن والأفضل والأصح والانفع من كل أمر ، وخلق وعمل وموقف ليكونوا قدوة للناس ، وليحملوا مشعل الهداية لهم ، ودعوتهم إلى دينهم الذي ارتضاه الله لهم ، ووعد بإظهاره على الدين كله ، وأوجب على كل مسلم بالتالي كل ذلك ، وحملهم مسؤولية التقصير فيه .

و لقد حقق السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان هذا الوصف في أنفسهم فكانوا هداة الناس والدعاة إلى الله فيهم ، واستجاب لهم الناس . والوصف مطلق شامل لكل المسلمين في كل ظرف ومكان .

ر - إن من أهم أركان الدعوة الإسلامية عموم الرسالة المحمدية وإنسانيتها وعالميتها .

ز - إن عناية القرآن بأهل الكتاب - وبخاصة اليهود والنصارى تنطوي على تقرير كون ذلك من الأركان المهمة للدعوة إلى سبيل الله ، لاتحاد الإسلام مع أهل الديانتين في المصدر والأساس ، ولما يترتب على اتحاد أهل الديانات الثلاث تحت راية القرآن ، ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم من نجاح الدعوة إلى سبيل الله واكتساحها غيرها ، واختصاص اليهود والنصارى بالذكر هو بسبب كون ديانتهم الكتابية الإلهية المصدر هو الأمر المعروف اليقيني لدى جميع الناس .

س - إن عناية القرآن بالعقل ودعوته المخاطبين والسامعين إلى التفكير والتدبر وحسن الاختيار تنطويان على تقرير كون ذلك ركناً مهماً من أركان الدعوة إلى سبيل الله .

ش - إن أسلوب القرآن في دعوة الناس إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والبرهان والإشفاق ، وتوجيه الخطاب إلى العقل والقلب معاً ينطويان على تقرير كون ذلك ركناً من أركان الدعوة إلى سبيل الله .

ص - إن بساطة الرسالة الإسلامية وصفاءها وخلوها من التعقيد ، وعدم وجود ما ينافي فطرة الله التي فطر الناس عليها فيها ، واحتواءها أشرف المثل ، وأقوى الحوافز للخير والحق والعدل والبر والكرامة والانطلاق ، وإنسانيتها وعالميتها واعتبارها الناس جميعاً سواسية إخوة في نطاقها بقطع النظر عن الجنس واللون والأحساب والثروات، واستهدافها إقامة إخوان إنساني عام يقوم على الحرية والمساواة ، وبنیان اجتماعي عام يقوم على التعاون والتضامن ، وكيان سياسي عام يقوم على المصلحة العامة، وكل هذا من قرارات القرآن مما يؤهل الدين الإسلامي للظهور على الدين كله ، وغدوه دين الإنسانية العام ، كما ذكر ذلك القرآن **(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً .)**

الفتح : ٢٨

ض - إن في معنى الإسلام ما يفسح المجال بسهولة ويسر لانضواء الناس تحت راية القرآن على اختلاف الأقطار والأجناس والألوان والنحل، لأن المطلوب هو إسلام أنفسهم لله وحده .

ط - وبالإضافة إلى ما تقدم (١) إن قدسية اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والسنة والعبادات مما يؤهلها للانتشار بين المسلمين على اختلاف الأقطار والأجناس ، وغدوها لغة المسلمين العامة ، ووسيلة من وسائل توطيد الوحدة والأخوة بينهم (٢) إن سير التاريخ والحوادث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده مما أيد نجاح الدعوة إلى سبيل الله في صورتها الأخيرة وهي الرسالة الإسلامية في مختلف الأقطار ، وبين مختلف الأجناس والنحل بما في ذلك أهل الكتاب وبخاصة من نصارى ويهود . وما كان من شذوذ ، فمرده إلى أسباب ليست من عناصر الدعوة والرسالة . (٣) إن التنظيم والجهد والبذل مما يترتب على الدولة والمسلمين كفيل بتحقيق ما وعد القرآن به من إظهار الإسلام على الدين كله (٤) إن الحروب النبوية والفتوحات الإسلامية لم تستهدف فرض الدعوة وإنما استهدفت رد العدوان والأذى ، وضمان حرية الدعوة ، وإن بقاء جماعات من

أصحاب الأديان الأخرى على مدى الأحقاب بين ظهراني المسلمين ، وفي ظروف قوة السلطان الإسلامي العظمى يمارسون طقوسهم ، ويحتفظون بمعابدهم وتقاليدهم **لدليل** حاسم على أن الدعوة الإسلامية كانت وسارت وفق الخطة القرآنية المثلى وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وترك المسالمين والحياديين والمعاهدين والخاضعين من أهل الملل الأخرى وشأنهم مع البر بهم والإقسط إليهم . وإذا كان التاريخ سجل شذوذاً ، فإنه لا يمت بسبب إلى هدي القرآن والسنة . (٥) إن الدعوة الإسلامية لم تنتشر في ظروف قوة السلطان العربي الإسلامي فحسب ، بل انتشرت وكسبت مئات الملايين في مختلف أنحاء الأرض في ظروف ضعفه أيضاً ، مما ينطوي فيه دليل حاسم على قوة عناصر الدعوة وعظمتها لذاتها . (٦) إن حالة المسلمين الحاضرة من ضعف وجهل وتخلف واستخذاء وضعف تعاون لا يمكن أن تمت إلى هدي القرآن والسنة الذي ينطوي على كل أسباب الخير والحق والقوة والكرامة والتعاون والسؤدد والحرية والتقدم ، بدليل أن المسلمين الأولين حققوا كل ذلك ، وعاشوا في ظله ، وإنما هي راجعة إلى أسباب وعوامل طارئة متنوعة ، ومنها ما كان من سوء فهم وتأويل لذلك الهدي وانحراف عنه . (٧) إن واجب الدعوة إلى سبيل الله في صورتها الأخيرة أي : الرسالة الإسلامية لا يقتصر على نشرها في غير المسلمين ، بل يشمل نشر حقائق الإسلام ومبادئه بين المسلمين حتى يتحقق وعد الله لهم بالقوة والتمكين والبركات والخيرية والوسطية حينما يؤمنون حق الإيمان ، ويفهمون حقائق دينهم ، ويتحققون بها ويعملون الأعمال الصالحة التي تشمل كل ما فيه خير وصلاح وبر وتعاون وتقدم وحتى يمكن بنوع خاص حماية الناشئة الإسلامية من التيارات الهدامة .

١٣ - ومن تقارير محكمات القرآن وتلقيناتها في الشؤون الاجتماعية .

آ - إن على المسلمين كافة أفرادهم وجماعاتهم - وكل في نطاق قدرته وإمكانه - أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتضامن فيه ، بالإضافة إلى واجب الدولة والقائمين بأمرها بذلك .

ب - إن التقصير في هذا الواجب إثم ديني يستحق سخط الله فضلاً عن أنه مؤد إلى إهمال المعروف واستثراء المنكر مما فيه ضرر كلي للمجتمع .

ولقد أثرت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث عديدة فيها تشديد بوجوب القيام بهذا الواجب الخطير ، وإنذار بعقاب الله العام ولعنته للمجتمع الذي يقصر فيه . وهناك حديث يوجب على كل مسلم المبادرة إلى تغيير أي منكر يراه بيده أو لسانه أو قلبه على أدنى حال .

ت - إن المعروف : هو كل ما ورد في القرآن والسنة حث عليه ، واستحباب له ، وتنويه بفاعليه من مكارم الأخلاق والعادات والأفعال الشخصية والاجتماعية والسلوكية والإنسانية النافعة المستحبة والحسنة . وما تعارف أهل الحل والعقد والعلم والراي في ظرف وعصر على أنه من هذا الباب مما لم يرد فيه قرآن وسنة ، والمنكر : هو كل ما ورد في القرآن والسنة نهى عنه ، وتنديد بفاعليه ، واستكراه له من آثام وشرور وسيئات أخلاق وعادات وأفعال شخصية واجتماعية وسلوكية وإنسانية ، ومتعارف أهل الحل والعقد والعلم والراي في ظرف وعصر على أنه كذلك مما لم يرد فيه قرآن وسنة .

ث - ليس في القرآن والسنة تحديد لكيفية القيام بهذا الواجب مما يلهم أن ذلك ترك للمسلمين حسب المصلحة والظروف ، والمتبادر أن قيام الجماعات على شكل جمعيات متعددة ومتنوعة الأهداف من سلبية مانعة محذرة أو ايجابية داعية محبذة ، كمكافحة المسكرات والميسر والبغاء والربا والظلم والبغي والباطل وفساد الأخلاق والإسراف والخلاعة والمجون والميوعة ، وكمساعدة الفقراء والعاجزين ، وإنشاء الملاجئ والمشافي ، وتنظيم الدعوة إلى سبيل الله ومكارم الأخلاق والإصلاح بين الناس هو الأجدى والأضمن للنجاح في هذا الواجب .

ج - أن ما يحتاج إلى الهيمنة والتنفيذ ، وبذل القوة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يترتب على الدولة ، وماله صلة بحياة المجتمع الذي لا يكفل النجاح فيه إلا بالتضامن وحسن الاضطلاع والتقدير مما لا يحتاج إلى بذل القوة يترتب على الجماعات ، وما لا يخفى وجه الصواب فيه ، ولا ينجم عن القيام به فوضى ومفسدة هو مجال الأفراد .

ح - في حالة ما إذا لم يكن للمسلمين دولة عادلة ، ووقعوا تحت سيطرة الأغيار والمتغلبين والطفاة ، فإن هذا الواجب يترتب على جماعاتهم وأفرادهم بلزوم أشد .

خ - إن على المسلمين كل في نطاق إمكانه أن يدعوا إلى الخير ، ويُفعلوه ويتضامنوا فيه ، والخير : هو كل واجب وعمل فيه مكرومة وبر للآخرين ، ونفع ومساعدة لهم .

د - إن المسلم المقصر في فعل الخير والدعوة إليه والتضامن فيه يعد مقصراً في واجب ديني .

ذ - إن تقصير مجتمع من المجتمعات الإسلامية في الدعوة إلى الخير وفعله إثم يشمل جميع أفرادها ، ويستحق سخط الله فضلاً عن إيرائه الوهن والضعف في البنيان الاجتماعي .

ر - ليس في القرآن ولا في السنة تحديد للكيفية والأساليب في فعل الخير والدعوة إليه مما يلهم أنه ترك للمسلمين حسب ما يرون فيه المصلحة والحكمة في مختلف ظروفهم ، على أن قيام الجماعات بذلك بشكل جمعيات ومنظمات هو أجدى وأضمن للنجاح .

ز - إن من صفات المسلمين وواجبهم التعاون على كل ما فيه مكرومة ومصلحة وفائدة عامة ، وتجنب كل ما فيه إثم وشر وبغي ومعصية وضرر .

س - إن على المسلمين أن يحققوا في أنفسهم تلك الصفات ، ويتمسكوا بها بحيث لا يبيحون لأنفسهم مفايرتها والانحراف عنها بسبب أي اعتبار وعاطفة .

ش - إن الانحراف عن تلك الصفات والتقصير بذلك الواجب ، أو الاندماج في مؤامرة فيها إثم ومعصية وعدوان ، كل ذلك مستوجب لسخط الله ، ومخل بصفة الإسلام ، ومؤد إلى وهن المجتمع الإسلامي الذي يجب دعمه على كل مسلم .

ص - إن من صفات المسلمين وواجبهم أن يتواصوا بالحق والصبر والرحمة . أي : أن يوصي بعضهم بعضاً بذلك ويبشوه فيما بينهم ، ويتضامنوا فيه .

ض - إن الانحراف عن هذه الصفات والتقصير بهذا الواجب مخلان بصفة الإسلام ، ومستوجبان لسخط الله ، ومؤديان إلى وهن المجتمع الذي يجب دعمه على كل مسلم .

ط - إن القرآن استهدف قيام مجتمع إسلامي صالح قوي عزيز متضامن متقدم ، وأوجب على المسلمين تحقيق هذا الهدف .

ظ - إن موالاة الأعداء وموادتهم بأي شكل وسبب محظورتان على المسلمين ، ومنافيتان للإخلاص الواجب للمجتمع الإسلامي ، ودالتان على عدم الإخلاص في الدين والصدق في الإيمان ، وإثمان دينيان مستوجبان لسخط الله .

ع - إن على المسلمين واجب التضامن حتى لا يبقى أي ثغرة في صفوفهم ينفذ منها العدو إلى كيانه .

غ - إن على المسلمين واجب تبادل الولاء والإخلاص فيما بينهم على أي حال .

ف - إن التنازع والخلاف والفرقة والقتال فيما بين المسلمين مؤد إلى وهن الكيان الإسلامي ، وتشتيت صفوف المسلمين وتعاطفهم وذهاب ريحهم وفشلهم ، وهو محظور عليهم ، وإثم ديني مستوجب لسخط الله . وعليهم واجب التضامن في منع ذلك ، وإصلاح ما بين المتنازعين منهم بالحق والعدل ورد الباغي عن بغيه .

ق - إن إثارة الفتنة والدس والكيد بين المسلمين أفرادهم وجماعاتهم من أشد الآثام الدينية المستوجبة لسخط الله ، والمؤدية إلى وهن المجتمع الإسلامي .

ك - إن على المسلمين واجب التضامن في الوقوف موقف الشدة والحزم تجاه الفئات الخبيثة المفسدة المثيرة للفتن ، وقمع شرها وخطرها دون أي تساهل ، أو تأثر برحم أو مصلحة خاصة ، وهو مقياس إخلاص المسلم لدينه وملتته والتقصير فيه مستوجب لسخط الله فضلاً عن ضرره الشديد في الكيان الاجتماعي الإسلامي العام ، وعدم اقتصار ضرره على رؤوس الفتنة ومثيريها وحسب .

ولقد نهت السنة على واجب المجتمع الإسلامي بالضرب على يد الظالم منهم ومنعه ، وانفرت بعموم عقاب الله للمجتمع الذي يتساهل بذلك ، وهناك حديث جاء فيه « أعظم الجهاد عند الله كلمة حق عند حاكم جائر » .

ل - إن القرآن أوجب على المسلمين الإصلاح فيما بينهم .

م - إن توطيد الصلح بين المسلمين واجب لذاته ، وواجب لأنه يؤدي إلى طمأنينة المجتمع الإسلامي، وبقية القلق والاضطراب والأحقاد والضغائن التي تؤدي إلى النزاع والخلاف .

ن - إن الأخوة بين المؤمنين مما يجب أن يكون مانعاً للشقاق والنزاع والقتال فيما بينهم .

هـ - إن القرآن يأمر المسلمين بالمبادرة إلى التدخل ، وإزالة ما يقع بين المسلمين من أسباب الشقاق والنزاع .

و - إن القرآن يحظر على المسلمين أن يحلفوا على عدم البر والتقوى والإصلاح والصلح ، واتخاذ اليمين ذريعة إلى ذلك ، والسنة النبوية توجب على الذي يحلف مثل ذلك ، أو الذي يحلف على فعل معصية أن يرجع ويكفر عن يمينه .

ي - إن القرآن يأمر المسلمين الذين لا يكونون طرفاً في قتال ونزاع بين مسلمين وآخرين بأن يتدخلوا للصلح بينهم ، وأن ينصروا المبغي عليه إذا لم يخضع الطرف الثاني إلى الحق والصلح .

آ - إن القرآن يوجب على المسلمين أن يتعاملوا فيما بينهم بالحسنى والتسامح والعفو وكظم الفيظ .

ب - إن هذا الواجب هو واجب لذاته، وواجب اجتماعي، لأنه يؤدي إلى تقوية البنيان الاجتماعي الإسلامي من حيث إنه يقية أسباب الأحقاد والمهاترات التي يؤدي إليها عدم التعامل بالحسنى والعفو والتسامح وكظم الفيظ ، ويجعل التضامن والتواد والمحبة هي السائدة في المجتمع الاسلامي .

ت - إن القرآن يأمر المسلمين بالانضواء إلى السلم والمسالمة كشعار عام .

ث - إن القرآن يأمر بحسن التعامل مع كل الفئات ، من أقارب وأباعد وجيران ، ومساكين وفقراء وأبناء سبيل وأرقاء وخدم ، ويعتبر مخالفة هذا الأمر من الكبر والاختيال اللذين يكرههما الله .

ج - إن القرآن يأمر بعدم الجهر بالسوء إذا لم يكن ظلم واقع ،
ويحذ العفو عن المساءة .

ح - إن القرآن يأمر بالقول الأحسن ، وينبه على أن خلاف ذلك
من نزغات الشيطان .

خ - إن القرآن يحث على درء السيئة بالحسنة ، ودفع السيئة بالتي
هي أحسن ، وينبه على أن ذلك هو الطريقة المثلى التي تؤدي إلى توطيد
المحبة والولاء الحميم بين المسلمين وتزيل العداء من القلوب .

والواجبات والتلقينات القرآنية الأربع المذكورة آنفاً ، هي واجبة
الاتباع لذاتها كأخلاق شخصية إسلامية كريمة ، ويؤدي اتباعها في الوقت
نفسه إلى تقوية البنيان الاجتماعي الإسلامي من حيث إنها تقيه أسباب
النزاع والأحقاد والضغائن الناتجة عن مخالفتها .

د - إن القرآن يأمر بحسن التعايش والتعامل مع المسالمين من
غيرهم فضلاً عن إيجابه ذلك فيما بين المسلمين .

ذ - إن البر بالفقراء والضعفاء والمساكين والمحتاجين والتصدق
عليهم ، ومنع الأذى عنهم ، والأخذ بيدهم ، ومعاملتهم بالرفق والحسنى في
كل ظرف واجب مترتب على المسلمين بقطع النظر عن أي اعتبار ، ومؤد
إلى قوة بنيانهم الاجتماعي .

ز - لا يجوز لمسلم أن يقصر في هذا الواجب بسبب ما قد يبدو من
الفقر والضعف من أعمال ومواقف مثيرة ، والقرآن يسيغ للمسلمين أن
يتصدقوا على المحتاجين الفقراء من غير ملتهم .

وهذا الواجب هو واجب لذاته باعتباره خلقاً إسلامياً شخصياً
كريماً ، وهو في نفس الوقت اجتماعي ، لأنه من شأنه أن ينفخ الروح في
هذه الفئات ، ويشعرهم بقيمة الحياة وكرامتهم الإنسانية والتضامن
الإسلامي ، ويجعلهم أعضاء نافعين في المجتمع ، ويكون علامة على مظاهر
التعاطف والتراحم التي لا تتم الوحدة الاجتماعية والاخوة الإسلامية إلا بها ،
ومن شأن التقصير في ذلك أن يثير شعور الحقد والبغض والنقمة في هذه
الفئات مما يكون فيه تهديد لأمن المجتمع وطمأنينته .

س - من تقريرات القرآن الاجتماعية أن صلاح أي مجتمع وفساده

منوطان بالدرجة الأولى بما تكون عليه أخلاق أفرادهم ونفوسهم من صلاح وفساد .

ش - ومن هذه التقارير أن فساد المجتمعات وصلاحها كثيراً ما يكونان نتيجة لسلوك أكابرها وزعمائها الذين هم في العادة القدوة للأفراد ، وهم يتحملون القسط الأكبر من فساد المجتمعات إذا كانوا فاسدين شخصياً .

ص - ومن هذه التقارير أن الفزاة الأجانب يفسدون أخلاق أهل البلاد التي يتغلبون عليها ، ويوهنون من قوتها ، ويدلون أعزتها ، ويفصمون روابطها ، وأن الخير كل الخير والواجب كل الواجب هو الحيلولة دون وقوع النكبة بكل وسيلة ممكنة .

ض - ومن هذه التقارير أن الباطل مهما لمع وظهر ، فلن يلبث أن يزهرق ويضمحل ، وأن الثبات والنفع إنما هما للحق ، وأن من واجب المسلمين ومصلحتهم تأييد الحق ونبذ الباطل .

ط - يحظر القرآن على المجتمع وأفراده أن يتمسكوا بقديم لقدمه ، أو يناوئوا الجديد لجديده ، والضابط الذي يوجب القرآن على المسلمين أن يستلهموه في عاداتهم وتقاليدهم وأعمالهم وخططهم وعرائضهم ، وما يعرض لهم وما هم عليه هو الحق والخير والعدل والمصلحة والأفضلية والفائدة العامة يقطع النظر عن القدم والجدة .

ظ - إن القرآن يوجب على المسلمين التروي والأناة في رواية الأنباء والاستماع إليها لاحتمال القصد السيئ والنية الخبيثة ، والتسرع والرعونة فيها .

ع - إن القرآن يوجب على جماعات المسلمين وذوي الشأن والأمر فيهم بذل الجهد والتوسل بكل وسيلة للإصلاح بين المسلمين ، والقضاء على الانقسامات والتفرقة والخلافات الدينية .

١٤ - ومن تقارير المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد علاقة الناس ببعضهم وحررياتهم ومساواتهم .

آ - إن القرآن قد توخى أن يتمتع المسلمون كافة بالحرية والمساواة والأخوة بصورة عامة ضمن نطاق الحق والعدل والقصد .

ب - ليس لحرية المسلم حدود إلا المحرمات والواجبات القرآنية

والنبوة التي تتناول أولها الخبائث والفواحش والمنكرات والعدوان وسيء العادات والأعمال والأخلاق ومكروهااتها ، وتتناول ثانيها القيام بأركان الإسلام والدعوة إلى الله ، وطاعة أوامره ، وأوامر رسوله ، وأولي الأمر بما فيه المصلحة والحياة والمعروف وليس فيه معصية ومنكر (١) ، والتزام العدل والبر وصالح العادات والأعمال والأخلاق ومستحباتها ضمن وسع النفس وطاقاتها مع عدم مؤاخذه المسلم بما يقع فيه من محظورات بسائق الخطأ والنسيان والإكراه والاضطرار .

ت - وفي القرآن ما يلهم أن الله يسيع للمسلمين حرية الاعتراض على ما لا يؤخذ فيه رأيهم من العزائم التي ينفذها أولوا الأمر مع أمر هؤلاء بتوسيع صدورهم لذلك الاعتراض ، ومشاورة المسلمين في مختلف العزائم التي يعترمونها (٢) .

ث - إن القرآن قد وطد الأخوة بين المسلمين بكل قوة دون فرق ولا اعتبار لجنس أو لون أو حسب أو مال ، وجعلها من صفات الإسلام ، ونتائج الطبيعية ، وأوجب الإصلاح بين المتنازعين من المسلمين منعاً لكل تصدع ، والاجتماع على رد الباغي على غيره دفعاً لكل ظلم يتنافى مع هذه الأخوة .

ج - إن القرآن قد وطد المساواة التامة في الحقوق والتكاليف والمباحات والمحظورات والثواب والعقاب بين جميع المسلمين ذكورهم وإناثهم وعربهم وعجمهم وغنيهم وفقيرهم ، وملكهم وصعلوكهم دون تمييز أحد على أحد ، وقضى على كل تمايز بسبب اللون والجنس والحسب والملل والمركز الاجتماعي .

ح - إن ما منحه القرآن للرجل من منح قليلة دون المرأة كمضاعفة الإرث ، وحق القوامة في الحياة الزوجية ، وواجب الإنفاق ، وجعل شهادتها في بعض الظروف دون شهادته ، وحق تأديبها في حالة النشوز

(١) الكلام عائد لأولي الأمر وأوامرهم التي يمكن أن يكون فيها منكر ومعصية .

(٢) اقرأ آيات سورة آل عمران (١٥٢ - ١٥٩) .

والانحراف هي خصوصيات متصلة بطبيعة كل منهما وواجباته ولا تنقص ولا تخل في مساواتها التامة معه في الإنسانية والتكاليف والحقوق والواجبات والمباحات والمحظورات ، والأهلية المدنية مما أقره القرآن بكل قوة وصراحة .

خ - إن ما جاء في القرآن من التنبيه على أن الله رفع بعض الناس على بعض درجات وفضل بعضهم على بعض في الرزق هو بسبيل تقرير واقع ومظهر اجتماعي عام ، وليس هو بسبيل تقرير وإقرار دوام هذا الواقع ، وعدم احتمال التبدل فيه ، فهذا لا يصح وروده ، لأن ذلك مظهر لتفاوت الناس في المواهب والاستعداد والنشاط ، وهذا التفاوت متحول ومتبدل متطور ، وتكون نتائجها كذلك متحولة متبدلة متطورة ، ولهذا فنرى أناساً في يوم مرتفعين على غيرهم متمتعين بسعة رزق أكثر من غيرهم ، ونرى في يوم آخر غيرهم قد ارتفع بعد ضعة ، واتسع رزقه بعد ضيق ، ونرى المرتفع قد نزل ، والموسع في الرزق قد ضاق وهكذا . وهذه سنة الحياة التي هي سنة الله ونظامه في الحياة الاجتماعية والبشرية ، ولقد خوطب المسلمون عامة بدون فرق بين غني وفقير وضعيف وقوي بكل الواجبات والحقوق على قدم المساواة ، ومع ذلك فاذا سارت الدولة وفق تلقينات القرآن وحالت دون استقطاب الثروة والاستعلاء لفئة محدودة ، ونظمت تداول الثروة بين مختلف الفئات ، وجعلت كل الناس سواسية أمام الحق والعدل والفرص توزع الركن الأساسي لهذا التفاوت وخف حتى يزول .

د - إن القرآن في إقراره الرق إنما نظم نظاماً واقعاً شائعاً في الدنيا ، ولم ينشئه ، ولم يقصد إقراره كنظام اجتماعي واجب الاستمرار ، أو إيجاب التمايز الطبقي به ، وقد أوجب إطلاق سراح الأسرى الذين هم المادة الرئيسية للرق بالمن أو الفداء ، واحتوى أوامر وتوصيات وتلقينات وتشريعات في صدد ما أجاز بقاءه رقيقاً تؤدي إلى تحريره سواء في الحضر على عتق الرقاب ، وتحميل بيت المال واجباً في ذلك ، أم في إجازته شراء الرقيق نفسه (١) ، أم في تحرير الأمة التي تلد من سيدها ، أم في تقرير

(١) هذا يسمى المكاتب ، وبمجرد الاتفاق بينه وبين مالكة يصبح كسبه له ، ويصح أن يأخذ الزكاة ليستعين بذلك على شراء نفسه .

كون اولاد الاحرار من الإماء احراراً (١) . هذا فضلاً عن إيجاب معاملته بالحسنى ، وقد وطد المساواة التامة بينه وبين الحر ، في التكليف والعبادات والثواب والعقاب ، وليس في القرآن والسنة تسويغ باسترقاق المحايدين والمسلمين والمعاهدين من غير المسلمين ، أو إيجاب لاسترقاق المحاربين من غير المسلمين كما ان استرقاق الحر المسلم ممتنع البتة . ١٥ - ومن قرارات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد بيان الأسرة والحياة الزوجية في الاسلام :

أ - إن هذا البيان قد قام على احسن الاسس ، وابعدها عن اسباب الانهيار خلقياً واجتماعياً واقتصادياً وسلوكياً وإن في ما انطوى في تلك القرارات ما يفقده الغرب وما أدى فقده له من خطر الانهيار والتفكك وما جعل علماء الاجتماعيين يضجون منه وينذرون مجتمعهم بأوخم عواقبه . وتيار الإلحاد الذي يهدد كياننا يهدد هذه الاسس الفضلى ، ويجعل المجتمع الإسلامي على حافة الهاوية التي وصلت إليها الأسرة في المجتمع الغربي .

ب - ولقد حض القرآن المسلمين عامة على الزواج ، وامر بالتساهل فيه ، والمساعدة عليه بالنسبة للطبقات الفقيرة والارقاء خاصة مما فيه تلقين بوجود عدم المغالة في الشروط والمهور .

ت - إنه استهدف من الزواج إنشاء كيان للأسرة يقوم على المودة والرحمة والوفاق والاستقرار والاستمرار والواجبات والحقوق المتقابلة، وندد بالزواج الذي لا يهدف إلا إلى إشباع الشهوة ، ولا يكفل الاستقرار والاستمرار وقرة العين في الدرية .

ث - إنه عظم من شأن الرابطة الزوجية تعظيماً كبيراً ، وحث على الوفاق والصلح وتفاذي النزاع بكل وسيلة .

ج - إنه أوجب على الزوج حسن المعاشرة ، وكظم الغيظ ، وعدم الاستجابة إلى عاطفة الكراهية ، والنزوات العابرة ، وأوجب على الزوجة الإخلاص والطاعة والأمانة ، وعدم الانحراف والشذوذ ، وحفظ الزوج في ماله وعرضه وكرامته في حالتي الغياب والحضور .

(١) تحرر الأمة التي تلد من سيدها باب واسع جداً للتحرر كما هو واضح .

ح - إن المحكمات القرآنية وتلقيناتها تحظر امر الزوج لزوجته بمنكر ومعصية ، وتعطيها حق عدم طاعته في ذلك ، وتمنحها حق الأهلية المدنية التامة ، وليس في الحديث النبوي الذي أورده قبل في حرف ص من الفقرة : ١٠) وجاء فيه تنبيه على أن خير النساء من لم تخالف زوجها في نفسها وفي مالها ، ما ينقض هذا ، وإنما فيه تنظيم له ، وما أورده في الفقرة المذكورة من تعليق وتوضيح يورد هنا بتمامه بطبيعة الحال (١) .

خ - إنه أوجب على الزوج مهراً لزوجته كما أوجب عليه نفقتها بالمعروف وحسب قدرته سعة وضيقاً ، وجعل له مقابل ما امتاز به الرجل من ميزات حق القوامة عليها ، وتأديبها في حالة شذوذها وإخلالها بالواجبات التي أوجبت عليها مستهدفاً بذلك ضمان إصلاحها وارعائها ، وتفادي الطلاق والكوارث الأخرى ، ومنهياً على تجاوز الضرورة ، وجعل لها مع ذلك عليه حقوقاً مثل التي له عليها ، ويدخل في ذلك الأمانة الزوجية والبر والتكريم ، ومراعاة المزاج والترفيه ، واعتبارها شريكته في مختلف نواحي الحياة ومعاملتها على هذا الأساس ، وقضاء مالا تستطيع قضاءه من حاجات ، وعدم الإعنات والغلظة والقسوة في المعاملة والتضييق عليها في المعاش واللباس ، وعدم الاستجابة لنزوات النفس والكراهية ، وليس للزوج أن يتقاضى حقوقه على الزوجة إلا بوفائه بحقوقها عليه ، وقد شدد القرآن في رعاية هذه الحقوق ، وفي عدم مضارتها ، وابتزاز أموالها بأي أسلوب ، وقد منحه درجة هي في معنى رآسة الأسرة دون أن يكون من شأنها حق الانتقاص من حقوقها عليه وتقصيره فيها مع جعل عقدة النكاح في يده وإيجاب الانفاق عليها كسبب أو مظهر من مظاهر تلك الدرجة ، وأوجب القرآن في حالة التنازع بين الزوجين في صدد موقف أحدهما من الآخر ، أو حقوق أحدهما تجاه الآخر تدخل ولي الأمر والشأن في الإصلاح ، وإيجاد الحل الملائم للنزاع ، وهذا يعني أن للزوجة حق

(١) هناك حديث رواه الطبراني عن واثلة بن الأسقع قال : (قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم « ليس لامرأة أن تنتهك من مالها شيئاً إلا بإذن زوجها إذا ملك عصمتها »
وقد قال الطبراني : إن بين رواته من لا يعرفهم ، فيصح التوقف فيه واعتماد الحديث الذي أورده في الفقرة المذكورة وحده مع تعليقنا عليه) .

الاعتراض على ما قد يحاوله الزوج من شذوذ عن حقوقه وواجباته نحوها، ووقفه عند حده الحق الشرعي .

د - إنه أباح للرجل جمع أربع زوجات في عصمته إذا آنس في نفسه القدرة على الاتفاق والعدل بين الزوجات ، وأمر بالاقتصار على واحدة في حالة احتمال عدم القدرة والعدل مع تقريره صعوبة الاستطاعة على العدل مهما حرص الزوج عليه مما ينطوي في هذا التوجيه للوحدة الزوجية، وقصر رخصة التعدد على الظروف الضرورية الموجبة .

ويفهم البعض بهذه الرخصة ، مع أن الوقائع وحقائق الحياة ، والتجارب وما ارتكس فيه الفامزون تجعلها نعمة في شريعة ترشحت لتكون شريعة البشر أبد الدهر بعد أن أحيطت بكل التحفظات الضرورية، وجعلت للضرورة القصوى التي لا تخلو حياة الناس من مواجهتها . وإذا كان بعض المسلمين أسأؤوا استعمالها ، فلا يتحمل الإسلام مسؤولية ذلك .

ذ - إنه أباح الطلاق الذي يقصد به الفراق بعد أن تخفق الجهود التي أوجب بذلها في سبيل التوفيق ، ويصبح الفراق لاندحة منه لمصلحة وحياة كل من الزوجين . ورسم للطلاق خطة حكيمة منسقة مع هدف الإبقاء على الرابطة الزوجية ما أمكن ذلك ، ومنح الفرصة في مراجعة المطلق لمطلقته إذا ما تراضيا وتوافقا على الحياة المنسجمة ، وقد أسافت السنة تفويض الزوج زوجته بتطبيق نفسها منه إذا ما انحرف عن جادة الحق والاستقامة ، وصارت حياتها معه شاقة عسيرة ، وقد قررت السنة أن الطلاق مما يبغضه الله ، وأوجب تغاديه ما أمكن ، ولعن من تسعى في طلاق نفسها بدون سبب صحيح ، ولعن الذواقين والذواقات أي المكثارين من الطلاق والزواج .

ر - إنه قرر مبدأً أساسياً لدوام الحياة الزوجية ، وهو الإمساك بالمعروف والحسنى أو الفراق والتسريح بالمعروف والحسنى ، ونهى عن إمساك الزوج زوجته بنية ضررها وإبتراز مالها ، وجعل للزوجة المطلقة التي يريد الزوج مراجعتها أن لا تقبل إذا لم تتيقن من حسن نيته ورغبته في الصلاح ، كما نهى أهل الزوجة من منعها من العودة إلى زوجها إذا تراضى الزوجان ، والتلقين القرآني يخول القضاء التدخل في حال

مخالفة هذه المبادئ والأوامر ، والمبدأ الأساسي يتناقض مع إكراه الزوجة على الحياة مع زوجها وهي تعتقد أنه غير ملتزم به .

ز - ليس في القرآن طلاق لم يقصد به فراق ، ولا طلاق بات مرة واحدة ، وفي السنة ما يفيد أن هذا الطلاق منوط بنية الزوج إن كان أراد الفراق البات أمضي عليه وإلا لا .

س - إنه حظر التزاوج بين المسلمين وغير الكتابيين ، وأجاز تزوج المسلم بالكتابية دون المسلمة بالكتابي ، وحكمة ذلك قائمة في كون الزوج المسلم يؤمن ويحترم أنبياء الزوجة الكتابية وكتبها خلافا للزوج الكتابي بالنسبة للمسلمة .

ش - إن أهل المذهب الجعفري أي : الشيعة - من المسلمين يجيزون نكاح المتعة الذي يكون باجر وعقد لمدة معينة ، أما أهل السنة فإنهم يحرمونه ، والآيات والآثار تجعل النفس مطمئنة بالتحريم أكثر ، والخلاف في نكاح المتعة جعل السنيين لا يرونها زنى صريحاً يستحق العقوبة المحددة على الزنى .

ص - إن القرآن حث على تزويج العبيد والإماء الصالحين ، وأباح لمالك الإماء استفراش من شاء منهن بدون عقد ومهر ، والامة والعبد هما من كان رقيقاً أو من نسل رقيق قبل الإسلام ، أو استرق في حرب شرعية وقعت بين المسلمين واعدائهم . وقد نبهنا على أن الحيايين والمسلمين والمعاهدين والخاضعين من غير المسلمين لا يسترقون ، فيكون خطف الإناث من هؤلاء ، وبيعهم على اعتبار أنهم إماء ، واستفراشهن على هذا الاعتبار غير شرعي ، وإذا ولدت الامة من سيدها لا يجوز عليها بيع ولا هبة ، وتحرر بعد موته ، وأبنها منه حر .

وإباح القرآن زواج الحر بالامة بإذن أهلها . ويعقد ومهر ، وليس في القرآن ما يمنع زواج الحرة بعبد ليس ملكها ، لأن عبدها محرم عليها ، والقرآن عالج أنكحة الرقيق كحالة قائمة لتنظيمها وحسب .

ض - إن القرآن اعتبر المرأة في حالات الزواج ونتائجها طرفاً ثانياً نافذ الاجراء ، فلا تتزوج إلا برضاها وموافقتها بدءاً وبكراً وثيباً ، وهي تقبض مهرها ، وتتصرف فيه كما تشاء ، وقد قيدت السنة زواج البكر

بموافقة أبيها مع إيجاب موافقتها على كل حال ، واجازت موافقة الأب على
نكاح ابنته القاصرة مع منحها الخيار حينما تبلغ إذا لم يكن زوجها دخل
عليها .

ط - إن نصوص القرآن وروحه تلهمان أن الزواج وحالاته ونتائجه
هي ذات طابع مدني ، ولا تتوقف على مراسم دينية كهنوتية كما هو
الشأن في الأديان الأخرى ، والمأذون الشرعي هو مسجل وحسب ،
والأذن الشرعي هو تنظيم وحسب .

ظ - إن القرآن قد وطد حق الرجال والنساء على السواء في إرث
الشخص الذي لهم به صلات قرابة معينة تخولهم حق إرثه ، وليس
لرجل قوي أن يحول دون حق امرأة أو ضعيف أو قاصر أو يتيم فيه .

ع - إنه قرر أن الإرث الواجب توزيعه هو ما فضل من التركة بعد
إداء دين المورث ، وتنفيذ وصيته ، وأداء الدين ، وتنفيذ الوصية واجبان
محتمان ، على أن لا يكون فيهما قصد الإضرار والحيف ، وأتمت السنة
التشريع ، فمنعت الوصية لو ارث ، وكرهت أن يوصي المورث بأكثر
من ثلث ثروته الفاضلة عن دينه تفادياً للحيف بالورثة وتعريضهم للعوز .

غ - إنه قرر كمبدأ عام أن يكون نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى ،
إلا بعض استثناءات محددة ، وليس في هذا المبدأ حيف على المرأة كما
يتمحل به المتمحلون ، بل هو عادل جداً ، فالمرأة قلما تكون مكلفة بغير
نفسها إذا لم يكن لها معيل ، ولها على الأغلب معيل تجب نفقتها عليه .
والرجل والحالة هذه هو أشد حاجة إلى المال منها بنسبة كبيرة ، لأنه
المنفق على زوجته وأسرته بما فيها أمه وأخته على الأعم الأغلب ، ومع
ما ذكرناه ، فإن المرأة تأخذ في بعض الحالات نصف التركة أو ثلثها ...

ف - في القرآن توزيعات للأنصبة المهمة للتركات على الورثة ،
والسنة قد تكفلت بإيضاح ما سكت عنه القرآن من التوزيعات الثانوية .

ق - إن القرآن قد حث على الوصية ، والسنة نصت على أن
لا وصية لو ارث ، فتكون الوصية لمن لا يكون له نصيب في التركة ،
وأوجب القرآن تنفيذها ، وحددت السنة أن لا تزيد عن ثلث التركة ،
والوصية على هذا الاعتبار بر بالأقارب الذين لا تكون قرابتهم مخولة لهم
بالإرث ، وقد حث القرآن الورثة على البر باليتام والمساكين وذوي القربى

المعوزين حين قسمة التركة . وفي هذا تلقين بالوصية للأيتام والمساكين ووجوه البر أيضاً بالإضافة الى الأقارب غير الوارثين ، وفي القرآن تنبيه على أن لا يكون في الوصية جنف ، ولا إضرار ، ويدخل في ذلك قصد حرمان المستحقين من إرثهم الشرعي أو تحويره أو تقليله .

ك - إن في القرآن نصوصاً وعبارات تلهم أن القضاء في الدولة الإسلامية مرجع لمختلف الشؤون الشخصية من نكاح وطلاق وعدة وإرضاع ومهر وشقاق وتعييض ونفقة وإصلاح وتوفيق ووصية وحل مشاكلها ، وتنظيمها . ونعتقد أن ذلك يشمل تنظيم الطلاق والتعدد ، والإشراف عليهما وعدم تركهما للنزوات .

ولقد أثرت أحاديث كثيرة عن مراجعات المسلمين رجالهم ونسائهم وأزواجهم وزوجاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم في صدد مختلف شؤون النكاح والطلاق والنفقة والعدة والإرث والوصية والمهر والرضاع والظهار والإيلاء والإيمان والخلاف والشقاق الخ . وعما كانوا يقررونه من حلول لذلك يلتزم بها المراجعون مما فيه توكيد وتدعيم .

١٦ - ومن قرارات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد توطيد أواصر الأسرة والآداب السلوكية :

أ - إن القرآن قد أسبغ على كيان الأسرة حفاوة بالغة ، واستهدف تقويته بتقوية الأواصر بين أفرادها .

ب - إنه أوجب البر بالوالدين والأقارب ومساعدتهم في كل حال ، غير أنه قيد هذا الواجب بقيد الحق والعدل ، ودين الله ، ومصلحة المسلمين العامة .

ت - إن القرآن أوجب على المسلمين الاستئناس والاستئذان والإذن قبل دخولهم على بيوت غيرهم ، وجعل هذا عاماً للرجال والنساء والأقارب والأباعد .

ث - ليس في القرآن ما يمنع دخول الرجال على النساء ، والنساء على الرجال بعد الاستئناس والاستئذان والأذن ، وكل ما أمر به **ولقنه** وهو حسن النية وطهارة القصد والأدب وعدم إبداء المرأة لزينتها ومفاتن جسدها امام غير محارمها .

ج - إن وجه المرأة ويديها ليست عورة عند جمهور العلماء والمفسرين ، وهذا مستأنس من جملة (إلا ما ظهر منها) في آية سورة النور (٣٢) التي تأمرها بستر المفاتن والزينة عن غير المحارم ، وهناك حديث نبوي بعدم جواز ستر المرأة وجهها ويديها أثناء إحرامها في الحج ، وفي هذا تأييد لذلك ، وليس في القرآن ، ولا في السنة حظر على خروجها من بيتها لشؤونها المباحة والمشروعة ، وعلى هذا فليس عليها بأس إذا احتشمت في لباسها وسترت مفاتها أن تخرج من بيتها سافرة الوجه واليدين لممارسة ما أباحه لها القرآن ، وللقيام بالتكاليف والواجبات والأهلية التي خاطبها بها القرآن أسوة بالرجل ، وكل ذلك في حدود المعروف والبعد عن دواعي الفتنة والإغراء ومواطن الريب والتهمك والأماكن العامة غير البريئة ، وتعاطي المنكرات .

ح - قد يلهم القرآن أولوية التفرق في المسكن بحيث يكون للآباء بيوت وللأبناء بيوت ، وللأخوان بيوت ، وللأعمام بيوت ، وللأخوال بيوت ، وللعمات بيوت ، وللأرامل من الأمهات والأخوات والعمات والخالات بيوت ، والمتبادر أن الحكمة في ذلك تفادي النزاع والشقاق .

خ - قد يلهم القرآن أنه ليس على المسلمين رجالهم ونسائهم وأقاربهم وأباعدتهم حرج في أن يتناولوا الطعام معاً بالإضافة إلى الجلوس معاً .

د - ليس في القرآن حداد على ميت ، والزوجة المتوفى عنها زوجها تتربص بنفسها دون زواج أربعة أشهر وعشراً ، وليس ما يمنع خروجها من بيتها أثناء ذلك إذا اقتضت الضرورة واجتماعها بالناس ، والسنة نصت على عدم تزيينها ولبسها المفرحات أثناء ذلك ، ونصت على أن لا حداد على ميت غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام .

ذ - ولقد نددت السنة النبوية بالرجال المشبهين بالنساء ، والنساء المشبهات بالرجال ، ونهت على عدم خلوة امرأة باجنبي عنها بدون حضور محرم ، وعدم بيتوتة رجل أجنبي عند امرأة ليست محرمة عليه بدون محرم ، وعدم دخول رجل أجنبي على امرأة زوجها غائب ، وعدم إذن المرأة لمن يكرهه زوجها ، وعدم استقباله ، وعدم سفر المرأة سراً طويلاً بدون محرم ، وعدم تبرج المرأة بشباب شفافة خليعة .

وكل هذا من الآداب الرفيعة ، والأخلاق الفاضلة المتساوقة مع تلقينات القرآن التي توجب على المرأة الاحتشام ، وترمي إلى صيانتها من الريبة والانزلاق وأذى الفساق . وليس في التزامها الواجب إلا الخير والسمو والكرامة والصيانة .

ر - في سورة النور أية تأمر النساء بضرب خمرهن على جيوبهن . وفي سورة الاحزاب أية تأمر النساء بادناء جلايبهن عليهن . وفحوى آية النور يفيد أن الأمر لأجل ستر مفاتيح الجسد التي تظهر من شقوق الثوب وأن ذلك آت من أن الخمار كان زياً ممارساً . وليس الأمر القرآني انشاء جديداً ملزماً له . فاذا تحقق الهدف بطريقة أخرى حصل المقصود . ولقد درج المسلمات على التخمر أي وضع خمار على رؤوسهن وليس فيه بأس ولا حرج ، بل هو عنوان الاحتشام المحمود . وفحوى آية الاحزاب يفيد أن الأمر لتمييز المسلمة حتى لا يؤذيها الفساق . والأمر بادناء الجلباب آت من أنه كان زياً ممارساً وليس الأمر القرآني انشاء جديداً ملزماً له . فاذا تحقق الهدف بطريقة أخرى حصل المقصود . ومع ذلك فليس من حرج على المسلمة اذا أرادت أن تتجلبب بعباءة او ملاء وما يماثلها والله أعلم .

ز - ويقول بعضهم . ان اختلاط الرجال بالنساء حرام . والحق في هذا هو ان الاختلاط الحرام ما فيه شذوذ عن الرسوم والآداب المحددة في القرآن والسنة . أي أن تكون المرأة فيه بادية الزينة مكشوفة المفاتيح امام غير محارمها وفي خلوة منفردة مع اجنبي دون محرم وفي مشهد ومجلس فيه منكر ومعصية وفي الدخول على بعضهم بدون استئذان وإذن . وهناك احاديث كثيرة يفيد ان النساء كن يشهدن مجالس النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ويراجعنهم في شؤونهن على ملاء من اصحاب رسول الله وكن يذهبن الى المساجد فيصلين مع المسلمين ويذهبن الى الجهاد وينشطن فيه ويحضرن الطعام مع الرجال ويؤدين مناسك الحج كتفأ الى كتف مع الرجال ويدخلن على الرجال ويدخل عليهن الرجال ويسعين في مصالحهن وحاجاتهن ويجتمعن ويتشاركن ويتعاون مع الرجال بسبيل ذلك سافرات الوجوه والأيدي . وان كل ذلك استمر بعد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بغير إنكار ما دام انه يجري في نطاق

الرسوم والآداب القرآنية والنبوية ومن الحقائق المشاهدة المتواترة أن الاختلاط والتشارك في النشاط ومختلف الأعمال يتم على أوسع نطاق بين الرجال والنساء أقارب وإبعاد في أرياف المسلمين وبادياتهم والمرأة سافرة الوجه واليدين بدون أي استثناء وإنكار . .

وكل هذا متسق مع حكمة الله التي جعلت كيان المجتمع الإنساني قائماً على الذكر والأنثى وسأوت بينهم في الإنسانية والحقوق والتكاليف والخطاب في كل أمر ديني ودنيوي وجعلت كلا منهما في حاجة إلى الآخر في نطاق تلقينات كتاب الله وسنة رسوله والله أعلم .

١٧ - ومن قرارات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد الأخلاق والتربية الشخصية :

أ - إن القرآن قد حفل أعظم احتفال بأخلاق المسلم وتقويمها وتربيتها بحيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يتصل بالأخلاق الحسنة والسيئة إلا نبه عليها موجباً التزام الأولى ، محذراً من الأخرى ، متوخياً إثارة مقتها ، مندداً بمن تكون فيهم ، هادفاً بذلك إلى أن يكون المسلم في أخلاقه نموذجاً للكمال الإنساني ، وأن يكون الاتساق تاماً بين التربية القرآنية الأخلاقية ، والتلقينات القرآنية السياسية والاجتماعية .

ب - إنه خاطب العقل والقلب معاً فيما توخاه من هذه الحفاوة ، فوعد وأوعد من ناحية ، وبين ما للإخلاق من آثار في حياة الإنسان صلاحاً وفساداً من ناحية .

ت - إنه احتوى مجموعات رائعة جاء بعضها بأسلوب الأمر والنهي ، وبعضها بأسلوب النهي والتنديد والتنبيه ، ويصح أن يكون كل منها دستوراً أخلاقياً خالداً نافذاً إلى أعماق القلوب والعقول (١) .

(١) نكتفي بالإشارة إلى أرقام وسور هذه المجموعات التي يحسن بالقارئ أن يقرأها دائماً . فان فيها غذاء للقلوب والعقول والسلوك . وفيها رد على المتحليين والمحددين مفعم ملزم : البقرة (١٦-١٧٧ و ٢٠٣-٢٠٧) والنساء (٣٦-٣٨) والانعام (١٥١-١٥٣) والرعد (١١-٢٥) والنحل (٩٠-٩٧) والإسراء (٢٢-٢٩) والمؤمنون (١-١١) والفرقان (٦٣-٧٦) والشورى (٣٦-٤٣) والماعز (١٩-٣٥) .

وقد نوه فيها بكل خلق كريم وأمر به ، واثنى على المتخلقين به ،
وندد بكل خلق سيئ ، ونهى عنه وندد بالمتخلقين به .

ث - إنه اهتم لبيان كون الأخلاق الحسنة فضيلة لذاتها ، ودعا
إلى الاهتمام للجوهر أكثر من العرض ، ولذاتية الفضائل أكثر من الأشكال
والمظاهر .

ج - إنه أكد على المسلمين التزامهم بمبدأ محاسنة الناس على
اختلاف فئاتهم من أقارب وأباعد وجيران ، ومن جملتهم الفئات الضعيفة ،
والتسامح معهم والعفو والصفح عنهم ، وبمبدأ القول بالأحسن والفعل
الأحسن ، درء السيئة بالحسنة ، وبمبدأ عدم مخاشنة الناس في عمل
أو قول .

ح - إنه اشتد في الحملة على الظلم ، وحذر منه ودعا إلى الوقوف
منه موقف المنكر المقاوم .

خ - إنه اشتد في الحملة على الكذب والكاذبين كما حفل بالصدق
والصادقين ، وهدف إلى مقت الكذب والتحلي بالصدق في نفس
المسلم .

د - إنه احتفى كثيراً بفضيلة الصبر في الشدائد والخطوب ،
ومعالجة الأمور ، وحث على التحلي به ، وهدف إلى تربية المسلم عليه ،
وليس فيما جاء في هذا الصدد ما يفيد تسويق الصبر على الدل والظلم
والهوان والتفاهة والرضا بذلك .

ذ - إنه أكثر من الدعوة إلى تقوى الله في مختلف الأعمال والتصرفات ،
هادفاً بذلك إلى جعل المسلم رقيباً على نفسه في أعماله وتصرفاته ومراقباً
لله فيما يفعل ويقول حتى يتجنب السيئ والمنكر ، ويقدم على الصالح
المعروف ، متوخياً تنمية الضمير الوازع فيه .

ر - إنه نهى عن اتباع الهوى ، وندد بالذين يتبعون أهواءهم ،
ويقفون من الحق موقف المكابر ، متوخياً بذلك النأي بالمسلم عن هذا
الخلق ، وبث روح الحق والحقيقة واحترامهما في نفسه .

ز - إنه انفرد في تحذير الخمر والميسر ، وتقرير ما انطوى فيهما من

ضرر وشر ، متوخياً بذلك إبعاد المسلم عن هذين الشرين الضارين بكرامته وصحته وماله ودينه .

س - إنه انفرد في تحظير الربا إطلاقاً ، واشتد في الحملة على المراهبين ، وخاصة الذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة ، ويستغلون عسر الناس وعوزهم ، ويعاملونهم بالقسوة ودعا إلى التسامح والتساهل مع المصريين والمعوزين .

ش - إنه اشتد في التنديد بالتكبرين والمختالين ، والمتفاخرين بأنسابهم وثرواتهم ومراكزهم وقوتهم ، ونهى عن السخرية بالناس ، ونبزههم بالألقاب وغمزههم ولمزههم ، وعن تتبع أعمال الغير والتدخل فيها والتجسس على الناس وغيبتهم ، وكثرة الظنون في الناس وبث الأنباء الكاذبة أو المريبة ، واكل أموال الناس بالباطل والتحايل عليهم ، وغشهم والتفجير بهم ، واستغلال الضعفاء والفقراء والمحتاجين وانتقاص حقوقهم ، ومناصرة الأقارب بالباطل فضلاً عن غيرهم من الناس ، وأوجب على الناس التزام الحق والقسط ولو على أنفسهم هادفاً بذلك النأي بالمسلم عن هذه الأخلاق والتصرفات المكروهة ، وبث احترام الناس وحقوقهم وكراماتهم في نفسه .

ص - إنه اشتد في التنديد بالرياء والمرائن والمناقضين بأفعالهم لأقوالهم ، والمخادعين في مظاهرهم وحقائقهم ، والذين يفضبون من كلمة الحق والنصيحة بالحق ، ويأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، ويتخذون اسم الله واليمين به ذريعة إلى الامتناع عن الخير والبر والمعروف ، متوخياً بذلك تحلي المسلم بالصدق والحق في سيرته وسريته وعلنه وجعله يفعل الخير والمعروف مع الناس بقطع النظر عن أي اعتبار .

و- لقد نهت السنة على أن الكذب في الحديث ، والإخلاف في الوعد ، وخيانة الأمانة ، والفدر بالعهد ، والفجور في الخصومة من شعب النفاق ، وآيات المنافقين ، وأن من فيه صفة من هذه الصفات يكون فيه خلة من النفاق حتى يدعها .

ض - إنه ندد بالتبذير والإسراف والتصرف والمبذرين والمسرفين والمترفين ، ونبه على ما في ذلك من انحراف خلقي وديني وسلوكي ،

وأوجب أن يكون المسلم وسطاً دون تقتير ولا تبذير مبتعداً عن الترف الذي يحرفه عن مقتضيات الحق والدين القويم .

ط - إنه جعل الإحسان والصدق والعدل والإنصاف والحسنى والبر بالضعفاء والفقراء والأرقاء والخدم ومعاملتهم بالحسنى ، ودرء السيئة بالحسنة ، وقول التي هي أحسن ، والدفع بالتي هي أحسن ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والتسامح مما يجب أن يكون من صفات المسلمين وأخلاقهم وضوابط صلاتهم ببعضهم وبالناس عامة .

ظ - إنه أمر أن يكون الحق والإنصاف والعدل والقيام بالقسط قولاً وفعلًا من صفات المسلمين في تعاملهم فيما بينهم ، وسواء أكان ذلك بالنسبة لأشخاصهم أم أقاربهم أم الآخرين ، أم بالنسبة لمن يحبون ويكرهون ، وحذر من أن يكون للهوى والعاطفة والقراينة وحب الذات والفقر والغنى والحب والبغض أي تأثير في ذلك .

ع - إنه أمر المسلمين بأن يكونوا أوفياء بعهودهم نحو الله ونحو الناس ، وأمناء لأماناتهم وشهاداتهم دون تأثر باللهوى ، وحب الذات والقربى ، والحب والكراهية .

غ - إنه احتفى بالعقل حفاوة عظيمة ، سواء فيما احتوته الآيات القرآنية من تقرير كون الله ينزل آياته للناس ليعقلوها ويتدبروها ، ولتكون عبرة لأولي الألباب وأولي الأبصار ، أم فيما احتوته من تنديد بمن لا يستعملون عقولهم لفهم ما ينزل الله من آيات ، وإدراك ما في كون الله من مشاهد ومظاهر حتى بلغت الآيات نحو الخمسين فضلاً عما في القرآن من آيات فيها إهابة بالناس للتفكير والتدبر والتروى فيما يسمعون من آيات ، ويشاهدونه من مظاهر قدرة الله في أنفسهم وفي الأكوان ، مما فيه إحياء للمسلم بأن يتفكر ويتدبر ويتروى ويمحص ويبحث ويقارن ويقايس ويستنبط ويستنتج ويحسن التأويل والتلقي ، ويكون كل ذلك رائده فيما يسمعه من أخبار وكلام ويعتزمه من عزائم ، ويلتزمه من التزامات دون الهوى والعواطف والنزوات الجامحة (١) .

(١) زعم صادق العظم في كتابه «نقد الفكر الديني» أن حث القرآن على استعمال العقل هو في صدد استكشاف آلاء الله ، وقد فندنا قوله ، وأثبتنا أنه في صدد الدين والدنيا معاً في الفقرة (٧) من الفصل السابق .

ف - لقد انطوى في لفت القرآن النظر إلى نعم الله ، وما أودعه الله في الكون من منافع ونواميس قصد الحث على الإقبال على الانتفاع بذلك والجد والداب والسعي للرزق الحلال ، وتقرير كون ذلك من حق جميع الناس دون ما تميز ولا تفاضل هادفاً بذلك بث الهمة ، وحفز الجهد في سبيل الكسب الحلال ، والانتفاع بنواميس الله الكونية ، وعدم منع أحد من مثل ذلك ، وعدم بقاء أحد عالة على غيره ، وكلاءً على مجتمعه ، وهناك أحاديث نبوية عديدة تحض الناس والفقراء على التكسب والعمل ، وعلى إتقان العمل .

ق - إنه استهدف فيما احتواه من بيان ما للسيئات والحسنات من آثار ، ونتائج في الحياة جعل المسلم يدرك بالعقل والأمثال أن اجتناب الأولى ، والتزام الثانية هما من مصلحته .

ك - إنه احتفى حفاوة عظيمة بالعلم والعلماء والتعلم والقراءة والكتابة حتى لقد بلغت الآيات في كل ذلك المئات في مختلف الأساليب والمناسبات ، وحمل العلماء مسؤولية عظمى مما يسوغ القول : إنه يقرر أن العلم والتعلم والقراءة والكتابة من الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلمون ، وأن عليهم ولهم أن يتوسلوا بكل وسيلة إلى ذلك بما في ذلك الاقتباس من الغير ليتمكنوا من القيام بواجباتهم المتنوعة ضمن مبادئ القرآن والسنة وتلقيتهما .

ل - إنه ألزم العلماء تمحيص الحق وبيانه للناس والتزامه ، وعدم اتخاذ العلم وسيلة للتزلف والاحتيال . وينطوي في ذلك تقرير كون دعوى العلم لاتصدق إلا إذا صار له في نفس صاحبه أثر لممارسة مقتضياته وسلوكه من صدق وإنصاف وتسليم بالحق ، ونزول عنده ، وبعد عن الهوى والتهويش والمكابرة .

م - ليس في القرآن ولا في السنة ما يمنع أي مسلم في أي وقت إذا كان مؤهلاً من الاستنباط من القرآن والسنة والاجتهاد والقياس والتمحيص في مختلف شؤون الدين والدنيا في نطاقهما . وهذا لا يعني إهمال ما كان من اجتهادات الأئمة والعلماء السابقين واستنباطاتهم والتزام ما فيها من سداد وصواب وحق والأخذ به .

ن - ليس في القرآن ولا في السنة تحديد لمجال العلم والفكر ولا تخصيص ذلك للرجل دون المرأة ، وكل ما ورد من خطاب قرآني في هذا الشأن شامل للرجل والمرأة على السواء مما يسوغ القول : إن ذلك المجال مطلق على أوسع مداه خلافاً لما يزعمه المحدودون على ما جاء في كتاب صادق العظم (١) . وأنه مباح للرجل والمرأة على السواء ، وليس من حد له إلا واجب التزام العقائد ، وما تقتضيه مبادئ القرآن والسنة وتعاليمهما وتلقيناتهما السامية من الآداب والأخلاق الحسنة .

هـ - ليس في القرآن ، ولا في السنة ما يمنع المسلم والدول الإسلامية من الاقتباس من غير المسلمين لمختلف صور ووسائل الحياة والعلم والفن ، والتنظيمات المتنوعة المعيشية وغير المعيشية والحكومية وغير الحكومية في نطاق التزام عقائد الإسلام وأركانه ومبادئه وتلقيناته الأخلاقية والاجتماعية والأدبية والسلوكية والاقتصادية .

و - إن في الآيات الواردة في الأمور الإيمانية ، وأركان الإسلام ، والوعد والوعيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والحض على الأعمال الصالحة ، والزجر عن الأعمال السيئة والقصص والأمثال أهدافاً أخلاقية تربوية تهدف إلى جعل المسلم إنساناً فاضلاً في الدنيا أيضاً .

لا - في القرآن والسنة نصوص كثيرة تقرر أن كل ما يقع من الناس ويقع عليهم هو بمشيئة الله وعلمه ، وتوجب الإيمان بذلك ، وفيهما نصوص كثيرة أخرى تقرر قابلية الناس للكسب والعمل والتميز والاختيار ، وتنسب إليهم أعمالهم المتنوعة ، وترتب عليهم عواقب هذه الأعمال وفقاً لها في الحياة الدنيا والآخرة ، غير أن فيهما نصوصاً كثيرة فيها ضوابط تزيل وهم التناقض ، وتجعل القول : إن الإنسان يفعل ما يفعله بمشيئته وقابلياته التي شاء الله أن يودعها فيه هو الأوجه والمتسق مع حكمة إرسال الرسل ودعوة الناس بواسطتهم إلى الله ، ومكارم

(١) زعم العظم أن العلم في القرآن هو في صدد العلم الديني وحسب وأن معرفة المسلمين الأولين اقتصر على المعرفة الدينية . وقد فندنا قوله في الفقرة (٧) من الفصل السابق ، وأتينا من نصوص القرآن أن العلم فيه قد تناول شؤون الدين والدنيا معاً ، وأن المسلمين الأولين فهموا ذلك كذلك وكان لهم حظ عظيم في علوم الدنيا كما كان لهم مثل هذا الحظ في علوم الدين .

الأخلاق ، وتحذيرهم من الانحراف عن الله والأعمال السيئة ، وترتب عليهم ولهم الثواب والعقاب وفق مواقفهم من ذلك ، وتسوغ القول : إن النصوص الأولى هي أسلوبية متشابهة قد تتحمل وجوهاً أخرى للتأويل ، وقد تكون بسبيل تقرير إحاطة وشمول علم الله وقدرته الأزلية الأبدية ، وتكون تلك الضوابط هي المحكمة التي يجب الوقوف عندها . ومع أن مسألة القدر التي يدور الكلام عليها في هذه النبذة ليست إسلامية وحسب ، وإنما هي عالية مللية ، فإن القرآن والسنة قد عالجاها أفضل معالجة وأحكمها بنهيهما عن التنازع فيها ، وأمر الناس بالهدى والعمل والنشاط والتسابق في الخيرات ، وتقريرهما كون الله إنما خلقهم ليعملوا ويرى الله عملهم ورسوله وإن كلا منهم ميسر لما خلق له وإنما خلقهم ليلبواهم أيهم أحسن عملاً مما ينطوي فيه ما هو الأولى أن يعلمه المسلمون من حكمة الله في خلقه . وليس ما فيه المسلمون اليوم من ضعف وخمول هو كما يقول المحدودون . أثر عقيدة القدر فيهم . وقد كان الأولون من المسلمين أعظم الأمم قوة وسلطاناً ونشاطاً وحيوية وعلماً بتلقينات كتاب الله وسنة رسوله . وإذا فهمت عقيدة القدر بمداهها الصحيح تجعل المسلم أكثر إقداماً على العمل والنشاط والتضحية بعكس ما يتوهمه المتوهمون .

ي - وفي المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتها تنبيه للناس إلى كون واجبهم في الحياة الدنيا هو العمل الصالح المفيد ، وإلى كون ذلك هو حكمة الله المتوخاة في خلقهم وتسخير ما في الكون لهم ، وإلى كون الله قد جعل حياتهم الدنيوية اختباراً لهم في ذلك ، ودعاهم إلى التسابق في الخيرات . وفي هذا رد على سؤال قد يتوَّاقح عليه ملحد وهو الحكمة الإلهية في خلق الناس وإماتتهم ، ثم إحيائهم وثوابهم وعقابهم . فالله تعالى لا يسأل عما يفعل ، ولكنه خاطب الناس من واقع الحياة ، فالكون قائم والناس موجودون يسعون وينشطون ما داموا أحياء كسنة من سنن الخلق ، وما دام الأمر كذلك ، فيجب عليهم أن يأخذوا الأمر على واقعه ، وأن يعتبروا أنفسهم أنهم أمام اختبار الله بالعمل الصالح المفيد الضامن لهم سعادة الدنيا والآخرة وكفى .

١٨ - ومن تقارير المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد إصلاح المسلم ومعالجته أخلاقياً وروحياً :

أ - إن القرآن توخى بصورة عامة التوسعة ، وعدم الإحراج ، سواء كان ذلك في تكاليف العبادة أم التعامل والمعيشة ، وسائر شؤون الحياة .

ب - إنه نهى عن حرمان النفس من الاستمتاع بطيبات الرزق وزينة الحياة ، واستنكر التقشف والتزمت ، ولم يقيد المسلمين إلا بالطيب الحلال ، والقصد والاعتدال ، والبعد عن ما هو خبيث ورجس وفسق .

ت - إنه سمح للمضطر بالمحظور عليه ضمن نطاق الضرورة وظروفها .

ث - إنه رفع عن المسلم الحرج والمسؤولية عما يصدر منه بسائق النسيان والخطأ والإكراه من أعمال محظورة بشرط توفر حسن النية وطهارة القصد ، وباستثناء ما يسبب ضرراً بليفاً كالقتل الخطأ حيث أوجب التعويض مع حض المتضرر على العفو .

ج - إنه نهى عن جعل اليمين وسيلة لعدم البر والإصلاح والتقوى ، ومساعدة المحتاجين ، وحرمان النفس من الطيب الحلال ، ورفع حرج اليمين اللغو التي لانية للضرر ولا عزيمة فيها ، وأمر بالكفارة عن اليمين التي فيها عزيمة وتحريم لما أحل الله ، أو أذى أو ضرر أو مجانبة بر وتقوى وإصلاح والتي يكون الأفضل والانفع عدم الالتزام بها ، وعمل ما هو خير ومفيد .

ح - إنه قرر عدم تكليف الإنسان بما لا يطيق سواء فيما يتصل بالعبادات أو الشؤون الدنيوية الأخرى ، وينطوي في هذا عدم مسؤوليته عما لا يطيق .

خ - إنه لم يقيده في مأكله ومشربه ومعاشرته للناس إلا بالحلال الطيب وحسن النية واللفظ والتسامح .

د - إنه قرر عدم أخذ أحد بجريرة أحد ، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله دون غيره .

ذ - إنه أنكر التحليل والتحريم لأي شيء من مأكّل ومشرب وعمل بغير سند وعلم وحق .

ر - إنه دعا إلى الاهتمام بجوهر الأعمال والفضائل وذاتيتها أكثر من أشكالها ومظاهرها .

ز - إنه طمأن الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش بالتجاوز عما قد يلمون به من هفوات وذنوب صغيرة عابرة .

س - إنه قرر أن الرسالة المحمدية استهدفت تحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث ، وتخفيف التكاليف الشديدة السابقة .

ش - إنه دعا إلى التوبة ، وقد شملت دعوته إلى التوبة عن جميع ما يصدر من الإنسان بصورة عامة ، ومن المسلم بصورة خاصة من مواقف وأعمال وآثام ، ومعنى التوبة الندم على عمل الذنب والعزم على التراجع عنه وعدم فعله .

ص - إن الدعوة القرآنية إلى التوبة قد انطوت على مقاصد إصلاحية وتربوية جليلة للإنسان بصورة عامة ، والمسلم بصورة خاصة بحيث تهىء للمذنب والمخطيء مجالاً لاستئناف حياة جديدة مملوءة بالرجاء .

ض - إنه شرط في التوبة أن يرافقها عزيمة صادقة على رجوع التائب إلى الله والحق والصواب والصلاح ، وتجنب الإثم والمنكر ، والانحراف والضرر ، وتلافي ما كان منه من فساد ، وأن يتوب التائب وهو في متسع من العمر والعاقبة والقوة ليتحقق بذلك قصدها الإصلاحي .

ط - إن الفرق بين التوبة في الإسلام والاعتراف في النصرانية هو أن الأولى تتم بين الله والإنسان ضمن الشروط المذكورة في الفقرة السابقة بدون وساطة كهنوتية ، لأنه ليس في الإسلام سلطة كهنوتية ، تحدد للمسلم ما يفعل وما لا يفعل ، وما يجوز وما لايجوز ، ولا تكون عقوده وحركاته شرعية إلا بموافقتها وتوسطها ، فالمسلم حر في كل أعماله وعزائمه في حدود الإيمان بالله ورسوله وقرآنه واليوم الآخر .

وما أمر الله ورسوله به ونهيا عنه ، مما يجعل قوى العقل والفكر والضمير في ظل الإسلام مطلقة تستطيع أن تحلق في كل جو في نطاق تلك الحدود .

ظ - إنه نهى عن القنوط ، واعتبره من نقائص الإيمان ، وبث الأمل والرجاء ، واعتبرهما من مظاهر الإيمان .

ع - إنه يلهم أن الأمل والرجاء مما يبعث القوة والروح والنشاط في الإنسان في حين أن القنوط يفقده ذلك .

غ - إنه توخى تثبيت قلب المسلم وتشجيعه على التضحية والإقدام ، وتحمل الشدائد والمشاق والمكروه بنفس راضية مطمئنة إذا ما واجهها ، وليس من ذلك قبول الذل والظلم والرضوخ لهما .

ف - إن ما ورد في القرآن من آيات تضمنت وصف مصائر الناس الآخروية قد انطوت على وسيلة لتعويد المسلم الأمل والرجاء في المستقبل ، وجعله يواجه متنوع الأحداث والحظوظ بدون تدمير ولا اضطراب . بالإضافة إلى ما انطوى فيها من الحقيقة الإيمانية .

ق - إن ما ورد في القرآن من آيات تعد المؤمن باليسر بعد العسر قد انطوت على وسيلة لتنمية الجلد والصبر والمقاومة في المسلم ، وخاصة في الظروف الصعبة ، والمواقف الحرجة .

ك - إن القرآن حث على تحمل ما قد يشق على النفس ، ويكون فيه خير آجل ، وانطوى في ذلك وسيلة لبث الطمأنينة والهدوء في نفس المسلم وتنمية نوازع الحق والبر والأمل فيه ، والرضا بذلك الشاق العاجل مقابل خيره الآجل .

ل - إن ما ورد في القرآن من آيات تحض على التقوى ، وتعد بالفرج والنصر قد انطوت على وسيلة لبعث الأمل في المسلم ، وعدم الاستسلام لليأس والقنوط أمام النوازل والخطوب .

م - إن القرآن قد دعا إلى التوكل على الله ، وانطوى في هذه الدعوة وسيلة لتطمين نفس المسلم وجعله أقوى على مواجهة الخطوب والأخطار ، وليس فيها أي معنى من معاني الاستسلام ، وعدم الأخذ بالأسباب المؤدية إلى التغلب على تلك الخطوب والأخطار .

ن - ليس في تلقينات القرآن والسنة ما يوحى بالاستسلام للمكروه والبغي والحظر والحرمان والشظف ، والرضا بذلك ، وما يبدو من هذا في سواد المسلمين هو أثر من آثار سوء فهم القرآن والسنة والجهل والتخلف والغفلة والانحطاط اللذين عاشوا فيهما دهرًا طويلاً .

- تعقيب وهتاف وتوضيح -

- ١ -

وكل ما جاء في النبذ التسع عشرة مستفادة من آيات القرآن في مختلف سوره ، وهناك أحاديث نبوية كثيرة متساوقة مع ذلك كل

التساوق ، وفي بعضها شرح وبيان لما جاء في القرآن مقتضياً ، وقد اثبتنا نصوص الآيات والأحاديث وشرحناها في أبواب وفصول جزئي كتابنا «الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة» .

ونهيب بكل مسلم سواء اكان صادق الإيمان أم ضعيفه ، أم كان متسماً بالإسلام دون التحقق به قليلاً أو كثيراً ، بل ونهيب بغير المسلمين والملحدين من الجملة أن يقرؤوا هذا الكتاب وأمثاله الكثيرة لغيرنا التي فيها شرح لما في القرآن والسنة من مبادئ وتعاليم ، ولو على سبيل العلم بالشيء ، ويستوعبوها ليروا مصداق كل ما أوجزناه من تقارير المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتها .

وإذا كان من كلمة نختم بها كتابنا ، فهي مناشدة ذوي النيات الحسنة ، والمقاصد البريئة من اللامباليين بالدين بدون إلحاد علمي وبخاصة الدين الإسلامي ممارسة أو معرفة ، الراغبين في الحق والحقيقة أن يتمعنوا فيما كتبناه ، وفي مستنداته في كتابنا المذكور ، وكتب غيرنا أمثاله ، ثم القول إن من يفعل ذلك سوف يجد ما يقنعه كل القناعة بأن الدعوة إلى القرآن والإسلام ليست دعوة إلى الجمود والتخلف والتمسك بالقديم البالي الذي يحلو للملحدين تسميته بالرجعية ، وإنما هي دعوة إلى تجدد ونهوض وثورة على ما يرتكس المسلمون والعرب فيه اليوم من جمود وتخلف ، وأن الحملة عليه هي حملة ظالمة باغية باطلة فاسدة (١) .

أما ذووا النيات السيئة والمقاصد المريبة الذين صمموا على التصامم

(١) مما يقوله صادق العظم في كتابه «نقد الفكر الديني» (انه يمكن أن يكون فسي تعاليم الاسلام ثورة على القديم السابق ولكن هذا لم يكن بالنسبة للمستقبل المستمر ، وقد تجدنا فادى الى تخلف العرب) وهذا كذب تكذبه النصوص والوقائع والحقائق المستمرة، وتخلف العرب والمسلمين اليوم لا تتحمل تلك التعاليم مسؤوليته ، لانها تدعو الى سعة الافق والمرونة والنشاط في مختلف المجالات وفي كل دور ، وتمنع التمسك بالقديم لقدمه ، وعدم الاخذ بالجديد لجذته مطلقا، وضابطها النفع العام والمصلحة والانسجام مع العقل ، والتزام مبادئ الاسلام السامية السمحاء التي ليس فيها الا كل أسباب السعادة والحيوية والصلاح والكرامة . ويقول ايضا : (ان طبيعة الدين هي أن فيه عقيدة ثابتة محددة تعيش فسي الحقائق الأزلية وتنظر الى الورا لتستلهم بعده . وان اكتشاف حقائق جوهرية جديدة لاكتساب معارف هامة جديدة أمر لا يمكن يعني المسلمين . وكل ما كان من أمرهم الوصول

والمكابرة حتى صار يصدق عليهم وصف القرآن (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) فهم شركاء في العداء للإسلام والعرب مع سائر أعدائهم وعملائهم من حيث يريدون ويدرون أو لا يريدون ولا يدرون، وفي كل ما يسوقونه تهافت ومجازفة وسوء فهم ، وسوء تأويل وسوء أدب، وعناد ومكابرة . وعلى ذوي النيات الحسنة الذين نرجو أن يكونوا قد استجابوا لهاتفنا ، وانشرحت صدورهم بحقائق الإسلام ، وسمو مبادئه ومقاصده أن لا يجاوروهم ، بل وأن ينبذوهم وينأوؤهم بكل قوة وبدون هوادة ، وأن يتضامنوا في ذلك مع الملتزمين بواجباتهم وإسلامهم قبلهم ممارسة ومعرفة حتى ينحسر شرهم وخطرهم وضررهم الذي أخذ ينتشر بخاصة في أوساط ناشئتنا ومثقفينا ، ويصبح تياراً جارفاً يجرف كل مالنا من قيم وتراث وأمجاد ونوازع وحوافز وضمير وحياء ، وخلق حسن ، والتزام للواجبات الدينية والقومية والوطنية والأسرية ، وتصبح امتنا نتيجة له فاقدة لهويتها وذاتيتها وطمأننتها وتماسكها ، والعوبة بيد اللاعبين من الأغيار ، وطعمة سائفة للطامعين ، مما يتحمل المثقفون ذوو النيات الحسنة مسؤوليته الأدبية والأخلاقية والدينية إذا هم قصرُوا فيه . ونهيب بذوي السلطات الحكومية ، والمراكز الاجتماعية والأدبية منهم بنوع خاص أن يتضامنوا في سبيل نشر الوعي الديني ، والالتزامات الدينية في ناشئة المسلمين ومدارسهم حتى لا يجرفها ذلك التيار الرهيب .

الى نظرة أعمق وفهم أشمل للنصوص المنزلة حتى يتصلوا الى المعارف الكامنة منذ الأزل استنادا الى قول القرآن (ما فرطنا في الكتاب من شيء) مع أن أبرز سمات النشاط العلمي فكرة الاكتشاف الذي يجعل من العلم نشاطا حركيا يتخطى دائما منجزاته السابقة ونقول: إن تقارير المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيها التي توحى للمسلم بالارتباط بالحياة الدنيا، وتجديد نشاطه العلمي والفكري والعمل في مختلف مجالات هذه الحياة باستمرار وتطلع وسعة أفق تجعل هذا القول بالنسبة للإسلام في غير محله . وإن الوقائع والحقائق تثبت أنه كان للمسلمين الأولين جولات واسعة ايجابية متجددة متحركة في مختلف مجالات الحياة العقلية والفكرية والعلمية والعملية استلهاما من تلك التقارير ، ولقد شرحنا في الفصل السابق مدى العبارة القرآنية (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وما في تأويل صادق العظم لها من تصسف فنكتفي بهذا التنبيه .

ونوجه إلى ذوي النيات الحسنة هتافاً آخر من قبيل المساجلة بأنه لا يمكن لأي كان أن يدعي صادقاً بأن أي عصر استطاع أن يتفقت من تأثير المثل العليا والأفكار الفلسفية الإصلاحية الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية التي ألهمتها الأديان والفلاسفة النبهاء منذ القديم ، وجاءت على أقوى وأفضل وأسمى ما يكون في خاتمة رسالات الله ، وبلسان خاتم الرسل والنبیین في ختام كتب الله (القرآن) . وإن مما لا يمكن أن ينكر أن ما عند الغرب اليوم من آداب وأفكار ونظريات ومثل وفلسفة بل ونظم وتقاليـد يرجع كثير منها إلى ذلك القديم ، وأن الدعوة المستندة إلى ذلك لا يمكن أن تكون شاذة أو دعوة إلى الفقهري دائماً ، لأن البشرية سلسلة متصلة الحلقات ، وأجيال متوائمة الصلات يمد بعضها بعضاً ، ويـرث بعضها بعضاً ، وتظل أولاهـا ممتزجة بأخراها ، وأخراها مقتبسة من أولاهـا ، وإن غير ذلك هو تجاهل للحقائق والوقائع وتحكم لا مسوغ له ولا سند ، وإن من الحقائق التي لا يمارى فيها أن النظام شيء وتطبيقه شيء آخر ، وأن عدم تطبيق نظام ما لا ينتج عنه دائماً عدم صلاح ذلك النظام ، وأن شذوذاً أو جماعة أو حكومة في ظرف ما عن الطريق القويم ، وارتكاسها في الفوضى والعماء والمنكرات لا يتأتى دائماً من عدم صلاح ما عندها من نظم وتقاليـد وأسس دينية ، وأنه كثيراً ما يتأتى من عوامل متنوعة أخلاقية واجتماعية وسياسية وداخلية وخارجية ونفسية واقتصادية ، وأن هذا ليس محصوراً في بلد دون بلد ، ولا في دولة دون دولة ، ولا في زمن دون زمن ، بل هو شيء ممكن الحدوث في كل بلد ، وفي كل دولة ، وفي كل زمن ، وأن الدعوة التي ندعو إليها إنما ترمي إلى تفهم واستجلاء ما في القرآن والسنة النبوية من أهداف ونظم ومبادئ وقواعد ، والتنبيه على ما فيها من سمو وصلاحية ، ولا يمارى في فائدة ذلك والرجوع إليه ، والتمسك به وإحيائه إلا جاهل به أو مكابر أو مغرض ، وأن جذور الدين متأصلة في الناس تأصلاً لا يمكن لأي قوة أو دعوة أن تقتلعها منهم ، وأن وجود واحد في كل مائة ألف يفكر بغير ذلك لا يعني أن الناس يمكن أن يتفقتوا من تأثير الدين وقوته ونفوذه ، وما دام القرآن الذي هو كتاب المسلمين المقدس عامة وكتاب أكثرية العرب العظمى خاصة بين أيديهم يتلون

صباح مساء ، ويعتقدون أنه نبراسهم ومرجعهم ، وفيه من النظم والمبادئ والقواعد والأحكام والتلقينات ما يمس جميع جوانب حياتهم بمقياس أوسع كثيراً مما في أي كتاب ديني مقدس آخر ، فإن صلتهم به وتأثيره فيهم لا يمكن أن ينقطعاً مهما تقلبت الظروف ، وتطورت الأحوال ، وما دام ما جاء فيه من قرارات محكمة وتلقينات قد جاء على أقوى ما يمكن من سعة أفق وإحاطة واستجابة لكل حاجة ومشكلة وعلى أشد ما يكون مرونة تتيح اقتباس كل ما هو صالح نافع من أي كان ، والأخذ بأحسن الوسائل والاستعداد في كل ناحية من نواحي الحياة ، ويساعد على إثارة الهمم ، وإيقاظ الضمائر وتحريك النشاط وبعبارة أخرى يدعو بكل قوة إلى كل ما فيه كمال الإنسانية وخيرها وتقدمها ورفعتها ، وما يفتح الطريق واسعاً لقيام بنيانها وكيانها على التفكير الحر والعلم بدون عائق ، فإنه يكون من الخير كل الخير أن يحسن تلقيها وتفهمها والاستبصار بها ، والاستعداد منها ، ويكون من الشر كل الشر أن يترك السواد الأعظم الذي يدين بالقرآن ويقدسه ، ويتأثر به في غفلة وجهل وعمى عما فيه ، يستغلهم المستغلون ويتحكم فيهم الجامدون ، وإن في انتشار هذه الدعوة بين المثقفين خاصة لمن شأنه أن يجعلهم أصحاب التأثير ، وأن يمكنهم من قيادة هذا السواد الأعظم ، وتوجيهه إلى ما فيه الخير والحق والصلاح والقوة والفوز ..

ولقد ارتاع كثير من عقلاء الغرب وحكمائه من تيارات الإلحاد والمجون والتحلل التي تجتاح أوربة وأميركة ، وأخذوا يرفعون أصوات الإنذار ينبهون على وجوب الالتزام بالقيم الدينية العاصمة من هذه التيارات ، وليس من دين غير الدين الإسلامي يصلح ليكون هو العاصم الصحيح الهادي للبشر ، الضامن لسعادة البشرية ، وحل مشاكلها الروحية والاجتماعية والاقتصادية على أفضل وجه مما يقوم الدليل عليه قوياً ساطعاً في قرارات المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتها المشروحة قبل ، وفي المقارنة بينها وبين ما في الأديان الأخرى من معالجات غير وافية وغير شافية ، فمن الغفلة العظمى أن لا ينتبه المسلمون إلى ذلك ، وأن يقصر النبهاء منهم في تجلية هذا الدين ونشره لتحقيق وعد الله تعالى بإظهاره على الدين كله ، وإنه لمن كبريات الجرائم أن يحاول الملحدون العرب سد هذا الطريق بحملاتهم التهديمية الفاجرة .

ولقد شاعت حكمة الله عز وجل أن يكون رسوله العربي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم خاتم رسله وأنبيائه ، وأن يكون كتابه العربي.

المبين مهيمناً على ما سبقه من الكتب ، وأن يكون الدين الذي جاء به خاتم رسله وأنبيائه مرشحاً ليكون دين البشرية جميعها ، وليظهره على الدين كله ، لأنه جاء بالهدى ودين الحق ، وأن تكون صفات هذا الرسول النبي صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة والإنجيل ، وأن تكون دعوته إلى الناس جميعاً كتابيين وغير كتابيين ، وعرب وغير عرب ليدعوهم إلى الله وحده ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم ما أثقلهم من تكاليف وآصار وأغلال ، وأن يكون هذا الرسول ورسالته رحمة للعالمين ، فصار من واجب كل مستطيع من المسلمين والعرب بالدرجة الأولى أن يخدم هذا الكتاب الرباني العظيم بالتجلية والشرح ، وبيان ما فيه من قواعد ونظم وتعاليم ومبادئ وتلقينات وتوجيهات فيها صلاح البشرية وسعادتها ، والتمسك به والتزام ما جاء فيه ، وتفنيده كل ما يوجه إليه بسائق الغرض والجهل .

والخوف من إقامة بنيان على تعاليم ونظم مستمدة من الدين ومن استلها من هذه التعاليم والنظم إنما يكون صحيحاً حيثما تدعو إلى التعصب المذموم ، والجمود الضار ، وتقف عثرة في سبيل الإصلاح والصلاح ، والتجديد والابتساح ، وتحدد للناس جزئيات حياتهم وأشكالها وكيفياتها ، وتحدد من نشاطهم وحيويتهم وتضطربهم إلى البقاء ضمن نطاق جامد ، وكل هذا منتف كل الانتفاء من التعاليم والنظم والأهداف العامة التي انطوت في القرآن على ما شرحه .

وليس في انكفاء جماعة أو حكومة من المسلمين على الإسلام ، واتسامهم بسمته مع انحرافهم عن تعاليمه ومبادئه وتلقيناته ومداه الواسع المرن ، وسوء فهمهم وتأويلهم له ما يصح أن يكون حجة ضد ما ذكرناه .

ولقد طفت المادية والتفكير المادي على المدنية الغربية حتى كاد يكون صبغة عامة لها ، وحتى كاد يعطل في الناس شعور الرحمة والبر والتسامح والوئام والأخوة الإنسانية ، وحتى كاد يمت في الإنسان أو هو أماته فعلاً - الضمير الذي يمكن أن يمد صاحبه بنوازع الخير والبر والحق والإحسان والإنصاف ، وحتى صار وجه الحياة الإنسانية كالخاء ، وصارت الحياة جحيماً لا يطاق ، لأن ميزانها الوحيد هو المادة وما تنتجه من قسوة وتناحر وأنازية وجشع وضعف شعور ، واستغراق في الشهوات ، وتنافس على

السلطان والطفيان ، وما تحله من روابط التقاليد والآداب الكريمة ،
والعواطف الإنسانية ، وما تبيحه من الوسائل في سبيل تحقيق نزوات
النفوس ومطامعها ورغباتها التي تملئها تلك الصبغة مهما كان فيها من إنم
وبغي وعدوان وطفيان ، ومجافاة للحق والمنطق والبر والعدل ، ولأن
التوازن قد انفق بالمرّة تقريباً بين الروح والمادة ، والقلب والعقل ، والعاطفة
والعلم مما أقض مضاجع العلماء والباحثين الاجتماعيين في الغرب نفسه .

فمن الحق والخير أن يحتاط بعض مثقفينا في دعوتهم إلى الانسياق
في التيار المادي بدون تبصر ولا روية ، وبدون قيد وشرط ، وبدون حساب
للعواقب ، لأن في ذلك بئاً للصلة التي تربطنا بماضيना اللامع المجيد
الوضاء الذي لا يزال يشع نوره من وراء الظلمات التي تراكم بعضها فوق
بعض خلال عصور الففلة والعماء والتغلب الجاهل ،
وصرفاً عن أعظم مدد وأقوى هدى يمكن أن يمد المسلمين والعرب والإنسانية
معاً بأفضل الأسباب ، ويهديهم إلى أقوم الطرق . ومن الحق والخير أن
نعمل جميعاً على إيجاد التوازن بين الروح والمادة ، والقلب والعقل ، والعاطفة
والعلم ، وأن نعتبر بعثرات الغرب المادية وغيوبه ، وأن نقوي ضمير
الإنسانية بما فيه من نوازع الخير والبر والرحمة والعفو والتسامح والحق
والعدل والإحسان ، وكل هذا يتيسر بالدعوة القرآنية والرسالة الإسلامية .

- ٣ -

ولقد يقول بعض شبابنا القوميين : إن هذه الدعوة تتعارض مع
المصالح القومية العربية ، فنحن ندعو إلى مجد قومي عربي ووحدة قومية
عربية في حين أن الإسلام قد فتح الباب لغير العرب ، فدخلوا الإسلام
إخوة متساوين ، واستغلوا هذه المساواة ، فدحروا العرب ، وتسلطوا
عليهم في الكيان الإسلامي العام الذي تألف من العرب وغير العرب دون أن
يجد العرب أو سوادهم في ذلك كبير أمر ، ودون أن يحفزهم إلى العمل
على استرداد سيادتهم بجد ودافع قوي ، وبعبارة أخرى في حين أن المساواة
الإسلامية جعلت العرب يهضمون سلطان غيرهم وسيادتهم عليهم ، وضياح
سلطانهم القومي دونما حرج ولا تحفز حقبة طويلة من الدهر ذل العرب
فيها وتمزقوا .

ولقد يقولون أيضاً : إن هناك إخواناً لنا في القومية ليسوا مسلمين ، وإن اندماجهم فيها ضرورة قومية . في حين أن هذه الدعوة قد تقيم العثرات دون ذلك ، وقد تثير بعض التيارات والنزغات التي لا تساعد على تحقيق هذه الضرورة القومية .

ونقول لهؤلاء الإخوان :

أولاً : إنه ليس لأحد أن ينكر أن للأمجاد التاريخية أثراً عظيماً في حياة الأمم وقوة حيويتها ومقاومتها لصروف الدهر وضرباته الموحشة ، وإن الإسلام الذي جاء على يد الرسول العربي صلى الله عليه وسلم بقرآن خلدت به اللغة العربية وتقدمت ، وحفظت به الأمة العربية من التمزق أمما وقوميات عديدة ، والذي صار العرب به وحده أمة ذات رسالة إنسانية خالدة ، والذي كان له من الأثر العظيم في حياة البشر وحضارتهم وتوجيههم نحو المثل العليا هو من أعظم الأمجاد التي تستطيع الأمة العربية أن تفخر وتعزز وتزهو بها ، ومن أقوى الحوافز على تحريك الهمم إلى استئناف حياة المجد والقوة بل وأعظمها وأقواها وإن في محاولة إهمال ذلك أو التهوين منه أو تجاهله جحوداً منكراً لتلك الآثار والأمجاد ، وتعطيلاً أليماً لهذه الحوافز .

وثانياً : إن الإسلام الذي يمثل القرآن والسنة لم يهمل ناحية التنوير بالعرب ومركزهم وشأنهم في الكيان الإسلامي العام . ولقد انطوى في القرآن والسنة تلقين قوي يحق البروز والشأنية لهم في هذا الكيان ، وحملهم مهمة هداية البشر وترقيتهم ، وإقامة بنيان الإنسانية على أقوى الأسس وأعدلها وأفضلها ، ونبها على عظيم مسؤوليتهم عن هذه المهمة ، وجعل الصلة لائحة بين ذل العرب وذله ، وعزة العرب وعزته ، على ما جاء في نصوص عديدة منها ما فيه التنبيه على ما في الرسالة المحمدية من علو ذكر لقوم النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما فيه تقرير غدو العرب بالإسلام الذي كانوا أول المعتنقين له عدولاً شهداء على غيرهم ، ومنها ما فيه الإشارة إلى اصطفاء العرب للمهمة العظمى وتقرير شأنهم العظيم في الكيان الإسلامي ، ومنها ما فيه تقرير كون جبههم من الإيمان ، وبغضهم كفر ونفاق ، فليس من تعارض والحالة هذه بين تعاليم القرآن والسنة ، وبين الطموح

إلى الأمجاد القومية العربية ، والعزة القومية العربية ، والوحدة القومية العربية ، بل وإنه ليصح أن يقال : إن هذا من مقتضى تلك التعاليم لأن في قوة العرب ومجدهم وعزتهم ووحدتهم قوة للإسلام ومجده وعزته ووحدته . يضاف إلى هذا أمر خلود اللغة العربية وتقديسها على اعتبارها لغة القرآن ، ولغة العبادات الإسلامية التي يجب على كل مسلم أن يفقهها ويقدها . وما في هذا من الوسيلة إلى نشر النفوذ العربي ، وسيادة اللغة العربية ، وخفقان رايات العرب الأدبية والروحية والثقافية بل والسياسية في مختلف أنحاء الأرض مما تبذل الدول الكبرى في سبيله طائل الأموال وعظيم الجهود دون أن تناله كما تشتتهي في حين أن القرآن قد أوجبه كواجب ديني وجداني يندفع فيه المسلم اندفاعاً دينياً وجدانياً .

وقد أثبتت وقائع التاريخ أن العرب في صدر الإسلام قد فهموا هذا فهماً صحيحاً ، وطبقوه على الوجه الذي فهموه ، ولم يروا بينه وبين تعاليم الإسلام في مصدريها الرئيسيين القرآن والسنة أي تناقض وأثبتت كذلك أن ما كان من استعلاء غير العرب على العرب إنما كان لعوامل سياسية أخرى لم تعد خافية ، ولا تمت بسبب إلى تعاليم الإسلام ولا يصح القول إنها نتيجة لها .

وثالثاً : إن الخوف من عودة التاريخ واستغلال المسلمين غير العرب للمساواة الإسلامية للتغلب على العرب كرة أخرى قد أصبح اليوم منتفياً ، ولم يبق منه إلا ذكرى التاريخ . ولقد كان ذلك كنتيجة لظهور الإسلام واستعلائه وزحف العرب وفتوحاتهم في مشارق الأرض ومغاربها حيث قام بالضرورة سلطان عام ، وسياسة عامة ، وكيان سياسي عام ، وكان ما كان من تناحر على السلطان والسيادة في هذا الكيان ، واستعانة بعض العناصر العربية الطامحة إلى السلطان والحكم بالعناصر المسلمة غير العربية مما فسح المجال لهذه العناصر بالتدخل ثم بالتغلب . والظروف الراهنة للعرب وغير العرب تجعل تكرر ما وقع غير محتمل البتة . وهذا شيء ، واحتمال قيام تضامن وثيق سياسي واقتصادي وثقافي بين الدول الإسلامية العربية وغير العربية شيء آخر ، وفيه إذا تحقق من الخير العميم للعرب ما يوجب عليهم أن يبذلوا الجهد في سبيل تحقيقه . ومثل هذا مما تبذل الشعوب المتقاربة بل وغير المتقاربة جهداً عظيماً في سبيل تحقيقه ، وتحقيقه بين الدول الإسلامية أكثر إمكاناً بفضل ما قرره القرآن ووطده

من الأخوة بين المؤمنين ، وما يعكسه ذلك من آثار إيجابية تظهر قوية في كل موقف وظرف ، ويدعمها حب وتقديس من غير العرب للعرب ، وإذا سر الله للعرب وحدتهم السياسية - التي هي في الحقيقة وحدة إسلامية ، لأن أكثرية العرب السابقة مسلمة - وهو مطعمهم الذي هو في نطاق الإمكان فيكونون في نطاق ذلك الاحتمال أصحاب الشأن الأعظم والأقوى . وحتى الوحدة الإسلامية التي يريد البعض أن تكون الدعوة إليها دون الوحدة العربية لا يمكن أن تكون الدعوة إليها صحيحة ومجدية قبل أن تقوم الوحدة العربية .

ورابعاً : إن التنديد أو التحذير الذي ورد ضد الدعوة إلى العصبية مفهوم من حيث النص فهماً خاطئاً ، والحديث الوارد في هذا الصدد رواه أبو داود ، عن جبير بن مطعم قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية . » وروى أبو داود ، عن «ثلاثة بن الأسقع قال : قلت يا رسول الله ما العصبية ؟ قال : «أن تعين قومك على الظلم» ويظهر أن وثلاثة كان يسمع الحديث الذي وجه إلى جبير فسأل سؤاله وأخذ الجواب . هذا من حيث النص ومن حيث المدى الاجتماعي ، فإن التحذير قد يكون وارداً صحيحاً ضد الدعوة إلى العصبية القبلية التي كانت تقاليد العرب قائمة عليها ، والتي كانت تعتبر أساساً للوحدة الاجتماعية عندهم ، وحائلة دون تكتل العرب ووحدهم القومية العامة بحيث يكون بذلك هادفاً إلى إضعاف هذه العصبية الضيقة وإقامة الوحدة القومية والأخوة القومية العامة مقامها في صدد تكوين الأمة وبناء كيانها العام كما هو معلوم لكل من درس أحوال العرب وتقاليدهم الاجتماعية وسير الدعوة النبوية والسيرة النبوية ، وهو من نوع ما يقوم الآن ، ويشجبه القوميون العرب من الدعوة أو النعرة الإقليمية ، وقد كان هذا التنديد والتحذير قبل انتشار الإسلام إلى خارج جزيرة العرب وإلى أمم غير عربية ، وفي ظرف انحصار الدعوة في العرب وجزيرتهم ، وفي هذا كما هو المتبادر دعامة حاسمة لما نقرره .

والدعوة العربية القومية التي يساق التحذير الذي فهم فهماً خاطئاً كما شرحنا في صدها هي في حقيقتها دعوة إلى القضاء على النعرات الإقليمية والتفرقة وإلى ازدهار عربي ، وتكامل عربي ، وكرامة عربية وقوة عربية ونهضة عربية ووحدة عربية تشمل جميع أرجاء الوطن العربي

من الخليج إلى المحيط . وكل هذا متفق مع مبادئ الدعوة الإسلامية وتعاليمها وأهدافها ، وحينما يلحظ أن أكثرية العرب الساحقة في هذا الوطن الشاسع هي مسلمة يظهر للملاحظ تلقائياً أن محصل تلك الدعوة عائد في حقيقته إلى المسلمين والمهم في الأمر هو أن لا تكون الدعوة القومية العربية في أي حال وتصور وموقف منعزلة أو مجردة عن السمة الإسلامية والتحقق بها ، وهي السمة التي لم يكن للقومية العربية شأنها العظيم ، ولن يكون لها شأنها العظيم إلا بها ، والتي لولاها لما كانت الأمة العربية اليوم أمة واحدة تملأ أرجاء الوطن العربي الكبير من الخليج إلى المحيط ، ويستطيع أبناؤها أن يدعوا أن لها رسالة إنسانية خالدة . ونعتقد أن سواد العرب الأعظم لن يكون لهم موقف مجرد أو منعزل عن هذه السمة ، وأن هذه السمة راسخة في ضمائرهم وعقولهم وقلوبهم رسوخاً شديداً لن يؤثر عليه أية محاولة .

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى التجربة التركية ، فقد جهد مصطفى كمال وخلفاؤه لتغيير سمة الأتراك الإسلامية ، وجاء وقت ظن الناس أن الجهد قد نجح ، غير أنهم مالبثوا أن رأوا أن ظنتهم خاطئة ، وأن السمة الإسلامية عادت إلى البروز واللمعان ، لأن جذورها قوية في ضمائر الأتراك ، وقلوبهم وعقولهم وتقاليدهم ، ومثل هذا يقال بتعامه بالنسبة للأمم الإسلامية التي تعيش في كنف الاتحاد السوفياتي الشيوعي والصين الشيوعية ، والتلازم بين العروبة والإسلام أشد رسوخاً وأشد قوة وطبيعية من التلازم بين الإسلام والأمم غير العربية .

وقد يقول بعض المتزمتين رغم الخطأ الذي شرحناه في فهم التحضير ، ورغم التلازم القائم المستمرين الدعوة العربية والسمة الإسلامية : إنه وقد صارت هذه السمة هي سمة العرب فيجب الاكتفاء بها دون الدعوة العربية ، والسمة العربية .

ونعتقد أن في هذا خطأ ومغالطة أيضاً ، فإن سمة الإسلام قد صارت فعلاً سمة العرب ومن الواجب أن تبقى سمة لهم وهي فعلاً سمتهم ، وستبقى كذلك إلى ما شاء الله ، ولكن ذلك لا يعني ولا يمكن أن يعني أن الذاتية العربية قد زالت ، أو يجب أن تزول ، أو يمكن أن تزول بها . فهي مستمدة من واقع ذاتي قائم لايجوز المكابرة فيه ، وهو تميز الأمة العربية

في اللغة والمواطن والخصائص ، وهذا هو شأن كل الأمم التي تدين بالإسلام ، وكما أنه لا يعقل ولا يصح في حال أن يكتفى بتسمية هذه الأمم بالأمم الإسلامية دون أبوه لذاتيتها المتميزة بلغاتها وخصائصها ومواطنها ، ودون ملاحظة ذلك في تسميتها القومية وتعريفها وفي ما تنشط في سبيله من ازدهار وتكامل في شتى الميادين ، فإنه لا يعقل أن يكتفى بتسمية الأمة العربية بالمسلمين دون أبوه لذاتيتها المتميزة بلغتها وخصائصها ومواطنها ، ودون ملاحظة ذلك في تسميتها القومية ، وفي ما تنشط في سبيله من ازدهار وتكامل في شتى الميادين ، وهذا أمر يدهي إلى درجة أن المكابرة فيه تبدو غريبة جداً . إلا في حالة واحدة هي أن تكون السمة العربية مجردة عن السمة الإسلامية وهو ما نبهنا على رفضه وعدم احتمالها ، وعلى كون العروبة والإسلام سيظلان متلازمين ، ولا يمكن فك أحدهما عن الآخر ، والتنويه القرآني بقوم النبي صلى الله عليه وسلم واصطفائهم ومسؤوليتهم ينطوي فيه إقرار بالوجود العربي القومي في نطاق الإسلام ، وهذا الإقرار قائم في حديثين نبويين أيضاً جاء في أحدهما : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » ، وجاء في ثانيهما : « من أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم » .

وخامساً : إن تعاليم القرآن والسنة لا تحتوي أي مانع من اعتبار غير المسلمين من العرب المسلمين المتضامنين مع مسلميهم إخواناً لمسلميهم في القومية ، ومن التعامل معهم على هذا الاعتبار في نطاق الدولة والكيان الاجتماعي معاً ، وهذه التعاليم أبعد ما تكون عن إثارة أي بغضاء أو عدااء لغير المسلمين المسلمين عامة ، بل إنها تحث صراحة على البر بهم ، والإقساط إليهم ، وحسن التعايش والتعامل معهم ، وهناك نصوص قرآنية ونبوية في ذلك ، ومما لا ريب فيه أن لغير المسلمين من العرب المندمجين بإخوانهم اندماجاً قومياً والمتضامنين معهم في السراء والضراء والمصالح والمطامح الأولوية في هذا الحث ، هذا إلى أن الفخر بالإسلام ونبي الإسلام العربي وقرآن الإسلام العربي فخر عام للعرب مسلميهم ومسيحييهم ، ولا نعتقد أن هناك عاقلاً لبيباً من هؤلاء لا يعتز به ولا يندمج فيه .

ولقد فهم المسلمون الأولون الأمر على حقيقته المشروحة ، فكان المسلمون الوادون من غير المسلمين يعيشون معهم على وفاق تام ،

ويشتركون معهم في شؤون الدولة ووظائفها ، وما يمكن ان يكون شذوذ عن هذا المدى ، إنما كان لأسباب أخرى منها تحريك الدول الاستعمارية الطامعة ببلاد العرب والتي طردها الإسلام من هذه البلاد ، وتظل تطمح بالعودة إليها بإحداث البلبلة والفتنة والوساوس والدسائس .

واتسام الحكومات العربية بسمة الإسلام هو نتيجة لكون أكثرية رعاياها الساحقة مسلمين . وليس من شأن هذه السمة ولا من شأن ذكر بعض الدول العربية في دساتيرها ان دينها الإسلام او ان دين رئيسها الإسلام ان يحجب ما لغير المسلمين وبخاصة العرب منهم ما لهم فيها من مركز وحقوق . بل من شأن ذلك أن يشبثها لأن هذا المركز والحقوق مما نصت عليه وأكدت تلك المصادر .

والحمد لله رب العالمين



الفهرس

الصفحة

٣ - مقدمة الكتاب

١٥ - ٧٦ **الفصل الأول :** ليس الملحدون أول المتصددين والمتهجمين .
في هذا الفصل صور قرآنية متنوعة لمواقف الجاحدين لله ، ووحدانيته ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والوحي القرآني ، وأهداف الرسالة الإسلامية ، والحياة الأخروية ، وأسبابها وتطورها ! وردود مفحمة قارعة في نصوص نافذة إلى أعماق القلوب والعقول ، ويتمثل فيها قوة وعظمة الصمود القرآني والنبوي وانتصارهما ، واستطراد إلى إنكار الملحدين لوجود الله ، ونبوة الأنبياء والرد عليهم .

٧٧ - ١٠٥ **الفصل الثاني :** أثر الدعوة النبوية الإيجابي الواسع الشامل لكل الفئات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومدى شهود العيان وشهاداتهم لأعلام النبوة .

١٠٦ **الفصل الثالث :** النظرة الاعتباطية والجزافية إلى القرآن الكريم ، والعواصم من ذلك ، وفي هذا الفصل المباحث التالية وما يتبادر للمؤلف من وجه الحق فيها ، وما يلحق في النصوص القرآنية من أهداف وحكم (١) .

١٠٧ ١ - القرآن والسيرة النبوية

(١) في هذا الفصل رد على كثير من تعسفات صادق العظم ، وسوء تأويله في كتابه (نقد الفكر الديني) وهو يمثل في ذلك الملحدين عامة بطبيعة الحال .

الصفحة

١١٤	٢ - القرآن والبيئة النبوية
١٢٠	٣ - القرآن واللغة العربية
١٢٩	٤ - الأسس والوسائل أو المحكمات والمتشابهات في القرآن كضابطين قرآنيين لفهم النصوص القرآنية والوقوف عندها .
١٤٧	٥ - القصص القرآنية ، ومن جملتها قصة آدم وإبليس التي شغلت حيزاً كبيراً في كتاب صادق العظم وتمحلاته .
١٩٣	٦ - الملائكة في القرآن
٢٠٣	٧ - الجن في القرآن
٢١١	٨ - نواميس الكون ومشاهده في القرآن
٢٢٠	٩ - الحياة الآخروية في القرآن ، وبحث في حقيقتها الإيمانية ومداها وأثرها في حياة المسلم وغير المسلم
٢٤٠	١٠ - صفات الله عزّ وجلّ وأفعاله وأسماءه في القرآن
٢٤٨	١١ - نصوص قرآنية في صدد المسائل المتنوعة التالية تثير الوهم ، وما يتبادر للمؤلف من وجه الحق والحكمة فيها ، وقد أثار كثيراً منها صادق العظم في كتابه وتعسف في فهمها وتأويلها .
٢٥٠	١ - مسألة الهداية والضلال .
٢٥٥	٢ - مسألة خلق الله لأفعال عباده ، وخلق العباد لأفعالهم .
٢٦٤	٣ - مسألة القدر
٢٧٠	٤ - الآيات التي فيها إرادة الله لهلاك الناس ، ومكره بهم وكيدهم ، وخداعه لهم واستهزأؤه بهم ، وإغلاقه لقلوبهم وأسماعهم وإبصارهم ، وتسليطه الشياطين عليهم ،

وترتيبه لأعمالهم وإملائه واستدراجه لهم ، وجعله الشياطين من الإنس والجن والمجرمين أعداء لأنبيائه ، وجعله في القرى أكابر مجرمين ، وحكاماً فاسقين .

- ٢٩١ - ٥ - مدى نصوص القرآن في صدد العلم والمعرفة .
 ٢٩٥ - ٦ - مدى آية (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم)
 ٢٩٦ - ٧ - مدى آية (وقاتلوا المشركين كافة)
 ٢٩٧ - ٨ - عموم وخصوص الرسالة المحمدية في النصوص القرآنية
 ٣٠٠ - ٩ - مدى آية (ما فرطنا في الكتاب من شيء)
 ٣٠ - ١٠ - النصوص التي تنعى على الحياة الدنيا .
 ٣٠٦ - ١١ - روايات أسباب النزول
 ٣١٠ - ١٢ - روايات الآيات المكية في السور المدنية والعكس
 ٣١٧ - ١٣ - مباحث قرآنية أخرى مختلف فيها ، ووجه الحق المتبادر منها وهي :

- ٣١٨ - ١ - تدوين القرآن وجمعه وترتيبه
 ٣٢٧ - ٢ - أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف
 ٣٣٤ - ٣ - القراءات القرآنية .
 ٣٣٧ - ٤ - النسخ والتبديل والتعديل في القرآن .
 ٣٤٨ - **الفصل الرابع :** وجهاً لوجه مع المحكمات القرآنية :
 في هذا الفصل عرض هام لتقارير المحكمات القرآنية لأهداف ومبادئ ومنطويات الرسالة الإسلامية ثم تفصيل لهذه التقارير لمختلف الشؤون على النحو التالي مع تنبيه الى مقام المحدثين للمحكمات القرآنية وإلى انتباه كثير من علماء الغرب وعقلائهم وتأثرهم بها .

- ٣٥٣ - ١ - مدى الإيمان بالله
 ٣٥٤ - ٢ - مدى الإيمان بأنبياء الله
 ٣٥٤ - ٣ - مدى ركن الصلاة والتطهر والتجمل لها

الصفحة	
٣٥٦	٤ - مدى ركن الزكاة وما في نظام الدولة المالي من التزام بمساعدة الفئات العاجزة والمحتاجة
٣٥٨	٥ - مدى ركن الصيام
٣٥٨	٦ - مدى ركن الحج
٣٥٩	٧ - مدى الإيمان بالحياة الآخرة
٣٦٠	٨ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة بالنسبة لحياة الإنسان في الدنيا
٣٦٢	٩ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في صدد نظام الدولة الأساسي ، وبنیان الدولة وواجباتها وحقوقها وواجبات وحقوق المسلمين في نطاقها وموقف الدولة من غير المسلمين .
٣٧٣	١٠ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في صدد العدل والقضاء والجرائم المتنوعة .
٣٧٧	١١ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في صدد الجهاد والحروب .
٣٨٤	١٢ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في صدد الدعوة إلى سبيل الله والتبشير بالاسلام
٣٨٩	١٣ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في الشؤون الاجتماعية
٣٩٥	١٤ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في صدد علاقة الناس ببعضهم وحياتهم ومساواتهم .
٣٩٨	١٥ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في صدد الحياة الزوجية والمواريث .
٤٠٣	١٦ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في صدد توطيد أواصر الأسرة والآداب السلوكية .
٤٠٦	١٧ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في صدد الأخلاق والتربية الشخصية .
٤١٢	١٨ - تقارير القرآن وتلقياته المحكمة في صدد إصلاح المسلم ومعالجته أخلاقياً وروحياً .
٤١٥	تعقيب وهتاف وتوضيح